د. جوست إبراهام ماوريتز ميرلو

اغتصاب العقل

سيكولوجيا التحكم في الفكر، وتشويه العقل، وغسل الدماغ

ترجمة

أدهم وهيب مطر



د. جوست إبراهام ماوريتز ميرلو

اغتصاب العقل

ترجمة
أدهم وهيب مطر



يحاول هذا الكتاب تصوير التحول الغريب للعقل البشري الحر إلى آلة استجابة أوتوماتيكية - وهو تحول يمكن تحقيقه من خلال بعض الثورات الثقافية في مجتمعنا الحالي، وكذلك من خلال التجارب المتعمدة، وسواء كانت من أجل تحقيق خدمة سياسية، أو أيديولوجية على حد سواء.

ولذلك، فإن اغتصاب العقل، والقهر العقلي الخفي، يُعتبران من بين أقدم الجرائم البشرية.

بل ولربما تعود بداياتها إلى أيام ما قبل التاريخ، وذلك عندما اكتشف الإنسان، ولأول مرة، من أنه يستطيع استغلال الصفات الإنسانية، من أجل التعاطف والتفاهم، ومن أجل ممارسة السلطة على بقية إخوانه من البشر.

كما ويعتبر الدكتور "ميرلو" رجلا استثنائيا وصاحب الإنجازات البارزة. ومؤلفاً لثلاثة وأربعين كتاباً وأكثر من ألف مقال وبحث ودراسة نفسية، ولذلك فقد فاز بسمعة عالمية كمحارب شرس من أبطال معالجي آثار الحروب النفسية، وخاصةً في أبحاثه الدقيقة حول تقنيات غسيل الدماغ التي تم استكشافها في مسكرات الاعتقال والتعذيب.

فمنذ أوائل الثلاثينيات، أثارت اهتماماته واسعة النطاق أثراً في الكتابات حول نفسية مدمني المخدرات، والعلاقة بين السرطان والأمراض العاطفية، والظواهر الزمنية، ومشاكل الموت والشيخوخة، ورسم الفن والرقص، والتواصل بين الأشخاص، وعلم التخاطر وعلم النفس ومجموعة من المواضيع الأخرى.

والتي جميعها تحمل طابعا واسعا من المعرفة، ولكن مؤلف تلك الأعمال ظل في المقام الأول عالماً نفسيا محترما.

المترجم


ISBN 978-9933-597-86-3

تموز ديموزي للطباعة والنشر والتوزيع
دمشق/ جوال: 00963944628570
Email: akramaleshi@gmail.com

اغتصاب العقل

سيكولوجيا التحكم في الفكر، وتشويه العقل، وغسل الدماغ

الكتاب: اغتصاب العقل
سيكولوجيا التحكم في الفكر، وتشويه العقل، وغسل الدماغ
تأليف: د.جوست إبراهام ماوريتز ميرلو
ترجمة: أدهم وهيب مطر
الطبعة الأولى: ٢٠١٨



طباعة . نشر . توزيع
دمشق/ جوال: ٠٩٤٤٦٢٨٥٧٠- ٠٠٩٦٣
Email: akramaleshi@gmail.com

د. جوست إبراهام ماوريتز ميرلو

اغتصاب العقل

سيكولوجيا التحكم في الفكر، وتشويه العقل، وغسل الدماغ

ترجمة

أدهم وهيب مطر

العنوان الأصلي للكتاب

THE RAPE OF THE MIND
The Psychology of Thought Control, Menticide, and Brainwashing

Written by
Joost Abraham Maurits MeerlooTranslated by
Adham. W. Matar

ملاحظة المترجم:

إن كل ما ورد في هذا الكتاب

إنما يعبر عن أفكار المؤلف، وقد تمت الترجمة بحياد.

جدول المحتويات

الفصل التاسع

الجزء الثالث

الفصل العاشر

الفصل الحادي عشر

الفصل الثاني

الفصل الثالث عشر

الفصل الرابع عشر

الجزء الرابع

الفصل الخامس عشر

الفصل السادس عشر

الفصل السابع عشر

الفصل الثامن عشر

نظرة عامة على المحتويات

الانسحاب المشترك من الواقع. التراجع إلى الأتمتة. دولة الرحم.

الفصل السابع: التفسير بواسطة التفكير التوليتاري.

استراتيجية الارهاب. طقوس التطهير. التهمة القاسية والسحر الأسود. هوس الجاسوسية. استراتيجية التجريم. الدلالات اللفظية ، والضبابية الدلالية-أخذ الناس إلى الخضوع. فقدان الإرادة. إفساد المعنى. جريمة الردة في التوتاليتاريا.

الفصل الثامن: المحاكمة بالمحاكمة

سقوط العدالة. الديماغوجي كمدعي عام ومنظّم. المحاكمة كأداة للترهيب. مجالس التحقيق. الشاهد وشهادته الذاتية. الحق في التزام الصمت. الابتزاز العقلي. القاضي وهيئة المحلفين. الاستجواب المتلفز. السعي للانفصال.

الفصل التاسع: الخوف كأداة للترهيب

الخوف من العيش. النزوات حول الخطر. الخوف المتناقض. الارتداد. التنكّر ، التمويه والتماهي ، والخداع. الذعر المتفجّر. انهيار وظائف أعضاء الجسم.

الجزء الثالث

الشفقة غير المزعجة

الفصل العاشر: الطفل هو أبو الانسان.

كيف يمكن تطور بعض الاستبداديين. الحضانة المقولبة. الأب يقطع الحبل.

الفصل الحادي عشر: العدوى العقلية والخداع الشامل.

التأكيد على أخطائي. مراحل التفكير والوهم. فقدان الواقع القابل للتحقق. الوهم الشامل. خطر العدوى العقلية. وهم التفسير. التحرر من التفكير السحري.

الفصل الثاني عشر: التكنولوجيا تغزو عقولنا

القهر الزاحف بالتكنولوجيا. تناقض التكنولوجيا.

الفصل الثالث عشر: الأدوار حسب العقل الاداري العقل الإداري. أمراض هؤلاء في المناصب العامة. مؤتمر العقول اللاواعية. العقل البيروقراطي.

الفصل الرابع عشر: الردّة في نفوسنا. التأثير السلبي لمشكلة الخيانة والولاء.

الخائن اللاإرادي. مفهوم الخيانة. الخائن الذي يأخذ الخيار عن وعي للجانب الآخر. عقلنا الغادر، خيانة الذات. تطور الولاء. في مدح عدم المطابقة. إصرار الولاء.

الجزء الرابع

في البحث عن الدفاع

الفصل الخامس عشر: التدريب ضد التعذيب العقلي

رمز الولايات المتحدة الأمريكية لمقاومة غسيل المخ. التلقين ضد التلقين؟ تقرير الطب النفسي عن غسل وتشويه العقل.

الفصل السادس عشر: التربية من أجل الانضباط، أو المعنويات العليا

دور التعليم، المعنويات والانضباط، الانضباط وغسل الأدمغة، نوعية المجموعة وتأثير القائد، نقطة الانهيار وقدرتنا على الإحباط

الفصل السابع عشر: الشجاعة بين القديم والحديث.

من يقاوم لفترة أطول ولماذا؟ أسطورة الشجاعة. فكرة رفع الروح المعنوية. الشجاعة الجديدة.

الفصل الثامن عشر: الحرية. عمود فقرنا العقلي.

دمقرطة عمل علم النفس. المعركة على جبهتين. تناقضات الحرية. العصر المستقبلي لعلم النفس.

سيرة المؤلف الشخصية

تمهيد

منذ عام١٩٣٣ وعندما لم يكن قد تبقى أحد ممّن كانوا من ضمن حطام المجتمع البشري ، كامل التخدير ، والمدجج بالمحاكمات ، وبعد أن كانت قد اندلعت شرارة نيران الحرائق ، ودمار نظام الرايخستاغ Reichstag الألماني النازي في مدينة "برلين" العاصمة ، قام الدكتور "جوست أ.م ميرلو Joost A. M. Meerloo" وعلى مدى سنوات ، بدراسة الطرق التي يؤدي بها الضغط العقلي المنتظم ، إلى جلب الناس إلى حالة الخضوع المفرط ، وإلى مدى سيطرة "الاستبداديين" على تفكير العقل البشري الخاضع لتلك السيطرة ، وعمق تأثير بصمات الاستبداديين الذاتية ، وفرضها على توجيه حقيقة عمل عقول ضحاياهم.

كان موقف ، ونتائج الدكتور"ميرلو" تشير إلى أنه ، ومن خلال الضغط المحدد ، والمركّز ، على نقاط الضعف في بنية عقل الإنسان ، فإنه يمكن للطرق الاستبدادية ، في أن تحوّل أي شخص كان ، إلى مجرد تابع"خائن".

وهكذا ، يذهب الدكتور"جوست أ.م ميرلو Joost A.M.Meerloo في كتابه "اغتصاب العقل" إلى أبعد من الآثار العسكرية المباشرة للتعذيب النفسي ، ليصف كيف تظهر الثقافة والسياسة الاستبدادية ، وبشكل غير ملحوظ ، أعراض الضغط على عقول الناس.

كما ويقدم تحليلاً منهجياً لأساليب غسل الدماغ ، والتعذيب ، والإكراه ، العقليين ، ويُظهر كيف أن الاستراتيجية الاستبدادية الشمولية ، ومع استخدام علم النفس الجماعي ، تؤدي إلى "اغتصاب العقل" المنظم.

كما ويصف عقلية تفكير ، وممارسة الاستبداد في العصر الجديد للحرب الباردة ، وفي الرعب الناتج ، والضباب الدلالي ، واستخدام الخوف ، كأداة شاملة ، ومشكلة الخيانة والولاء ، والمحملة بحالات الارتباك الخطيرة.

تنويه المؤلف

في هذا الكتاب ، سننتقل من الموضوع المحدد للإكراه العقلي المخطط ، والمتعمد على السؤال الأعمّ عن التأثيرات في العالم الحديث ، وحيث أصبح يميل الإنسان فيه ليكون أشبه بالإنسان الآلي. في حين أن الفصول الأخيرة من الكتاب سوف تكون مكرسة لمشكلة العمود الفقري العقلي الداخلي ، وذلك كخطوة أولى في اتجاه التعلم للحفاظ على حريتنا العقلية.

لقد كتب أحد المؤلفين الهولنديين العظماء "مولتاتولي Multatuli" رسالة إلى صديقه ، ولكنه أنّب نفسه لأن الرسالة كانت طويلة:

لم يكن لدي الوقت الكافي لكتابة حقيقة أنني كنت غارقا في المصطلحات النفسية لدرجة أنني لا أستطيع أن أتخلى تماماً عن اللغة النفسية. كما أن الاختبار الحقيقي للوضوح النفسي ، هو الطريقة التي يعي من خلالها المواطن العادي ، ويفهم الأفكار التي يتم توصيلها.

ولذلك ، فقد كان هدفي الأساسي هو الكتابة للعامة ، وليس للترويج ، بل لإضفاء بعض النظام على الفوضى في عصرنا الحديث.

لا شك في أن كل كلمة يتحدث بها انسان ما ، تُعتبر كسرقة أدبية من نوع ما. ولكن مهمة المؤلف هي الاستيعاب ، والدمج ، وتحويل المعرفة ، والتيارات العاطفية لحقبة خاصة به ، ومن ثم تقديمها بطريقته الخاصة ، والمخصبة من خلال تجاربه الخاصة ، ولذلك ، فإنني ممتن ، في الواقع ، لكل الذين تمكنت من الاقتراض من أفكارهم ، ولا سيما أولئك الذين ألهموني بكتابة أفكاري حول هذا الموضوع المثير للجدل.

المؤلف

مقدمة

"... ولا تخافوا من قتل الجسد لكنهم لم يقدروا ان يقتلوا الروح بل اخافوه القادر على تدمير النفس والجسد في الجحيم".

إنجيل متّى٢٨: ١٠

يحاول هذا الكتاب تصوير التحول الغريب للعقل البشري الحر إلى آلة استجابة أوتوماتيكية–وهو تحول يمكن تحقيقه من خلال بعض الثورات الثقافية في مجتمعنا الحالي ، وكذلك من خلال التجارب المتعمدة ، وسواء كانت من أجل تحقيق خدمة سياسية ، أو أيديولوجية على حد سواء.

ولذلك ، فإن اغتصاب العقل ، والقهر العقلي الخفي ، يُعتبران من بين أقدم الجرائم البشرية.

بل ولربما تعود بداياتها إلى أيام ما قبل التاريخ ، وذلك عندما اكتشف الإنسان ، ولأول مرة ، من أنه يستطيع استغلال الصفات الإنسانية ، من أجل التعاطف والتفاهم ، ومن أجل ممارسة السلطة على بقية إخوانه من البشر.

أما مشتق كلمة"اغتصاب" في اللغة اللاتينية الأصلية فيعود إلى كلمة" rapere" والتي تعني "الخطف– الاختطاف" ولكنها تعني أيضا في بعض الاشتقاقات"الهذيان" و"النهب" وإلى "الغراب الأسود" أيضا.

كما أنها يمكن أن تعني "الغزو" أو الاغتصاب أو السرقة والسلب.

كما أن الكلمات الحديثة غسل الأدمغة ، والتحكم في الفكر ، وتشويه العقل العمد تعمل على توفير تصور أوضح للطرق الفعلية التي يمكن بها انتهاك سلامة الإنسان.

وهكذا ، فعندما يُعطى مفهوم ما ، اسمه الصحيح ، فسيكون من الممكن عند ذاك ، التعرف عليه بسهولة أكبر. ولكن هذا الاعتراف يبقى مع ذلك هو أن الفرصة للتصحيح المنهجي قد تصبح مفتوحة ، وأكثر قابلية ، ومرونة.

كما وسيجد القارئ في هذا الكتاب أيضا مناقشات مهمة حول بعض المخاطر الوشيكة ، والتي تهدد التفاعل الثقافي الحر. ويؤكد على الآثار الثقافية الهائلة لموضوع الاقتحام العقلي القسري.

ولذلك ، فإن التقنيات المصطنعة للإكراه ليست مهمة فقط ، بل أن ما يثير أكثر هو التدخل ، غير المزعج ، في شعورنا وتفكيرنا.

وهكذا ، يمكن مقارنة خطر تدمير الروح ، بخطر الدمار المادي الكلي ، من خلال الحرب النووية على سبيل المثال.

وفي الواقع ، فإن الأمرين مرتبطان ، بل ومتشابكان مع بعضهما البعض.

كما وسيستند أسلوبي في هذا الموضوع ، إلى الاعتقاد بأنه ، ومن خلال النظر إلى أي مشكلة من عدة زوايا فقط ، فإنه سيكون بمقدورنا الوصول إلى جوهرها.

ووفقاً لمبدأ التكامل لدى العالم"بوهر" فإنه يمكن النظر إلى الظواهر البسيطة في الفيزياء ، ومن وجهات نظر متنوعة. كما أن هناك حاجة لمفاهيم مختلفة ، ومتباينة على ما يبدو ، لوصف الظواهر الفيزيائية.

فعلى سبيل المثال ، ومن أجل تفسير سلوك الإلكترونات ، فإن مفهوم الجسيم ، ومفهوم الموجة ، سيكون من المفاهيم المفيدة. وينطبق الأمر نفسه على التفاعلات النفسية ، والاجتماعية الأكثر تعقيداً.

وهكذا ، لا يمكننا النظر إلى غسل العقول من مجرد وجهة نظر"بافلوفية" بسيطة.

كما ويحاول هذا الكتاب القيام بذلك أيضا ، ومن وجهة النظر الوصفية الإكلينيكية ، ومن المفهوم"الفرويدي" لعلم النفس. وسيحاول أن ينظر إلى غسل

العقول من وجهة النظر القائلة بأن الإكراه العقلي العام قد ينتمي إلى كل تفاعل بشري.

ولذلك ، يمكن تقريباً مقارنة أي نوع من أنواع التواصل ، مع محاولة هدم صف من الدمى في لعبة الرمي.

وكلما زادت الكرات التي نرميها ، كلما زاد احتمال أن نصل إلى إسقاط جميع الدمى الأخرى.

وبالتالي ، فكلما زادت المناهج التي نتخذها لأي مشكلة كانت ، كلما كان لدينا فرصة أكبر في العثور على جوهرها الأساسي ، واستيعابه.

ولكن مثل هذه المعاملة المفصلة ستكون مستحيلة ، من دون بعض التكرار في النص.

مقال حول المؤلف الدكتور "جوست ميرلو Dr. Joost Meerloo " في صحيفة "نيويورك تايمز The New York Times ":

يُعتبر الدكتور ميرلو من كبار المتحدثين المتحمّسين لممارسة الحياة الديموقراطية كهدف إنساني عام ، وليس فقط كجهاز للتغلب على الشمولية والاستبداد بشتى أنواعه.

ولذلك ، فإنه ينبغي على كل فكر ، ومفكر أميركي ، أن يخصص بعضا من الوقت الذاتي- ووقت تنمية الذات-وقراءة هذا الكتاب.

يظهر الدكتور ميرلو في شخصه ، ما يمكن أن يقوم به التحليل النفسي عندما يتم الجمع ، وبحرية ، أسس معرفة العلوم الاجتماعية. وهذا ما يجعله عالما ، وباحثا متطوّر الرؤى ، وبشكل ملحوظ.

وهو في الواقع ، أحد المتحدثين العظماء في العالم الديمقراطي ، ويجب أن يعرفه الجميع.

ولذلك ، تعتبر كافة أعمال الدكتور جوست ميرلو وعلى الأخص الكتاب الأكثر شهرة اغتصاب العقل موجهة للإنسان العادي المهتم ، وليس فقط للخبراء

والعلماء المتخصصين.

كان الدكتور ميرلو قد أمضى أول عامين ونصف عام من الحرب العالمية الثانية ، تحت الضغوط الشديدة في هولندا التي كانت المحتلة من قبل النازيين الألمان ، وقد شاهد على الفور ، الأساليب النازية للتعذيب النفسي ، وفي أكثر من مناسبة.

ولكنه ، خلال هذا الوقت ، كان قادرا على استخدام خبراته ، وعلومه في البحث السيكولوجي ، والتحليل النفسي لعلاج بعض الضحايا. ومن ثم ، طور أبحاثه ، ولكنه ، وبعد خضوعه لتجارب شخصية مع الاستجواب القسري النازي ، فقد هرب من السجن النازي ، والموت المحقق ، إلى إنجلترا ، حيث كان قادراً ، كرئيس قسم الأمراض النفسية في القوات الهولندية ، على مراقبة ودراسة الطرق القسرية رسمياً.

وبهذه الصفة ، لم يكن عليه التحقيق مع الخونة والمتعاونين فحسب ، بل أيضا مع أفراد المقاومة ، والذين مروا بأقصى قدر ممكن من الضغط العقلي.

وفي وقت لاحق ، وبصفته المفوض السامي لشؤون الرفاه ، فقد أجرى اتصالا أوثق مع أولئك الذين مروا بتعذيب جسدي ونفسي.

وبعد الحرب ، سافر إلى الولايات المتحدة الأمريكية ، حيث لم تسمح له تجاربه الحربية بالتركيز فقط على ممارسته النفسية ، ولكنها أجبرته على تجاوز الجوانب الطبية البحتة ، والانتقال إلى الأبحاث التي تتناول الجوانب الاجتماعية للمشكلة.

كما تم الكشف عن المزيد والمزيد من حالات السيطرة على الفكر ، وغسيل المخ ، والاكراه العقلي –كما حدث مع الكاردينال"مايزنتي "Mindszenty" والعقيد"شوابل "Schwable" و"روبرت فوغلير "Vogeler" –وغيرهم من الذين ساعدوه على تطوير ابحاثه.

كان الدكتور ميرلو هو الذي صاغ كلمة تشويه العقل وقتل الروح ، فيما

يتعلق لهذه الجريمة الغريبة. حيث تم الاعتراف بكل ما حققته معرفته ، حول تلك الاجراءات الشمولية الاستبدادية ، والتي تم الاعتراف بها رسميا.

كما عمل شاهداً خبيراً في قضية الكولونيل "شفبل Schwable" ضابط سلاح مشاة البحرية ، بعد أشهر من تعرضّه للتعذيب الجسدي والنفسي ، عقب أسره في كوريا ، وقد تم الاعتراف بأنه قد شارك في الحرب الجرثومية.

الجزء الأول

تقنيات التقديم الفردي

الجزء الأول من هذا الكتاب مخصص لمختلف التقنيات المستخدمة لجعل الإنسان ملتزما.

وبالتالي ، وبالإضافة إلى الأحداث السياسية الفعلية ، فإنه سوف يتم استرعاء الانتباه إلى بعض الأفكار المولدة في المختبر ، وإلى تقنيات الأدوية والعقاقير التي تسهل عملية غسيل الدماغ.

كما يتناول الفصل الأخير الآليات النفسية الخفية لتقديم العقلية الفردية.

الفصل الأول

ستؤمن أنت أيضا

إنه لشيء رائع حقا ما يحدث في عالمنا الحديث. فاليوم لم يعد يُعاقب الرجل على الجرائم التي ارتكبها في الواقع. وذلك لأنه قد يضطر الآن ، وفي العصر الحديث ، إلى الاعتراف بالجرائم التي استحضرها له ، قُضاته ، والذين سيحاكمونه ، والذين سيستخدمون اعترافاته لأغراض سياسية.

ولذلك ، لا يكفي لنا أن نعتبر أن الشر يكمن في أولئك الذين يجلسون في سُدّة الحكم.

بل يجب أن نفهم ما الذي يدفع القبول الزائف بالذنب. كما يجب علينا أن نلقي نظرة أخرى على العقل البشري بكل هشاشته وضعفه.

الاعتراف القسري

قام الشيوعيون الصينيون ، خلال الحرب الكورية ، باعتقال ضابط في سلاح مشاة البحرية الأمريكية ، والذي كان يدعى العقيد"فرانك شوابل Frank Schwable".

وبعد شهور من المعاناة ، والضغط النفسي الشديد ، والتدهور الصحي الرهيب الذي أصاب جسده ، فقد اضطر إلى أن يوقع على اعتراف موثق بشكل جيد ، بأن الولايات المتحدة كانت تنوي شن الحرب البكتريولوجية(الجرثومية) ضد العدو.

وقد ذكر الاعتراف بعض الأسماء الأخرى ، والاستشهاد بالبعثات ، بل ووصف اجتماعات ، ومؤتمرات استراتيجية.

وقد استخدمت تلك الاعترافات القسرية ، كأداة دعائية ، وذات قيمة هائلة ، بالنسبة للشموليين.

والذين استخدموا تلك التصريحات لنشرها في جميع أنحاء العالم ، والتي تفيد بأن:

"الولايات المتحدة الأمريكية تحارب شعب الصين المحب للسلام ، وذلك من خلال إلقاء قنابل محملة ببكتيريا ناشرة للأمراض ، وفي انتهاك فاضح للقانون الدولي".

وهكذا ، وبعد إعادته إلى الوطن ، أصدر الكولونيل "شوابل" بيانا محلفا ينفي فيه اعترافاته جملة وتفصيلا ، ويصف حالات التعذيب الرهيبة التي تعرض لها لانتزاع اعترافات قسرية خلال الشهور الذي أمضاها في سجن الأسر.

ولقد مثُل ، لاحقا أمام محكمة تحقيق عسكرية. وشهد في دفاعه أمام تلك المحكمة قائلاً:

"لم أكن مقتنعاً أبداً في ذهني ، بأننا في جناح سلاح الطيران البحري الأول ، قد استخدمنا حرباً للثغرات. فقد كنت أعلم بأننا لم نحقق ذلك ، ولكن بقية ما ذكرته في التحقيق معي حول الموضوع كانت حقيقية بالنسبة لي ، كالمؤتمرات والطائرات ، وكيف ستذهب لتنفيذ مهامها".

وتابع العقيد المحرر إفادته حيث قال:

"كانت الكلمات لي ، ولكن الأفكار كانت لهم. وهذا أصعب ماحدث معي ، ويجب أن أشرح هنا:

كيف يمكن للرجل أن يجلس ، ويكتب شيئاً ما يعرف بأنه خاطئ ، ومع ذلك يستمر ، بل ويشعر بأن ما يكتبه سيجعله يبدو حقيقياً!!".

وقد شرح الدكتور "تشارلز مايو Charles W. Mayo" وهو طبيب أمريكي بارز ، وممثل حكومي ، غسل الأدمغة ، في بيان رسمي أمام الأمم المتحدة ، والذي تطرّق إلى أهم ما في الأمر ، حيث أفاد:

"...إن التعذيب المستخدم.. ورغم أنه يشتمل على العديد من الإصابات الجسدية الوحشية ، مثل التعذيب في العصور الوسطى ، كالصلب ، وغرس المسامير في الأعضاء ، وقلع الأظافر ، وغير ذلك.

ولا شك في أنهم كانوا يستخدمون أساليب أكثر فظاعة ، ولكنهم كانوا يعتزمون لأن يكونوا أكثر فظاعة في تأثيرهم ، حيث اعتمدوا على وسائل تفكيك ذهن الضحية بدهاء ، ولتشويه إحساس الضحية بالقيم ، إلى درجة أنه لن يبكي ببساطة ، ليقول معترفا: نعم لقد فعلت ذلك! "ولكن سوف يصبح شريكا ، ومستعدا ، على ما يبدو ، للتفكك الكامل ، وموالاة من يقوم بغسل دماغه. إنه إنتاج خيال متقن."

وهكذا ، لم تكن قضية "شوابل" سوى مثال واحد فقط حول كيفية إجبار السجين الأعزل ، على إخباره بكذبة كبيرة ، ومن ثم تبنّيها. وذلك إذا ما اختار البقاء على قيد الحياة كرجل حر.

ولهذا كان يجب علينا مواجهة مشكلة الإكراه العقلي ، والمستوحى من الناحية السياسية ، مع كل تداعياته.

لقد مضى أكثر من عشرين عاماً منذ أن بدأ علماء النفس يشكوّن في أن العقل البشري يمكن أن يقع فريسة للقوى الدكتاتورية والاستبدادية.

ففي عام١٩٣٣ ، تم إحراق مبنى "الرايخستاغ" الألماني ، وتسويته بالأرض. في حين اعتقل النازيون الطبيب اللاأماني الهولندي الشهير "مارينوس فان در لوب Marinus Van der Lubbe" واتهموه بالجريمة.

كان الطبيب"فان دير لوب" معروفاً من قبل الأطباء النفسيين الهولنديين بأنه غير مستقر عقلياً.

فقد كان مريضاً في مؤسسة عقلية في هولندا. وأصبح ضعفه ، وعدم توازنه الذهني ، واضحاً للعالم عندما مثل أمام المحكمة.

وقد تساءل الحاضرون:

"أين وصلت نتائج المحاكمة؟.

وهل يُعقل أن يكون ذلك الرجل الصغير الأحمق ثورياً بطولياً ، أي رجل مستعد للتضحية بحياته إلى المثل الأعلى؟

ولكن خلال جلسات المحكمة كان "فان دير لوب" مراوغاً ، ومملاً ، وغير مبال. بيد أنه ، ومع ذلك ، فإن تقارير الأطباء النفسيين الهولنديين قد وصفته بأنه شخص مثلي ، ويقظ ، وغير مستقر ، ورجل تتغير حالته المزاجية بسرعة ، وكان يحب أن يكون متشرداً ، وكانت لديه كل أنواع الأوهام حول تغيير العالم.

ولكن في اليوم الثاني والأربعين من المحاكمة ، تغير سلوك"فان دير لوب" بشكل كبير. واختفت مشاعر اللامبالاة. وأصبح من الواضح ، بأنه كان على دراية كاملة بكل ما حدث خلال الجلسات السابقة. بل وانتقد بطء الإجراءات.

وطالب بالعقاب ، إما بالسجن أو بالإعدام. وقد تحدث عن أصواته الداخلية. وأصر على أنه كان لديه مزاجه في الاختيار. ولكنه سقط مرة أخرى في اللامبالاة.

نحن ندرك الآن هذه الأعراض على أنها مزيج من أشكال السلوك ، والتي يمكن أن نطلق عليها متلازمة الاعتراف.

ولكن لم يكن هذا النوع من السوك معروفا لدى الأطباء النفسيين في عام١٩٣٣.

ولسوء الحظ ، فقد بات مألوفاً جدا اليوم ، ويقابل كثيرا في حالات الإكراه العقلي الشديد.

وهكذا ، فقد أدين فان در لوب بعد ذلك ، وحُكم عليه بالإعدام ، ونُفّذ الحكم.

ولكن عندما انتهت المحاكمة ، بدأ العالم يدرك تماما ، بأنه كان مجرد كبش فداء.

لقد قام النازيون أنفسهم بإحراق مبنى"الرايخستاغ " وقاموا بتنظيم الجريمة ، ومن ثم المحاكمة ، وذلك حتى يتمكنوا من السيطرة على ألمانيا.

وبعد ذلك ، أدركنا بأن"فان دير لوب"كان مجرد ضحية لإساءة الاستخدام

الشيطانية للمعرفة الطبية والتقنية النفسية ، والتي تم من خلالها تحويله إلى إنسان آلي مفيد ، وسلبي ، ووديع ، والذي كان يجيب فقط بنعم أو لا ، على المحققين وذلك خلال معظم جلسات المحاكمات.

ولكنه ، في لحظات قليلة كان يهدد بالقفز من دوره القسري. بيد أنه ، وحتى في ذلك الوقت ، كانت هناك ثمة شائعات بأن الرجل قد تم تخديره من أجل إخضاعه ، وعلى الرغم من أننا لم نتأكد من ذلك[1].

أصبح العالم بين عامي ١٩٣٦ و ١٩٣٨ أكثر وعياً للخطر الحقيقي جداً والمتمثل بالإكراه العقلي المنظم في مجال السياسة. وقد كانت هذه فترة تجارب التطهير في موسكو.

في حين كان من المستحيل تقريباً ، الاعتقاد بأن البلاشفة القدماء ، والذين ضحوا بحياتهم لحركة ثورية ، قد تحولوا فجأة إلى غدارين ، وخونة للثورة.

وذلك عندما اعترف كل واحد من المتهمين ، وقد ضرب على صدره بعد أن اعترف ، ولكن كانت ردة الفعل العامة ، هو أن كل تلك الاعترافات ، لم تكن أكثر من عرض عظيم للخداع ، وقد كان المقصود منه أن يكون مجرد خطوة دعائية للعالم غير الشيوعي.

ومن ثم أصبح من الواضح ، بأنه قد تم سنّ مأساة أسوأ بكثير. فقد كان الرجال الذين جرت محاكمتهم في السابق بشراً. ولكنهم الآن ، قد تم تغييرهم ، وبشكل منهجي إلى مجرد دمى.

في حين أن محرك تلك الدمى ، هو من يضع قوانين حركة ، وحديث ، وأفعال تلك الدمى ، بل والتلاعب بمشاعرهم. وهو ما كان يحدث عندما يظهر

---

١ - نشر تقرير الطب النفسي عن حالة "فان دير لوب" بواسطة "بونهوفر وزوت". على الرغم من أنهم لم يكونوا على دراية بـ "متلازمة العقدة"، ولم يقدموا إرشاداً موجزاً لهم من قبل المتظاهرين السياسيين، فإنهم يقدمون وصفاً جيداً عن السلوك الباثولوجي غير اللامبالي، وتغييره الهائل في المزاجية. وهم ينكرون استخدام المخدرات.

إحدى تلك الدمى ، من وقت لآخر ، لتبين مدى صعوبة تغيير الثوريين الجامدين إلى خراف متواضعة ، وذاتية في جميع أنحاء العالم ، وقد بدأت إثر ذام آخر بقايا الاعتقاد في المجتمع الحر ، والذي يفترض أنه بني في روسيا السوفيتية.

وهكذا ، فقد أصبح مشهد الاعتراف بجرائم غير ملتزمة في السنوات الأخيرة أكثر شيوعاً. وكانت تتراوح القائمة بين الشيوعيين ، وغير الشيوعيين ، والمناهضين للشيوعية ، وتضم رجالاً من مختلف الجنسيات مثل التشيكي البلشفي "رودولف سلانسكي" Rudolf Slansky والكاردينال المجري "جوزيف مايندزنتي Joseph Mindszenty".

الاحتكار العقلي واحتلال العدو

كما أن أولئك الذين عاشوا في البلدان التي احتلها النازيون خلال الحرب العالمية الثانية ، قد تعلموا جيداً ، كيف يمكن أن يُضطر الناس إلى الاعترافات الكاذبة ، بل و حتى إلى خيانة أولئك الذين أحبوهم.

لقد ولدت في هولندا وعشت هناك حتى اضطرني الاحتلال النازي إلى الفرار.

ففي الأيام الأولى للاحتلال ، وعندما سمعنا أوصاف شهود العيان لما حدث أثناء الاستجواب النازي لعمال المقاومة المحتجزين ، فقد كنا نشعر بالخوف والقلق على حد سواء.

كان الهدف الأول "للجيستابو" الألماني هو إجبار السجناء ، تحت التعذيب ، على خيانة أصدقائهم ، والإبلاغ عن ضحايا جدد ، ولم يكن هناك سوى التعذيب ، ثم مزيدا من التعذيب.

ولذلك ، فقد كانت فرقة "القمصان البنية Brown Shirts" تطالب بأسماء ، وأسماء أكثر ، ولم تكن عن أن تكلف نفسها عناء التأكد مما إذا كانت قد أُعطيت تلك الأسماء زوراً ، أو تحت ضغط الإرهاب أم لا. كان هدفهم اعتقال

الجميع ، ودون تمييز لعمر الضحايا ، أو الحالة الصحية ، أو حتى للمكانة الاجتماعية ، أو السياسية.

وأتذكر بوضوح جدا ، اجتماعاً واحداً ، عقدته مجموعة صغيرة من المقاومين ، وذلك لمناقشة تزايد مرحلة الخوف وانعدام الأمن. فقد كان جميع من حضر هذا الاجتماع ، يعيشون حالة من الرعب ، حيث أنه كان يمكن لأي من الموجودين أن يتوقع أن يتم ذكر اسمه لاحقا ، ومن ثم اعتقاله من قبل "الجستابو" في وقت ما.

فهل سنكون قادرين على الوقوف لمواجهة تلك المعاملة النازية ، أو هل سنضطر كذلك لأن نصبح مخبرين لهم؟

نعم. لقد طُرح هكذا سؤال من قبل بعض المناهضين للنازية في جميع البلدان التي كانت تحتلها جيوش"الرايخ" الألماني الهتلري النازي.

وخلال السنة الثانية من الاحتلال ، أدركنا بأنه من الأفضل لنا ، ألا نتواصل مع بعضنا البعض. وعلى أن لا يزيد ذلك ، في حالات الضرورة القصوى ، عن اتصالين-غير آمنين-بطبيعة الحال.

كما وقد حاولنا العثور على الوقاية الطبية ، والنفسية ، إذا ما تم صلبنا أو تم اعتقالنا ، وكيف يمكننا مواجهة التعذيب النازي الذي توقعناه.

وفي واقع الأمر ، فقد أجريت بنفسي بعض التجارب لتحديد ما إذا كانت المخدرات ستحصننا من الألم الذي قد نتعرض له في حال تم اعتقالنا في يوم ما.

ولكنه ، ومع ذلك ، فقد كانت النتائج متناقضة. حيث يمكن للمخدرات أن تخلق حساً من الألم ، ولكن نتائج تعاطيها الباهت ، يمكن في نفس الوقت ، أن يجعل الناس أكثر عرضة للضغط الذهني. وحتى في ذلك الوقت ، كنا نعرف ، كما فعل النازيون أنفسهم ، أنه لم يكن الألم الجسدي المباشر ، هو الذي يكسر إرادة الناس ، بل الإذلال المستمر ، والتعذيب الذهني.

فقد كان أحد مرضاي ، من الذين تعرضوا لمثل هذا الاستجواب ، قد تمكنوا

من التزام الصمت في بداية التحقيق معه. بل ورفض الإجابة على أي سؤال ، ولكنه تم أخيرا رفضه من قبل النازيين. بيد أنه لم يتعاف أبداً من آثار تلك التجربة المرعبة. وبالكاد كان يستطيع التكلم ، وحتى بعد إطلاق سراحه وعودته إلى المنزل.

فقد جلس في إحدى زوايا منزله ببساطة—وهو يشعر بمرارة ممزوجة بكثير من السخط—وفي غضون أسابيع قليلة ، مات.

لم تكن جروحه الجسدية هي التي قد تسببت في مقتله. ولكنها كانت مزيجا من الخوف ، والإهانة لقيمته كإنسان ، وجروحه معا ، وهذا ما أدى إلى عدم قدرته على التحمل فمات.

كما وأجرينا العديد من المناقشات حول طرق تقوية عمالنا السريين المحتجزين ، أو منعهم—على أدنى تقدير—من خيانة الذات النهائية.

فهل ينبغي إعطاء بعض الأشخاص لدينا كبسولات انتحارية مثلا؟.

لأن هذا يمكن أن يكون الملاذ الأخير فقط. فالمخدرات ، مثل "المورفين" يمكن أن تؤدي إلى حالة تخدير مؤقت للإغاثة.

وعلاوة على ذلك ، فسيجد العدو ، بالتأكيد ، تلك الكبسولات المخدرة ، وسيرميها بعيدا.

كما وقد سمعنا عن محاولات ألمانية لإعطاء "الكوكايين" و"الأمفيتامين" لطياريهم الجويين ، وذلك لاستخدامها في حالة الإجهاد القتالي ، ولكن لم يكن هناك أي عقار يمكن الوثوق بفاعلية نتائجه.

فقد تُحيي هذه الأدوية الجسم عن طريق جعله أقل حساسية للألم ، ولكنها في الوقت نفسه ، قد تجعل الإنسان يخفق في نتائج الأداء العقلي.

فإذا أخذها بعض أفراد الأسرى تحت الأرض ، كما أظهرت التجارب ، فإن أجسادهم قد لا تشعر بآثار التعذيب الجسدي ، ولكن عقولهم الغامضة ، قد تحولهم إلى خداع أسهل من قبل النازيين.

وقد حاولنا أيضا إجراء تمارين منهجية في الاسترخاء الذهني ، والنفسي - والمماثلة لتمارين اليوغا—وذلك من أجل جعل الجسم أكثر مقاومة لحساسية مشاعر الجوع والألم.

فإذا كان اهتمام الفرد ثابتاً ، على تطوير الوعي الواعي بوظائف الجسم التلقائية ، مثل التنفس ، فإنه يمكن تقليل وظيفة تنبيه القشرة الدماغية ، وسيتلاشى الوعي بالألم.

ولكن مثل هذه الحالة من عدم الشعور بالألم ، يمكن أن تتحقق في بعض الأحيان ، من خلال بعض التمارين الذاتية المنومة. ولكن قلة قليلة من شعبنا ، تمكنوا من إدخال أنفسهم في مثل هذا التخدير.

وفي النهاية ، قمنا بتطوير هذه الحيلة النفسية البسيطة:

"عندما لم يعد بإمكانك خداع العدو أو مقاومة الحديث ، فإن أفضل شيء نفعله هو أن تثرثر أكثر من اللازم".

وكانت هذه هي الفكرة ايضا:

"حافظ على نفسك متجهماً ، وتصرف كالأحمق. والعب دور الجبان ، واعترف ، وبشكل مموه ، بأكثر مما هو مطلوب منك أن تعترف."

وهكذا ، استطعنا في وقت لاحق ، من التحقق من نجاح هذه الطريقة ، وذلك في العديد من الحالات.

فلقد جعلت البساطة والسذاجة ، العدو في حالة من الارتباك ، وأكثر بكثير من أولئك الأبطال الصامتين ، والذين تقوضت قدراتهم على التحمل أخيراً ، على الرغم من كل شيء.

كنت قد اضطررت للهروب من هولندا ، وذلك بعد أن حذرني شرطي سري ، من أن اسمي قد أُدرج في أحد الاستجوابات مع المعتقلين.

وعلى الرغم من أنه قد تم استجوابي مرتين من قبل النازيين ، حول مسائل ثانوية ، وبدون تعذيب جسدي.

ولكنهم عندما اعتقلوني من جديد ، في وقت لاحق ، في بلجيكا ، وربما كنتيجة للخيانة ، فقد اضطررت إلى الخضوع لفحص أولي طويل ، وقد تعرضت فيه للضرب ، ولحسن الحظ لم يكن شديد الجدية.

فقد كانت المقابلة قد بدأت بسرور ، وبما فيه الكفاية. ولكن على ما يبدو ، اعتقد الضابط النازي المسئول بأنه سيكون قادراً على الحصول على معلومات مني ، وعني ، وذلك من خلال وسائل صديقة.

وفي الواقع ، فقد أجرينا مناقشة مطولة(بما أنني كنت طبيباً نفسانياً) حول الأساليب المستخدمة في التحقيق.

ولكن عندما وجد أن المقاربة الودية كانت تجعله لا يصل إلى أي مكان ، تغيرت الحالة المزاجية للضابط ، وتصرف مع كل الخصائص السادية التي توقعناها من هذا النوع.

ولحسن الحظ ، فقد تمكنت من الهرب من بلجيكا في تلك الليلة ، و قبل البدء في إجراء تحقيق أكثر منهجية ، وأكثر تعذيباً.

وقد استطعت ، وبعد عناء ومشقة ، من الوصول إلى مقر للصّحة النفسية في مدينة لندن ، وكان ذلك بعد رحلة المغامرة عبر فرنسا وإسبانيا ، وحيث أصبحت ، فيما بعد ، رئيساً للقسم النفسي التابع للقوات الهولندية في إنجلترا.

وهكذا ، ومن خلال موقعي الرسمي ، فقد تمكنت من جمع بيانات كثيرة حول ما كان يحدث لملايين ضحايا الإرهاب النازي ، أثناء الاعتقال والتعذيب.

وفي وقت لاحق ، فقد استجوبت ، وعالجت العديد من الهاربين المحظوظين من معسكرات الاعتقال ، والنفي. فهؤلاء الناس ، قد أصبحوا خبراء حقيقيين في المعاناة.

وهكذا ، فإن تنوّع ردود الفعل البشرية في ظل هذه الظروف الجهنمية ، قد علمنا حقيقة قبيحة وهي أنه:

"يمكن كسر روح معظم الرجال ، ويمكن أن ينخفض مستوى الأداء الإنساني لدى المعتقلين إلى مستوى السلوك الحيواني.!

وحيث أن كلاً من الجلاد والضحية ، يفقدان كل كرامة الإنسان ، وعلى حد سواء".

كما منحتني الحكومة سلطة التحقيق مع مجموعة من الخونة ، وكذلك فقد استجوبت بعضا من الجنود النازيين المسجونين.

وعندما أراجع كل هذه التجارب في زمن الحرب ، وكل ذلك الارتباك حول الشجاعة ، والجبن ، والخيانة ، والمعنويات والقوة العقلية ، فإنه يجب علي أن أعترف بأنني لم أكن أع ، وأفهم حقيقة ، وفداحة ما كان يجري ، وبأن عيني لم تُفتحا كما يجب ، إلا بعد دراسة محاكمات"نورمبرغ" للقادة النازيين.

فقد أعطتنا هذه التجارب القصة الحقيقية للطرق القسرية والمنهجية للتعذيب من أجل انتزاع الحقائق ، أو تلفيقها ، والتي كان يستخدمها النازيون.

وفي نفس الوقت تقريباً ، فقد كنا بدأنا في معرفة المزيد عن الاستراتيجية النفسية المنحرفة ، والتي كانت تستخدمها الاستخبارات السوفياتية ، وجواسيسها في ذلك الوقت.

السحر والتعذيب

تعتبر التقنيات المحددة ، والمستخدمة في العالم الحديث ، لكسر عقل الإنسان ، وإرادته ، ولانتزاع الاعترافات ، لأغراض الدعاية السياسية ، هي أساليب جديدة نسبيا بل ومعدلة إلى حد كبير.

بيد أنه ، ومع ذلك ، فإن الاعتراف القسري نفسه ، ليس جديداً.

فقد احتاج الطغاة والديكتاتوريين ، ومنذ زمن بعيد جدا ، إلى هذه الاعترافات الطوعية لتبرير أفعالهم الشريرة.

كما إن معرفة أن العقل البشري يمكن أن يتأثّر ، ويُروّض ، وينقسم إلى مفهوم العبادة ، أقدم بكثير ، من المفهوم الدكتاتوري الحديث للتلقين القسري.

وقد استخدم زعماء قبيلة الشّامان البدائيون ، طقوساً مُلهمة في تحضير الضحية ، وذلك باتباع حالة من التنويم المغناطيسي الرهيب ، ولدرجة أنه يمكن

للضحية الخاضعة للاستجواب ، من أن تستسلم ، وتوافق على جميع ما يُطلب منها ، وكذلك على كل نتائج التحقيق ، جملة وتفصيلا.

وهكذا ، فقد يصبح المواطن الأصلي ، والذي ألقيت عليه موجة من العقاقير من قبل رجل الطب المنوّم مغناطيسيا ، أن يصبح مطيعا جدا ، وذلك بسبب خوفه من أنه سيكون أمام خيارين لا ثالث لهمأن فإما أن يجلس ببساطة ، ويقبل مصيره ، ويُنفّذ ما يطلب منه من أوامر ، أو يموت.

وعلى مر التاريخ ، كان لدى الرجال فهم حدسي يمكن التلاعب به.

فقد تم وضع استراتيجيات مفصلة لتحقيق هذه الغاية. فطقوس النشوة ، والأقنعة المخيفة ، والضوضاء الصاخبة ، والهتافات الغريبة ، قد استخدمت جميعها ، لإجبار الحشد على قبول معتقدات قادتهم.

وحتى إذا كان الرجل العادي في البداية ، يقاوم محقق الشامان القاسي ، أو رجل الطب الخاص ، فإن الطقوس المنومة تدريجياً ، سوف تعمل على كسر إرادته.

ولكن كانت هناك ثمة طرق أكثر إيلاما من ذلك ، وإن لم تكن جديدة على حد سواء. ولذلك ، فعندما ندرس التقارير القديمة لمحاكم التفتيش ، أو العديد من المحاكمات السحرية ، في كل من أوروبا وأمريكا ، فإننا نتعلم الكثير عن هذه الأساليب.

كما أن الاختبار العائم هو أحد الأمثلة. حيث تم إلقاء المتهمين بالسحر في النهر ، بعد أن ربطت أيديهم وأرجلهم معاً.

ولكن إذا لم يغص الجسم في الماء ، فقد كان يتم سحب الضحية على الفور من الماء ، ومن ثم يُحرق على العامود الخشبي.

كان الحقيقة المتبعة في ذلك ، هي أنه إن لم يغرق جسد المتهم الضحية بممارسة الشعوذة ، فإن ذلك دليلا كافيا ، على أنه مذنب.

ولكن من ناحية أخرى ، فإذا أطاع المتهم قانون الجاذبية وغرق في قاع النهر ، فإن جثته سوف تُسحب من النهر وسوف تُعلن براءة المتهم بعد أن يموت. فلم

يترك الكثير من الخيارات للضحية!

لقد كان الإنسان مبدعاً ، وبشكل هائل ، ومرعب في نفس الوقت ، في تطوير وسائل إلحاق المعاناة برفاقه ، وأقرانه.

وبفضل الشغف المذهل ، فقد ابتكر تقنيات تثير ألماً رهيبا ، وفي الأجزاء الأكثر ضعفاً في جسم الإنسان ، كثقب الإبهام بالمسامير ، والصلب ، والتي تعتبر من الأدوات القديمة للتعذيب الآن ، ولم تستخدم فقط من قبل القضاة البدائيين ، ولكن أيضا من قبل ما يسمى بالديكتاتوريين ، والطغاة المتحضّرين.

وهكذا ، ومن أجل فهم أفضل للتعذيب العقلي الحديث ، يجب علينا أن نضع في اعتبارنا دائماً ، حقيقة أنه منذ الأيام الأولى ، لم يكن المقصود من المعاناة الجسدية والصلب ، والتعنيف ، ألا أن تؤدي وظيفة واحدة ، وإلحاق الأذى بالضحية ، وإجبار عقله ، وجسده على الخضوع ، ومن ثم الاستسلام لإرادة الجلادين.

ولربما لم يكونوا قد عبّروا عن فهمهم بعبارات متطورة ، ولكن القضاة ، وجلادي القرون الوسطى ، كانوا على دراية بأن هناك ثمة علاقة روحية غريبة ، وتفاعل عقلي ، بين الضحية ، وبين بقية المجتمع.

ولذلك ، كان يجب القيام بمزيد من التعذيب والشنق المؤلم كمظاهر عامة.

فبعد أن تكون المتهمة بالشعوذة والسحر في العصور الوسطى ، فقد كانت تواجه الألم الشديد ، على يد محققي محاكم التفتيش ، وإلى أن تعترف الساحرة فقط بالفجوة الجنسية المروعة ، مع الشيطان ، ولكنها ستصادق وبالتدريج ، على القصص التي اخترعتها لتتخلص من هول العذاب ، وبالتال ، فسوف تموت ، وهي مقتنعة بذنبها.

وفي النهاية ، فقد أجبرتها جميع أساليب الاستجواب ، والتعذيب على الاستسلام لأوهامها ، وكمتهمة تستحق أشد العقوبات ، وأن تستسلم ، وتتقبل ، وبخشوع أوامر القضاة.

وفي النهاية ، فقد كانت تتوق إلى الموت. بل وتطلب أن تُحرق حية من أجل

طرد الشيطان من جسدها ،ولتكفير خطاياها.

وقد أدرك نفس هؤلاء القضاة ، والجلادين أيضاً ، من أن محاكمتهم السحرية لم تكن تقام من أجل تعذيب الساحرات ، ومعاقبتهن ، بل أيضا من أجل ترويع ، وتعذيب الشعب ، والمارّة الذين قاموا بالتعاطف مع الضحايا ، ولو بدون وعي. وهذا ، بطبيعة الحال ، أحد الأسباب التي جعلت الاحتفالات ، والتعليقات ، والمراسم الخاصة ، تجري في الأماكن العامة بل وأصبحت مناسبة للمباريات العظيمة.

وهكذا أصبح الإرهاب منتشراً ، وكان العديد من القضاة يتحدثون ، وبطريقة ملطفة ، عن الفعل الوقائي لمثل هذا التعذيب.

اما من الناحية النفسية ، فيمكننا رؤية هذا الفعل بأكمله كابتزاز للتعاطف الإنساني ، والميل العام للتواصل مع الآخرين.

في عام١٥٦٣ نشر الطبيب الهولندي الشهير"يوهانس فيير Johannes Wier" أبحاثه في كتاب بعنوان(في الأوهام حول الشياطين De Praestigiis Daemonum) والتي ذكر فيها أن الاتهام الذاتي الطوعي الجماعي للنساء المسنات—واللواتي كن قد تعرضن من خلاله للتعذيب و الموت على أيدي محققيهم-كان في حد ذاته عملاً مستوحى من الشيطان ، وخدعة من الشياطين ، وكان هدفها القضاء على النساء البريئات فقط ، وكذلك على قضاتهن المتهورات.

وقد كان الطبيب فيير أول طبيب يقدم ما أصبح يُعرف لاحقاً بالمفهوم النفسي للوهن والعمى العقلي.

ولذلك ، فأينما كان يحلّ تأثير كتابه ، كان يتوقف اضطهاد الساحرات ، وفي بعض البلدان ، وقبل أكثر من مائة وخمسين سنة ، وقبل أن ينتهي التعذيب والقتل والصلب والشيّ ، في نهاية المطاف ، في جميع أنحاء العالم المتحضر.

وهكذا ، فقد أصبح عمله ، وكتبه ، وأفكاره ، واحدة من الأدوات الرئيسية لمحاربة الوهم ، حول السحر ، والتعذيب الجسدي.

فقد أدرك الطبيب فيير حتى ذلك الحين ، من أن الساحرات كُنّ عبارة عن كبش الفداء للخلط الداخلي ، واليأس الذي كان يعانيه قضاتهم ، وحُكاّمهم بشكل عام.

تهذيب الخاضع للتعذيب

يمكن استخدام كل المعرفة إما للخير أو للشر ، وبالتالي فإن علم النفس ليس محصناً ضد هذا القانون العام أيضا.

فقد قام علم النفس بتسليم الإنسان وسائل جديدة للتعذيب ، والتطفل حول العقل. لذا ، يجب أن نكون أكثر وعياً بماهية هذه الأساليب والتقنيات ، إذا نجحنا في مكافحتها. كما يمكن أن تكون أكثر إيلاما وأكثر شللاً عقلياً حتى من مواجهة الموت. كما ويمكن لشخصيات قوية أن تتحمل المعاناة الجسدية. وغالبا ما يعمل ذلك على زيادة المقاومة العنيدة. بغض النظر عن وضع ، وقرار الضحية ، وقد يؤدي التعذيب الجسدي في النهاية ، إلى فقدان الوعي الواقي. و لكن تحمّل التعذيب العقلي سوف يؤدي إلى الزوال العقلي ، وسيتطلب شخصية أقوى.

فما نسميه اليوم"غسل الأدمغة brainwashing"(وهي كلمة مشتقة من اللغة الصينية"هسي. ناو Hsi-Nao") هو طقس من طقوس متقنة من التلقين المنهجي ، والتحويل ، والاتهام الذاتي المستخدم لتغيير غير الشيوعيين إلى أتباع مستسلمين للحزب بحسب تعبيرات علماء النفس.

كما أن كلمة"التشويه العقلي Menticide"هي كلمة قد تم ابتداعها ، والمستمدة من ممارسات تشويه عقل الانسان ، وتقييده.

[لقد تابعت هنا دراسة المنشأ التي استخدمتها الأمم المتحدة لتشكيل كلمة "إبادة جماعية genocide" ، وهذا يعني التدمير المنهجي للمجموعات العرقية.]

كما وتشير كلتا الكلمتين إلى نفس التحسين المنحرف لحاملها ، مما يضعه ، على ما يبدو ، ضمن مستوى مقبول. ولكنها أسوأ بألف مرة ، إلا أنها قد تكون

أكثر فائدة بالنسبة للمحقق.

يُعتبر تشويه العقل وعلى مر العصور ، كجريمة قديمة ضد العقل والروح البشريين ، ولكنه قد أعيد تنظيمه من جديد.

إنه نظام منظم للتدخل النفسي والانحراف القضائي ، حيث يمكن من خلاله لدكتاتور قوي ، أن يطبع أفكاره الانتهازية على عقول أولئك الذين يخطط لاستخدامها ، ومن ثم تدميرها.

وأخيرأن سيجد الضحايا المروعون أنفسهم ، مضطرين للتعبير عن المطابقة التامة لرغبات وأفكار ذلك الطاغية.

كما أنه ، ومن خلال إجراءات المحاكمة ، وحيث يقوم الضحية ، آلياً ، بتنكيس السجل الداخلي ، والذي تم إعداده من قبل المحققين خلال فترة سابقة ، ومن ثم ، وحين يهدأ الرأي العام ، يتم إلقائه على حين غرة.

وهنا ، سوف يعتقد الناس بأن ذلك الخائن قد عوقب. وبأن ذلك الخائن قد اعترف بجرائمه!.

كما ويمكن استخدام اعترافاته للدعاية ، وللحرب الباردة ، ولغرس الخوف والرعب في قلوب الآخرين ، أو اتهام العدو كذباً ، أو ممارسة ضغط عقلي ثابت على الآخرين.

ولذلك ، يُعتبر الارتباك الكبير الحاصل من إحدى النتائج المهمة لهذا الإجراء ، والذي يخلقه في ذهن كل مراقب أو صديق أو حتى عدو.

وفي نهاية المطاف ، لا أحد يعرف كيف يميز الحقيقة عن الباطل. والشمولي عن الاستبدادي ، من أجل تحطيم العقل؟ وذلك لأن الأمر يحتاج أولا إلى الفوضى العقلية ، وعلى نطاق واسع ، وإلى الارتباك اللفظي ، ولأن ذلك سوف يشلّ كل من يعارض ، ويتسبب في تدهور معنويات العدو–ما لم يكن خصومه على علم بالهدف الحقيقي للديكتاتور.

وبأنه ، من الآن فصاعدا ، يمكنه أن يبدأ في بناء نظام المطابقة لرغباته ، ورؤيته.

أما في كل من حالتي الكاردينال "ميدزنتي Mindszenty" والضابط "شوابل Schwable" فلدينا تقارير موثقة عن التقنيات المستخدمة في التشويه العقلي الذي مورس عليهما بشكل ممنهج، والذي تم استخدامه لكسر عقول وإرادات الرجال الشجعان.

وفي ذات السياق، دعونا ننظر أولاً إلى قضية الكاردينال ميندزنتي والمتهم بتضليل الشعب الهنغاري، والتعاون مع الأعداء، ومع الولايات المتحدة.

ففي كشفه عما تعرض له الكاردينال ميندزنتي أثناء فترة اعتقاله في السجن، فقد وصف "ستيفن ك. سويفت Stephen K. Swift" رسمياً، ثلاث مراحل نموذجية في المعالجة النفسية للسجناء السياسيين.

وقد كانت المرحلة الأولى موجهة نحو ابتزاز الاعتراف. حيث يتم قصف عقل الضحية بالأسئلة نهاراً وليلاً. وعلى الرغم من أن ذلك قد يكون غير كاف، وغير منتظم. إلا أنه سوف يدبّ القلق، والرعب في قلب، وعقل الضحية، وعلى حد سواء. كما ولا يُسمح له بالراحة تقريباً، بل ويبقى رهن غرفة الاستجواب لساعات طويلة، بينما يتناوب عليه المحققون.

أما الضحية، فسوف يصاب بالجوع، والإرهاق، والذي يصل إلى حد الإعياء، في حين تصبح رؤيته لما حوله ضبابية، وغير واضحة، بل ومؤلمة تحت ضوء المصابيح الساطعة القوية، وغير المظللة، مما يجعل السجين لا يبدو أكثر قليلا من حيوان مُجهد.

..ولكن عندما كان الكاردينال يقف لمدة ست وستين ساعة متواصلة[حسب تقارير "سويفت"] فقد كان يقف وقد أغمض عينيه، وبقي صامتا.

كما لم يرد حتى على الأسئلة بنفيها.

ولكن كان الكولونيل المسؤول عن التحقيق، يكتفي بالتربيت على كتف الكاردينال، ومن ثم يسأله عن سبب عدم رده. وحيث أجاب الكاردينال، بعد أن خارت قواه:

"لقد انتهى كل شيء. اقتلني!. أنا مستعد للموت الآن!".

ولكن الكولونيل أجابه بأنه لن يصيبه أي ضرر أكبر. وبأنه يمكن إنهاء كل شيء ببساطة ، عن طريق الإجابة على بعض الأسئلة.

... وهكذا ، وبحلول يوم السبت التالي ، كان من الصعب التعرف على ملامح الكاردينال. وحين طلب أن يشرب جرعة ماء ، قوبل طلبه بالرفض.

كانت قدماه ، وساقاه متورمتان ، مما تسبب له في ألم شديد ؛ وحيث سقط عدة مرات.

وبالإضافة إلى الأهوال التي كان يعاني منها الضحية المتهمة ، ومن دون أن يضاف إليها أهوال أخرى من الداخل. كانت تتم متابعته عن طريق التأكد من عدم ثبات عقله ، والذي لا يمكنه دائماً تقديم نفس الإجابة على سؤال متكرر.

وبوصفه إنساناً بضمير حي ، فقد كانت تلاحقه مشاعر خفية محتملة ، ومهما كان التقية ، وهذا ما كان يقوض وعيه العقلاني بالبراءة.

وهكذا ، تمت زيادة الضغط على عقله أكثر ، وازداد التشويش الكلي الذي يعاني منه ، حول جميع المفاهيم. كما كان يتم تقويض كل تقييماته ومعاييره. فلم يعد يستطيع أن يؤمن بأي شيء أكثر من الهدف المنشود ، إلا ضمن المنطق الذي يتم إملائه وتلقينه إياه من أولئك الذين هم أقوى منه بطبيعة الحال.

كان العدو يعرف جيدا بأن الحياة البشرية ، تحت السطح ، مبنية على تناقضات داخلية. ولذلك ، فقد يستخدم هذه المعرفة لهزيمة وإرباك عقل الضحية.

كما أن التعاقب الدوري والمستمر للمحققين ، يجعل من المستحيل -وأكثر من أي وقت مضى- استمرار الاعتقاد في التفكير المتتابع.

فما أن يقوم الضحية -بالكاد- بتوليف نفسه مع أحد المحققين ، فقد كان يتم تغيير المحقق لتشتيت تركيز عقل الضحية على إجابة ما ، مما يضطره للبدء من جديد لأن يغير تركيزه على الانتباه إلى محقق آخر.

ومع ذلك ، فإن هذا الصدام الداخلي بين الأعراف والمفاهيم ، وهذا التناقض

الداخلي للأيديولوجيات، والمعتقدات، هو جزء من المرض الفلسفي في عصرنا!

وككائن اجتماعي، تتم متابعة الكاردينال من خلال الحاجة إلى علاقات إنسانية جيدة-وإلى رفقة. وهنا كان يبرز الاقتراح الدؤوب، والذي يحثه باستمرار على الاعتراف.

وكإنسان يعاني، فقد كان يتم ابتزازه من خلال حاجة داخلية ما، ومن ثم ليترك وحده دون عوائق، ولو لبضع دقائق فقط. ولكن، سواء من الداخل، أومن دونه، فقد كان الضحية مدفوعا، وبلا هوادة، نحو التوقيع على الاعتراف الذي أعده مضطهِده مسبقا.

فما نفع المقاومة بعد الآن؟.

كما أنه لا وجود لشهود مرئيين على بطولته. ولا يستطيع إثبات شجاعته الأخلاقية، واستقامته بعد وفاته.

ولذلك، فإن جوهر استراتيجية تشويه العقل، هو سلب كل أمل ممكن، وكذلك القضاء على كل التوقعات الممكنة، وكل الاعتقاد في المستقبل.

إن تشويه العقل يدمر العناصر ذاتها التي تبقي العقل على قيد الحياة. في حين يبقى الضحية وحيداً تماماً.

وحتى إذا كان عقل السجين يثبت بأنه مقاوم للغاية، فسوف يتم حقنه بالمخدرات للتشويش عليه: مخدرات عديدة كالميسكالين" و"الماريجوانا" و"المورفين" و"الباربيتورات" والكحول.

فإذا انهار جسمه قبل أن يستسلم عقله، فإنه سوف يتم حقنه بالمنشطات: مثل "البنزيدرين" و"الكافيين" و"الكورامين" وغيرها. وكل ذلك سيساعد على الحفاظ على وعيه حتى يعترف.

كما يمكن للعديد من المخدرات، والمؤثرات التي تساعد في النهاية على إثارة التبعية العقلية، والتشويش المفرط، أن تخلق حالة من فقدان الذاكرة، وغالبا ما تكون متناغمة تماما للتعذيب نفسه. في حين أن تقنيات التعذيب، سوف تحقق

التأثير المطلوب ، ولكن الضحية تنسى ما قد حدث بالفعل أثناء الاستجواب أما الأطباء الذين يقومون بالإجراءات الإسعافية ، والعلاجية ، بمشتقات مخدرات "الأمفيتامين" ، والتي عندما يتم حقنهم بها في مجرى الدم ، فقد كانوا يساعدون المرضى على تذكر التجارب المنسية طويلا ، وهم على فهم ودراية بقدرة الدواء المهدئة على استرجاع الذكريات المنسية ، وذلك خلال الفترة التي يتم فيها تخدير المريض ، واستجوابه.

ولذلك ، يعتبر هذا الهجوم المستمر على الضمير الإنساني ، والشعور بالذنب من خلال الاتهامات الذاتية ، واللاواعية ، والتي يتم تصويرها ببراعة "فرانز كافكا Franz Kafka" في روايته التي تحمل عنوان "المحاكمة".

ففي هذه الرواية ، لا يعرف الضحية أبداً ما هي تهمته ، و لكن ذنبه الداخلي ، يؤدي به إلى الإدانة.

كما وتوقع"كافكا" الفترة الزمنية لابتزاز الاعتراف ، وقد كتب ذلك في روايته قبل ثلاثينيات القرن العشرين.

كما وتم التعامل مع نفس الموضوع ، من وجهة نظر نفسية ، من قبل "الموقوف تيودور ريك Theodor Reik" وذلك في إجباره على الإلزام ، وضرورة العقوبة.(انظر الفصل الثالث).

وبعد ذلك ، يتم تدريب الضحية على قبول اعترافه ، بقدر ما يتم تدريب حيوان ما لأداء الألاعيب ، والحيل. ومن ثم يعاد قراءة القبول الزائف ، والمتكرر ، في عقله.

ويكون قد أصبح ، وهو مجبر ، على تكرار ذلك في ذاكرته ، وبشكل مستمر ، وكذلك على المخالفات الخيالية ، والتفاصيل الوهمية التي تقنعه في النهاية ، بأنه قد ارتكب جريمة ما ، وبأنه متهم من أجل ذلك. وهكذا فإن الضحية:

- في المرحلة الأولى: يضطر إلى الخضوع الذهني من قبل الآخرين.
- في المرحلة الثانية: يدخل حالة من الاستنشاق الذاتي ، حيث يقنع نفسه بجرائم ملفقة.

ووفقاً لما ذكرته تقارير سويفت والتي تناولت الأسئلة أثناء الاستجواب الآن، تفاصيل اعتراف الكاردينال، وفق ما يلي:

أولاً، تمت قراءة أقواله الخاصة؛ ومن ثم بيانات للسجناء الآخرين المتهمين بالتواطؤ معه؛ ثم تفاصيل تلك العبارات.

وفي بعض الأحيان كان الكاردينال يبدو كئيباً، وأحياناً ما، كان مضطرباً للغاية، ومتحمساً.

لكنه أجاب على جميع الأسئلة عن طيب خاطر، وكرر كل الجمل-مرة واحدة، مرتين، أو حتى ثلاث مرات، عندما كان يطلب منه ذلك.

وفي المرحلة الثالثة والأخيرة من الاستجواب و تشويه العقل، يتم تدريب المتهم، والذي أصبح الآن مشروطاً بالكامل وقد قبل بكل ذنوبه الملفّقة، على الشهادة الزائفة ضد نفسه، وضد الآخرين.

كما لم يعد عليه وجوب أن يقنع نفسه أكثر من خلال التنويم الذاتي. بل أصبح يتحدث فقط وفق صوت سيده.

ولذلك، فقد أصبح مستعدا للمحاكمة، وقد أُخضع تماما؛ واصبح وديعا، ونادماً على ما اقترفت يداه، وراغباً في أن يُحكم عليه.

لقد اصبح كطفل في أيدي محققيه، وقد تم تلقينه بما يجب أن يقوله، كطفل، وتمت تهدئته بالكلمات اللطيفة، والناعمة كالتي يناغى فيها طفل رضيع!.

[كما سيتم تقديم مسح أكثر اتساعاً للمراحل النفسية المختلفة في عمليات الإرشاد، وغسيل الدماغ في نهاية الفصل الرابع].

تشويه العقول في كوريا

أما الآن، فدعونا نلقي نظرة على قضية الضابط الأسير"شوابل Schwable" والتي تشبه في شكلها العام، قضية الكاردينال ميندزنتي إلا أنها تختلف فقط في التفاصيل.

كان شوابل يعمل كضابط في سلاح مشاة البحرية الأمريكية، وكان يقاتل

مع الأمم المتحدة في كوريا إلى أن تم اسره من قبل العدو الكوري.

كان العقيد شوابل يتوقع أن يحميه القانون الدولي ، والأنظمة المتعلقة بأسرى الحرب ، والتي كانت قد وافقت عليها جميع البلدان.

إلا أنه ، ومع ذلك ، فقد اتضح له ، وببطء بأنه كان يخضع لنوع خاص من المعاملة ، والذي يختلف كثيرا عما كان يتوقع. فالعدو لا ينظر إليه كأسير حرب ، ولكن كضحية يمكن استخدامها لأغراض دعائية.

وهكذا ، فقد بدأ يتعرض لضغوط بطيئة ، ولكن ثابتة ، والتي وضعت بشكل منهجي لتحطيمه عقليا. كالإذلال ، والمعاملة القاسية ، واللاإنسانية ، والتدهور الصحي ، والتخويف ، والجوع ، والتعرض للبرد الشديد-كلها قد استُخدمت لتدمر إرادته وجعله يبدو لطيفا ، ومتعاونا.

فقد كان بالنسبة للكوريين صيدا ثمينا يمكن استخدامه من أجل إفشاء الأسرار العسكرية منه ، ومن ثم لاستخدامه كأداة فاعلة ومؤثرة ضمن آلة الدعاية الخاصة بهم.

وهكذا ، فقد كان يتم تغذية الشعور لديه ، بصعوبة وضعه ، ولأن يشعر بأنه قد أصبح بمفرده تماماً.

ومن أجل إذلاله أكثر ، فقد كان يُترك وحيدا ، وهو محاط بالقذارة ، وبالحيوانات.

وكان يتم إخضاعه لشتى صنوف التعذيب ، ويُترك دون طعام أو ماء لساعات طويلة ، وكان عليه الوقوف على قدميه أثناء إلقاء الأسئلة عليه ، أو للإجابة على سيل الأسئلة التي كان يطرحها عليه المحققين. وقد أصيب أثناء ذلك بآلام مبرحة في الظهر ، وبالإسهال ، وبالانهيار العصبي.

لم يكن يُسمح له بالاغتسال ، أو بحلاقة شعر وجهه. ولم يكن حتى يعرف ماذا سيحدث له بعد ذلك.

وقد استمرت تلك المعاملة في البداية لعدة أسابيع. ومن ثم بدأت ساعات

الاستجواب تتزايد ، وكذلك وتيرة ، وأساليب القمع المنهجي ، والتعذيب المتكرر.

وهكذا ، وبعد عدة أشهر على تلك الحالة ، لم يعد يجرؤ على الثقة في ذاكرته الخاصة. كما كانت تتناوب على التحقيق معه فرقا جديدة من المحققين ، وكل يوم ، حيث كان كل فريق جديد ، يشير إلى الأخطاء التي كان يرتكبها زملاء لهم أثناء التحقيق معه ، وبأنه لا بد من إعادة التحقيق من البداية ، وهكذا دواليك.

ومع تدهور حالته الصحية ، لم يعد باستطاعته النوم أكثر من ذلك. وكان المحققون يخبرونه يوميا ، بأن لديهم متسع كاف من الوقت ، وكان يدرك ، بأنهم على حق في هذا الصدد ، وبأنهم كانوا يقولون الحقيقة في أنه لديهم متسع كاف من الوقت ، ولكن للإمعان في تذليله.

وهكذا ، بدأ الشك يتنامى لديه ، حول ما إذا كان يستطيع مقاومة مقترحاتهم المغرية. وبأنه إن كان سيتعاون ، ويعترف ، فإنهم سيعاملونه بشكل أفضل.

ولكن كان المحققون جميعا من النوع الغادر ، ويعرفون بالضبط ما يريدون.

إنهم يريدون الضحية التي لا بد من الاستيلاء عليها بتأثير التنويم المغناطيسي المستحث ، وببطء.

وكان أحد المحققين قد تفوق على زملائه في غدره ، ودهائه ، فقد كان يريد منه اعترافاً موثقاً ، وبشكل جيد بأن الجيش الأمريكي يستخدم الحرب "البكتريولوجية" (الجرثومية) وبأن الضابط الأسير نفسه ، قد شارك في هذه الحرب الجرثومية.

كما كان ذلك المحقق يريد انتزاع ذلك الاعتراف خطيا ، ولأنه سيترك انطباعاً مقنعاً ، وسيصدم العالم أجمع.

كانت الصين فترة ذاك تعاني من الجوع والأوبئة. ولذلك فإن مثل هذا الاعتراف ، سوف يفسر بأن أسلحة الولايات المتحدة الأمريكية الجرثومية ، هي التي تساهم في ارتفاع معدل الأمراض ، والأوبئة في الصين ، مما سيثير حفيظة الحكومة الصينية ، والتي كانت تتدهور شعبيتها بشكل حاد.

ولتحقيق ذلك ، كان يجب على العقيد أن يكون مستعداً للاعتراف المنهجي ، والذي تم تقديمه أمام مجموعة دولية من الخبراء الشيوعيين.

وبالإضافة إلى ذلك ، فقد كانت قوى الضابط الأسير تنهار ، ويبدأ يضعف عقلياً ، وجسدياً ، وفي كل يوم كانت تُطبع أفكار المحقق الشيوعية في ذهنه.

وفي الواقع ، فقد أصبح العقيد ، مُغّيبا ، ومنوماً تماما. ولذلك ، فقد أصبح الآن جاهزا تماما ليدلي بالاعترافات التي يرغبون.

من المعروف كحقيقة علمية ، بأن الذاكرة السلبية ، تذكر-في كثير من الأحيان- الحقائق المستفادة تحت التنويم المغناطيسي ، وبشكل أفضل من تلك التي يتم تعلمها في حالة اليقظة والتأهب.

وحتى أنه كان قادرا على كتابة بعضا من أحداث تلكم الذاكرة.

وفي نهاية المطاف ، يتم تجميع كافة القطع الصغيرة ، مثل لعبة لغز الصور المقسمة إلى قطع صغيرة ، ولكن لكي تتناسب مع الموضوع الرئيسي المنشود ، وفي شكل كامل ، ومنظم جيداً.

ولتحقيق ذلك ، فقد يشكلون جزءا من وثيقة ، تم إعدادها مسبقا من قبل آسريه. حيث كان يتم وضع هذه الوثيقة بين يدي العقيد ، بل ويسمح له حتى بإجراء بعض التغييرات الطفيفة في الصياغة ، وقبل أن يضع توقيعه عليها.

كان العقيد حتى ذلك الوقت ، قد أصبح شبه منهار ، ومنكسراً تماما. مما جعله مُغيّب العقل ، والتركيز ، في كثير من ومشتت الفكر والذهن ، مما جعله في حالة شبه منفصلة عن الواقع-والذي كان سيئا كالجحيم في طبيعة الحال-ولأسابيع طويلة.

وفي نهاية المطاف ، اضطره الأمر إلى أن يضع توقيعه على الاعترافات الملفقة ، وذلك بعد أن حُرم من النوم لأيام متواصلة. لقد وقّع على تلك الاعترافات وهو يشعر بكآبة لا مثيل لها ، وكانت أمنيته ، وكل ما طلبه ، هو أن يدعوه ينام قليلا. والاستراحة من كل شيء.

يحاول الانسان حين يتعرض إلى الضغوط ، في كثير من الأحيان ، الصمود

قدر استطاعته ، بل وقد يتعدى ذلك حدود قدرته على التحمل ، ولكنه لا شك بأنه سينهار.

وحتى لو أن الانسان الضحية ، قد يعتقد بأن معذبيه سيكون لديهم بعض الأخلاق الأساسية كبشر ، وبأنهم سوف يدركون في النهاية ضخامة جرائمهم ، وسيخلون سبيله بمفردهم. فإن ذلك لن يكون سوى وهم خادع. وهذا ما حدث مع العقيد الأسير.

كما أن الطريقة الوحيدة لتقوية دفاعات المرء ضد هجوم منظم على العقل والإرادة ، هو الفهم الأفضل لما يحاول العدو القيام به ، ومن ثم تجاوزه.

بالطبع ، يمكن للمرء أن يبقى متمسكا بعهوده حتى الموت ، ولكن المحققين يستطيعون التلاعب بحياة الضحية كما يرغبون ، وقد يعملون على التخفيف من رغبة الضحية حتى في الموت ، وذلك عن طريق حقن الضحية بالمخدرات تارة ، وبالمنشطات حينا إلى أن يتم الاعتراف المطلوب.

ويمكن حتى إحضار الضحايا إلى عتبة الموت ، ومن ثم تحفيزهم على الحياة مرة أخرى ، وذلك حتى يمكن تجديد نوبات العذاب. كما أن محاولات الانتحار تكون متوقعة تماما ، ولكن يمكن إيقافها.

وفي رأيي ، فإنه بالكاد يمكن لأي شخص أن يقاوم مثل هذه المعاملة. ولأن كل هذا يتوقف على قوة الأنا للشخص ، وعلى التقنية الشاملة للباحث.

كما أن لدى كل إنسان حد خاص به من القدرة على التحمل ، ولكن يمكن الوصول إلى هذا الحد تقريباً ، بل وحتى تجاوزه ، إن كان مدعوما بالأدلة السريرية.

لا أحد يستطيع أن يتنبأ لنفسه بكيفية تعامله مع موقف ما ، عندما يتم استدعاؤه للاختبار.

في حين أن تقرير الولايات المتحدة الرسمي عنغسيل الدماغ[1] يعترف بأن:

---

1 -The New York Times, August 18,1955. The New York Times, February 27,1955.

جميع الأمريكيين تقريباً ، المتعاونين في وقت ما ، وفي درجة أو أخرى ، قد فقدوا هويتهم كأمريكيين. كما فقد الآلاف إرادتهم في العيش وهكذا.

كما يقدم التقرير البريطاني مسحاً إحصائياً حول إساءة استخدام أسرى الحروب.

ووفقاً لهذا التقرير ، فقد استوعب ثلث الجنود ما يكفي من التلقين الملفق ليُصنفّوا كمتعاطفين شيوعيين.

كما ويصف نفس التقرير ، وبطريقة أكثر اتساعاً ، بعض الوسائل السادية التي يستخدمها العدو:

فإذا قبل السجين النظريات الشيوعية ، أصبحت حياته أسهل ، وذلك حسب ما ذكره بعض المعتقلين والأسرى.

ولكن إذا قاوم أحد السجناء المبادئ الشيوعية ، فقد كان الصينيون يعتبرونه قد ارتكب فعلا إجرامياً ، ورجعياً ، ولذلك فهو يستحق أن يعاقب بأبشع الأعمال الوحشية. والتي كانت تشمل عمليات التعذيب الرهيبة ، والمتعددة ، والتي طُبقّت على أولئك الرجعيين في بعض الحالات كما يلي:

- جعل السجين يقف في مكانه ، أو أن يجلس وساقيه ممدودتين ، وفي صمت تام من الساعة الرابعة والنصف صباحا ، وحتى الساعة الحادية عشر ليلا. والعمل على إيقاظه باستمرار كلما غط في النوم ، وبطريقة عنيفة ، وذلك خلال الساعات القليلة المسموح بها للنوم.
- إبقاء السجناء في الحبس الانفرادي في صناديق لا تزيد مساحتها أكثر من خمسة أقدام مربعة ، وإبقائه واقفا على قدميه.

وقد كان أحد منتسبي فرقة"فوج غلوسيستر "Gloucester Regiment الخاصة قد أمضى أكثر من ستة أشهر في واحدة منها.

- حجب السوائل لعدة أيام وذلك لمساعدة الموقوف على التفكير الذاتي.
- ربط أحد السجناء بحبل يمر فوق العارضة ، بحيث يتم تثبيت نهاية واحدة

من نهايات الحبل التي يتم ربطها كمشنقة ، ومن ثم توضع حول العنق ، فيما يتم ربط الجهة الأخرى للحبل بكاحليه. ومن ثم يتم إخبار الضحية بأنه إذا ما انزلق ، أو حنى ركبتيه ، فإنه سينتحر.

- إجبار السجين على الركوع على الصخور المدببة ، والمسننة ، ومن ثم إمساك صخرة كبيرة على رأسه ، وذراعيه ممتدتين. وقد استغرق الأمر من رجل خضع لتلك المعاملة ، عدة أيام لاستعادة القدرة على المشي.

وفي أحد المعسكرات ، دفع حراس السجن الكوريون الشماليون قطعة من الخشب ، أو المعدن ، والتي تشبه قلم الرصاص ، عبر ثقب في باب الزنزانة ، ومن ثم جعل السجين يُطلب من السجين-الذي لا يرى شيئا من الخارج-وضع النهاية الداخلية للقطعة المعدنية بين أسنانه ، ومن ثم ، ودون سابق إنذار ، يقوم الحارس بطرق النهاية الخارجية للقطعة المعدنية بحيث يكسر أسنان الضحية ، أو تمزق له حنكه.

وفي بعض الأحيان ، كان يتم إدخال القضيب في الظهر ، أو في مؤخرة الفم ، أو أسفل الحلق.

كما كان يُجبر السجناء على السير حفاة الأقدام فوق مياه نهر"يالو Yalu" المتجمدة ، ومن ثم سكب الماء على أقدامهم المتورمة ، واحتجازهم لساعات ، وهو وقوف فوق المياه المتجمدة ، مما يؤدي إلى تجمّد أقدامهم وتحوّلها إلى قطع من الجليد لكي يفكروا جيدا في الاعتراف عما اقترفوه من الجرائم.

كما وقد بات من المعروف بأن كلا من الوقت ، والخوف ، والضغط المستمر ، تخلق حالة من تشويه العقل عبر جلسات التنويم المغناطيسي. وذلك لأن الجزء الواعي من الشخصية ، لم يعد يشارك في الاعترافات التلقائية. في حين يعيش الدماغ في غيبوبة ، ومن ثم يبدأ بتلقي وإعادة المعلومات إلى عقله ، والتي يقوم بتلقينها شخص آخر.

ولحسن الحظ ، فإن هذا أيضاً معروف: فبمجرد عودة الضحية إلى الظروف

العادية ، تتبخر معلومات ذلك المُلقن الإملائي ، وكذلك الاعترافات الملفقة بالذنوب—التي لم يرتكبها الضحية في الأساس—وذلك بعد أن يوقظ من جديد.

وهذا ما حدث بالضبط أثناء التحقيق مع الكولونيل شوابل.

صحيح أنه اعترف بجرائم لم يرتكبها ، ولكنه كان يرفض اعترافاته بمجرد إعادته إلى بيئته المألوفة.

كما أنه ، وعندما كانت تبدأ جلسات التحقيق العسكري في قضية الكولونيل "شوابل Schwable" كان يتم استدعائي للإدلاء بشهادتي كخبير في غسل الدماغ ، وقد عبرت للمحكمة عن قناعتي العميقة ، بأن أي شخص يتعرض لمعاملة شبيهة بالتي تعرض لها الكولونيل شوابل فإنه قد يضطر لكتابة إملاءات اعتراف مماثل. كما أنني على يقين تام بأن:

أي شخص في هذه القاعة ، على سبيل المثال ، سيواجه نفس النتائج التي تعرض لها الكولونيل وذلك في إجابتي على سؤال وجهه لي محامي الكولونيل ، وهو ينظر بدوره ، إلى كل من الضباط الذين يجلسون في قاعة المحكمة ، في هذه القضية الجديدة والصعبة.

وبضمير واع تماما ، يمكنني الرد بحزم: نعم. أي شخص في هذه القاعة سيقوم بذلك.

لقد أصبح من الممكن تقنياً الآن ، تحويل العقل البشري إلى حالة من الاستعباد والاستسلام. كما إن قضية شوابل وحالات أسرى الحرب الآخرين ، هي أمثلة مأساوية على ذلك ، ولكن ما جعلها تبدو أكثر مأساوية ، هو بسبب عدم فهمنا لحدود البطولة.

ولكننا قد بدأنا للتو ، فهم ما هي هذه الحدود ، وكيف يتم استخدامها ، من الناحيتين السياسية والنفسية ، من قبل الشموليين ، والاستبداديين.

لقد أدركنا ، ومنذ زمن بعيدأن اعترافات ضرب الصدر ، والتخلي عن الرأي العام كألاعيب دعائية. وهانحنذا الآن قد بدأنا نرى—وأكثر من أي ي وقت

مضى ، بوضوح كيف يستخدم الاستبدادي الشمولي طرق غسل الدماغ: عمداًن وعلنأن وبلا خجل ، كجزء من السياسة الرسمية ، وكوسيلة لتعزيز والحفاظ على قوته ، على الرغم من أن ذلك ، وبطبيعة الحال ، يعطي تفسيرا مختلفا للإجراء بأكمله—وكل هذا ، كان اعترافا بجرائم حقيقية وغادرة.

ولكن هذه التقنية الشمولية الوحشية ، لها على الأقل ، فضيلة واحدة. فقد أصبح ذلك واضحا—وبشكل لا لبس فيه ، و قد أصبحنا نحن بدورنا ، نتعلم أن نكون حذرين ضده ، ولكن ، وكما سنرى لاحقا ، فهناك أشكالا أخرى ، وأكثر دهاء من التدخل العقلي. ولتي يمكن أن تكون خطرة جدا مثل الهجوم المباشر ، لأنها أكثر دقة ، وبالتالي يصعب اكتشافها.

وفي كثير من الأحيان ، لا نكون على علم بعملها على الإطلاق. فهي تؤثر على العقل ببطء ، وبشكل غير مباشر ، لدرجة أننا قد لا ندرك حتى ما فعلوه بنا.

كما أن مثل تلك التقنيات الشمولية الاستبدادية فإن بعض هذه الأشكال ، الأقل وضوحاً للتلاعب العقلي ، تكون ذات هدف سياسي. في حين أن البعض الآخر ليس كذلك. وحتى لو كانت تختلف في النوايا ، فإنه من الممكن أن يكون لها نفس النتائج.

وذلك لأن هذه القوى الماكرة الخفية ، تعمل داخل العقل وخارجه. ولقد تعززت في تأثيرها من خلال النمو في تعقيدات حضارتنا.

وكما أن الوسائل الحديثة للاتصال الجماهيري تجلب العالم كله ، ويوميا ، إلى منزل كل إنسان ؛ فقد تم تنقيح تقنيات الدعاية ، والمبيعات وتنظيمها ؛ بحيث لا يكاد يوجد أي مكان للردع ، أو للاختباء من الاعتداء البصري واللفظي المستمرين على العقل.

وبالإضافة إلى ذلك ، فإن ضغوط الحياة اليومية المتباينة ، تدفع الكثير من الناس إلى التماس الهروب السهل من المسؤولية والنضوج.

ولذلك ، فإنه في الواقع ، من الصعب الصمود أمام هذه الضغوط بالنسبة

للعديد من العروض من العلاج البسياسي ، والمغرية جدا في بعض الحالات ، في حين أن الآخرين يفضلون عروض الهروب من خلال إدمان الكحول والمخدرات ، أو غيرها من الملذات الاصطناعية ، والتي لا تقاوم.

وبالتالي ، يجب على الرجال الأحرار في مجتمع حر ، أن يتعلموأن ليس فقط التعرف على هذا الهجوم المتخفي على السلامة العقلية ومحاربته ، بل يجب أن يتعلموا أيضاً ما يوجد داخل عقل الإنسان ، وما الذي يجعله عرضة لهذا الهجوم ، وما يجعله ، في كثير من الحالات في الواقع ، يتوق إلى مخرج من المسؤوليات التي تضعها تحديات الديمقراطية والنضوج على عاتقه.

الفصل الثاني

تلامذة "بافلوف PAVLOV" كلاعبي سيرك مروضين

قبل أن نسأل أنفسنا ما هي الآليات الراسخة والعميقة في غسيل الدماغ، والاعترافات الملفقة والخاطئة، وتحول الضحية إلى مجرد كائن مطواع، ومتعاون، دعونا نحاول رؤية الأشياء من وجهة نظر الحكام الاستبداديين.

وما هو هدفهم؟. وما هي الشروط التي يستخدمونها لوصف سلوك سجنائهم؟.

وماذا كانوا يريدون بالضبط من خلال الحقيق، سواء مع الكولونيل شوابل أو مع الكاردينال ميندزي؟

سوف نجد، من خلال بعض الملاحظات، بأن السجّانين المستبدين، لا يتحدثون عن التنويم المغناطيسي، أو حتى الاقتراح؛ وحتى أنهم ينكرون حقيقة الاعترافات المفروضة.

إنهم يفكرون في السلوك البشري، والحكومة البشرية، بطريقة مغايرة لذلك بكثير.

ومن أجل فهمهم، علينا أن نعطي مزيداً من الاهتمام لعشقهم للمفاهيم البافلوفينية المبسطة.

الكلب ذي اللعاب المنساب

في الجزء الأخير من القرن التاسع عشر، أجرى العالم الفائز بجائزة نوبل في روسيا "إيفان بتروفيتش بافلوف Ivan Petrovich Pavlov" تجاربه الشهيرة حول الجرس والكلب.

فقد كان يعلم أن اللعاب يرتبط بالأكل ، وأنه إذا كان الكلب جائعاً ، فإن اللعاب سوف يسيال من فمه كل مرة يرى فيها الطعام.

وقد استفاد بافلوف من هذا المنعكس النافع المفيد ، والذي يخدم عملية الهضم ، ليطور من خلال تجاربه على الحيوانات ، استجابة اللعاب كرد فعل على حافز لا يخلقه عادة.

ولكن في كل مرة كان العالم بافلوف يقدم الطعام للكلب الجائع ، كان يدق الجرس ، وكذلك في كل مرة يغذي فم الكلب.

ثم ، وبعد تكرار العديد من التحفيز بواسطة الجرس الغذائي المشترك لشد انتباه الكلب ، فقد أصبح العالم بافلوف يرن الجرس فقط ، ولكنه لم يطعم الكلب.

وهكذا ، فقد كانت ردة فعل الحيوان حول صوت الجرس وحده تتفاعل كما كان يتفاعل من قبل ، مع منظر الطعام— فقد كان لعابه يسيل لمجرد سماعه لصوت الجرس.

وبالتالي ، فقد اكتشف العالم بأن الكلب يمكن أن يُحرَّض على اللعاب ، وبشكل لا إرادي ، وذلك ردا على إشارة تعسفية.

ولأن كان شرط الرد على رنين الجرس ، كما لو كان هذا الصوت متعلقا برائحة ، ومذاق الطعام.

ومن هذه التجارب وغيرها ، طور بافلوف نظريته حول المنعكس المشروط ، والذي يفسر التعلم والتدريب ، كتركيبة فسيفساء من المنعكسات المشروطة ، حيث يقوم كل منعكس على تأسيس علاقة بين المحفزات المختلفة.

وكلما زاد عدد الاستجابات المعقدة المكتسبة -وتسمى أيضاً بالأنماط- كلما زاد عدد حالات المنعكس المشروطة ، والتي تم تطويرها. لأن الإنسان ، ومن بين جميع الحيوانات ، لديه القدرة الأكبر على التعلم ، فهو الحيوان الذي يتمتع بأكبر قدر من القدرة على التكيف.

ولذلك ، فقد كانت تجارب العالم بافلوف ذات قيمة كبيرة في دراسة السلوك الحيواني والبشري على حد سواء ، وفي دراسة تطور الأعراض العصابية.

ومع ذلك ، يمكن استخدام هذه المعرفة لبعض آليات العقل البشري كما رأينا بالفعل ، مثل أي معرفة أخرى ، سواء من أجل الخير أو من أجل الشر.

ولكن ، ولسوء الحظ ، فقد استخدم المستبدون معرفتهم عن كيفية عمل العقل ، لأغراضهم الخاصة.

لقد قاموا بتطبيق بعضا من نتائج أبحاث العالم بافلوف بطريقة خفية ومعقدة ، وأحياناً بطريقة غريبة ، وذلك في محاولة لإنتاج ردود الفعل على التكيف العقلي والسياسي ، وإخضاع الإرادة البشرية تحت سيطرتهم.

وعلى الرغم من أن النازيين قد استخدموا هذه الأساليب قبل الحرب العالمية الثانية ، إلا أنه يمكن القول ، بأنهم قد وصلوا إلى مرحلة ازدهار تلك الأساليب الكاملة في روسيا السوفياتية.

فمن خلال التكرار المستمر للتلقين ، ورنين الجرس ، والتغذية ، فإنه من المتوقع أن يصبح الرجل السوفييتي آلة رد فعل مشروطة ، ويتفاعل وفقاً لنمط تم ترتيبه مسبقاً ، كما فعل كلاب المختبر.

ولكن يبقى مثل هذا المفهوم المبسط ، على الأقل ، يتجول في أذهان بعض القادة والعلماء السوفييت.

ووفقاً لإحدى توجيهات القائد السوفياتي "ستالين Stalin" فقد احتفظت موسكو بما سمي جبهة بافلوف. وبخاصة المجلس العلمي حول مشاكل النظرية الفسيولوجية للباحث الأكاديمي بافلوف.

وبالتالي ، فقد اصبحت هذه المؤسسات ، وهي جزء من أكاديمية العلوم ، مكرسة للتطبيق السياسي لنظرية بافلوف.

ولذلك ، فهي تخضع بالتأكيد ، للأوامر التي تؤكد على الجوانب الميكانيكية البحتة لنتائج العالم بافلوف.

في حين يمكن لمثل هذه النظرة النظرية ، أن تقلل من جميع العواطف البشرية ، وتحيلها إلى نظام آلي بسيط من الانعكاسات المشروطة.

كانت كلا المنظمتين عبارة عن وكالات مراقبة تتعامل في مشاكل البحث ، وكان العلماء الذين يعملون عليها يستكشفون الطرق التي يمكن من خلالها أن يكون الإنسان مشروطاً ، ومدرباً كحيوانات.

وبما أن نظرية بافلوف والتي كان قد أعلن عنها المنظرون الشموليون بعبارات متعجرفة كبشارة للسلوك الحيواني والبشري ، فإنه يتوجب علينا أن نتصارع مع الحقائق التي يقدمونها لإثبات وجهة نظرهم ، وبأساليبهم وتفسيراتهم النظرية.

إن ما يحاول مجلس البحث البافلوفي تحقيقه ، هو نتيجة التبسيط في علم النفس. وتتمثل مهمتهم السياسية في وضع وصقل عقل الإنسان ، بحيث يقتصر فهمه على مفهوم شمولي ضيق للعالم.

ولذلك فإن فكرة أن مثل هذا الحد من التفكير في التفكير النظري الماركسي الذي اعتمده"لينين" يجب أن يكون ممكنا لسببين:

أولا: إذا ما كرر المرء تبسيطه في الغالب.

ثانيا: إذا حجب أحد ما ، أي شكل آخر من أشكال تفسير الواقع.

كما ويستند هذا المفهوم إلى الاعتقاد الساذج بأن المرء يستطيع ، وبشكل دائم ، قمع أية وظيفة حرجة ، والتحقق في التفكير البشري.

لكنه ومع ذلك ، فإنه ، ومن خلال ترويض وتهيئة الناس ، فلا بد خلال هذه الفترة ، من تصحيح الأخطاء ، والانحرافات باستمرار ، ومن دون قصد ، بحيث يتم بناء شعور نقدي صحيح.

وفي نفس الوقت ، يتم جلب خطر استخدام هذا المعنى النقدي للتلاميذ. إنهم يعرفون مخاطر أية معارضة ، ولكن حتى هذا ، سيعزز من تطوير مفهوم نقدي ثانوي أكثر دقة.

وفي نهاية المطاف ، لا يمكن قمع التمرد البشري والمعارضة ؛ فهم ينتظرون

نفساً واحداً من الحرية لكي يستيقظوا مرة أخرى.

كما أن فكرة وجود طرق أخرى للحقيقة عن تلك التي يراها قريبة في متناول الجميع في مكان ما في كل شخص.

يمكن للمرء أن يضيق مسارات البحث والتعبير ، ولكن إيمان الانسان بالطرق الجديدة للمغامرة ، في أي مكان آخر موجود على الإطلاق ، ولكن في ذهنه.

فالعقل البشري الفضولي لن يكون راضيا أبداً عن مجرد تكرار الحقائق. وبالتالي ، فإنه ، وبمجرد أن يلاحظ مجموعة من البيانات ، فإنه يقفز إلى مجال النظرية ويقدم التفسيرات ، ولكن الطريقة التي يرى بها الانسان مجموعة من الحقائق ، والطريقة التي يوجه بها إلى بناء هذه النظرية ، والتي تحددها ، وإلى حد كبير ؛ التحيزات والأحكام المسبقة.

واسمحوا لي أن أكون أول من يعترف بأنني متأثر بخصوصياتي الخاصة. وحيث يتم تحميل ، حتى الكلمات التي نستخدمها ، مع الآثار والاقتراحات.

كما أن كلمة منعكس على سبيل المثال ، مهمة جدا في نظرية بافلوف ، وهي مثال مثالي على هذا.

وقد استخدمه لأول مرة فيلسوف القرن السابع عشر"ديكارت" والذي كان نظامه الفلسفي موازياً ، بين تصرفات جسم الإنسان ، وتلك الخاصة بالآلة.

وعلى سبيل المثال ، فإنه في النظرة"الديكارتية" تتم مقارنة رد الفعل التلقائي للجسم مع بعض المؤثرات المؤلمة(مثل سحب اليد بعد ملامستها للنار) مع الانعكاس المادي التلقائي للضوء من المرآة. وحيث يعكس الجهاز العصبي ، حسب ديكارت ، استجابته كما تفعل المرآة.

وهكذا ، فإن مثل هذا التفسير البسيط للسلوك ، والكلمات المستخدمة لوصفه ، ينفي على الفور جميع الكائنات الحية المشاركة في هذا الرد.

ولكن ، ومع ذلك ، فإن الإنسان ليس مرآة فحسب ، بل مرآة تعكس التفكير. ووفقاً للرؤية الميكانيكية القديمة ، ترتبط الإجراءات فقط بجزء الجسم الذي

يؤدّيها ، ولا علاقة لها على الإطلاق بالسلوك الهادف للكائن الحي ككل.

بيد أن الإنسان ليس آلة مكونة من أجزاء تعمل بشكل مستقل. فهو الكل. كما أن عقله وجسمه يتفاعلان معا ؛ ويتصرف على صعيد العالم الخارجي ، وكذلك بما يتعلق بمؤثرات العالم الخارجي عليه. كما أن بعض ردود الفعل تكون فطرية في بعض الأحيان ، ومن بينها سحب اليد أثناء شعورها بالحرارة الزائدة على سبيل المثال ، والتي تعتبر جزء من نظام كامل من الاستجابات التكيفية التي تساعد الأفراد ، ككيانات ، على التكيف مع الظروف المتغيرة.

ويمكن وصفها بأنها نتيجة لاتجاه التكيّف الفطري. ولكن الفرق الحقيقي الوحيد بين ردود الفعل الفطرية ، وردود الفعل المشروطة هو أن المفترض أن تكون الأولى قد تطورت من خلال تطور الجنس البشري بأكمله ، وعلى مدى ملايين من السنين من العملية التطورية ، في حين تم تطوير هذا الأخير خلال فترة حياة الفرد ، ونتيجة للتدرج التلقائي التدريجي للردود المكتسبة.

وهكذا ، فإذا قمت بتحليل أي من الإجراءات المعقدة التي قد تقوم بها خلال يوم واحد(كقيادة السيارة ، على سبيل المثال) ، فسترى أنه يحدث خارج إدارتك الواعية.

ولكن مع ذلك ، وقبل أن تتم عملية المعالجة التلقائية ، يجب أن تكون الأعمال موجهة نحو هدف معين ، وان تتم إدارته بشكل واع ، والتي لم تكن قد ولدت مع منعكس فطري من التشويش على الفرامل لوقف السيارة التي تسير بسرعة في حالات الطوارئ. فقد كان يتوجب عليك أن تتعلم كيفية القيام بذلك ، وفي عملية التعلم والقيادة ، أصبحت هذه الاستجابة تلقائية.

وهكذا ، فإذا تعلمت ، وبعد أن تعلمت قيادة السيارة ، أن تشاهد طفلاً يمر عبر مسار سيارتك ، فإنك ستضغط على الفرامل على الفور ، وذلك من خلال المنعكس ، ودونما تفكير.

تكييف الإنسان

لقد تعلمنا من خلال أبحاث بافلوف عن آلية العقل ، كيف أن كل الحيوانات-بما في ذلك الإنسان-تتعلم التكيف مع القيود الحالية ، من خلال ربط علامات وإشارات الحياة بتفاعلات الجسم.

وحيث يخلق العقل علاقة بين التكرارات المتزامنة المتكررة ، ويتفاعل الجسم مع الاتصالات التي يتكون منها العقل.

وهكذا ، فقد أصبح الجرس ، في كل مرة يتم فيها تغذية الكلب ، إشارة إلى الحيوان ، للتحضير لعملية الهضم ، وبالتالي يبدأ لعاب الحيوان بالسيلان كمنعكس شرطي.

كما وتظهر التجارب الأخيرة التي أجراها الدكتور"غريغوري رازران Gregory Razran" من جامعة "كوينز Queens" كيف يمكن أنه يمكن للإنسان تطوير هذه الأنواع نفسها من الاستجابات.

فقد عالج الدكتور"رازران" مجموعة من عشرين طالباً جامعياً ، وربطهم إلى سلسلة وجبات غداء مجانية ، عُرضت خلالها موسيقى أو صور. وبعد مأدبة الغداء الأخيرة ، تم جمع هؤلاء الطلاب العشرين ، مع مجموعة أخرى لم تكن من ضيوف الغداء.

وفي هذا الاجتماع ، كما في كل وجبة غداء ، تم عرض الموسيقى والصور المعروضة ، وطُلب من جميع الطلاب أن يخبروا ما الذي جعلتهم الموسيقى والصور يفكرون فيه.

وهكذا ، فإن المجموعة الأولى-التي كانت معتادة على تناول الطعام مع الموسيقى والصور بشكل عام ، قالت بأن تلك الموسيقى والصور المعروضة ، قد ذكرتهم بشيء يتعلق بالطعام ، في حين لم تُشكل لدى المجموعة الثانية أية ذكريات. كما كان هناك ، وبوضوح ، اتصال مؤقت في عقول ضيوف الغداء ، بين الموسيقى والصور من ناحية ، وبين تناول الطعام من جهة أخرى.

ومن ناحية أخرى ، فقد قام الصينيون بتكييفهم الجماعي بطريقة أبسط. فبعد أن علّموا السجناء ، ولأيام ، كيفية تدوين كل الأكاذيب ، والمعلومات الملفقة المطلوب ذكرها في اعترافاتهم السياسية المحتملة -وفي جو من الارتباك والتوتر- كانوا قد نضجوأن و للتوقيع بشكل جماعي على تلك المعلومات الكاذبة ، حول المشاركة في الحرب الجرثومية.

وهكذا ، تعتبر جميع المنعكسات المشروطة عبارة عن تعديلات مؤقتة ، لا إرادية ، للضغوط التي تخلق علاقة واضحة بين المنبهات ، والتي قد تكون في الواقع غير مرتبطة تماماً.

ولهذا السبب ، لا يتم بالضرورة تنقيح المنعكس بشكل دائم على الفرد ، ولكن يمكن أن يختفي تدريجيا. ولكن إذا تم تطوير رنين الجرس مراراً وتكراراً ، وبعد أن يتم تجديد رد الفعل المنعكس لصوت رنين الجرس على ردة فعل الكلب ، وحين لا يتم عرض أي طعام على الحيوان ، فسيختفي منعكس اللعاب.

ولا شك أن طلاب الدكتور"رازران" لن يفكروا دائماً في الطعام عندما يسمعون الموسيقى.

ولذلك ، يمكننا وصف المنعكس المشروط بطريقة أخرى: وعلى إنه عبارة عن استجابة مختارة من وحدة العقل والجسم إلى حافز معين. كما وتختلف الطرق التي يرتبط بها الحافز والاستجابة بشكل كبير-فقد تكون مرتبطة بالزمان أو في المكان ، أو بالصدفة ، أو من خلال هدف مشترك-وبالتالي قد تشكل عقدة معقدة خاصة في موقفنا العقلي والجسدي.

في حين تكون بعض هذه الاستجابات أو الأنماط المعقدة أكثر استقلالية عن غيرها ، وسوف تتصرف مثل الأنماط الفطرية.

وقد يكون بعضها مرنا ، وتتغير باستمرار. وذلك كتحليل بعض الأمراض النفسية ، على سبيل المثال ، حيث يتبين لنا كيف يمكن لمواقفنا العاطفية الداخلية أن تتكثف ، أو حتى تغير استجابة مشروطة.

فقرحة المعدة هي مثال على مثل هذا المرض النفسي. كما أنها قد تنشأ عندما يقوم الجسم بتصنيع الكثير من حمض الهيدروكلوريك ، وهو ضروري لعملية هضم الطعام. وحيث أن مريض قرحة المعدة هو الشخص الذي يتفاعل مع العواطف القوية ، وخاصة العداء المكبوت ، مع إفراز مفرط لحمض الهيدروكلوريك. وهو انعكاس إفراز فطري ، ومواتٍ لعملية الهضم في حالة الجوع ، ولكنه ينمو إلى رد فعل مشروط غير مواتٍ حيث يزيد من شدة مشاعر الجوع ، والعدوانية بشكل متبادل ، إلى إفراز حمضٍ الهيدروكلوريك. وتدريجيا ، ويتم تصنيع المزيد والمزيد من السائل الحامضي حتى يجد المريض نفسه يعاني من القرحة. في حين تستهلك المعدة ، كما كانت ، نسيجها الخاص.

كما يمكن رؤية هذا التناقض نفسه في العديد من العمليات التعليمية. فقد تغير الأم التي تضع طفلها على جدول تغذية صارم جداً ، استجابة الطفل المؤاتية للجوع ، إلى رد فعل عنيد ضد التغذية.

وهكذا ، فإنه ، ومن أجل تحقيق هدفنا ، علينا أن نكون مدركين إلى أن تكييف الهواء يحدث في جميع أنحاء موقعنا

وحيث نعيش في أكثر الطرق براعة ، وبطريقة واضحة.

كما ونكتشف أن قولبة شخصياتنا قد تحدث بطرق أكثر من ألف مرة من خلال أمور مثل: تدريب الوجبات المقدمة في مرحلة الطفولة المبكرة. والقسوة ، أو النغمة الموسيقية للكلمات التي توجه إلينا ؛ والشعور بالعجلة في محيطنا ؛ وثبات عادات الأسرة ، أو فوضى الآباء العصابيين ؛ والضوضاء الناجمة من أجهزتنا. وحجز أصدقائنا. والانضباط في مدارسنا وقدرة الأندية على المنافسة.

وبالتالي ، فنحن حتى مشروطون بأشياء أخرى مثل هشاشة لعبنأن وراحة منازلنا ، وثبات التقاليد ، أو فوضى الثورة.

فالفنان والمهندس والمعلم والصديق والعم أو العمة والخادم-كل ذلك يعطي شكلا لسلوكنا.

العزلة وغيرها من العوامل في التكييف

كان العالم بافلوف قد حقق اكتشافاً مهماً آخر: وهو أنه يمكن تطوير المنعكس المشروط بسهولة أكبر في مختبر هادئ وبأقل قدر من المحفزات المزعجة. حيث أن كلا من الحيوانات المدربة، يعرف ذلك، من تجربته الخاصة. فالمطلوب هو العزلة، وتكرار تقديم المنبهات لترويض الحيوانات البرية.

وقد صاغ العالم بافلوف نتائجه في قاعدة عامة ترتبط فيها سرعة التعلم ارتباطاً إيجابياً بالهدوء والعزلة.

وقد اتبع المستبدون هذه القاعدة. والذين أدركوا بأنه بإمكانهم ترويض ضحاياهم السياسيين، وبسرعة أكبر، في حال تم احتجازهم في أماكن معزولة، وتركوهم في عزلة تامة.

ففي الأسلوب الشمولي للتحكم في الفكر، يتم تطبيق نفس العزلة المطبقة على الفرد أيضاً، على مجموعات من الأشخاص.

وهذا هو السبب في أنه لا يُسمح للسكان المدنيين في البلدان الاستبدادية بالسفر بحرية، بل ويظلون بعيداً عن التلوث العقلي والسياسي. وهذا هو السبب أيضا في بناء زنزانة الحبس الانفرادي، والسجون المعزولة.

كما أنه، ومن بين النتائج الأخرى التي توصل إليها العالم بافلوف هو أن بعض الحيوانات قد تتعلم بسرعة أكبر إذا تمت مكافأتها(عن طريق الملاطفة، وتقديم قطع الطعام، وعن طريق التمسيد) في كل مرة تظهر فيها الاستجابة الصحيحة، بينما تعلم الآخرون بسرعة أكبر عندما تكون عقوبة عدم التعلم حافزا مؤلما.

أما من الناحية الإنسانية، فيمكن وصف الحيوانات الأخيرة على أنها تتعلم من أجل تجنب العقاب. وقد تكون هذه التفاعلات المختلفة في الحيوانات مرتبطة بتكييف مبكر من قبل الوالدين، ويجدون نظرائهم بين البشر.

ففي بعض الحالات لدى البشر، تعد استراتيجية المكافأة، والإطراء حافزاً

للتعلم ، بينما يثير الألم كل مقاومتهم وتمردهم. وفي حالات أخرى ، يمكن أن يكون القصاص والعقاب بسبب الفشل ، وسيلة لتدريبهم على النمط المرغوب.

وقبل أن يتمكن من القيام بعمله بفاعلية ، يجب على جهاز التعقب اكتشاف الفئة التي تنتمي إليها ضحيته.

فهناك أشخاص أكثر قابلية لغسيل المخ من غيرهم.

وقد يكون جزءا من الاستجابة فطرياً ، أو متعلقاً بالتكييف المبكر للتوافق.

كما ميّز العالم بافلوف بين النوع الأضعف من التعلم اللاإرادي ، حيث فقدت الاستجابة المكتسبة بمجرد حدوث بعض الاضطرابات ، والنوع الأقوى ، حيث تم الاحتفاظ بالتدريب من خلال جميع أنواع الظروف المتغيرة.

وفي واقع الأمر ، فقد وصف بافلوف المزيد من أنواع التعلم ، وبشكل أوسع من هذا ، ولكن بما يخدم أهدافنا ، فمن المهم فقط معرفة أن هناك بعض الأنواع من الأشخاص الذين يفقدون تعلمهم بسهولة ، بينما يحتفظ الآخرون بها ، بما يسمى الأنواع الأقوى.

وهذا ، بالمناسبة ، هو مثال آخر على كيف أن اختيارنا للكلمات يعكس تحيزنا. ويعتمد الوصف قوي وضعيف تماماً على هدف المجرب.

اما بالنسبة للشموليين المستبدين ، فإن أسير الحرب السجين ، والضعيف هو السجين الذي يرفض ، ويعناد قبول التكييف الجديد. ولذلك فقد يكون ضعفه في الواقع ، هو مقاومة ، ونتيجة لتكييف قوي سابق للولاء للمبادئ المناهضة للشمولية والاستبداد.

ولا نعرف أبداً مدى قوة التأثر والتعلم المبدئي على الشخصية. ولأن السلوك العقائدي الجامد ، له جذوره في التكييف المبكر ، وكذلك قد يكون الخضوع ، قائماً على الجهل أكثر من المعرفة.

لقد أظهر العالم بافلوف أيضاً ، كيف تتفاعل العوامل الداخلية بوالخارجية في عملية التكييف. فإذا ، على سبيل المثال ، تم جلب مساعد بمختبر جديد

للعمل مع الحيوانات ، فإنه يمكن ، وبسهولة منع جميع أنماطها المكتسبة حديثا ، بسبب ردود فعل عاطفية للحيوانات على الوافد الجديد.

وقد شرح بافلوف ذلك على أنه رد فعل مدمر تسببت فيه ردود الفعل التحقيقية للحيوانات ، مما أدى بهم إلى الشمات حول الغريب.

في حين يميل علم النفس الحالي إلى تفسيره كنتيجة للتغير العاطفي والى العلاقة بين الحيوان ومدربيه.

كما يمكننا ، وبسهولة ، من توسيع الآثار المترتبة على هذه النظرة ، والأكثر حداثة ، في مجال العلاقات الإنسانية.

ويشير إلى حقيقة مفادها أن هناك بعض الأشخاص ، من الذين يمكنهم خلق علاقة فورية مع الآخرين ، بأن هذا الأخير سيتخلى قريبا عن العديد من العادات القديمة ، وطرق الحياة السبقة ، لتتوافق مع المطالب الجديدة.

وبالإضافة إلى وجود بعض المحققين الذين تؤثر شخصيتهم ، وبعمق ، في ضحاياهم ، ولدرجة أن الضحايا يفشون لهم أسرارهم ، وبسرعة ، بل ويقبلون طرق تفكير جديدة بالكامل.

كما يمكننا أن نرى نفس الأمر في العلاج النفسي ، حيث يكون تطور العلاقة العاطفية بين الطبيب والمريض هو العامل الأكثر أهمية في العلاج.

وفي بعض الحالات يمكن تأسيس علاقة مباشرة ، وفي حالات أخرى ، لا يمكن بناء علاقة على الإطلاق ، وفي معظم الحالات التي تتطور تدريجياً خلال فترة العلاج.

ولذلك ، فإنه ليس من الصعب على الطبيب النفسي أن يختبر نعومة الانسان ، ورغبته في التكيّف.

وبالفعل ، فقد طور العالم بافلوف استبيانات بسيطة ، يمكن من خلالها ، وبسهولة ، تحديد عدم استقرار فرد ما ، والقدرة على التكيف مع الاقتراحات ، وغسيل الأدمغة.

كما وجد العالم بافلوف بأن كل أنماط التكييف ، ومهما كان قوتها ، قد تحول دون الملل ، أو من خلال تكرار الإشارات الضعيفة للغاية.

فلم يعد الجرس يثير اللعاب في كلاب مختبر التجارب إذا تكررت في كثير من الأحيان ، أو كانت ذات رنين ناعم للغاية. أو إن وقعت عملية عدم الكشف.

وكنتيجة لمثل هذا التثبيط الداخلي للتكييف ، وفقدان العمل المنعكس المشروط ، يكون في النوم. وحيث ينتشر التثبيط على كامل نشاط قشرة الدماغ ؛ حيث الكائن الحي يقع في حالة منومة.

وقد كان هذا التفسير لعملية التثبيط من أولى النظريات المقبولة للنوم. أما السؤال النفسي المهم ، فهو ما إذا كان التكييف الرسمي المفرط ، يسبب الملل والتثبيط ، وما إذا كان هذا هو السبب في أن حركة "ستاخانوفيت Stakhanovite " في روسيا كانت ضرورية للتصدي لفقدان الإنتاجية لدى الناس.

كما ويمكننا إجراء مقارنة مع ما حدث لأسرى الحرب في كوريا. والذين كانوا تحت الإشارة اليومية للتهوين من الأسئلة الروتينية - فكل كلمة يمكن أن تكون بمثابة إشارة بافلوفية - دخلت عقولهم في حالة من التثبيط وقللت من اليقظة. وهذا ما جعل من الممكن لهم التخلي ، ولو مؤقتا ، عن تكييفهم الديمقراطي السابق ، وتدريبهم.

فعندما كانوا قد كشفوا عن الطريقة الديموقراطية وقمعها ، يمكن لمحققيهم أن يبدؤوا بتعليمهم الفلسفة الشمولية والاستبدادية.

ومن أجل ذلك ، فإنه يجب أولاً تقسيم الأنماط القديمة من أجل بناء ردود فعل مشروطة جديدة. ويمكننا أن نتصور أن الضجر والتكرار يثيران الحاجة إلى الاستسلام ، والتضحية بكلمات العدو المثيرة.

وفي وقت لاحق سأعود إلى نظام المحفزات السلبية المستخدمة في تكييف غسيل المخ.

التكييف الجماعي من خلال الكلام

وفقا لأبحاث عالم النفس بافلوف الرسمية ، فإنه من الممكن اعتبار أن الكلام البشري ، هو أيضا نشاط منعكس شرطي. كما ويميز العالم بافلوف بين محفزات الدرجة الأولى ، والتي تحدد البشر والحيوانات مباشرة ، والمحفزات من الدرجة الثانية ، مع صفات تكييف أضعف وأكثر تعقيداً.

ففي نظام ما يسمى بنظام الإشارة الثاني ، تستبدل الإشارات اللفظية المحفزات الصوتية المادية الأصلية.

ولكن العالم بافلوف لم يُعط نفسه الكثير من الاهتمام لنظام الإشارة الثاني هذا.

فقد كان ، وبعد تركيز"ستالين Stalin" بشكل خاص في عام ١٩٥٠ على أهمية اللسانيات للتلقين الجماعي(كما نقل عن "دوبروغاييف Dobrogaev " أن علماء النفس الروسيين ، قد بدأوا العمل في هذا المجال).

وفي رسالته ، اتبع ستالين نظرية إنجلز والتي تنص على أن اللغة هي العنصر البشري المميز للمعدات التكيفية.

كما ان النغمة ، والصوت في الكلام لها جودة تكييف محددة ، وهي شيء يمكننا التحقق منه من خلال تجربتنا الخاصة في الاستماع إلى ، أو في إعطاء الأوامر ، أو في التعامل مع الحيوانات الأليفة لدينا.

وحتى المعنى الرمزي والدلالية للكلمات ، يمكن أن تكتسب جميعها جودة تكييف محددة.

فعلى سبيل المثال ، فإن كلمة خائن تثير مشاعر وتفاعلات مباشرة في أذهان الذين يسمعونها ، حتى لو كان هذا التصنيف التمييزي يطبق بطريقة غير شريفة.

وهكذا ، ومن خلال دراسة تفصيلية حول ردود الفعل الكلامية التي كتبها أحد علماء النفس الروس البارزين وهو "دوبروغاييف Dobrogaev" فإننا سنحصل على فكرة جيدة ، إلى حد ما ، عن طرق استخدام أنماط الكلام

وإشارات الكلمات في خدمة تكييف الكتلة البشرية، عن طريق الدعاية والتلقين.

أما المشاكل الأساسية للإنسان المروض، فهي بالأحرى، تبقى مجرد مشاكل بسيطة: هل يمكن أن يقاوم الإنسان حكومة عازمة على تكييفه؟.

ثم ما الذي يمكن للفرد فعله لحماية سلامته العقلية ضد قوة جماعة قوية؟.

وهل من الممكن التخلص من كل أثر للمقاومة الداخلية؟.

لقد أوضح العالم بافلوف بالفعل، بأن علاقة الإنسان بالعالم الخارجي، ورفاقه من الرجال، تهيمن عليها المنبهات الثانوية، ورموز الكلام.

كما يتعلم الإنسان أن يفكر بالكلمات، وفي كلمات الخطاب الممنوحة له، وتضع هذه الحالة تدريجياً في نظرته الكاملة للحياة وعن العالم.

وكما يقول الباحث "دوبروغاييف Dobrogaev" فإن اللغة هي وسيلة تكيف الإنسان مع بيئته.

كما "ويمكننا إعادة صياغة تلك العبارة بهذه الطريقة: إنها حاجة الإنسان للتواصل مع أقرانه، ورفقائه من البشر، والذين تتداخل مع علاقته بالعالم الخارجي، لأن اللغة والكلام نفسه-الأدوات اللفظية التي نستخدمها-هي متغيرة وليست موضوعية.

ويستمر الباحث"دوبروغاييف" في الحديث عن مظاهر الكلام التي تمثل وظائف منعكسة للدماغ البشري.

وبطريقة أبسط، يمكن أن نقول: بأن الكلام هو الذي يملي ويصوغ الكلمات، والعبارات التي نستخدمها، وهو سيد الصحافة والراديو، وهو سيد العقل.

كما أنه، وفي استراتيجية العالم بافلوف يمكن في نهاية المطاف، من استبدال قوة الرعب، بمنظومة جديدة لوسائل الاتصال.

كما ويمكن توزيع الآراء الجاهزة، ويوما بعد يوم، من خلال الصحافة والإذاعة، وهكذا، مرارا وتكرارا، حتى يصلوا إلى الخلية العصبية، ويزرعون نمطاً ثابتاً من التفكير في الدماغ.

وبالتالي ، فإن الرأي العام الموجه هو النتيجة ، وفقا لعلماء نظرية بافلوفيين لأسلوب الدعاية الجيدة ، واستطلاعات الرأي في التحقق من العمل الناجح المؤقت لنظريات العالم بافلوف في العقل.

ومع ذلك ، فإن استطلاعات الرأي قد تحسب فقط ما يدعي الناس أنهم يفكرون ويؤمنون به ، لأنه من الخطر عليهم أن يفعلوا غير ذلك.

وهذا ما اعتمد عليه العالم بافلوف في أبحاثه: وهو أن تكرار افتراضاتك ومقترحاتك ميكانيكياً ، يقلل من فرصة التواصل مع المعارضة. وهذه هي الصيغة البسيطة للتكييف السياسي للجماهير.

كما أن هذا أيضاً هو المثل الفعلي لبعض أجهزة العلاقات العامة لدينا ، والتي تأمل ـ بالتالي ، في التلاعب بالجمهور من أجل شراء صابون خاص مثلا ، أو من أجل التصويت لصالح حزب محدد.

لقد جعلت استراتيجية العالم بافلوف في العلاقات العامة الناس ، يسألون أنفسهم بشكل أكثر:

"ما الذي يفكر به الآخرون؟".

ونتيجة لذلك ، يتم إنشاء وهم مشترك: حيث يحرض الناس على التفكير في ما يفكر فيه الآخرون ، وبالتالي قد ينتشر الرأي العام. وفي تحيز جماعي.

كما ويمكن التعبير عنهم من خلال مصطلحات التحليل النفسي ، ومن خلال الضوضاء الدعائية اليومية التي تدعمها الإشارات اللفظية القوية ، ويجبر الناس أكثر فأكثر على التعرف على أصوات الضوضاء القوية. كصوت "الأخ الكبير" والذي يتألق في أصوات كل الإخوة الصغار.

وتخبرنا أخبار من الصين الحمراء ، كما أفاد صحفيون هنود محايدين ، أن القادة الصينيين يستخدمون هذا التكييف الصوتي للجمهور لتعزيز نظامهم. [صحيفة نيويورك تايمز٢٧ نوفمبر/تشرين الثاني ١٩٥٤.] في جميع أنحاء البلاد حيث تبث أجهزة الراديو والمكبرات الصوتية الحقائق الرسمية.

في حين أن الأصوات السكرية ، والمعسولة ، تستحوذ على ألباب الناس ، ويحتجز الطغيان الثقافي أذانهم بصوت عالٍ ، ويقول لهم ماذا يمكنهم فعله ، وماذا لا يمكن فعله أيضا.

وقد توقع الفيلسوف الفرنسي لاروشفوولد هذا الفرض في الميكروفون ، والذي قال في القرن الثامن عشر:

"إن الإنسان يشبه الأرنب ، فأنت تصطاده ، ومن ثم تلتقطه من أذنيه".

وهكذا ، وخلال الحرب العالمية الثانية ، أظهر النازيون أنهم أيضاً كانوا على دراية تامة بهذه القوة التكييفية للكلمة. وقد رأيت استراتيجيتهم تلك خلال العمل في هولندا.

فقد نشرت الإذاعة باستمرار الاقتراحات السياسية والدعائية ، واضطر الناس للاستماع لأن الفعل البسيط لإيقاف الراديو كان في حد ذاته مريباً.

كما وأتذكر يوماً ما أثناء الاحتلال ، وعندما كنت في رحلة بالدراجة مع بعض الأصدقاء. أننا توقفنا للراحة في مقهى ، على الطريق ، وقد أدركنا فيما بعد ، بأن ذلك المكان لم يكن سوى عش نازي حقيقي.

وعندما أعلن الراديو ، حين كنا قد وصلنا إلى ذلك المقهى ، بأن خطابا للقائد هتلر ستتم إذاعته في الحال ، حيث وقف الجميع بصمت وهم في حالة من الرهبة ، وكان من الضروري أن يستعمل الفوهرر التكييف الشفهي.

وقد اضطررت أنا وأصدقائي للوقوف أيضا ، بل وأجبرنا على الاستماع إلى ذلك الصوت الصاخب الذي يصمّ الآذان واستدعاء كل مقاومتنا ضد هذا الهجوم الطويل ، والممل ، والمكرر ، على طبلة الأذن ، والعقول.

وهكذا ، وطوال فترة الاحتلال ، فقد طبع النازيون أطناناً من أنماط الدعاية ، والأكاذيب الكبيرة ، والتشوهات.

وحتى أنهم ذهبوا إلى حد طلاء شعاراتهم على شرفات البيوت وفي الشوارع. وفي كل أسبوع صبحت تتكشف لنا الصور النمطية الجديدة ، والملفوفة ،

وكأننا قد تم إقناعنا بروعة الرايخ الثالث.

ولكن النازيين لم يعرفوا استراتيجية الالم بافلوف الصحيحة.

ولكن من خلال تلبية احتياجاتهم الخاصة لمناقشة ، وتغيير حججهم ، من أجل جعلها تبدو أكثر منطقية ، إلا أنها زادت من مقاومة الشعب الهولندي.

وقد تم تعزيز هذه المقاومة من قبل إذاعة لندن ، حيث كان بإمكان الهولنديين سماع الصوت العاقل لحكومتهم القانونية الخاصة.

ولو لم يكن النازيون يجادلون ويبررون ذلك كثيراً ، لكانوا قادرين على منع جميع الاتصالات المكتوبة ، أو المطبوعة ، أو حتى المنطوقة ، فإن فترة الملل الطويلة كانت ستحول دون تهيئتنا الديمقراطية ، وربما كنا قد أغوتنا أكثر من خلال التبسيط النازي. والشعارات.

التكييف السياسي

لا ينبغي الخلط بين التكييف السياسي ، وبين التدريب ، أو الإقناع ، أو حتى التلقين. بل قد أصبح ما هو أكثر من ذلك. إنه الترويض. والاستحواذ على أبسط أنماط الإنسان العصبية وأكثرها تعقيداً.

إنها معركة امتلاك الخلايا العصبية. إنه الإكراه وإجبار التحويل. وبدلا من تكييف الإنسان للمواجهة غير المنحازة للواقع ، وحيث يحيط به المغرورون ، والذين يبحثون عن كلمات السر ، والصور النمطية اللفظية ، والشعارات ، والصيغ ، والرموز.

ولذلك ، فإن استراتيجية بافلوف بالمعنى الشمولي ، تعني طبع ردود الفعل المحددة على العقل الذي تم تفصيله.

تريد الشمولية المستبدة أولا الاستجابة المطلوبة من الخلايا العصبية ، ومن ثم السيطرة على الفرد ، وأخيرا السيطرة على الجماهير.

يبدأ النظام بالتكييف الشفهي والتدريب من خلال الجمع بين الصور النمطية المطلوبة مع المحفزات السلبية أو الإيجابية: الألم ، أو المكافأة.

أما في حالة أسرى الحزب المعتقلين في معسكرات خاصة في كوريا ، فقد كانت تحدث حالات غسيل دماغي فردي ، وجماعي ، وكانت محفزات التكييف السالبة والإيجابية عادة ما تكون إما تجويعا ، أو غذاءً.

وفي اللحظة التي يتطابق فيها الجندي مع خط الحزب ، يتم تحسين حصته الغذائية: قل نعم ، وسأقدم لك قطعة حلوى!

في حين أن مجموعة كاملة من المحفزات السلبية ، كما رأينا في حالة الكولونيل شوابل كانت تتكون من الضغط الجسدي ، والضغط المعنوي ، والتعب ، والجوع ، والتكرار الممل ، والارتباك من قبل المنطقية على ما يبدو.

لقد أخبرني العديد من ضحايا الاستبداد في المقابلات التي أجريت معهم ، بأن التجربة الأكثر إزعاجا التي واجهوها في معسكرات الاعتقال ، هو الشعور بخسارة المنطق ، وحالة الارتباك التي جلبوها إلينا-الدولة التي لا يوجد فيها أي صلاحية.

وقد وصلوا إلى حالة من التشبيط في أبحاث بافلوف ، والتي يسميها الأطباء النفسانيون التفكك العقلي أو التفكك الشخصي.

وقد بدا كما لو أنهم لم يحصلوا على جميع ردودهم السابقة ، ولم يتبنوا بعد ردود فعل جديدة.

لكن في الواقع لم يكونوا يعرفون ببساطة ، ماذا كان ذلك.

لقد تُرجمت نظرية العالم بافلوف إلى طريقة سياسية ، وكوسيلة لتسوية العقل ، أو تشويهه ، وهي الأسهم المتداولة في تجارة الدول الاستبدادية.

فبعض النقاط النفسية التي تهمنا هي لأننا نرى أنه لا يمكن استخدام تدريب بافلوف بنجاح إلا عندما تسود الظروف العقلية الخاصة.

ومن أجل ترويض الناس إلى النمط المرغوب ، فإنه يجب إحضار الضحايا إلى نقطة حيث يفقدون فيها وعيهم ، ويصبحون في حالة تأهب وعيهم العقلي.

في حين أن حرية النقاش والتبادل الفكري الحر ، سيعوقان مرحلة التكييف.

ولذا ، يجب زرع مشاعر الرعب ، ومشاعر الخوف ، واليأس والوحدة ، والوقوف إلى جانب الجدار.

كما أن معاملة أسرى الحرب الأمريكيين في السجون الكورية ، قد تبعت المعسكرات مثل هذا النمط.

وقد اضطروا للاستماع إلى المحاضرات وإلى أشكال أخرى من وابل الكلمات اليومية.

وحقيقة أنهم لم يفهموا المحاضرات ، وكانوا يشعرون بالملل ، من الدورات الطويلة حالت دون تدريبهم الديمقراطي ، بل ويتم ربطهم بالابتلاع السلبي للنظام الغذائي العقائدي المرير ، ولأن السجناء لم يخضعوا فقط لبرنامج تدريبي سياسي ، ولكن أيضاً إلى برنامج الترويض اللاإرادي.

وقد كانت تلك المحاضرات ، موجهة ، إلى حد ما ، لتكون نوعا من الدعاية الشيوعية الموجهة نحو إعادة تدريب عقول السجناء.

كما أن هذا التدريب يمكن لجنودنا رفضه ، ولكن التكرار الذي لا نهاية له ، والشعارات المستمرة ، وجنبا إلى جنب مع الصعوبات البدنية ، والحرمان الذي عانى منها السجناء ، فقد تسبب في ترويض ، وتهميش اللاوعي ، والذي لا يمكن للقوة الداخلية والوعي المبني عليهما سوى أن يساعدوا فقط.

كما ولا يزال هناك سبب آخر لجنودنا الذين كانوا ، في بعض الأحيان ، محاصرين بالتكييف الشيوعي.

لقد علمتنا التجارب التي أجريت على الحيوانات ، وكذلك التجارب التي أُجريت على البشر ، بأن التهديد والتوتر والقلق ، بشكل عام ، قد يؤدي إلى التعجيل في إنشاء استجابات مشروطة ، وخاصة عندما تميل تلك الاستجابات إلى التقليل من الخوف والذعر حسب إحصائيات(سبنس Spence ، وفاربر Farber).

كما أن حالة الطوارئ في معسكر السجن والتعذيب النفسي ، توفر ظروفاً مثالية لمثل هذا التكييف.

بحيث يمكن أن تتطور ردود الفعل ، حتى عندما تكون الضحية غير مدركة تماماً لتأثيره.

وهكذا ، فقد طور العديد من جنودنا استجابات تلقائية ، بحيث بقيوا خلالها فاقدين للوعي تماماً(وفق إحصائيات"سيغالSegal").

ولكن هذا ليس سوى جانبا واحد من الموضوع ، لأن التجربة قد أظهرت أيضاً ، من أن الأشخاص الذين يعرفون ما يمكن توقعه في ظل ظروف الضغط النفسي ، يمكن أن يطوروا ما يسمى بالدفاع الحسي ، والذي يحميهم من التأثر.

وهذا يعني أن الأشخاص الأكثر دراية بمفاهيم التحكم بالفكر والقتل ، وكلما فهموا طبيعة وابل الدعاية الموجهة ضدهم ، كلما زادت المقاومة الداخلية التي يستطيعون طرحها ، على الرغم من أن بعض اقتراحات المحققين ، ستتسرب حتماً من خلال حاجز الدفاع العقلي الواعي.

ولذلك ، إن فهمنا لعملية التكييف ، سيقودنا أيضاً إلى فهم بعض ردود الفعل المتناقضة بين ضحايا معسكرات الاعتقال والسجناء الآخرين.

ففي كثير من الأحيان كان أولئك الذين لديهم اعتقاد بسيط ، وأكثر تصلبا ، في القدرة على تحمل الوابل المستمر من الأسئلة الموجهة ضد عقولهم ، وبالتالي كانوا أكثر تشنجا من المرونة المعقدة ، والمليئة بالشكوك والصراعات الداخلية. يمكن للإنسان البسيط ذو العقيدة الدينية العميقة الجذور ، والممتصّة بحرية ، أن يمارس مقاومة داخلية أكبر بكثير مما يمكن أن يقوم به المفكر المعقد الذي يتساءل.

وبالتالي فالمفكر المكرر ، هو أكثر تعقيدا من حيث الايجابيات والسلبيات الداخلية. أما في البلدان الاستبدادية ، وحيث أصبح الاعتقاد في استراتيجية العالم بافلوف يتسم بأبعاد غريبة ، فقد اختفى الإنسان ذاتي التفكير. حيث أن هناك رفض مطلق لأية محاولة للإقناع أو المناقشة. أو حتى للتعبير الذاتي الفردي ، والذي يعتبر من المحرمات. كما أن المودة الخاصة هي من المحرمات أيضا.

وهكذا ، فإن التبادل السلمي للأفكار في محادثة حرة سيخل بالتأثيرات

المرتدة ، ومن ثم فهو محظور.

كما لم يعد هناك أي أدمغة ، وأنماط مشروطة ، لا يوجد في تلك البلدان سوى عضلات متعلمة ومدربة على نمط معين ومرسوم فقط.

كما أنه ، وفي مثل هذا النظام للتخدير ، يُنظر إلى القهر العصبي كأصل إيجابي ، بدلاً من شيء مرضي. ويصبح العقل الباطني هو المثل الأعلى للتعليم.

بيد أنه ومع ذلك ، فغالباً ما يكون المنظرون السوفييت أنفسهم غير مدركين لهذا ، بل والكثير منهم لا يدركون العواقب الوخيمة لإخضاع الإنسان لتكييف آلي بالكامل.

كما أنهم هم أنفسهم ، وفي كثير من الأحيان ، يعانون من الخوف كما نحن ، وعلى صورة الروبوت البشري الذي يعمل بشكل مثالي.

وهذا ما كان قد قاله أحد علماء علم النفس ، وبأن:

الطبيعة الرجعية الكاملة لهذا النهج تجاه الإنسان واضحة تماماً. فالرجل هو إنسان يمكن أن يتسبب في إرادة واحدة! وهذا هو المثل الأعلى للرأسمالية!. هو حلم الرأسمالية في العالم في إنشاء طبقة عاملة بلا وعي ، وبحيث لا يمكن أن تفكر في نفسها ، ويمكن تدريب أفعاله وفقاً لأهواء المستغل!. هذا هو السبب في أنه في أمريكا ، والتي تعتبر الحصن المنيع للرأسمالية الحالية ، أن نظرية الإنسان كإنسان قد تم تطويرها بشكل قوي للغاية ، وعقدت على ذلك(حسب باورBauer).

في حين أن علم النفس الغربي والطب النفسي ، وعلى الرغم من الاعتراف بفضل أبحاث العالم بافلوف كشخصية رائدة قدمت مساهمات هامة في فهمنا للسلوك ، إلا أن النظرة الميكانيكية للإنسان تبقى أقل بكثير من رأي بافلوف لدى السوفييت.

وبالتالي ، فمن الواضح لنا أن تفسيرهم البسيط للتدريب ، يتجاهل ، ويرفض مفهوم التكيف الهادف ، ومسألة الأهداف التي يتم توجيه هذا التدريب إليها. كما ويميل علماء النفس التجريبي الغربيون ، إلى رؤية المنعكس المشروط ، بأنه يتطور

بشكل كامل فقط ، وخدمة لتلبية الاحتياجات الغريزية الأساسية ، أو لتجنب الألم ، وهذا ينتج فقط ، عندما يكون الكائن الحي كله معنياً بالنشاط. ففي تلك العملية المعقدة من الاستجابة للعالم ، تلعب الدوافع ، والدوافع الواعية ، ولا سيما تلك اللاواعية ، دوراً ، كما علّمنا العالم فرويد.

وحيث أن كل التدريب ، والذي تمثل الاستجابة المشروطة مثالاً واحداً فقط ، هو أتمتة الإجراءات التي تم تعلمها وتعمّقها في الأصل. أما المثل الأعلى لعلم النفس الديمقراطي الغربي ، فهو تدريب البشر على الاستقلال والنضج من خلال تجنيد معاناتهم الواعية ، والوعي ، والإرادة في عملية التعلم.

ومن الناحية الأخرى ، فإن المثل الأعلى لعلم النفس الاستبدادي هو ترويض الناس ، وجعلهم يرغبون في أن يكونوا مجرد أدوات في أيدي قادتهم.

وكما هو الحال في تمارين التدريب ، فإن الترويض يهدف إلى جعل الإجراءات تلقائية. على عكس التدريب ، فإنه لا يتطلب المشاركة الواعية من المتعلم.

وهكذا ، فإن كلا من التدريب وترويض الطاقة ، وأجهزة حفظ الوقت ، وفي كل من سر النفس ، مخبأة في العزم من الردود.

في حين إن إضفاء الطابع التلقائي على الوظائف في الإنسان ، يوفر له الإنفاق على الطاقة ، ولكن يمكن أن يجعله أضعف ، عندما يواجه تحديات جديدة غير متوقعة.

كما أن الروتين الثقافي ، وتكوين العادات من خلال القواعد والأساطير المحلية ، تجعل من كل إنسان لأن يكون جزئياً. وحيث يتم التصرف الوطني ، وكذلك العرقي من دون قصد.

وغالباً ما تنفجر الكراهية الجماعية تلقائياً ، تقريباًن عند إطلاقها بواسطة الشعارات ، والكلمات الرئيسية.

ويعتبر هذا التكييف الضيق النطاق في العالم استبدادي ، أكثر استخداما

وبشكل مثالي وأكثر عبثية.

أما الحجة الواجبة ليتم تكييفها ضمن أحد الاقتراحات ، والتي لا يهدف هذا الفصل إلى إيصالها ، فهو أن تكييف العالم بافلوف هو أمر خاطئ.

يحدث هذا النوع من التكييف في كل مكان يتواجد فيه الناس ، وفي التفاعل المشترك. فالمتحدث يؤثر على المستمع ، ولكن المستمع يكون أيضا هو المتكلم.

ومن خلال عملية تكييف الناس ، فإنه غالبا ما يتعلمون أن يحبوا ، ويفعلوا ، ما يسمح لهم بالقيام به فقط.

فكلما ازدادت عزلة المجموعة ، زاد تشديد التكييف الذي يحدث في تلك المجتمعات التي تنتمي إلى المجموعة.

كما أنه ، وفي بعض المجموعات ، يجد المرء أن الناس أكثر قدرة من الآخرين ، على نقل الاقتراح وتحقيق التكييف. وتدريجيا ، يمكن للمرء أن يميز الأقوياء ، والأصحاب المعدلين والمتكيفين بشكل أفضل ، والمجموعات الأخرى الأكثر خبرة ، والأخرى الأكثر تأثرا ، والتي تكون قدرتها على تكييف الآخرين أقوى.

كما أن كل مجموعة ، وكل نادي ، وكل مجتمع ، لديه نشرة نتائج ، وتعليمات بافلوفية وكذلك لديها جرس بافلوفي. كما أن هذا النوع من الأشخاص ، ينشر جرسه الداخلي على الآخرين ، ويعلمهم عليه. مع إمكانية حتى تطوير نظام رنين ذلك الجرس –الذي استخدمه العالم بافلوف في تجربته مع كلب المختبر ، وحيث: لا يسمح لأي جرس مؤثر بالتنافس معه.

ثمة سؤال آخر دقيق ، ينتمي إلى هذه المشاكل. وهو لماذا يوجد فينا حافز كبير لكي نكون مشروطين ، ومع الرغبة في التعلم ، والتقليد ، والالتزام ، واتباع نمط الأسرة والجماعة؟.

والجواب هو أنه يجب أن تكون هذه الرغبة في أن تكون مشروطة ، وتقديمها إلى النمط المجتمعي ونمط الأسرة ، مرتبطة باعتماد الإنسان على الآباء والأمهات ، و بقية الأشخاص المثرين في المحيط المجتمعي.

في حين أن الحيوانات ، لا تعتمد كثيرا على بعضها البعض.

كما أنه ، وفي المملكة التي يكون فيها الحيوان ، هو واحد من الكائنات الأكثر عجزا. فهو لا يزال مثل جنين قرد ، ولا ينمو أبداً في دولة ناضجة ، ومغطاة بالشعر. وفي حالته المستمرة كجنين ، أو كرضيع ، فهو لا يزال يعتمد على رعاية الأمومة ، والتعليم والتأهيل الأبوي.

ولكن من بين الحيوانات ، فإن الانسان ، نسبيا ، لا بد من أن يمر في فترة نضج أطول مما لدى الحيوانات ، ولذلك فلديه وقت كاف للتعلم على الأقل.

وهذا ما تخبرنا به نظرية"لويس بولك Louis Bolk" عن حالة الإنسان المتخلف ، وعن التبعية الاجتماعية التي لا تنتهي أبداً.

كما أن الحيرة والشك ، والتي تنشأ حتماً في عملية التدريب ، هي بدايات للحرية العقلية. ولكن بطبيعة الحال ، فإن الحيرة الأولية والشك ليسا كافيين. فوراء ذلك كله ، يجب أن يكون هناك إيمان بحرياتنا الديمقراطية ، وإرادة النضال من أجلها.

وفي هذا السياق ، أمل أن أعود إلى هذه المشكلة الأساسية للإيمان في الحرية الأخلاقية ، وعلى أنها تختلف عن الولاء والعبودية المشروطة في الفصل الأخير.

ولكن الغموض والشك هما بالفعل من الجرائم في الدولة الاستبدادية. وحيث أن العقل المفتوح للأسئلة ، يكون مفتوحا نحو المعارضة.

كما أنه في النظام الاستبدادي ، يجب قمع ذلك الذهن الشيطاني ، والفضولي ، والخيالي. ولا يُسمح للعبد الاستبدادي بالحفظ ، ولا حتى لعق ما في الطبق من طعام ، إلا عندما يرن الجرس.

ولكن مهمتي هنا ، ليست في أن أتناول ، وبالتفصيل ، موضوع الاستخدام المتحيز لقواعد العالم بافلوف من قبل الاستبداديين ، ولكن دون شك ، في جزء صغير من تفسير ، وأي علم نفس يتم تحديده بالطرق التي نفكر بها حول إخواننا البشر ، ومكانة الإنسان في الطبيعة.

وبالتالي ، فإذا كان هدفنا هو جعل مبدأ أولئك الأموات الأحياء (أو الزومبي إن صح التعبير) مشروطاً من الناس ، فإن إساءة استخدام القوانين التي وضعها العالم بافلوف الحالية ستخدم غرضنا.

ولكن بمجرد أن نصل إلى علمنا بشكل غامض ، وفي أنه في الصورة الشمولية للإنسان ، فإن المذكرة البشرية المميزة لا شك ستكون مفقودة ، وعندما نرى ذلك في مثل هذا المخطط ، يقوم الإنسان بالتضحية برغباته الغريزية ، وملذاته ، وأهدافه ، ومشاريعه ، وإبداعه ، وغريزته.

ومن أجل الحرية ، ومفارقاتها ، فإننا سنتحول فوراً ، ضد هذا الانحراف السياسي للعلم.

كما أن هذا الاستخدام لتقنية العالم بافلوف لا يهدف إلا إلى تطوير الإنسان في الإنسان ، وليس ذهنه الحر الجاني الذي يدرك الأهداف ، والأهداف الأخلاقية في الحياة.

وقد وجدنا على أنه ، حتى في الحيوانات المختبرية ، أن التوجه العاطفي يمكن أن يفسد تجربة العالم بافلوف. فعندما أدخل الطبيب المحبوب الكلب أثناء جلسة تدريب على الجرس ، خسر كل تكييفه السابق ، وبدأ ينبح بحماس.

وهنا ، مثال بسيط لحقيقة قديمة وهو أن:

"يمكن للحب والضحك ، أن يخترق كل تكييف صلب. كما أنه لا يمكن أن يوجد إنسان آلي صلب ، بدون تعبير ذاتي وعفوي".

وعلى ما يبدو ، فإن حقيقة أن المودة العفوية للكلب حيال سيده ، يمكن أن تدمر جميع الحسابات الميكانيكية ، والتلاعب في نظام حياته ، والتي لم تحدث أبداً للطلاب الشموليين في تجارب بافلوف.

الفصل الثالث

الدواء إلى المقدمة

كما رأينا بالفعل في الفصول السابقة ، فليس فقط الضغط السياسي ، والبيرلوفى ، هو الذي قد يجر عقل الإنسان إلى الخضوع الذليل. فهناك العديد من العادات ، والأفعال الإنسانية الأخرى ، قد يكون لها تأثيرات قسرية أيضا.

وقد تم تعميم جميع أنواع الشائعات التي تخبرنا كيف تم تسميم عقل المخ ، وقبل الاستسلام ، إلى المحققين المختصين بتلك الحالات ، وذلك باستخدام بعض الأدوية الغامضة.

يهدف هذا الفصل إلى وصف التقنيات الطبية -وليس فقط الأدوية- التي يمكن القيام بها للوصول إلى ما وراء أسرار الإنسان الداخلية.

وفي الواقع ، لم تعد الشرطة التي تتحكم في الفكر بحاجة إلى المخدرات ، رغم أنها كانت تستخدم في بعض الأحيان.

كما وسوف أتطرق إلى جانب آخر لهذه المشكلة أيضاً ، ألا وهو اعتمادنا الاجتماعي الخطير على العقاقير المختلفة ، ومشكلة الإدمان ، مما يسهل علينا الانزلاق إلى نمط الخضوع.

على الرغم من أن تعاطي الكحول لا يؤدي إلى ضياع عقلي تام عندما يتم تناوله. فإن ذلك ينطبق أيضا على متعاطي المسكنات ، والعقاقير المهدئة ، أو حبوبا أخرى. وقد يؤدي استخدام الكحول ، أو المخدرات إلى الاعتماد على المواد الكيميائية ، مما يؤدي إلى إضعاف القدرة على التحمّل لدينا في ظل ظروف استثنائية.

أما في مجال الطب العملي ، فلا يزال التفكير السحري متفشياً. وعلى الرغم من أننا نتغاضى عن أنفسنا ، بأننا عقلانيون ومنطقيون ، في اختيارنا للعلاج ، في مكان ما نعرف فيه أن المشاعر الخفية ، والدروس اللاواعية ، هي التي توجه يد كتابة تلك الوصفات.

وعلى الرغم من الانتصارات العلاجية في الخمسين سنة الماضية ، وعصر العلاج الكيميائي ، والمضادات الحيوية ، دعونا لا ننسى أنه يمكن استخدام نفس وسائل الانتصار الطبي لهزيمة أهدافنا.

في حين لا يمر أي يوم لا يتم فيه غمر بريد مكتب الطبيب باقتراحات حول ما يجب استخدامه في ممارسته الإكلينيكية. كما أنه يتدفق على مكتبي ، ومع الأدوات ، والحبوب متعددة الالوان ، والتي تقول لي أنه من دونها لا يمكن للبشرية أن تكون سعيدة.

إن الحملة الدعائية التي تصل إلى أعيننا وآذاننا الطبية ، غالباً ما تكون محملة بمقترحات ، بحيث يمكن إقناعنا بتوزيع المهدئات والمنشطات ، وحيث من شأن التفكير النقدي المباشر ، أن يردعنا ، وسنبحث عن الأسباب العميقة للصعوبات.

نعم. هذا صحيح. وليس فقط للعلاج الدوائي الحديث ؛ بحيث يمكننا أيضا ، أن نظهر نفس الاتجاهات في أساليب العلاج النفسي.

يهدف هذا الفصل إلى التعامل مع مشكلة الإكراه العقلي ، ومع سؤال: ما مدى إلحاح استخدام الأدوية الطبية والطرق النفسية والطبية؟.

لقد تمكنت في الفصول السابقة حول تشويه العقل ، من وصف المحاولات السياسية لجلب العقل البشري للخضوع والمرونة. كما أن الأدوية ومكافأتها النفسية ، قادرة على استعباد الناس ايضا.

الاعتماد على مزيل المخدرات

منذ وقت ليس ببعيد ، طُلب مني أن أقدم نصيحة لزوجين كانا يواجهان صعوبات زوجية لفترة طويلة. فعلى الرغم من أن الزوج والزوجة ، في وقت زواجهما ، كانا مغرمين ببعضهما البعض ، وغارقين في حالة من الحب الشفيف ، إلا أن كل منهما قد سحب مغامراته حول السعادة ، والاستثمار العاطفي الخاطئ نحوه.

فقد كانت الزوجة تتوقع من زوجها أن يكون نوعاً من أبطال "هوليوود" ، وذلك البطل الأبدي ، وأن يكون مكرساً لها تماماً.

وقد كان الزوج هذا قد تأثر بتبنيها الطفولي ، ولكنه سرا ، كان يأمل في أن تكون له بمثابة الأم ، والممرضة ، والمرافقة له في كل شيء.

وكما كان متوقعاً ، لم يرق الشريك إلى توقعات الآخر. ولذلك ، فقد أصيب كلاهما بخيبة أمل شديدة–ولم يدركا ما هو الخطأ.

وبعد فترة ، أصبحت الزوجة نحيلة ، وتشكو ، وتتذمر ؛ كانت هناك مشاهد يومية ، وحججا مختلفة ، وتبادل الاتهامات. وهنا بدأ الزوج يسعى للحصول على العزاء بعيدا عن المنزل ، ومع النساء التي كان قد عرفهن قبل زواجه.

وبعد ذلك بوقت قصير ، وجدت الزوجة نفسها غير قادرة على النوم ، وبدأت في تناول المهدئات و"الباربيتورات" لكي تجلب لها النسيان ، وكذلك المهدئات التي تساعدها على النوم.

بل وأصبحت تعتمد اعتمادا كليا عليها ، ولذلك ، تراجعت في جميع أنواع الشكاوى الجسدية الغامضة ، والتي يمكن تخفيفها مؤقتا عن طريق المزيد من المخدرات.

وعندما اكتشف الزوج ذلك للمرة الأولى ، فقد انتابته مشاعر الخوف إلى درجة الروع. ولكنه لاحظ تدريجياً ، بأن تلك الأدوية قد بدت وكأنها تعدّل ، وتريح الخلاف في علاقتهما. وبأن زوجته ، وتحت التخدير المستمر تقريباًأن لم تعد في

الواقع تهتم لأجله. ولا تكترث حتى لوجوده.

وبالتالي ، فقد اكتشف الزوج بأنه قد أصبح لديه المزيد من الحرية ، بل ويمكن قضاء فترة المساء ، والأمسيات التي يختارها ، طالما أنه زودها بالمواد اللازمة من الحبوب السحرية التي أعادت السلام إلى منزلهم.

ولكنه ، وفي إحدى الليالي ، تناولت الزوجة جرعة زائدة من"الباربيتورات" المهدئة ، وبدا كما لو أنها حاولت الانتحار.

لقد أثار هذا الحادث القاتل ، كل مشاعر الذنب التي شعر بها الزوج دفعة واحدة ، وبالتالي ، فقد سعى للحصول على مساعدة طبية ونفسية ، وفي محاولة لاكتشاف مكمن الخطأ الذي حدث في زواج شخصين كانا قد شعرا بالكثير من الحب المبدئي ، وحسن النوايا في السابق.

إن هذه ليست سوى واحدة من الحالات العديدة التي تغطّي فيها الحبوب المنومة ، والعادات الدوائية ، التعاسة العميقة والجسورة.

كما إن الاعتماد المتزايد على الهروب السهل ، إلى التخدير الناعم ، والمعتدل ، والنسيان ، هو شر يجب أن نعترف به في حين أن الزيادة العامة في استخدام العقاقير المنومة ، هو أمر ينذر بالخطر المحدق ، بل والذي يتسبب في المزيد من عدد حالات الانتحار الناتجة عن تناول المهدئات ، و"الباربيتورات" كل عام.

ولا يمكننا النظر إلى ظاهرة كهذه ، كما لو كانت مجرد مشكلة طبية. فالاعتماد على الكحول ، ومهدئات"الباربيتورات" ، وعلى المخدرات ، أو غيرها ، من المؤشرات التي تشير إلى خوف وقلق اجتماعي كامن وصريح ، والحاجة للهروب من الواقع.

كما ويبدو أن مستخدمي تلك الأدوية ، إنما يقدمون حلاً سلبياً ، وسريرياً لجميع المشكلات ، بل ويضعونها في مكان أبعد من حدود العالم الحقيقي.

ويبدو الأمر كما لو أن زعيم عصابة ما ، قادرا على توفير مثل هذه الأدوية لأعضاء عصابته ، ولأنه سيكون عند ذاك متأكد من خنوعهم ، ورضوخهم لأوامره.

البحث عن النشوة من خلال المخدرات

ينشد مدمن المخدرات ، من بين جميع الأنواع التي تواجهنا مرارا وتكرارا ، إلى التوق إلى الوصول إلى مزاج خاص ، ومن أجل الشعور بالنشوة والبهجة ، والشعور بالعيش بعيدا عن المشاكل اليومية. بل ويعتبر المدمن بأنه قد عثر على "ك مفاتيح الجنة".

وفي هذا السياق ، يذكر "توماس دي كوينسي Thomas De Quincey" في كتابه "اعترافات متعاطي الأفيون الإنجليزي":

"يا لقوة تأثير الأفيون. إنه تأثير سحري ، وخفي ، وقوي!".

ولكن ، على الرغم من أن حالة النشوة ، تختلف بالنسبة لكل شخص يعاني من الإدمان عليها ، فإن المدمن يخبرنا دائماً بأن المخدر الذي يتعاطاه ، يأخذه إلى الجنة المفقودة التي يبحث عنها. كما إنه يجلب له الشعور بالنشوة الأبديّة ، والغرور الحرّ الذي يأخذه بعيدا عن قيود الحياة والوقت.

ففي حالة النشوة ، يعيد الإنسان ترتيب الكون وفقا لرغباته الخاصة ، وفي الوقت نفسه ، يسعى للتواصل مع النظام الأسمى للأشياء.

ولكن لدولة النشوة سلبيتها ، وجوانبها الإيجابية. فقد يمثل الشعور "اليوغي" الصوفي بالوحدة مع الكون ، ولكنه قد يعني أيضاً الخضوع التام للحالة المزمنة ، والمُسكرة ، أو للشغف كما في بعض الحالات الذهانية ، وقد يؤدي إلى الهوس.

ففي حين المدمن قد يعبر عن المشاعر الكامنة ، وعن التجربة الروحية المكثفة لمجموعة دراسة مكرسة ، ولكنه من ناحية أخرى ، قد يتم مواجهتها في الغوغاء والاضطرابات.

كما أن هناك أنواع كثيرة مما يمكن تسميته بالنشوة الجمالية ، والنشوة الغامضة ، والنشوة السامة المريضة.

إن البحث عن تجربة النشوة ، ليس مجرد بحث فردي ، بل يتعدى ذلك ليشمل مجموعات كاملة. فعندما تصبح الضوابط الأخلاقية المرهقة للغاية ، ويمكن

للحضارات بأكملها عند ذاك أن تتسبب في انتشار تلك العادات والطقوس التي قد تؤدي الى العربدة ، والتي لا يمكن السيطرة عليها ، مثل ما رأيناه في مدينة "باشاناليا Bacchanalia" اليونانية ، حيث انتشر الرقص الغاضب ، والمعدي ، في العصور الوسطى.

ففي هذه العربدة الجماعية ، لم تعد تُستخدم المنشطات الاصطناعية بالضرورة. وهكذا ، فإن التأثير المنوم لكونك جزءاً من الحشد ، يمكن أن يؤدي إلى فقدان نفس السيطرة والإحساس بالاتحاد مع العالم الخارجي ، والذي نربطه بالمخدرات. كما أنه في ذلك الفردوس الجماعي ، يفقد الفرد ضميره ، وضبط نفسه. وقد تختفي الموانع والضوابط الجنسية ايضا.

وبحيث يشعر الفرد المضغوط ، وكأنه معفى ، ولو مؤقتا ، من إحباطاته العميقة ، وعبء الشعور بالذنب. في حين أنه يسعى إلى إعادة تجربة الأحاسيس المباركة في مرحلة الطفولة ، والعطاء المطلق لاحتياجات جسمه ورغباته.

وهكذا ، فإن المشاركة العجيبة في الغبطة الجماعية ، هي أقدم لعبة علمية في العالم. في حين أن المشاركة ، يؤدي في بعض نتائج العمل المشترك ، من خلال تلك الإغاثة العاطفية الهائلة ، إلى التنفيس عن كل فرد في المجموعة.

وبالتالي فإن هذا الشعور بالمشاركة في المجموعة القاهرة والسحرية ، ومن جمع الشمل ، والتواصل مع قوى شاملة في العالم ايضا ، سيجلب النشوة إلى الشخص العادي ، ويشحنه بمشاعر القوة الزائفة للضعفاء. كما يمكن لذلك الديماغوجي القادر على توفير مثل هذه النشوة في حنايا الجماهير ، أن يتأكد من استسلامها لتأثيره ، وقوته. ولذلك ، يحب الديكتاتوريون تنظيم مثل هذه الطقوس الجماعية ، ولكن خدمة لأهدافهم الديكتاتورية.

منذ أن أصبح الإنسان واعياً ، فقد حاول ، ومن وقت لآخر ، أن يكسر أسفل التوتر الحتمي بينه وبين العالم الخارجي. ولكن عندما لا يمكن تخفيف اليقظة العقلية الآن ، وبعد ذلك ، وعندما تكون الضغوط كثيرة ، ومستمرة معه ،

وعليه ، فقد يحاول الإنسان أن يفقد نفسه ، ويغرقها في المياه العميقة للنسيان. وذلك عن طريق البحث عن النشوة ، والنوم المخدر ، وأوهامه ، وإيهامه في تمجيد عقلي ، يأخذه—ولو مؤقتا-إلى ما هو أبعد من الجهد المرهق ، والمتمثل في إبقاء حواسه معافاة وسليمة.

كما يمكن أن تدخله تلك الأدوية المخدرة إلى مثل هذه الحالة ، لذا يمكن تفسير أي إدمان على أنه حاجة مستمرة للهروب. في حين يتعاون الجسم مع العقل في هذا البحث عن الهروب من ضغوط الحياة ، وحيث تصبح العقاقير المهدئة ، والمخدرات ايضا ، تدريجيا ، حاجة ملحة للجسم ، فضلا عن كونها ضرورة عاطفية.

أما في الاوساط الاجرامية ، فغالباً ما يتم إعطاء المخدرات مثل الكوكايين ، أو الهيروين لأعضاء العصابة ، من أجل جعلهم أكثر استسلاماً للقائد الذي يوزعها. وحيث يصبح الرجل الذي يمدهم بالمخدرات ، إلهاً ، لأفراد العصابة. والذين يصبحون على استعداد للخوض في الجحيم من أجله ، ومن أجل استمرار حصولهم على المخدرات ، والتي هم في أمس الحاجة إليها.

ولكن حين تكون تلك المخدرات في أيدي طاغية قوي ، فإنه يمكن أن تصبح سلاحا قويا ، وفتاكا ، وحيث يمكن في حالة كهذه ، من ضمان التبعية ، والتي قد تتحول إلى عواقب خطيرة للغاية. إذ ليس من غير المعقول أن يرغب الديكتاتور الشيطاني في استخدام الإدمان كوسيلة لإخضاع شعب متمرّد إلى حالة الخضوع.

في شهر أيار/مايو من عام١٩٥٤وأثناء مناقشة طويلة في منظمة الصحة العالمية ، فقد تم الكشف عن حقيقة أن الصين الشيوعية ، وفي الوقت الذي تمنع فيه استخدام مخدر الأفيون في كافة المدن والقرى ، فقد كانت تقوم بتهريب الأفيون ، وتصديره ، وبكميات كبيرة ، لجيرانها ، والذين اضطروا ، بالتالي ، لمواصلة الكفاح المستمر ضد إدمان الأفيون بين شعوبهم ، وضد السلبيات التي تنتج عن استخدام المخدرات.

وفي الوقت نفسه ، ووفقا لمسؤولين من مملكة"تايلند" والذين قدموا هذه التهمة ، وطلبوا مساعدات من الأمم المتحدة ، فإن الصين الشيوعية كانت ترسل جميع أنواع الدعاية التخريبية إلى مملكة"تايلاند".

كما اتهمت"تايلاند" بدورها الصينيين باستخدام كل الأجهزة التي يعرفون أنها تصيب الشعب السيامي بأيديولوجيتهم: وهو إدمان الأفيون الذي يُضعف الدماغ ، والنشرات الإخبارية ، والإذاعة ، والحملات التي تهمس سرا ، وما إلى ذلك.

كما اتبع النازيون أيضا استراتيجية مشابهة. وأثناء احتلال أوروبا الغربية ، حيث تسببوا في نقص ، مصطنع ، في انتاج الأدوية العادية ، وذلك عن طريق وقف تصدير الأدوية المعتادة إلى البلدان الأقل شأنا.

ولكنهم مع ذلك ، فقد استثنوا انتاج وتصدير مهدئات"الباربيتيورات" إلى تلك الدول المحتلة.

ففي هولندا المحتلة ، على سبيل المثال ، كانت هذه الأدوية متاحة ، بسهولة ، وفي العديد من الصيدليات ، وكانت تُصرف حتى من دون ضرورة وجود وصفات طبية يحررها الأطباء ، على الرغم من أن ذلك كان مناقضا لقوانين الصحة الهولندية ، والعرفية.

وعلى الرغم من أن الأدوية العلاجية الصحيحة لم تكن متاحة للعمل الطبي ، إلا أن الأدوية التي كانت تتسبب في السلبية النفسية ، واللامبالاة ، والخمول ، كانت توزع ، وعلى نطاق واسع.

لا شك في أن الديكتاتور الاستبدادي يعلم أن المخدرات يمكن أن تكون أحد أكبر مساعديه. ولذلك ، فقد كانت نية هتلر ، في حربه البيولوجية المزعومة ، أن تضعف الدول التي أحاطت بالرايخ الثالث وإخضاعها ، بل وأن تكسر العمود الفقري لتلك البلدان ، وإلى الأبد.

كما كان الجوع ، والإدمان من بين أهم أدواته الاستراتيجية قيمة.

ولكن ما علاقة كل هذا بالإدمان المتزايد ، وإدمان الكحول في بلادنا؟.

على الرغم من أنني قد ذكرت بالفعل الزيادات المقلقة في حالات الموت بسبب تعاطي أدوية"الباربيتيورات" المهدئة.

ولكنني أود أن أؤكد على أكثر العواقب النفسية والسياسية.

تنتهي الديمقراطية والحرية حيث تبدأ العبودية والخضوع للمخدرات والكحول. كما تنطوي الديمقراطية على نشاط وفهم حر ، يختاره الفرد ، والمجتمع ذاتيا ؛ وهذا يعني نضج ضبط النفس والاستقلال.

وبالتالي ، فإن أي إنسان يهرب من الواقع من خلال استخدام الكحول والمخدرات ، لم يعد مواطنا حرا ؛ ولم يعد قادرا على ممارسة أي سيطرة طوعية على عقله وأفعاله. كما لم يعد فرداً مسؤولاً عن نفسه. وحيث أن إدمان الكحول ، وإدمان المخدرات يساهم إعداد نمط التقديم الذهني المحبوب جدا من قبل الغشاء الشمولي في الدماغ.

التنويم المغناطيسي والاكراه العقلي

منذ زمن بعيد ، استخدم أولئك الذين أرادوا معرفة الأعمال الداخلية لعقول أقرانهم الآخرين من أجل ممارسة الضغط عليهم وسائل اصطناعية للعثور على المسارات الخفية لأفكارهم الأكثر خصوصية.

ومن أجل ذلك ، تم تجريب غسالات الدماغ الحديثة أيضاً ، ومن جميع أنواع الأدوية للوصول إلى أهدافها المخادعة.

وقد كان للطبيب البدائي في ذلك المضمار ، عدة طرق لإجبار ضحيته على فقدان السيطرة على نفسه.

ولذلك ، فقد كان يستخدم المشروبات الكحولية ، والمراهم السامة ، أو جلسات الدخان المقدس ، والذي كان له تأثير مخدر ، وكما كان مستخدم من قبل حضارة"المايا"على سبيل المثال ، حيث كانوا يستخدمون ذلك لجلب الناس

إلى مثل هذه الحالة من الاختطاف، وفقدان الوعي الذاتي، وعدم القدرة على ضبط النفس.

وكثيراً ما كشف الضحايا، وهم يتذمرون من الكلمات المقدسة، عن خيالاتهم التي يتّهمونها بأنفسهم، أو حتى عن أسرارهم العميقة.

كما أنه، وفي العصور الوسطى، تم استخدام ما يسمى بالمراهم السحرية، إما طوعاً، أو تحت الضغط.

وكان من المفترض أن تجلب هذه المراهم الممسوحة مع الشيطان. وبما أنها تحتوي على مواد مخدرة و"أفيونية" وبكميات كبيرة، والتي كان يمكن أن يمتصها الجلد، ولذلك، يمكن للعلم الحديث أن يفسر رؤى النشوة التي أثارتها تلك المراهم كالتأثير النموذجي لهذه الهلوسة.

كما كان التنويم المغناطيسي أيضا إحدى تلك الأدوات، وأول التقنيات المفيدة للطب القديم، والتي تكثفت فيما بعد، بحيث يكون الاقتراح الذهني، والذي يجعل الناس يتخلون عن إرادتهم الخاصة، ويجلبهم إلى اعتماد غريب على المنوم.

لقد عرف الأطباء الفراعنة القدماء، ومنذ ثلاثة آلاف سنة، طريقة التنويم المغناطيسي، وتشرح لنا اللقى الأثرية، والسجلات القديمة بأنهم قد مارسوها، وعلى نطاق واسع.

يمكن للتنويم المغناطيسي إذا مورس عن طريق معالج نزيه، أن يكون مفيدا للغاية. ولا سيما في التعامل مع الأمراض النفسية، والآلام الجسدية على حد سواء—يعتبر التنويم المغناطيسي هو الابن الوغد لتزاوج الخيال والواقع—كما أنه يمكن أن يكون ذلك السامري الصالح في الوقت نفسه.

ولكن يجب الانتباه إلى أن هناك العديد من الدجالين، الذين يمارسون التنويم المغناطيسي، وليس لعلاج ضحاياهم، بل لإجبارهم على الخضوع، والتبعية، وذلك باستخدام علاقات الضحية، غير الواعية، واحتياجات التبعية بطريقة جنائية ومربحة.

كما أن هناك جذورا جنسية لفقدان الوعي في التنويم المغناطيسي ، وتتعلق بالعائد السلبي للمنوم ، والذي يستخدمه الدجال من أجل ممارسة غرائزه ، والتنفيس عن أهواءه الخاصة.

لقد عالجت فتاة ذات مرة ، وبعد أن ذهبت إلى ذلك المعالج. والتي تمكنت ، في اللحظة الأخيرة فقط ، من الخروج من حالتها البائسة ، والخانعة ، ومحاربة محاولة اعتدائه عليها.

ومنذ وقت ليس ببعيد ، عالجت بعض المراهقين الذين حاولوا ممارسة التنويم المغنطيسي بين بعضهم البعض. وقد أرادوا معرفة تعقيدات هذه التقنية ، وذلك من أجل زيادة قواهم العقلية على الآخرين. والمستوحاة من بعض قصص الكتاب الهزلي ، وتخيلوا أنه ، ومن خلال استخدام التنويم المغناطيسي ، يمكن أن يؤثروا على الفتيات للاستسلام بين أيديهم ، ولممارسة الجنس معهن ، وبسهولة.

كما كانوا يتوقعون بأن يصبحوا فتيانا خارقين ، حيث سيكون بإمكانهم أن يجعلوا أشخاصا آخرين خاضعين لهم ، ويُرضون رغباتهم وإرادتهم.

يعتبر أحد الجوانب الأكثر استيعاباً لهذه المشكلة الكاملة للتنويم المغناطيسي ، هو مسألة ما إذا كان يمكن إجبار الناس على ارتكاب جرائم تحت التنويم المغناطيسي ، مثل القتل ، أو الخيانة ، وذلك في ظل تأثير تعويذة منوّم ما.

قد ينكر العديد من علماء النفس بأنه لا يمكن لمثل هكذا أمور ن تحدث ، بل ويصرون على أن الأمر ذاته يمكن أن يحدث ، ولكن لا يمكن إجبار أي شخص على القيام به في ظل التنويم المغناطيسي ، ما قد يرفض القيام به في حالة من التأهب ، ولكن في الواقع ، يمكن أن يضطر الشخص للقيام به ، ولكن ذلك يعتمد على درجة من التبعية التي يسببها التنويم المغناطيسي ، وتواتر تكرار ما يسمى اقتراحات ما بعد الفترة المنومة.

يعلم التحليل النفسي الفعلي بأنه يوجد ، حتى العديد من الأجهزة الأخرى لتعيش حياة أشخاص آخرين.

صحيح ، أنه لا يمكن لأي قاعة تنويم أن تسلب ضمير الإنسان ، والمقاومة الداخلية على الفور ، ولكن يمكنه إثارة الرغبات القاتلة الكامنة ، والتي قد تنشط في حالة فقدان الوعي لدى ضحيته ، وذلك من خلال الاقتراح المستمر واللعب المستمر على تلك الرغبات المكبوتة ، وبشدة.

كما وتثبت المعرفة الفعلية للطرق المستخدمة في غسيل الدماغ ، وتشويه العقل ، فإن كل هذا يمكن القيام به.

أما إذا استمر المنوم المغناطيسي بما فيه الكفاية ، وبذكاء كاف ، فإنه يمكن أن يكون ناجحا في هدفه.

هناك العديد من الرغبات المعادية للمجتمع ، مخبأة في كل الناس.

كما أن التقنية المنومة ، وإذا ما طبقت بذكاء بما فيه الكفاية ، يمكن أن تجعلها تظهر على السطح ، وتتسبب في تصرفاتها في الحياة.

كما ويجد الإجرام الجماعي للحرس في معسكرات الاعتقال جزءاً من تفسيره في التأثير المنافي للدولة الشمولية ، ودكتاتورها الإجرامي.

تظهر الدراسة النفسية للمجرمين أن انتهاكهم الأول للمدونات الأخلاقية والقانونية غالباً ما يحدث تحت تأثير قوي واقتراح من المجرمين الآخرين. وقد ننظر إلى ذلك ، وكأنه على شكل أولي من التنويم المغناطيسي ، وهو شكل أكثر اقتناعا من الاقتراح.

صحيح أن التحريض على الجريمة في حالة منومة يتطلب ظروفاً مواتيةً بشكل خاص ، لكن لسوء الحظ يمكن العثور على هذه الشروط في العالم الحقيقي والفعلي.

ففي الآونة الأخيرة ، كان هناك الكثير من النقاش القضائي لمشكلة الطبيب النفسي ، والذي يستخدم معرفته الخاصة لاقتراح فرض اعتراف من المدعى عليه.

يذهب هذا الطبيب النفسي إلى ما هو أبعد من المفاهيم المقبولة عموما لقيود الطب النفسي ، ووما وراء أخلاقيات الطب النفسي. وهو يسيء استخدام ثقة

المريض في المقرب الطبي ، والمعالج الطبي ، من أجل إثارة اعتراف ، وسيتم استخدامه بعد ذلك ضد المريض بشكل مؤقت في رعايته.

وبذلك ، فإن الطبيب لا يعمل فقط ضد قسم"أبقراط" والذي وعد فيه فقط بالعمل من أجل صالح مرضاه وعدم الكشف عن أسراره المهنية ، كما أنه ينتهك الضمانات الدستورية الممنوحة للمدعى عليه بموجب التعديل الخامس دستور الولايات المتحدة ، الذي يحمي الرجل من تجريم الذات.

إن ما يكشفه المدعى عليه تحت التنويم المغناطيسي ، يعتمد على مواقفه الواعية و اللاواعية تجاه مسألة التأثير السحري والتدخل العقلي من قبل شخص آخر. وعادة ما يكون الناس أقل عرضة للوقوف على حقوقهم القانونية ، في التعامل مع الطبيب من التعامل مع محام أو شرطي. لديهم موقف العائد لأنهم يتوقعون مساعدة سحرية.

ويمكن رؤية مثال مثير للاهتمام في هذا الأمر في قضية قررتها المحكمة العليا في الآونة الأخيرة.

ففي عام١٩٥٠ ، ألقي القبض على"كاميليو ويستون ليرا Camilio Weston Leyra" وهو رجل في الخمسينيات من عمره ، وقد اتهمته الشرطة بجريمة القتل الوحشي بواسطة المطرقة لوالديه المسنين ، وذلك في شقة في مدينة "بروكلين".

ففي البداية ، وفي إطار الاستجواب المطول من قبل الشرطة ، أنكر "ليرا" أي علم له بالجريمة ، وذكر بأنه لم يكن حتى في منزل والديه في يوم الجريمة.

وفي وقت لاحق ، وبعد مزيد من الاستجواب من جانب الشرطة ، قال إنه كان في منزل والديه في ذلك اليوم ، ولكنه ظل ثابتاً في إنكاره للقتل. ومن ثم تم اعتقاله ، وأودع في السجن ، وقد تم جلب طبيب نفسي للتحدث معه. حيث تم تسجيل محادثتهم على الشريط.

قال الطبيب النفسي مخاطبا"ليرا" بأنه كان طبيبه ، رغم أنه في الحقيقة ، لم يكن كذلك.

وفي ظل التنويم المغنطيسي البسيط ، وبعد استمرار القول بأن"ليرا" سيكون أفضل حالا إذا اعترف بأنه ارتكب جريمة القتل في نوبة من العاطفة ، فقد وافق ليرا على الاعتراف بالجريمة. ومنن ثم تم استدعاء الشرطة مرة أخرى ، وتم سحب الاعتراف.

وخلال محاكمته ، تبرأ ليرا من الاعتراف ، بل وأصر على أنه كان تحت التنويم المغناطيسي. وقد أُدين ، ولكن الإدانة ألُغيت على أساس أن الاعتراف قد انتُزع منه بصورة لا إرادية ، وأن ضماناته الدستورية قد حرمته منه.

وفي وقت لاحق ، أحضر ليرا للمحاكمة ، وأدين مرة ثانية.

وأخيراً تم استئناف قضيته أمام المحكمة العليا ، والتي عكست الحكم الصادر في يونيو/حزيران١٩٥٤ على أساس أن الضغوط العقلية وأساليب العلاج النفسي القسرية ، قد استخدمت للحث على الاعتراف.

وقد أعطت المحكمة العليا رأيها هنا ، وبشكل غير مباشر ، عن مسؤولية أسرى الحرب.

أما بالنسبة لنا ، فإن مسألة الشعور بالذنب ، أو براءة ليرا هي أقل أهمية من حقيقة أنه في ظل يواجه الضغوط العقلية وكان يحرض على فعل ما ، وكان يقاوم عادة القيام به ، وأن ثقته في الطبيب ، مما أدى إلى استرخاء دفاعاته من دون شك ، وقد طرح ضد محققين آخرين ، وتم استخدامه لانتزاع الاعترافات.

كما ويمكن أن يكون الاقتراح ، والتنويم المغناطيسي نعمة نفسية ، كما يمكن للمرضى من خلالها ، حل المشاكل العاطفية التي تقاوم الإرادة الواعية ، ولكن يمكن أن تكون أيضاً بداية للإرهاب.

فالتنويم المغناطيسي الجماعي ، على سبيل المثال ، يمكن أن يكون له تأثيرات خطيرة على الفرد.

وقد وجد الأطباء النفسيون عدة مرات ، في أن المظاهرات العامة للتنويم المغناطيسي الجماعي قد تثير زيادة في الاعتماد على المنومين ، والقدرة على

الخضوع في العديد من أعضاء الجمهور الذين قد يستمرون لسنوات.

ولهذا السبب ، وإلى حد كبير ، أصدرت بريطانيا العظمى قانوناً يجعل عمليات التنصت والتنويم المغناطيسي الجماعي غير قانوني.

وقد يعمل التنويم المغناطيسي كآلية تحفيز لحاجة التبعية الطفولية المكبوتة في الضحية وتحويله مؤقتاً إلى نوع من استيقاظ النوم والسفلية العقلية. فالأمر المنوم يريحه من مسؤوليته الشخصية ، ويسلم الكثير من ضميره إلى لا وعيه.

وكما ذكرنا من قبل ، فقد زودنا عصرنا بالكثير من الأمثلة عن كيف يمكن للتنويم المغناطيسي السياسي ، والتنويم المغناطيسي ، وحتى التنويم المغناطيسي بالحرب ، حيث يجري تحويل الرجال المتحضرين إلى مجرمين.

ولكن بعض الشخصيات أكثر قابلية للتنويم المغناطيسي من غيرها. كما يمكن للغرور القوي أن يدافع عن نفسه ، لفترة طويلة ، ضد التطفل العقلي ، ولكنهم أيضا قد يكون لديهم نقطة استسلام. هناك أشخاص حرجون بشكل علني أقل حساسية الاقتراح ، كما ويمكننا التمييز من خارج الصور الذاتية ، ومن داخل أنفسهم ، بين شخصيات مغايرة للهوية الذاتية ، على الرغم من أن مجموعة متنوعة من ردود الفعل على التنويم المغناطيسي ، والاقتراح ، يمكن تمييزها.

ولكن حتى هذه الأنواع الذاتية المقترحة ، فإذا تعرضت لضغوط كافية ، فستقوم تدريجيا ، ببناء تبريرات داخلية لإعطاء الإكراه العقلي.

وهكذا ، فغالبا ما تكون هذه الشخصيات الساحرة والقادرة بسهولة على التأثير على الآخرين ، عرضة للإيحاء بأنفسهم. كما أن بعض الشخصيات ذات الهيئة الهائلة للتعاطف ، والتعرف على الآخرين ، تثير في أولئك الرغبة في التخلي عن جميع أسرارهم ؛ ويبدو أنهم على وشك الاعتراف ، وكالأب المعترف بنعمة الله.

وهناك أنواع مؤكدة أخرى ، من خلال إظهار عالمهم الداخلي الخادع ، بحيث

يمكن أن تثير بسهولة أكبر الأكاذيب والخيالات المخبأة في ضحاياهم.

ولا يزال البعض الآخر يجعلنا قريبين تماما.

ولكن لماذا يجب على رجل واحد أن يلهم الرغبة في الاستسلام ، وأخرى الرغبة في المقاومة هي واحدة من أسرار العلاقات الإنسانية والاتصال.

ولماذا تكمل بعض الشخصيات بعضها البعض وتعزز بعضها البعض بينما يتصادم آخرون ويتغلبون على بعضهم البعض؟.

وقد أعطى التحليل النفسي نظرة جديدة إلى تلك العلاقات الإنسانية الغريبة والالتزامات. إرضاء للحقيقة.

حقن الإبر لاستنباط الحقيقة

خلال الحرب العالمية الثانية ، تم تطوير تقنية ما يسمى بحقيقة مصل الدم (الاسم الشعبي لتحليل المخدرات) لمساعدة الجنود الذين تحطموا تحت ضغط المعركة. من خلال تحليل المخدرات عن طريق الحقن من المهدئات ، يمكن جلبها للتذكير والكشف عن اللحظات الفائقة العاطفية والصادمة لتجاربهم في الحرب التي دفعتهم إلى عصاب القلق الحاد. وتدريجيا ، وضعت تقنية مفيدة للإسعافات الأولية ، والتي ساعدت اللاوعي على كشف أسرارها ، في حين كان المريض تحت تأثير المخدر.

ولكن كيف يعمل مصل الحقيقة؟.

والجواب هو أن المبدأ بسيط: فبعد إتمام الحقن ، يكون العقل قد اصبح في حالة نصف منومة ، وغير قادر على التحكم في أسراره ، وقد يسمح له بالانزلاق من الخزانات الخفية للإحباط والقمع ، في العقل شبه الواعي.

وفي بعض حالات القلق الحاد ، قد يخفف هذا الاستفزاز القسري من القلق والضغوط ، والتي أدت إلى الانهيار.

ولكن تحليل المخدرات غالباً ما لا يعمل في هذا الوضع.

وفي بعض الأحيان ، يستاء عقل المريض من هذا التدخل الكيميائي ، والتدخل القسري ، وهذا الموقف غالباً ما يعوق الطريق أمام العلاج النفسي الأعمق والأكثر فائدة.

كما قد يكون الخوف من الاقتحام العقلي غير المتوقع والإكراه بطبيعته المرضية. عندما نشرت لأول مرة مفهومي لمديرية وغسل الدماغ ، تلقيت عشرات الرسائل والمكالمات الهاتفية من أشخاص كانوا مقتنعين بأن بعض الأشخاص الخارجيين كانوا يحاولون التأثير عليهم وتوجيه أفكارهم.

قد يكون هذا النوع من وهم التسلل العقلي ، هو المراحل المبكرة من الذهان الخطير ، والذي تراجعت فيه الضحية بالفعل ، إلى مشاعر السحر البدائية.

وفي هذه الحالة ، ينظر إلى العالم الخارجي برمته ، ويشعر وكأنه يشارك فيما يجري في ذهن الضحية.

وهناك كما كان ، في حالة لا وعي حقيقي من الحدود بين الأنا ، والذات ، والعالم.

كما ان مثل هؤلاء الأشخاص ، والذين يعانون من الخوف ، يعانون من حالات من الألم المستمر ، لأنهم يشعرون بأنهم ضحايا العديد من التأثيرات الغامضة ، والتي لا يمكنهم التحقق منها ، أو مواجهتها ؛ بل ويشعرون باستمرار التهديد بالانقراض.

ومن الناحية النفسية ، يمكن تفسير خوفهم من التطفل من الخارج جزئيا ، على أنه خوف من تدخل الأوهام الخاصة بهم من الداخل ، من اللاوعي. لقد خافوا من أفكارهم الخفية ، واللاواعية ، والتي لم يعد بإمكانهم التحقق منها.

كما سيكون من التبسيط المفرط ، التمسك بسمة نفسية وسهلة ، على كل هذه المشاعر من الاضطهاد العقلي ، لأن هناك العديد من الضغوط النفسية الخارجية الحقيقية في عالمنا ، وهناك العديد من الناس العاديين تماما ، والذين يدركون باستمرار ، وينزعجون من وابل من المحفزات الموجهة إلى عقولهم ، من

خلال الدعاية والإعلان ، والراديو والتلفزيون والأفلام والصحف-وكل ذلك الهراء الذي يكاد يصيبهم بالجنون ، والذي لا تتوقف فيه أصواتهم أبداً.

هؤلاء الناس يعانون لأن العالم البارد ، والميكانيكي يصرخ باستمرار على أبواب عقولهم ، ويزعج شعورهم بالخصوصية والسلامة الشخصية.

وبالإضافة إلى ذلك ، فهناك سؤال إضافي حول ما إذا كانت الأدوية المستخدمة في المصل حقيقة ، أم لا.

وقد كانت تلك الأدوية ، دائما ، تنتج التأثير المطلوب لإجبار المريض على قول الحقيقة الداخلية.

كما وأظهرت التجارب التي أجريت في جامعة"يال Yale" في عام١٩٥١ على تسعة أشخاص ممن تعرضوا للحقّن في الوريد بمادة"أميتال الصوديوم"-وهو ما يسمى في الحقيقة بمصل الدم-وقد حصل الباحثون على نتائج مثيرة للاهتمام ، بل وتميل إلى إضعاف ثقتنا في هذا الدواء.

فقد كان كل من المرضى ، قبل الحقن ، قد اقترح عليهم قصة خاطئة ، وتتعلق بفترة تاريخية كان سيتم استجوابه فيها. وقد كان المُختبرون يعرفون كلا من القصة الحقيقية ، والقصة الزائفة المختلقة.

وهنا اسمحوا لي أن أقتبس من التقرير:

"...ومن المثير للاهتمام أن الموضوعات الثلاثة التي تم تشخيصها على أنها طبيعية ، قد حافظت على قصصها[المقترحة].

كما أنه ، ومن بين ستة أشخاص تم تشخيص إصابتهم بالعصبية ، فقد كشف اثنان على الفور عن القصة الحقيقية. في حين وافق اثنان منهم على القبول الجزئي ، والذي كان يتكون من نمط معقد من الخيال والحقيقة معا.

وقد سرد أحدهم ، والذي كان على الأرجح خياليا ، وقائع بدت كالحقيقة ؛ في حين حافظ الشخص الذي يعاني من الوسواس القهري على قصته الأساسية ، باستثناء واحد استطاع أن يختلق قصة خاطئة تماما ، من بنات أفكاره.

ولكن محاكم القانون الأمريكية ، وفي العديد من الحالات ، رفضت الاعتراف بذلك ، كدليل على نتائج اختبارات مصل الحقيقة ، وإلى حد كبير ، على أساس الاقتناع النفسي بأن علاج مصل الحقيقة يسيء إلى التسمية ؛ في الواقع ، إن تحليل المخدرات ليس ضمانة للوصول إلى الحقيقة. بل يمكن استخدامه كتهديد قسري في الحالات التي لا يكون فيها الضحايا على علم بعملها المحدود.

وبالإضافة إلى ذلك ، فلا يزال هناك خطر آخر يرتبط ارتباطاً وثيقاً بموضوعنا ، وهو أن المحقق الجنائي ، يستطيع فرض أفكاره ، ومشاعره الخاصة على ضحيته ، وإيصالها بشتى السبل.

وهكذا فإن مصل الحقيقة قد يتسبب في أن المريض ذو"الأنا" الضعيفة ، يمكن أن يستسلم للأفكار والتفسيرات المصطنعة التي أدخلها ذلك المتدخل ، وبنفس الطريقة بالضبط ، كالتي قد يتلقاها ضحية التنويم المغناطيسي حول الاقتراحات التي يزرعها المنوم المغناطيسي.

وبالإضافة إلى ذلك ايضا ، فإن هذه الطريقة كانت من الطرق التي استخدمتها محاكم التفتيش ، عن طريق المخدرات ، والتي كانت تحتوي على بعض المخاطر الجسدية.

وقد شهدت بنفسي بعض حالات الجلطات ، وذلك نتيجة لتعاطي الأدوية الوريدية ، من مشتقات مادة"الباربيتورات" المهدئة ، وشديدة التأثير.

كما أن التجارب على تشويه العقل ، والتي كانت قد بدأت قبل ثلاثين عاما ، كانت من المألوف والصادم مرة أخرى.

فقد وصف الباحث"ألدوس هكسلي" في كتابه الأخير"أبواب الإدراك" تلك الجنة الكيميائية الاصطناعية التي عاشها بعد تناول الدواء المهدئ ، وشديد المفعول (والمعروف أيضا باسم"بيوتيpeyote").

وبالتالي ، يمكن أن تحفز جميع أنواع الأعراض الذاتية اللطيفة ، ولكن هذه التحفيزات ، مع ذلك ، قد تؤول إلى استعداد الشخصية.

ولا أريد أبدأ الميل نحو الحجة السريرية مع مؤلف أحترمه ، ولكن ردود فعله حيال النشوة ، وحتى وصوله إلى تلك النشوة ، الخادعة ، ليست معممة ، وليس ، بالضرورة ، أن يشعر الآخرون بنفس المشاعر التي عاشها بعد تجربته للعقار المهدئ.

وقد كنت قد جربت بنفسي ، قبل خمسة وعشرين عاماً ، عقار"الميسكالين Mescaline" وذلك من أجل التعارف المباشر مع الأفكار المرضية الحقيقية.

ولكنني ، في الواقع ، قد شعرت تقريبا ، بانهيار شبه تام نتيجة لذلك. ولذلك فإن قلة من الناس فقط ، كانت لديهم تجارب الوصول إلى النشوة كما يصف "هكسلي".

يُعتبر عقار"الميسكالين" من المواد الخطرة عندما لا يستخدم تحت السيطرة الطبية. ولكن ، وعلى أي حال ، لماذا يريد السيد"هاكسلي" أن يبيع نلك الجنان السماوية الاصطناعية؟

هناك خطر اجتماعي خطير للغاية في جميع طرق التدخل الكيميائي هذه على العقل.

وهذا صحيح ، حيث يمكن استخدامها كمساعدة حنونة للعلاج النفسي ، ولكنها يمكن أن تكون أدوات تحكم مخيفة في أيدي بعض الرجال الذين لديهم دافع قوي إلى الاستحواذ على السلطة.

وبالإضافة إلى ذلك ، فإنها تُحصّن أكثر من أي وقت مضى ، في عصرنا الأسطوري ، من الخيال الذي يجب أن نستخدمه ، كمعجزة المخدرات ، ولكي نصبح وكلاء يعملون بحرية.

تحتوي الدعاية اللا كيميائية ، من أجل النشوة الاصطناعية ، والتجارب الزائفة ، على دعوة صريحة للناس ، ليصبحوا مُعالين من قبل المواد الكيميائية ، حيث يتحول أولئك المُعالون الكيميائيون إلى أشخاص ضعفاء يمكن استغلالهم من قبل أية قوة سياسية استبدادية.

كما إن الدعاية الفعلية التي يتم ممارستها بين الممارسين العامين ، والذين

يحثون على علاج جميع أنواع القلق والاضطرابات العقلية ، بأدوية جديدة ، ولها نفس الآثار الخطيرة.

جهاز كشف الكذب

يعتبر التنويم المغناطيسي ، والتحليل بالمخدرات ، هما فقط من الأجهزة الحالية ، والتي يمكن إساءة استخدامها كأدوات للتدخل القسري في العقل.

كما إن جهاز كشف الكذب ، والذي استخدم بالفعل ، كأداة للترهيب الذهني ، هو جهاز آخر.

بيد أن هذا الجهاز ، والمفيد للتجارب النفسية ، يمكن أن يشير-من خلال تدوين التغييرات في المنعكس النفسي-النفسي-بدقة ، بأن حالة "خنزير غينيا" البشري ، والذي يبقى قيد التحقيق ، كان يتفاعل ، وبشكل أكثر عاطفية ، مع أسئلة معينة توجّه إليه عن طريق الآخرين.

وهذا أمر صحيح ، لأن رد الفعل سيكون مبالغ فيه ، وعلى الأخص حين يكون رد فعل على الكذب ، ولكن قد يكون رد فعل شخص بريء إلى وضع محموم العاطفة ، أو حتى إلى زيادة الخوف من الاتهام الظالم.

وإضافة إلى ذلك ، فإن محصلة العمليات الشخصية بين المحقق ، والمُحقّق معه ، لها تأثير كبير على التفاعلات العاطفية والتغيرات في المنعكس الكلفاني ، وكمشاعر للذنب الداخلي والارتباك.

كما تشير هذه التجربة فقط ، إلى الاضطراب الداخلي والقمع الخفي، ومع كل شكوكهم وغموضهم.

في حين إنه ليس ، في الواقع ، جهاز كشف الكذب ، على الرغم من أنه يستخدم على هذا النحو.

كما أنه في واقع الأمر ، قد يظهر لدى الكذاب المرضي ، والشخصية العقلية ، التي لا معنى لها ، استجابة أقل لهذه التجربة من الأشخاص العاديين.

ومن المرجح أن يصبح كاشف الكذب أداة للإكراه في أيدي الرجال الذين يبحثون أكثر عن السحر القوي ، في كل أداة من وسائل الوصول إلى الحقيقة.

ونتيجة لذلك ، يمكن حتى أن ينخدع الأبرياء في اعتراف كاذب.

حين يعمل المعالج كأداة للإكراه.

يُنظر إلى العلاج الطبي ، والعلاج النفسي على أساس أنهما من العلوم الدقيقة في التوجيه البشري في فترات الإجهاد البدني والعاطفي.

وكما يتطلب التدريب درجة عالية من التنبيه ، والمشاركة الجيدة ، والتخطيط لكل من الطالب والمعلم ، فإن العلاج النفسي الناجح يتطلب أيضا درجة عالية من التنبيه ، والمشاركة الجيدة ، والتخطيط المنظم ، لكل من المريض والطبيب على حد سواء.

وكما أن التدريب التعليمي ، في ظل ظروف خاصة ، يمكن أن يتدهور إلى حالة من الترويض القسري ، كذلك يمكن للعلاج أن يتدهور إلى فرض إرادة الطبيب على مريضه.

في حين أن الطبيب نفسه ، لا يحتاج حتى لأن يدرك أن هذا قد يحدث.

فقد يُظهر سوء استخدام هذا العلاج نفسه في عملية إرسال المريض إلى وجهة نظر الطبيب ، أو في تطوير المريض للتبعية المفرطة على معالجه.

كما أن مثل هذه التبعية ، وحتى الحاجة المتزايدة إلى الإعالة ، قد تمتد ، ليس فقط إلى أبعد من الحدود المعتادة ، بل قد تستمر حتى بعد أن تنتهي فترة العلاج.

وقد رأيت الدجالين الذين كانت معرفتهم الوحيدة ، هي مكان شراء الأرائك. وعن طريق وصف أنفسهم بأنهم محللون نفسيون ، فقد تمكنوا من إشباع رغبتهم الخاصة ، ولكن على حساب عيش ، وحياة الآخرين.

وفي نهاية المطاف ، سيتعين على القانون وضع معايير يمكن أن تجعل هؤلاء

المتسللين الخطرين من ممارسة العلاج النفسي.

ولكن حتى المعالج الصادق ، والضمير ، لديه مشكلة أخلاقية خطيرة ، ويتعين مواجهتها. بل وتشجعه مهنته باستمرار ، و تلزمه ، على جعل مرضاه يعتمدون عليه مؤقتاً ، وهذا قد يستجيب لحاجته الخاصة للإحساس ، وبذات الأهمية والقوة.

كما ويجب أن يكون على دراية باستمرار من تأثير تصريحاته ، وخصوماته على مرضاه ، والذين غالبا ما يستمعون في رهبة ، إلى الطبيب ، والذي هو بالنسبة لهم ذلك الساحر الكلي العلم.

كما يجب على المعالج ألا يشجع هذا الموقف الخاضع للمرض- على الرغم من أنه في بعض مراحل العلاج سيساعد العلاج- بحيث يهدف العلاج النفسي الجيد إلى تثقيف الإنسان من أجل الحرية والنضج وليس من أجل التقيد بالالتزام.

كما إن ممارسي علم النفس ، والطب النفسي ، قد أصبحوا الآن أكثر وعياً بالمسؤولية التي تفرضها عليهم مهنتهم ، وأكثر من أي وقت مضى.

وكذلك ، لأن أدوات علم النفس تكون خطيرة في أيدي الرجال الخطأ.

يمكن تطبيق الأساليب التعليمية الحديثة في العلاج لتبسيط عمل دماغ الإنسان ، وتغيير آرائه ، بحيث يتطابق تفكيره مع بعض الأنظمة الأيديولوجية. وقد يصبح الطب ، والطب النفسي أكثر مشاركة في الاستراتيجية السياسية ، وكما رأينا في استراتيجية غسيل الدماغ ، ولهذا السبب ، يجب أن يصبح علماء النفس ، والأطباء النفسيون ، أكثر إدراكاً لطبيعة الأدوات العلمية التي يستخدمونها.

فالتركيز يجب أن ينصبّ على التقنيات العلاجية ، وعلى الطلاب الذين يعرفون كل الحقائق والحيل ، في حين أن التركيز المفرط على الدبلومات النفسية ، والعلامات فقط ، يؤدي بالعلاج الفعلي نحو التوافقية ، وترشيد المبادئ ، والتي هي على النقيض من الحساسية الشخصية اللازمة.

كما ويمكن لأعضاء هيئة التدريس لدينا أن يجعلوا من العقلانية ، والمنطق العلاجي أدوات مدمرة ، أو أنها تسطيع تدمير أو تشتيت شكوكنا الأساسية ، ومشاوراتنا الناشئة عن اليأس المأساوي ، وذلك المبدع لحساسية الإنسان.

يكمن خطر العلاج النفسي الحديث(وعلم النفس) في الميل نحو إضفاء الطابع الرسمي على الحدس ، والتعاطف البشريين ، وللتجرد من العاطفة والعفوية.

إنه تناقض مدهش لمحاولة تجريب ميكانيك الحب والجمال. ولكن إذا كان هذا ممكناً ، فسنجد أنفسنا في عالم لا يوجد فيه مصدر إلهام ، أو نشوة ، بل مجرد تفاهم بارد.

كما ويمكن استخدام كل علاقة إنسانية للأهداف الخاطئة ، أو الصحيحة ، وهذا ينطبق بشكل خاص ، على العلاقة بين الروابط اللاواعية الدقيقة ، والتي توجد بين الطبيب النفساني ، وبين المريض.

وهذا البيان ينطبق أيضا على الطب بشكل عام. حيث يزدهر عمل الجراح أيضاً ، والذي يبني علاقات قوية مع مرضاه وإحساسهم بالاستعداد للخضوع لتقنياته الجراحية.

وقد قدم لنا عالم النفس"فرويد" أول تفسير واضح لما يحدث في العقل أثناء الاتصال العقلي المطول مع إنسان.

لقد أظهر أنه في كل علاقة إنسانية مكثفة ، يتفاعل كل مشارك ، ولو جزئياً على الأقل ، من حيث التوقعات والأوهام التي طورها في طفولته.

ونتيجة لذلك ، يوفر العلاج المطول-والمستند إلى مبدأ حرية التعبير المطلق- فرصة أكبر لنقل المشاعر الخاصة للطبيب ، كما هو الحال بالنسبة للمريض.

ولكن إذا لم يكن الطبيب حذراً ، أو إذا لم يفهم هذا النقل المتبادل للمشاعر الخفية ، أو إذا كان في حبه القهري لشرح كل شيء ، والذي قد يكون قسريا جداً في بعض الحالات ، فقد يجبر المريض على قبول وجهة نظره ، بدلاً من

مساعدة المريض على الوصول إلى نفسه.

وهذا يمكن أن يصبح بمثابة تطفل عقلي من نوع خطير.

وقد علمتنا التجارب في العلاج ، أن التقنية الخاطئة ، يمكن أن تعطي المريض مشاعر الغرق. وفي بعض الأحيان يشعر المرضى كما لو أنهم يجب أن يظلوا يعيشون في حالة خضوع للطبيب.

وقد رأيت عائلات بأكملها ، يسيطر عليها أطباء سحرة معاصرون.

ولذلك ، فلا عجب إذاً أن يتطلب التحليل النفسي السليم من المعالج ، أن يدرب نفسه ، ولسنوات ، على التقنية التي يكون على وشك تطبيقها على الآخرين ، وبحيث أنه يكون مسلحاً بمعرفة احتياجاته ، غير الواعية ، وغير الواضحة ، ولكنه لن يحاول استخدام مهنته لمعالجة أشخاص آخرين.

وهكذا ، يمكن بسهولة إساءة استخدام مختلف العلاجات النفسية ، بمفاهيمها ، وتقنياتها النفسية المختلفة ، مثل المشورة الأسرية ، والتوجيه الديني ، والإرشاد الإداري ، وما إلى ذلك ، كأدوات للقوة.

كما إن النية الحسنة التي يستثمرها الناس في قادتهم ، وأطبائهم ، ومدرائهم ، عادة ما تكون على درجة عالية من الثقة ، والتي يمكن استخدامها كسلاح ضدهم.

فحتى الجراحة الدماغية الحديثة لتضميد العقل ، يمكن أن يساء استخدامها من قبل الدكتاتوريين الحديثين ، وذلك بقصد إخراج ذلك المعارض المنافس.

كما وقد يميل علم النفس نفسه إلى توحيد العقل ، بين مختلف مدارس علم النفس ، وللتأكيد على التطرف الذي قد يزيد ، وبشكل غير مقصود ، من فرصة الإكراه العقلي.("إذا كنت لا تتحدث عن السحر المبتلع الخاص بي ، يجب أن أشرح لك ذلك.") ولذلك ، فإنه من الأسهل التلاعب بعقول الآخرين ، بدلاً من تجنب القيام بذلك.

إن المجتمع الديمقراطي يمنح مواطنيه الحق في التصرف كمواطنين أحرار. ولكنه في الوقت نفسه، يفرض عليهم مسؤولية الحفاظ على حريتهم، عقليا وسياسيا.

ولذلك، فإذا قمنا، من خلال استخدام التقنيات الطبية والكيميائية والميكانيكية الحديثة للتدخل العقلي، بتقليص قدرة الإنسان على العمل بمبادرته الخاصة، فإننا سنخرب معتقداتنا الخاصة، ونضعف نظامنا الديمقراطي.

ومثلما يوجد غسيل دماغي سياسي متعمد، يمكن أن يكون هناك تدخل موحش يتنكر تحت اسم العدالة، أو العلاج.

وقد يكون هذا أقل اقتحاماً من الهجوم الشمولي المتعمد، ولكنه ليس أقل خطورة.

كما أن الدواء في الخضوع، هو حقيقة قائمة. حيث يمكن للإنسان أن يستخدم معرفته، بذهنية زميله لعدم مساعدته، ولكن لإيذائه وتعفيره.

كما يمكن للساحر زيادة قوته، من خلال زيادة القلق والمخاوف من ضحيته، ومن خلال استغلال احتياجات التبعية له، وإثارة مشاعره من الشعور بالذنب والدونية. ويمكن استخدام الأدوية والتقنيات الطبية أيضا، لجعل الإنسان مستسلماً ومتماسكاً في ذات الوقت.

ولهذا، علينا أن نأخذ ذلك في الاعتبار حتى نتمكن من جعله صحياً وحرياً بالمتابعة، والبحث.

الفصل الرابع

لماذا يفعلون ذلك؟
الديناميات النفسية للاعتراف الخاطئ

ولكن هل يوجد هناك جسر من مفهوم تكييف بافلوف نحو تفاهم نفسي أعمق؟.

وإن وجد ، فإنه سيكون فقط لدى أولئك المنظرين البافلوفيين والذين ينكرون العمق الحديث في علم النفس ، وبن هناك نزاع بين المفاهيم.

لقد اعترف العالم بافلوف نفسه ، بوجود دوافع خفية أعمق في الإنسان ، وحدود دراسته للسلوك الحيواني.

ولذلك ، فإن مهمتنا هي العودة إلى دماغنا ، لنسأل أنفسنا:

كيف يمكننا تحسين فهم ما حدث له؟ وما هي ظروف بافلوف وما هي الدوافع الداخلية للاستسلام للتلاعب السياسي بالذهن؟.

هل كان ذلك ناجم عن كونه جبانا؟. أم هل كان هو ذهان السجن؟ وهل كان فقدان القدرة على التحمل الذهني في عالمنا؟

في الملاحظات والتجارب التالية ، فإنني آمل الاستفادة من البصيرة السريرية ، التي يوفرها علم النفس الحديث.

الفيلسوف الغاضب

في أحد الأيام في عام١٦٧٢ اضطر أصدقاء ، وجيران الفيلسوف العقلاني الوحيد سبينوزا ، إلى تقييده قسرا. فقد أراد أن يهرع إلى الشوارع ، ويصرخ عن استياء من الغوغاء الذين قتلوا صديقه الجيد"جان دي ويت" رجل الدولة النبيل

في الجمهورية الهولندية ، والذي اتهم بالخيانة.

ولكنه في الوقت الحاضر ، كان قد هدأ ، وتراجع إلى غرفته حيث يقوم ، كالمعتاد ، بوضع عدسات بصرية ، وفقاً لروتين يومي وغير منظم حتى ذلك الوقت.

وبينما كان يعمل ، كان يفكر في سلوكه الخاص ، والذي لم يكن أكثر عقلانية ، أو منطقية ، من سلوك الحشود التي قتلت صديقه دي ويت.

وعندئذ ، أدرك سبينوزا وجود الوحش العاطفي المخبأ تحت العقل البشري ، والذي ، عندما يثار ، يمكن أن يتصرف بطريقة متهورة ، بل ومدمرة ، ويمكن أن يستحضر آلاف المبررات والمبررات لسلوكه.

ولأنه ، كما شعر سبينوزا وكما أوضح عالم النفس العظيم "سيغموند فرويد" في وقت لاحق ، كجميع الناس ، ليسوا تلك المخلوقات العقلانية التي يعتقدون بأنها موجودة.

ففي اللاوعي ، يقع هذا المخزن الشاسع للذكريات ،والعواطف ، والاجتهادات المدفونة العميقة ، وعبر العديد من السنين الطفولية ، وغير المنطقية ، والتي تؤثر باستمرار على الأفعال الواعية.

كما أننا كلنا محكومون ، وإلى حد ما ، بقدرة هذا الطاغية الخفي ، وبالصراع بين عقلنا وعواطفنا.

وإلى الحد الذي نصبح نحن فيه ضحايا محركات غير واعية ، وبدون رقابة ، وإلى هذا الحد الذي قد يجعلنا نصبح عرضة للتلاعب العقلي.

وعلى الرغم من أن هناك سحراً مروعاً في فكرة أن المقاومة النفسية لدينا ضعيفة نسبياً ، فإن الجودة ذاتها ، والتي تميز إنسانا عن آخر - الفرد الأول - يمكن أن تتغير ، وبشكل عميق ، وذلك بسبب الضغوط النفسية ، ولذلك - فإن مثل هذه التحولات ، ليست سوى مجرد تطورات عملية للعثور على المشغل المنطقي في الحياة الطبيعية.

ومن خلال اقتراح منظم ، ودعاية خفية ، والتنويم المغناطيسي الجماعي

العلني ، يتم تغيير العقل البشري في تعبيراته يوميا في أي مجتمع.

كما أن الإعلان يغوي المواطن الديمقراطي ، في استخدام الدجل ، أو علامة تجارية خاصة لنوع صابون بدلا من آخر على سبيل المثال.

كما ويتم تشجيع رغبتنا في شراء الأشياء باستمرار. حيث يسعى السياسيون المتنافسون للتأثير علينأن من خلال بريقهم وكذلك من خلال برامجهم. في حين أن خبراء الأزياء يضعون أمام أعيننا تغييرات دورية ، حول معايير الجمال والذوق الرفيع.

كما أنه في حالات تشويه العقل ، يكون هذا الاعتداء على سلامة العقل البشري أكثر مباشرة وتعمداً.

ومن خلال اللعب على الطفل اللاعقلاني الكاذب في اللاوعي ، وعن طريق شحذ الصراع الداخلي بين العقل والعاطفة ، يمكن للباحث أن يجلب ضحاياه إلى الاستسلام المدقع.

كما أن جميع ضحايا التشويه العقلي المتعمد-كأسرى الحرب في كوريا ، و"الخونة" المسجونين لدى الأنظمة الديكتاتورية لدول الستار الحديدي ، وضحايا الإرهاب النازي خلال الحرب العالمية الثانية-هم أناس كانوا يعيشون حياتهم بطرق محددة ، ولكنها ، وتغير فجأة ، وبشكل كبير. فقد تم تفريقهم من منازلهم وعائلاتهم. ومن بين الأصدقاء ، ومن ثم تم رميهم في جو غير طبيعي ، و مخيف. ولذلك ، فقد جعلهم ذلك غرباء في محيطهم ، وأكثر عرضة لأي هجوم على قيمهم ومواقفهم.

وعندما يستغل الديكتاتور حاجات ضحاياه النفسية في عالم يتسم بالتهديد والعداء ، وغير مألوف ، فإنه من المؤكد تقريباً أن يحدث الانهيار.

مرض الأسلاك الشائكة

يمكن بالفعل ، خلال الحرب العالمية الأولى ، تمييز ردود أفعال ذهنية غريبة ، و مخلوطة من اللامبالاة ، والغضب ، لدى أسرى الحرب ، وذلك كتكيف دفاعي ضد المصاعب في حياة السجن ، والملل ، والجوع ، وانعدام الخصوصية ، وانعدام الأمن المستمر.

وقد أضافت الحرب الكورية إلى هذا الوضع ، القسوة الأكبر لدى العدو ، والخوف المطول من الموت ، وسوء التغذية ، والأمراض ، والهجمات المنهجية على عقل السجين ، ونقص الصرف الصحي ، وافتقار الجميع إلى الكرامة الإنسانية.

وفي كثير من الأحيان ، يمكن ضمان التحسن من خلال قبول الأيديولوجية الشمولية. حيث لم يؤد الضغط النفسي إلى التورط مع العدو فحسب ، بل إلى التسبب في الشك المتبادل بين السجناء أنفسهم.

وكما وصفت بالفعل ، يبدأ مرض الأسلاك الشائكة باللامبالاة ، واليأس الأوليين ، لدى جميع السجناء. فهناك استسلام سلبي للقدر.

وفي الواقع ، يمكن أن يموت الناس من هذا اليأس. كما يبدو الأمر كما لو أن كل المقاومة قد تلاشت[أنظر الفصل التاسع حول عمل الخوف].

كما كان أي شيء ، ما عدا الانحناء واللامبالاة ، يشكل خطراً في المخيم الذي أراد العدو مناقشته ، والجدل معه من أجل هدم المقاومة العقلية.

ونتيجة لذلك ، تم بناء دائرة شريرة من اللامبالاة ، وليس التفكير ، وترك الأمور تذهب-استسلاماً لوجود كامل يعتمد على عقلية الميت الحي ، و من الاعتماد الميكانيكي على الظروف.

كما أن كل عداء للغضب واليقظة ، يمكن أن يعاقب بوحشية من قبل العدو. ولهذا لم نجد تلك الهجمات المفاجئة للغضب ، كالتي لوحظت في معسكرات أسرى الحرب السابقة أثناء الحربين العالميتين الأولى والثانية.

كانت نتائج الاختبارات النفسية للجنود المحررين من الأسر من السجون

الكورية ، يمكن أن تشير في المعسكرات إلى أن هذه اللامبالاة الدفاعية ، والتراجع إلى تبعية منعزلة للطفولة ، من المرجح أن يتم العثور عليها في جميع هذه الحالات تقريباً.

ولكن مع ذلك ، وبعد العودة إلى البيئة الطبيعية ، عادت اليقظة والنشاط في وقت قريب ، وحتى خلال يومين أو ثلاثة أيام.

أما أولئك القلائل الذين بقوا قلقين ، ولا مباليين ، ومثلهم مثل الأموات الأحياء ، فقد كانوا ممن تعرض للاضطهاد الشديد على يد تلك العصابات.

ولكن ما هي بعض العوامل التي يمكن أن تحول الرجل إلى خائن لقناعاته ، أو إلى مخبر ، أو مذنب في جرائم بشعة ، أو متعاون ظاهري؟

لحظة الاستسلام

لقد أخبرني العديد من ضحايا محاكم التفتيش النازية ، بأن لحظة الاستسلام قد حدثت فجأة ، وضد إرادتهم.

وذلك بعد أن خضعوا ، ولعدة أيام ، لغضب المحققين ، ومن ثم فجأة ، انشقوا.

"معك كل الحق ، كل الحق ، ويمكنك الحصول على أي شيء تريده".

ثم جاءت ساعات من الندم ، من اتخاذ ذلك القرار ، ومن رغبة يائسة للعودة إلى موقفهم السابق من المقاومة القوية.

كانوا يريدون الصراخ:

"لا تسألني عن أي شيء آخر. فلن أجيب على ذلك."

ومع ذلك ، فقد كان هناك شيء ما فيها ، ويتمثل في كوننا مختبئين في أعماقنا جميعاً.

كان هذا الاستسلام المفاجئ يحدث غالباً بعد اتهام غير متوقع ، أو التعرض لصدمة ، وإذلال مؤذ بشكل خاص ، أو شديد ، أو التعرض للحرق ، أو حتى

لمنطق مفاجئ في سؤال المحقق ، والذي لا يمكن مقاومته.

وفي هذا السياق ، أتذكر تجربة من بلدي ، والتي توضح تأثير هذه المفاجأة.

فبعد هروبي من السجن النازي في هولندا المحتلة ، تمكنت من الوصول إلى "سويسرا" المحايدة عبر"فيشي" في فرنسا. وعندما وصلت ، تم وضعي في سجن آخر حيث كنت أعامل في البداية بشكل جيد. ولكن بعد ثلاثة أيام ، مُنعت من حق الضابط في اللجوء ، وقيل لي بأنه سيتم ترحيلي مرة أخرى إلى"فيشي" في فرنسا.

وقد أضاف سجّاني بعض العبارات المقلقة ، وتعليقا مفاده بأنه يجب أن أكون سعيداً لأنني لن أُرحل إلى الألمان من جديد.

وعندما غادرت لنقلي إلى الحدود ، طُلب مني التوقيع على ورقة تفيد بأن جميع ممتلكاتي(التي أخذت مني من السجن) قد أعيدت لي.

ولكنني رفضت التوقيع ، لأن بعض الأشياء-غير مهمة في حد ذاتها ، ولكن ذات قيمة عاطفية كبيرة بالنسبة لي-لم يتم تضمينها في الحزمة التي سلمني إياها سجّاني.

وفي تلك اللحظة التي رفضت فيها التوقيع على وصل الأمانات ، نظر إلي أحد الحراس بازدراء ، بينما رفع الحارس الثاني قدمه بوجهي ، ثم صرخ بفارغ الصبر ، وطلب مرارا وتكرارا بأن أوقع على الورقة ، في حين راح الحارس الثالث يوبخني ، وهو يثرثر بلغة فرنسية ، والتي كانت غير مفهومة تماما بالنسبة لي.

ولكنني واصلت رفض التوقيع. وفجأة بدأ أحد الضباط بصفعي على وجهي ، ويضربني بقوة. فيما كنت غارقا في دهشتي من تصرفاتهم ، وكيف ثار غضبه بتلك السرعة ، مما جعلني استسلم لإرادته ، ووقعت الوصل(وقد كان قد سمح لي من سجن فيشي الذي أُرسلت إليه ، بكتابة خطاب احتجاج إلى الحكومة السويسرية. وما زلت أحمل الاعتذار الرسمي الذي تلقيته)..

يعتبر هذا التغيير المفاجئ من مزاج المقاومة المتحدية إلى الخضوع ، ويجب أن يفسر من خلال الفعل اللاواعي للمضايقات المتناقضة.

فنحن نخبر أنفسنا بأن نكون أقوياء ، ولكن من أعماقنا ، تبدأ الرغبة في الاستسلام والامتثال بإزعاجنا ، والتأثير على سلوكنا.

وفي علم النفس ، يوصف هذا بأنه التناقض الفطري لكل المشاعر.

الحاجة إلى الانهيار

تحتوي مفردات علم النفس النفسي على العديد من المصطلحات المعقدة من أجل الرغبة في الخضوع للضغوط النفسية ، مثل"الرغبة في التراجع" ، "الحاجة إلى التبعية" ، و"المازوشية العقلية" ، و"رغبة الموت اللاواعية" ، وغيرها الكثير.

ولكن ، ولأهدافنا ، يكفي أن نذكر أن لكل فرد حاجتين متعارضتين تعملان في وقت واحد: الحاجة إلى أن تكون مستقلا ، ولأن تكون أنت نفسك ؛ والحاجة إلى ألا تكون نفسك ، ولا أن تكون أحداً على الإطلاق ، لا أن تقاوم الضغط النفسي. والحاجة إلى أن تكون غير واضحا ، وأن تختفي ، وأن تبتلعها المجتمعات ، وهي حاجة مشتركة.

وفي أبسط صوره ، يمكننا رؤيته من حولنا كنوع من التوافق. كما نه في ظل الظروف العادية ، يتم موازنة الحاجة إلى عدم الكشف عن الهوية بالحاجة إلى الفردية ، والشخص السليم عقلياً هو الشخص الذي يستطيع السير على خط رفيع بينهما.

ولكن في المواقف المخيفة والموحدة التي يجد فيها ضحايا الإرهاب العقلي أنفسهم-مواقف ذات نوعية كابوس ، محشورة بأخطار هائلة لا يمكن فهمها ، أو فهمها لأنه لا يوجد أحد يفسر أو يطمئن-الرغبة في الانهيار ، لتذهب ، ليكون هناك ، يصبح لا يقاوم تقريبا.

لقد تم الإبلاغ عن هذه التجربة من قبل العديد من ضحايا معسكرات الاعتقال. وقد جاءوا إلى المخيم مع سؤال واحد غير مجهد يحترق في أذهانهم:

"لماذا حدث لي كل هذا؟".

لقد كانت حاجتهم إلى الإحساس بالاتجاه ، والشعور بالغاية والمعنى غير مرضية ، وبالتالي لم يتمكنوا من الحفاظ على شخصياتهم. ولذلك ، فقد سمحوا لأنفسهم بالذهاب في ما يسميه علم النفس المرضي بمتلازمة عدم الشخصية ، وهو شعور عام بفقد السيطرة الكاملة على أنفسهم ووجودهم.

وكل ما يمكن أن يفعله تكييف بافلوف في تطبيق الارتباك الاصطناعي ، يمكن أن يتم من خلال تجربة مروعة واحدة. فقد سألوا أنفسهم لماذا؟. وما هو معنى كل هذه المعاناة؟.

وتدريجيا ، فقد غرقوا تماما في تلك الحالة المشلولة من شبه النسيان ، والتي نسميها الاكتئاب: الاحتياجات الذاتية المدمرة والتي تتولى الأمر.

كان النازيون أذكياء ، وعديمي الضمير في استغلال هذه الحاجة للانهيار. كما إن إهانة الحياة في معسكرات الاعتقال ، والاقتراح المتكرر بأن الحلفاء كانوا على نفس القدر من الضرب ، فقد تآمر هؤلاء على إقناع النزلاء بأنه لن تكون هناك نهاية لهذه المعاناة ، والتي لا طائل من ورائها ، ولن يكون هناك نهاية منتصرة للحرب ، ولا مستقبل لحياتهم.

ولذلك ، تزداد الرغبة في الانهيار ، والاستسلام ، وتصبح الحلة مستعصية على الحل تقريباً ، وذلك عندما يشعر الرجل أن هذا الوجود الهامشي المرعب هو شيء دائم ، وحيث لا يستطيع أن يتطلع إلى هدف شخصي أكثر ، وأن عليه أن يتكيف مع هذه الحياة الباهتة والمهينة إلى الأبد.

وأنه في الوقت الحاضر ، يختفي الإيمان والأمل ، وينهار الإنسان. في حين أن هناك قصص مأساوية عن ضحايا معسكرات التركيز ، والذين وضعوا كل توقعاتهم على فكرة أن التحرير سيأتي في عيد الميلاد عام١٩٤٤ ، ويهدف إلى وجودهم بالكامل في ذلك التاريخ. وعندما مرت ، وما زالوا مسجونين ، انهار العديد منهم ببساطة ، وماتوا.

كما يخدم هذا الميل للانهيار أيضا كوسيلة وقائية ضد الخطر. ويبدو أن

الضحية يفكر في أنه إذا لم يلاحظني جلادي ، فإنه سيتركني وحدي.

ومع ذلك ، فإن هذا الشعور الشديد بعدم الكشف عن هويته ، وهذا الإحساس بفقدان شخصيته ، كونه عديم الفائدة ، وغير ملحوظ ، وغير مرغوب فيه ، كما يؤدي إلى الاكتئاب واللامبالاة. وحيث تترسخ القناعة في أنه لا يجب أن يكون الإنسان فرداً مطلقاً.

الحاجة إلى الرفقة

لم يعط اهتماماً كافياً لعلم النفس حول الوحدة ، وخاصةً فيما يتعلق بعواقب العزل القسري للسجناء.

فعندما يتم إزالة المنبهات الحسية للحياة اليومية ، قد تتغير شخصية الإنسان بالكامل.

حيث أن الاتصال الاجتماعي ، واتصالنا المستمر مع زملائنا ، وعملنا ، والصحف ، والأصوات ، وحركة المرور ، وأحبابنأن وحتى أولئك الذين لا نحبهم ، تعتبر كلها تغذية يومية لحواسنا وعقولنا. فنختار ما نراه مثيراً للاهتمام ، ونرفض ما لا نريد استيعابه. كما ويعيش كل مواطن ، في العديد من العوالم الصغيرة لتبادل الإشباع ، والكراهية الصغيرة ، والتجارب اللطيفة ، والتهيج ، والمسرات.

ويحتاج إلى هذه المحفزات لإبقائه في حالة تأهب. ساعة بساعة ، وفي الواقع ، بالتعاون مع ذاكرتنا ، حيث تُدمج الملايين من الحقائق في حياتنا ، وكذلك من خلال تكرارها.

وبمجرد أن يكون الإنسان بمفرده ، ومغلقاً عن العالم وعن أخبار ما يجري ، فسيتم استبدال نشاطه العقلي بعمليات مختلفة تماماً. فتطفو الذكريات النسيّة على السطح ، وتطرح ذكرياته الطويلة من عقله. ومن ثم تبدأ حياته الخيالية في التطور وبنسب هائلة. ولكنه لا يمكنه تقييم ، أو التحقق من أوهامه ضد أحداث أيامه المعتادة ، والتي سرعان ما قد تستولي عليه.

وأتذكر بوضوح شديد ، تخيلاتي الخاصة خلال الفترة التي كنت فيها في سجن نازي. فقد كان من المستحيل بالنسبة لي السيطرة على أفكاري الكئيبة من اليأس. كما كان علي أن أخبر نفسي مرارا وتكرارا:

"فكر ، فكر. ابق حواسك في حالة تأهب ؛ حاولت استخدام كل ما عندي من معرفة نفسية للحفاظ على ذهني في حالة من التعبئة المريحة ، ولكنني في أيام كثيرة ، كنا أشعر بأني كنت أخوض معركة خاسرة.

لقد أظهرت بعض التجارب أن الأشخاص الذين حرموا ، حتى في وقت قصير للغاية ، من جميع المنبهات الحسية(لا لمس ولا سمع ولا رائحة ولا بصر) كانوا يقعون ، وبسرعة ، في حالة من الهلوسة المنومة.

كما إن العزلة عن كثرة الانطباعات التي عادة ما تقذفنا من العالم الخارجي ، تخلق أعراضاً غريبة و مخيفة.

ووفقاً لما ذكره العالم "هيرون" والذي أجرى تجارب على مجموعة من الطلاب في جامعة "ماكجيل" عن طريق وضع كل طالب في حجرة سوداء خاصة به ، ومن دون أية أصوات ، وجدران عازلة للصوت ، ومهواة بالهواء المفلتر ، وقد تم تغليف يديه بقفازات جلدية ثقيلة ، ووضعت قدميه في أحذية ثقيلة ، فقد أصبحت أدمغتهم تفقد الإحساس شيئا فشيئا إلى أن أصبحت شبه ميتة ، وتخرج عن نطاق السيطرة.

وحتى في أربع وعشرين ساعة من هذه العزلة الحسية المتطرفة ، يتم استحضار جميع خيالات الرعب في الطفولة ، وتظهر أعراض مرضية مختلفة.

إن غرائزنا من الفضول تتطلب تغذية مستمرة ؛ فإذا لم يكن ذلك راضيا ، فسوف تبدأ كلاب الصيد الداخلية في النباح.

يظل السجين في عزلة ، على الرغم من أن عزلته ليست متطرفة بأي حال من الأحوال كما هو الحال في الاختبارات المعملية ، كما يخضع لتغيير عقلي شديد. وقد أصبح حراسه ومحققوه ، أكثر فأكثر ، هم مصدر اتصاله الوحيد مع

الواقع ، ومع تلك المحفزات التي يحتاجها أكثر من الخبز.

ولذلك ، فلا عجب في أنه يطور تدريجيا علاقة خاضعة ، وغريبة معهم. فهو لا يتأثر فقط بعزلته عن الاتصالات الاجتماعية ، بل عن طريق التجويع الجنسي أيضاً. واحتياجات التبعية الكامنة والميول المثلية الكامنة التي تكمن في جميع الرجال ، والتي تجعله على استعداد لقبول حارسه كشخص بديل الأب.

وقد يكون المحقق قاسياً ووحشياً ، ولكن حقيقة اعترافه بوجود ضحيته يمنح السجين شعوراً بأنه تلقى القليل من المودة.

ما قد ينشأ صراع بين الولاءات التقليدية للإنسان وهذه الولاءات الجديدة! ولا يوجد سوى عدد قليل من الشخصيات التي تتمتع بالاكتفاء الذاتي التام بحيث يمكنها مقاومة الحاجة إلى الغلة ، للعثور على بعض الصحابة البشرية ، وللتغلب على الوحدة التي لا تطاق.

وخلال الحربين العالميتين ، فقد عانى السجناء في البداية من الغرابة ، مما أدى إلى حرق الحنين للوطن بالفعل ، بما يسمى مرض الأسلاك الشائكة.

فذكريات الأم والبيت والعائلة جعلت الجنود يتعرفون على طفولتهم مرة أخرى ، ولكن عندما أصبحوا معتادون أكثر على الحياة في مخيمات السجن ، فقد خلقت أفكار البيت والعائلة أيضاً قيماً إيجابية ، بل وساعدت في جعل حياة المخيم في السجن أقل ترويعاً.

وحتى السجين الذي لا يتم عزله ، يمكن أن يشعر بالوحدة بين كتلة السجناء غير المنظمة. وحيث يمكن لزملائه السجناء أن يصبحوا أعداء بسهولة ، كما يمكن أن يصبحوا أصدقاءه.

كما أن كراهيته لحراسه ، يمكن أن تشرد ، وتحول ضد أولئك المسجونين معه. وبدلا من الشك في العدو ، قد تكون الضحية المشبوهة من بين رفاقه في ذلك البؤس.

وفي معسكرات الاعتقال النازية ومعسكرات الأسر الكورية ، و مخيماتها ،

كان هناك نوع من جنون العظمة الجماعي ، والذي غالبا ما كان يتطور. فقد ازداد الشعور بالوحدة لأن السجناء قطعوا أنفسهم عن بعضهم البعض من خلال الشك والكراهية.

وقد شجع الحراس هذا الارتياب. واقترحوا باستمرار على ضحاياهم أن لا أحد يهتم بهم ، ولا أحد يشعر بالقلق إزاء ما كان يحدث لهم. وكانوا يقولون للسجين باستمرار:

"أنت وحيد. ولا يعرف أصدقاؤك في الخارج ما إذا كنت على قيد الحياة أم لا. ولم يكن رفقائكم من السجناء يهتمون بذلك".

وهكذا ، فإن كل توقعات المستقبل قد قُتلت ، وأصبح عدم اليقين الناتج عن ذلك واليأس غير محتملان. ثم زرع الحراس الشكوك وانتشر شائعات مفزعة:

"أنت هنا لأن هؤلاء الأشخاص الذين تصفهم بأنهم أصدقائك ، قد خدعوك". "لقد ألحقت بزملائك الأذى ، ولذلك سيصرخون بوجهك".

"لقد هجرك أصدقاؤك في الخارج". والولاءات القديمة ، مما يجعله يشعر بأنه مهجور ووحيد ، ومن ثم سيجبره هذا إلى الخضوع والانهيار.

إن الأوقات التي كنت أختبر قدراتي النفسية خلالها ، قد جعلتني أسلم بأفكاري حول الانضمام إلى القوى المعاكسة التي كانت تحدث دائماً بعد فترات من الشعور بالوحدة الشديدة ، والتوق إلى الرفقة. [وقد وصفت هذه الظواهر من خيانة الذات في الفصل الرابع عشر.]

ففي مثل هذه اللحظات قد يصبح السجّان أو العدو صديقا بديلا.

الابتزاز عن طريق التغلب على الشعور بالذنب

ثمة مشاعر خفية من الشعور بالذنب ، تكمن في أعماقنا جميعاً كبشر ، والتي يمكن إحضارها إلى السطح تحت ضغط شديد.

كما أن استراتيجية إثارة الذنب هي أقدم أداة تستخدمها الأم لكسب الهيمنة على أرواح أبنائها. وبالتالي يمنحها تحذيرها وإصبعها المرفوع ، أو عينيها

التهديديين ، قوة سحرية عليها ، وتساعد على خلق مشاعر عميقة مذلة تستمر طوال حياتهم. فعندما نكون أطفالاً ، نعتمد على والدينا تماما ، ونستاء منهم لهذا السبب فقط.

ولذلك ، فقد نتمنّى حدوث رغبات مدمّرة ، ومخّفية ضد أولئك الأقرب إلينا ، ولذلك ، فنشعر بشعور الذنب حول هذه الرغبات.

ليس هناك شك في أن معظم الناس لديهم ولاء عميق لأسرهم ، ولكن البدائية في داخلهم تكره من يحبهم ، وهذه الكراهية تجعلهم يشعرون بالذنب. ولكن الإنسان يدفنها عميقا في اللاوعي ، وحيث لا يرغب في معرفة أنه ، في أوهامه المعادية ، يشعر بأنه قادر على ارتكاب العديد من الجرائم.

لقد لفت العالم"ثيودور ريك" انتباهنا إلى القاتل البدائي ، غير المعروف في شخصياتنا كلنا ، والذي قد يكون استنكافه للاعتراف ، والمعاقبة ، ويمكن استفزازه بسهولة في ظروف الرعب والاكتئاب.

ولذك ، فإن هذا المفهوم من العداء الطفولي الخفي والتدمير ، وحيث يكون من الصعب ، في كثير من الأحيان ، على المواطن العادي أن يقبل بذلك.

لكن فكرّ ، للحظة في شعبية القصة البوليسية.

قد نُقنع أنفسنا بأننا نستمتع بقراءة هذه الحكايات لأننا نتعرف عليها بحماس شديد وذكاء ، ولكن ، كما هو واضح من تجربة التحليل النفسي ، فإن المجرم المكبوت فينا جميعاً ، يعمل أيضاً ، ونعرف أيضاً ، مع القاتل الذي لا معنى له.

وفي الواقع ، فإن أعمالنا القتالية المكبوتة ، تجعل من قراءة الأعمال العدائية ، جاذبة لنا.

إن طريقة الاستغلال المنتظم للذنب ، وغير الواعي ، لإخضاع ذلك القاتل الخفي ، والكامن في دواخلنا ، ليست معروفة جيداً بعد ، ولكن قد يكون من المفهوم ، وبشكل أفضل في ضوء تحقيقاتنا ، في إجبار الاعتراف اللاواعي ، والحاجة إلى العقاب.

كما قد يتم غرس الشعور بالذنب في مرحلة مبكرة من العمر، وذلك عندما يحثّ الوالد الطفل على أن يعتذر عن عصيانه، أو يستخدم وسائل أخرى لإثقال الطفل بإحساس بالذنب، عندما لا يفهم ما هو غير أخلاقي، أو خاطئ حيال فعل معين.

وكذلك تعليم الطفل أن يرى الصواب والخطأ لا يعني بالضرورة، أن يكون مرتبطا بتوقع الخضوع والخوف من العقوبة لاحقا.

وفي إحدى الحالات التي كنت أعالجها، كانت أم المريض تصرخ بوجه طفلها، بعد كل خطأ صغير طان يقترفه عن غير قصد طبعا. وكانت تتذمر وهي تصرخ بوجهه قائلة:

"انظر ماذا فعلت لي!".

ولذلك، فقد استغرق الأمر فترة طويلة من العلاج لتخفيف عن ذلك المريض، وعن نبضاته القاتلة المخفية ضد والدته وعبء الشعور بالذنب المترتب عليه.. كما أنه في المجال السياسي، هناك كثير من هذه الأساليب المبكرة لتربية الأطفال بشكل رمزي، ومتكرر كما أن إن كثرة اساليب التكفير عن الذنوب، والمعتقدات المستمرة، والتي نواجه في البلدان الاستبدادية، تثير مشاعر الذنب الخفية العميقة.

ولا بد من قبول الخطيئة الأقل حيال التمرد، أو التخريب، لتغطية الأفكار الشخصية للجريمة التي تزخرت بعمق أكبر. ردود الفعل الشخصية لأولئك الذين يتم استجوابهم والتحقيق معهم باستمرار تعطينا فكرة عما يحدث.

وحيث يمكن لحقيقة الاستجواب المطول أن تعيد إثارة الذنب الخفي واللاواعي في الضحية.

كما أنه في وقت يتسم بالعاطفة الشديدة، وبعد اتهام مستمر واستجواب لمدة يوم واحد على الأقل، وعندما يُحرم السجين من النوم، ونقله إلى حالة من اليأس المطلق، قد تفقد الضحية القدرة على التمييز بين الفعل الإجرامي

الحقيقي ، الذي يُتهم به ، وبين شعوره بالذنب غير الواعي.

وإذا كانت تربيته تثقل كاهله بالإحساس بالذنب تقريباً ، في ظل الظروف العادية ، فإنه سيكون الآن ، عاجزاً تماماً عن مقاومة الهجوم المبتكر.

وحتى الأشخاص العاديون ، قد يستسلمون في ظل ظروف بائسة كهذه ، وليس فقط من خلال عمل محاكم التفتيش ، ولكن أيضا بسبب جميع العوامل الضعيفة الأخرى.

كما يمكن أن يؤدي الافتقار إلى النوم ، والجوع ، والمرض إلى حالة من الارتباك التام ، ويجعل أي إنسان كان ، عرضة للتأثير المنوم.

لقد عايشنا جميعنا الغموض الذهني الذي يأتي مع الإفراط في التفكير في مشاكل الحياة. كما ويعرف ضحايا التجمعات—والمخيمات-كيف أن الجوع ، بخاصة ، يؤدي إلى فقدان السيطرة العقلية. ولذلك ففي العالم—الرهيب—للسجن ، أو المخيم الاستبدادي ، فإن هذه التأثيرات تزداد وتضخم.

[فالحديث في معسكرات الاعتقال عادة ما يدور حول الطعام وذكريات الشراهة الجيدة. حيث لم يعد العقل يستطع أن يعمل: فقد كان ثابتاً حول ذكريات لأكل ، والتخيلات حول الطعام. كما ونمت كلمات خاصة ومحددة للتعبير عن أن أي امتلاك ثابت من قبل فكرة الأكل بشكل جيد مرة أخرى: هو بمثابة استمناء المعدة. وقد كان هذا النوع من الكلام يحل محل كل التبادل الفكري الممكن].

كان النازيون ، من خلال الاستغلال الذكي لضحاياهم اللاواعية ، وبعد أن دُسّوا في الزوايا الخلفية من عقولهم ، كانوا في كثير من الأحيان ، قادرين على تحويل مقاتلي المقاومة الشجاعة ، إلى متعاونين وديعين.

وهذا ما كان يمكن أن يفسر على أنها لم تكن مقاومة ناجحة ، وبشكل موحد ، من قبل عاملين فقط.

ويعود السبب الأول في ذلك إلى أن معظم أولئك الأفراد المقاومين السريين ،

كانوا مستعدون للقيام بالأعمال الوحشية التي عوملوا بها.

أما السبب الثاني ، فهو أنه ، ومهما كانت التقنيات النازية ذكية ، لم يكونوا عصاة ، ولا محصنون ، حيال مقاومة مثل تلك الحيل المنهجية للغسالات الدماغية الشيوعية.

وهكذا ، فعندما ينهار ضحايا الوحشية النازية ، لم يكن السبب الرئيسي هو التعذيب ، ولكن في كثير من الأحيان ، كان التهديد بالانتقام من الأسرة كلها ، مما كان يجعلهم يستسلمون ، وينهارون بسرعة ، ومن ثم يتحولون إلى مجرد أرانب وديعة ومطواعة.

إن المواجهة الحادة المفاجئة ، مع مشكلة الطفولة الطويلة ، لا تزال مدفونة في اللاوعي ، ومنذ فترة طويلة ، ولذلك فهي تخلق حالة من الارتباك والشك. ومن ثن فجأة ، يضع العدو أمامك صداماً من الولاءات: حيال والدك ، أو أصدقائك ، أوأخوتك ، أو والدك ، أو زوجتك ، أو شرفك.

وهذا هو الخيار الوحشي الذي يجب القيام به.

وعندما يستفيد المحقق من صراعاتك الداخلية الإضافية ، فإن ذلك يمكّنه ، وبسهولة ، من إجبارك على الاستسلام. كما أن الصدام بين الولاءات ، يجعل السجين أما خيار الخيانة ، وهذا ما كان يثير الشكوك بشكل دائم.

في حين أن هذا الهجوم المحسوب ، ولكن الدقيق على أضعف المواقع في عقل الإنسان ، وعلى ضمير الإنسان ، وعلى النظام الأخلاقي الذي تعلمه من أخلاقيات الأديان ، سوف يشل العقل ، ويقود الضحية ، وبسهولة أكبر ، إلى الخيانة.

يختبر المحقق ، وبمهارة ، شعور ضحيته القديمة بالذنب تجاه شخصية الأب ، وأصدقائه ، وأطفاله.

ولذلك ، فإن المحقق الخبيث ، سوف يستغل في البداية ، وبذكاء ، روابط الضحية المبكرة مع والديه. وحيث يمكن للاندفاع المفاجئ للعيوب الأخلاقية الخفية ، والشعور بالذنب ، أن يجعل الضحية ، ملتهب المشاعر ، عبارة عن إنسان

ضعيف بلا حول ولا قوة ، والذي سينهار سريعا ، ويغرق في دموعه ، ومن ثم ليصل إلى حالة من الانهيار الكامل. ومن ثم ليتراجع إلى تبعية الطفل وخضوعه لأسياده ، كما كان خاضعا لوالديه.

وهذا ما جعل بطل سابق في المقاومة المجرية-الهولندية ، والذي كان يطلق عليه لقب كينغ كونغ(تيمنا بذكر الغوريللا الفحل بسبب حجمه وقوته) يتحول إلى أداة مطواعة ، وغادرة ، للنازيين ، والذي بعد وقت قصير من نقل أخيه معه ، أصبح النازيون يهددون بقتل الشباب عن طريقه.

وهكذا ، فقد كانت أسباب استسلام البطل المقاوم كينغ كونغ النهائي للعدو ، وتحوله إلى إحدى أدواتهم الغادرة ، سهلة التعرف عليها من الناحية النفسية ، وكآلية دفاعية ضد شعوره العميق بالذنب ، والناجم عن مشاعر خفية من العدوان ضد أخيه.

وثمة مثال آخر على ذلك الانهيار التام ، يظهر في قصة مقاتل شاب ، ومقاوم آخر ، فبعد أن هدد النازيون بتعذيب والده ، والذي كان سجينا معه ، فقد كان ينخرط في نوبات دموع طفولية ، وهو يسمع أصوات تعذيب والده ، والذي وعد ، في نهاية المطاف ، بإخبارهم بكل ما يريدون معرفته. وبعد ذلك ، أعيد إلى زنزانته ، لكي يتم الخفيف عنه مرة أخرى ، استعدادا لنوبة تحقيق جديدة في اليوم التالي.

وعلى الرغم من أن هذا كان روتين المحققين معه. فقد كان أولئك المحققون ، يفهمون فقط ، وبشكل جيد جداً ، مدى سعي المرضى للمطاردة في لحظات متكررة ، وأثناء التطفل على مشاعر الذنب التي يشعر بها الرجل.

وعلى الرغم من أن كل من السجناء الذين تم تحريرهم في تلك الليلة ، نتيجة لاجتياح الحلفاء عبر بلجيكا ، والجزء الجنوبي الغربي من هولندا ، فقد بقي ذلك الفتى في فترة اكتئاب ، ولفترة طويلة ، وقد تعرض للتعذيب أيضا من أجل معرفة كما إذا كان قد خان ، تقريبا ، أفضل أصدقائه ، الذين كانوا يختبئون في الأقبية العميقة ، في باطن الأرض ، من أجل إنقاذ والده ، وعلى الرغم من معرفته ، في

الوقت نفسه ، بأن وعود العدو لم تكن ستحمي والده بأي حال من الأحوال.

وفي الاستكشاف النفسي اللاحق ، لانهيار الفتى ، وإصابته بالاكتئاب ، فقد أعطتنا أحلامه ، دليلاً على أوهامه العنيفة الطويلة ، والمدفونة في أعماق وعيه ضد والده ، والذي قتله رمزياً في أحلامه.

كان الشعور بالذنب تجاه هذا العداء الطفولي اللاواعي ، قد أثقل على ضميره ، وبشكل أكبر من احتمال أن يكون مذنبا تجاه زملائه الحزبيين.

ولقد أدرك الفهم الواعي لما كانت عليه صعوباته ، بالإضافة إلى النشاط العسكري المتجدد ، الكثير من أجل مساعدته على التعامل مع الصراعات التي عذبته طوال فترة اعتقاله ، ولكن الخونة الآخرين ، وغير الراغبين ، كانوا أقل حظاً. وذلك عندما أدركوا ، أخيرا ، فداحة خيانتهم لرفاقهم ، حيث أصبح العديد منهم مصابين بالاكتئاب النفسي ، وبعضهم انتحر.

قانون البقاء في مواجهة قانون الولاء

كان أسرى الحرب في"كوريا" والذين استسلموا تدريجياً للضغط الذهني المنهجي للعدو ، وتعاونوا في إنتاج المواد التي يمكن استخدامها للدعاية الشيوعية -ولو مؤقتاً ولمدة طويلة فقط في فلك العدو-يتبع قانون نفسي غريب للدفاع الداخلي السلبي ، والخداع الداخلي ، وعلى أنه ، عندما لا يستطيع المرء محاربة العدو ، وإلحاق الهزيمة به ، فيجب على المرء عند ذاك أن ينضم إليه.

وفي وقت لاحق ، تم الاستيلاء على عدد قليل منهم ، من خلال الدعاية الاستبدادية التي صدرت ، حيث اختاروا البقاء في الصين ، وفي ذلك المدار الاستبدادي. في حين أن البعض منهم قد فعل ذلك للتخلص من العقاب بسبب خيانة رفاقهم.

وهكذا ، لا يمكن للإنسان أن يصبح معتكفاً ، دون أن يبرر تصرفاته لنفسه. فعندما استسلمت هولندا للجيش الألماني في عام١٩٤٠. كنت قد رأيت هذه الآلية العامة للاستسلام الذهني ، وهي تعمل في العديد من الأشخاص ، من الذين

كانوا مناهضين للنازيين.

"ولربما يكون هناك شيء جيد في النازية" فقد أخبروا بأنفسهم ، كيف أنهم شاهدوا العرض الهائل للقوة الألمانية.

وكذلك أولئك الذين كانوا ضحايا استسلامهم العقلي الأولي ، ويحتاجون إلى تبرير الأشياء ، والذين لم يستطيعوا التوقف عن قولهم لأنفسهم ابقوا هنا ؛ وأعتقد بأن هذا قد أصبح من الخونة والمتعاونين.

وقد تم الاستيلاء عليهم بالكامل ، واستلابهم ، من خلال إظهار قوة العدو.

وقد بدأت نفس عملية تبرير الذات ، وتبرير العدو ، لدى أسرى الحرب في معسكرا الاعتقال الكورية.

تقدم لنا تجارب معسكرات الاعتقال تلك ، بعض الإشارات إلى المدى الذي يمكن أن يصل إليه هذا الخنوع السلبي للعدو. وبسبب الحاجة الإنسانية العميقة للعاطفة. فقد عاش العديد من السجناء لأمر واحد فقط: كلمة ودية من حراسهم.

والذين كانوا في كل مرة ، يحقنون أدمغتهم الهشة بها ، ومن ثم تم تعزيز الوهم بالنعمة والقبول.

وحالما يتم قبول هؤلاء السجناء على التعاون ، ومعظمهم ممن أمضوا فترات طويلة في معسكرات الاعتقال ، فإنهم يتحولون في نهاية المطاف ، وعلى يد حراسهم ، إلى أدوات موثوقة لدى النازيين.

كما ويدأوا يتصرفون مثل سجانيهم القساة ، وأصبحوا يعذبون زملائهم في المعسكر. وكان هؤلاء السجناء المتعاونين ، والذين يطلق عليهم لقب الكابوس أكثر قسوة وانتقاماً من المراقبين الرسميين.

وبسبب الحاجات الداخلية التي أسيء فهمها ، فإن قائد المعسكر ، والمخلوق السادي-كان في حاجة ماسة إلى متعاونين. ولم يخدم ذلك آلة الدعاية فحسب ، بل أصبحوا يضعون المبررات لسجانيهم ، ودون شعور بالذنب.

وهكذا ، فعندما يكون على الإنسان أن يختار إما الجوع ، ومسيرات الموت ،

والتعذيب ، أو الاستسلام المؤقت لأوهام العدو ، فإن آليات الحفاظ على الذات ، ستعمل بطرق عديدة ، مثل ردود الفعل. كما أنها ستساعده على العثور على ألف مبرر ، وعذر للاستسلام للضغط النفسي.

كان أحد الضباط المحلفين في المحكمة العسكرية ، والذين تعاونوا مع العدو في معسكرات الاعتقال الكورية ، قد يبرر معسكره سلوكه ، بالقول بأنه كان يتبع هذا الإجراء ، من أجل الإبقاء على حياته ، وحياة رجاله الموقوفين معه.

فهل كان ذلك حجة صحيحة تماما ، على الرغم من أنها قد لا تكون بالضرورة كذلك؟.

في حين يساعد استعمالها على إبراز حقيقة أن آليات الحماية الذاتية ، عادة ما تكون أقوى بكثير من الولاء الأيديولوجي.

لا أحد من الذين لم يواجه هذه المشكلة المريرة نفسها ، يمكن أن يكون له رأي موضوعي ، حول ما سيفعله هو نفسه ، في حال تعرضه لمثل تلك الظروف.

وكطبيب نفسي ، فإنني أعتقد بأن معظم الناس سوف يرضخون ، حين يتعرضون للخطر المحدق بحياتهم ، وعلى الأخص عندما يصبح التهديد ، والضغط الذهني ، قوياً بما يكفي.

كان من بين النافذين المناهضين للنازية في الحرب العالمية الثانية ، اثنان من الفتيان الأقوياء جسديا ، ومفتولي العضلات ، واللذين اعتقدا بأنهما يستطيعان مقاومة كل الضغوط ، ولن يخونا رفاقهما أبداً. لكنه ومع ذلك ، لم يتمكنا حتى من تخيل التقنية الغادرة المتمثلة في تشويه عقليهما. وتكرار المضايقات ، وأساليب التعذيب التي مورست عليهما ، وحيث كان ذلك التعذيب العقلي ، في حد ذاته ، أكثر تدميرا لهما من التعذيب الجسدي.

إن ألم التعذيب الجسدي ، كما قلنا ، يؤدي إلى فقدان الوعي المؤقت ، وبالتالي النسيان ، ولكن عندما تستيقظ الضحية ، تبدأ لعبة الترقب ، حيث يتساءل الضحية:

"هل سيحدث هذا لي مرة أخرى ، ومتى؟.

و"هل يمكنني الصمود أكثر من ذلك؟".

وبالتالي ، فإن التوقّعات المبهمة تشل الإرادة. في حين أن الأفكار الانتحارية ، وتحديد الهوية مع الموت ، لن تساعد في شيء.

كما أن العدو لن يسمح لك بأن تقتل نفسك ، ولكنه سيسحبك من حافة النسيان. وهكذا ، فإن توقع تجدد نوبات التعذيب ، سوف يزيد من القلق الداخلي ، حيث يبدأ الضحية في التساؤل من جديد:

"من أنا لأصمد في وجه كل هذا العذاب؟".

و"لماذا يجب أن أكون أنا بطلا؟".

ثم تنهار المقاومة تدريجياً.

وهكذا ، فإن استسلام العقل إلى سيده الجديد ، لا يحدث مباشرة ، بل تحت تأثير الإكراه والإجهاد النفسي والجسدي والعقلي المتكررة.

كما ويعرف المحقق تماما ، بأنه في فترة الاسترخاء المؤقت للضغوط ، وخلالها ، سيقوم الضحية بتكرار ما واجهه في تجربة التعذيب لنفسه ، ولذلك يبدأ عقله في إعداد الاستسلام النهائي.

في حين أنه ، وخلال هذا التوتر من اجترار ذكريات التعذيب ، والترقب ، فإن الرغبة الخفية العميقة في الاستسلام سوف تنمو.

ويدرك المحققون ذلك ، وبأنه كلما كان التعذيب قاسيا ووحشيا ، كلما عجّل ذلك في استسلام الضحية ، وبعد الاجترار المستمر للأفكار الغبية ، والتي يتم تكرارها لأيام وأيام ، حيث يستنفذ العقل قدراته ، وإلى أن يصل إلى حالة تقديم التنازلات ، والإجابات التي يريد المحقق الحصول عليها.

كما أنه ، وبالإضافة إلى سلاح الإرهاق الذهني ، فإن المحقق يلعب على حالة الإرهاق البدني للحواس. وقد يستخدم أصواتاً ما ، أو اختراقاً ما ، أو ضجيجاً ، أو مصباحاً ضوئياً قوياً ثابتاً ، بحيث يعمل على غمغمة العينين.

في حين إن الحاجة إلى إغلاق العينين ، أو الابتعاد عن الضوضاء ، سوف يخلط التوجه الذهني للضحية. ويفقده توازنه ومشاعره ، وكذلك الثقة بالنفس. حيث إنه يتوق إلى النوم ، ولا يمكنه فعل شيء سوى الاستسلام.

ولتنتصر الرغبة الطفولية في أن يصبح السجين جزءاً من تلك الآلة العملاقة التي كان يهددها ، وليصبح متحدا مع القوى الأقوى بكثير من قدرة ذلك السجين على التحمل.

إنه استسلام لا لبس فيه ، حيث يقول السجين في نهاية المطاف: افعل بي ما تريد. ومن الآن فصاعدا ، أنا أنت.

إن الحرمان من النوم لوحده ، قادر على إنتاج تفاعلات غير طبيعية مختلفة في العقل ، والذي كان قد تم تأكيده من قبل الباحث تايلر في تجربته التي أجراها مع ثلاثمائة وخمسين متطوعاً من الذكور. فقد حرمهم من النوم لمدة تزيد عن مئة ساعة.

وقد كانت النتيجة على النحو التالي:

في البداية ، انهار أربعة وأربعون رجلاً في الحال ، لأنهم كانوا يشعرون بالقلق والتوتر. وبعد أربعين ساعة من دون نوم ، كان سبعون في المائة من جميع الأشخاص ، يعانون من أوهام ، وهلوسة ، وخبرات مماثلة.

ومن ثم تم إسقاط أولئك الذين لديهم هلوسات حقيقية من التجربة.

وبعد الليلة الثانية ، كانت اضطرابات التفكير المتفرقة قد أصبحت شائعة ، وفي جميع النواحي. وقد شعر المشاركون بالحرج الشديد عندما تم إبلاغهم في وقت لاحق ، حول سلوكهم أثناء التجربة.

كانت التغيرات في الاستجابة العاطفية ملحوظة للغاية–النشوة تليها الاكتئاب. والإحباط والأرق. وعدم الاكتراث لسلوك غير عادي ، يظهر من قبل المشتبه بهم الآخرين. وقد أعطت التجربة الانطباع ، بأن الاستيقاظ ، ولفترات طويلة ، يجعل بعض المواد السامة تؤثر على الدماغ والعقل.

بيد أن عددا قليلا فقط ، من الشخصيات القوية ، والمستقلة ، والمكتفية ذاتيا ، ومن الذين احتلوا احتياجاتهم الخاصة بالتبعية ، يستطيعون تحمل مثل هذا الضغط ، أو أنهم على استعداد للموت دونه.

وهكذا ، فإن طقوس اتهام الذات ، والضرب ، والاستسلام غير المشروط لقواعد الشيوخ ، كان جزءا من الطقوس الدينية القديمة. والذي كان مبنياً على اعتقاد غير واعٍ ، وإلى حد ما ، بالقوة العليا والقاهرة.

وهذه القوة ، قد تكون دولة الحزب الواحد ، أو ألوهية غامضة.

ولذلك فالتابع إنما يتبع المثل الداخلي القديم الذي يقول "أنا أؤمن لأن ذلك أمر سخيف" وهو الإخلاص الأمين لعالم فائق وأقوى من الواقع الذي يواجه حواسنا.

إذن فلماذا تلتزم الأيديولوجيا المتعصبة ، والمتطرفة بمثل هذا الموقف الصارم ، ومع حظر التحقيق في الأماكن الأساسية ، تبقى مسألة نفسية معقدة.

ود يكون السبب في ذلك ، في مكان ما ، مرتبطا بالخوف من التغيير ، والخوف من خطر تغيير العادات ، والخوف من الحرية ، والتي قد تكون ذات صلة نفسية ، بالخوف من نهاية حتمية الموت.

كما أن الحرمان من الحرية الإنسانية ، والمساواة ، يرفع الرجل السلطوي إلى ما فوق أقرانه. وحيث يعتقد بأن قوته المؤقتة ، وقوته الكلية ، ستمنحه وهم الأبدية.

كما أنه ، في شموليته ، سينكر الموت ، والوجود سريع الزوال ، ولذلك فهو سيستعير القوة من المستقبل. و من أجل تحقيق ذلك ، فعليه أن يخترع صياغة عقيدة الحقيقة ، والحماية النهائية ، لتبرير معركته ضد الموت والوقتية.

كما أنه من الآن فصاعدا ، يجب أن يتم التوصل إلى اليقين الأساسي الجديد ، في أذهان الأتباع ، والعبيد.

إن ما يحدث داخل النفس البشرية في ظل ظروف قاسية من الاعتداء الذهني والبدني ، توضحه لنا الباحثة"آنا فرويد" في كتابها عن الدفاعات العقلية العامة

المتاحة للإنسان ؛ وفي وقت سابق ، حاولت بنفسي ، في العديد من المنشورات ، تحليل الطرق المختلفة التي يدافع بها الناس عن أنفسهم ، ضد الخوف والضغط.

ففي المراحل الأخيرة من غسل الأدمغة وتشويه العقول ، يخدم تقديم الضحايا المهين لذاتهم كجهاز دفاعي داخلي ، بحيث يبيد أفكار محقق الادعاء ، وبطريقة سحرية. فكلما اتهموا أنفسهم ، كلما كان السبب المنطقي لوجودهم في المعتقل أقل. مما يجعل الاستسلام ، والانهيار ، أكثر قسوة تجاه ذوات المحقق والقاضي على حد سواء ، حيث يصبح عديم الجدوى بالنسبة لهم ، كما ويُظهر عقم النظام المتهور.

قد نقول أن غسل الأدمغة ، والاعتراض على النفس ، يولدان نفس الآليات الدفاعية الداخلية ، والتي نلاحظها في المرضى السوداويين. فمن خلال تعذيبهم الذهني ، فإنهم يحاولون التخلص من الخوف ، وتجنب الشعور بالذنب العميق. حيث يبدؤون بمعاقبة أنفسهم مسبقا ، وذلك من أجل التغلب على فكرة العقاب النهائي لبعض الجرائم الخفية ، والمجهولة ، والأسوأ. كما أن الضحية الذي يجلد ذاته ، يتغلب على مُعذّبه ، بأن يصبح أكثر قسوة تجاه نفسه ، مما قد يفعله المحقق. وبهذه الطريقة السلبية ، فإنه يتغلب على عدوه.

الميثاق المازوشي الغامض

في الكتاب التحفة الذي كتبه"آرثر كويستلر Arthur Koestler" بعنون ظلمة الظهيرة فإنه يصف جميع التعقيدات المعقدة الخاطفة ، والمنطق ، والجدليات بين المحقق وضحيته. وقدماء البلاشفة من أمثال روباشوف والتي تم تأطيره مسبقا ، من قبل التزامه السابق بالحزب ، حيث يعترف بالتآمر ضد الحزب ، وخط الحزب. وقد كان مدفوعا جزئيا ، بالرغبة في تقديم خدمة أخيرة: وهي اعترافه بأنها تضحية أخيرة للحزب.

وأود أن أشرح ذلك الاعتراف على أنه جزء من هذا الاتفاق المازوشي الغامض الذي ينتج بين المحقق وضحيته ، والتي نواجهها أيضاً في عمليات أخرى لغسيل المخ.

[يشير مصطلح"المازوشية" في الأصل إلى الإشباع الجنسي الناجم عن الألم والعقاب، والذي أصبح في وقت لاحق، يعني كل إشباع مكتسب من خلال الألم والإحباط.] وهذه هي الهدية الأخيرة والخدعة التي يقدمها التعذيب للتعذيب.

في حين يبدو الأمر كما لو كان ينادي:

"كن جيداً معي. وأنا سأعترف. وأسلّم".

وهكذا، وبعد أن عانى من كل أشكال الوحشية والتنويم المغناطيسي، واليأس، والذعر، كان هناك بحث أخير عن الرفقة البشرية، ولكنه كان متناقضا، وممزوج بإحباط عميق وكراهية، ومرارة شديدة.

فالتعذيب تلو التعذيب، وبشكل تدريجي وممنهج، يؤدي إلى تشكيل مجتمع غريب، حيث يتفاوت تأثير الفرد على الآخر وكما هو الحال في الجلسات العلاجية، حيث يحدد المريض، مع الطبيب النفسي، فإن الجلسات اليومية للاستجواب والمحادثة، تؤدي إلى نقل المشاعر، غير الواعية، للمشاعر التي يتعرف عليها السجين مع محققيه، والعكس بالعكس. فالسجين، والذي استولى على عالم غريب، قاس، وغير مألوف، يستطيع أن يحدد، وبمستوى أكثر بكثير مع العدو، مما يفعله العدو معه. كما أنه قد يسيطر على كل معايير العدو وتقييماته، ومواقفه تجاه الحياة.

كما ويتم تحديد هذا الاستسلام السلبي لإيديولوجية العدو من خلال العمليات اللاواعية. ولكن خطر الشراكة من مثل هذا النوع، يكمن في أنه، في النهاية، سوف تختفي جميع التقييمات الأخلاقية.

وقد رأينا ذلك يحدث في ألمانيا. حيث أصبح ضحايا النازية أنفسهم، يتقبلون فكرة معسكرات الاعتقال.

لقد واجهنا هكذا نوع من الطقوس المازوشية من قبل، كتلك التي كانت موجودة في صيد السحرة خلال العصور الوسطى، باستثناء أن الطقوس اليوم،

قد اتخذت شكلاً أكثر دقة. فالمتهم والجلاد-كل منهما يمنح المساعدة الأخرى ، ولكنهما ينتميان معاً كأعضاء متعاونين في طقوس اعتراف وتشويه ذاتي. ومن خلال تعاونهم ، يهاجمون عقول المتفرجين الذين يتعاملون معهم ، والذين يشعرون بالتالي ، بالذنب والضعف والاضطهاد.

وقد تسببت محاكمات تطهير مدينة "موسكو" في تولد شعور الذنب لدى الكثير من الروس ، والذين اصبحوا يعانون من العقدة المازوشية في الشعور بالذنب.

كما أن الاستماع إلى الاعترافات ، حيث كان الضحايا يقولون لأنفسهم:

"نعم. كان بإمكاني فعل الشيء نفسه. كان من الممكن أن أكون في مكان ذلك الرجل".

ولكن عندما أصبح من أبطالهم الخونة ، ولذلك ، فإن رغباتهم الخفية المستترة في ذواتهم ، جعلتهم يشعرون بالضعف والخوف.

قد يبدو هذا التفسير أكثر تعقيداً ، ومشاركاً ، بل وربما متناقضاً مع نفسه ، ولكنه في الواقع يساعدنا على فهم ما يحدث في حالات تشويه العقل. وحيث أن كلا من الجلاد والضحية ، هم ضحايا لذنبهم اللاوعي الخاص.

ففي حين يعرض الجلاد ذنبه على أنه كبش الفداء ولذلك ، فهو يحاول طرد هواجسه من خلال مهاجمة ضحيته. في حين أن الضحية ، أيضا ، لديها شعور بالذنب ، وهو الذي ينشأ من أعمال القتال الطفولية المضطربة بشدة.

ولكن في ظل الظروف العادية ، يظل هذا المعنى تحت السيطرة ، إلا أنه في الأجواء الاعتيادية للاستجواب والتحقيقات التي لا هوادة فيها ، فسوف تتم إثارة أعماله القتالية المكبوتة ، وهي تلوح في الأفق ، في صورة خيالات خيالية مخيفة من ماضٍ منسي ، والذي يلاحظه الضحية ، ولكنه لا يستطيع استيعابه أو فهمه.

وهكذا ، فإنه من الأسهل أن نعترف بتهمة الخيانة والتخريب ، أكثر من قبول الإحساس المرعب بالإجرام ، والذي قد تدفعه إليه الآن دوافعه العدوانية ، والمنسية منذ أمد طويل.

أما التهمة الذاتية العلنية للضحية ، فتكون بمثابة خدعة ، لإبادة ذلك المتهم الداخلي والمحقق المضطهد. ولذا ، فكلما اتهمت نفسي ، وازداد شعوري بالذنب ، كلما قل السبب لوجود المحقق.

وعلى الرغم من أن الضحية قد يذهب إلى حبل المشنقة لِيُشنق ، فإن الشعور بالذنب سيرافق الجلاد أيضا ، ولأنه كان هناك وجود لهوية متبادلة بينهما: فالمتهم هو العاجز في اللحظة التي يبدأ فيها الضحية في اتهام نفسه ، ولكن ذات المتهم ، في اليوم التالي ، قد يتهم نفسه ، ويقودها إلى حبل المشنقة.

وانطلاقا من فهمنا لهذا الاتفاق المأساوي ، والغريب بين المُتّهِم ، والمُتَّهَم ، تأتي إجابة بسيطة على الأسئلة ، وهي لماذا يريد الناس أن يتحكموا في عقول الآخرين ، ولماذا يعترف الآخرون ويخرجون من السجن؟.

والجواب ، لأنه لا يوجد فرق جوهري بين الضحية والمحقق. فهم متشابهان ، وسواء بسواء. ولا يتمتع أي منهما في ظل هذه الظروف بأي سيطرة على أفكاره ، ومشاعره الجنائية الخفية ، والعميقة.

كما أنه من الواضح بأنه من الأسهل أن يكون المرء محققاً على أن يكون ضحية ، وليس فقط لأن المحقق قد يكون آمناً ، ولو مؤقتاًن من التدمير العقلي والبدني ، ولكن أيضاً ، لأنه من الأسهل معاقبة الآخرين على ما نشعر به كجريمة في أنفسنا من أن نواجه إحساسنا الخفي بالذنب. وحيث ارتكاب فعل القتل هو جريمة للعدوان على الأقل ، والتي تغطي الجريمة العميقة للكراهية والدمار الخفيين العالقين في العمق البشري.

مسح للعمليات النفسية التي ينطوي عليها غسل وتشويه العقول.

في نهاية هذا الفصل الذي يصف التأثيرات المختلفة التي تؤدي إلى الاستسلام لاستراتيجية العدو ، فإنه من المفيد إعطاء استطلاع قصير للعمليات النفسية المعنية.

المرحلة الأولى

الانهيار المصطنع والتكييف

يحاول المحقق على الدوام من إضعاف الغرور لدى سجينه. وعلى الرغم من استخدام التعذيب الجسدي في الأساس-كالجوع ، والبرد ، واللذان لا يزالان فعالين للغاية كأدوات تعذيب قسري-فقد يؤدي التعذيب الجسدي ، في كثير من الأحيان ، إلى زيادة عناد المتهم.

ويقصد بالتعذيب أن يكون بمثابة تهديد لخيال الناس.

كما أن توقعهم لأساليب التعذيب الوحشي الذي قد يتعرضون له ، سوف يؤدي ، وبسهولة أكبر إلى انهيارهم ، وذلك عندما يحتاج العدو إلى إضعافهم. (في بعض الأحيان ، قد يجد محقق العدو السادي ، بالطبع ، متعة فردية وخاصة ، في التعذيب).

كما ويشمل التعذيب الكثير من الأدوات والأجهزة العديدة التي يستخدمها العدو: كاقتراح التخويف ، والإقناع الدرامي ، والاقتراح الجماعي ، والإذلال ، والإحراج ، والشعور بالوحدة والعزلة ، والاستمرار في الاستجواب ، وإثارة العبث بالعقل غير المستقر ، وإثارة المزيد من الشفقة على الذات. ولذلك ، فإن الصبر والوقت ، يساعدان المحقق لتليين روح المتهم العنيدة.

وكما هو الحال في العديد من الأديان القديمة ، فقد كان الضحايا يتواضعون ، ويتذللون من أجل الاستعداد للدخول في الدين الجديد ، ولذلك ، كما في هذه الحالة ، يكونون مستعدين لقبول الأيديولوجية الشمولية.

وفي هذه المرحلة ، وانطلاقاً من كونها مجرد انتهازية فكرية ، قد يستسلم الضحية ، وبوعي.

المرحلة الثانية:

الإخضاع والاندماج مع العدو

كما سبق وذكرنا ، قد تحدث لحظة الاستسلام فجأة. حيث يبدو الأمر كما لو أن القابلية السلبية العنيدة السابقة في بدايات التوقيف ، قد تغيرت وبشكل حاسم ، إلى استسلام ومن ثم ، إلى الاندماج.

وما يسميه المحقق بالإضاءة الداخلية المفاجئة ، والتحول الانعكاسي الكلي للاستراتيجية الداخلية في الضحية.

فمنذ هذا الوقت ، وفي شروط التحليل النفسي ، تعيش "الأنا" العليا الطفيلية في ضمير الإنسان ، وسيتحدث بصوت سيده الجديد. لا

وفي تجربتي حول مثل هذا الاستسلام المفاجئ ، فإنه غالبا ما يحدث ، وجنبا إلى جنب ، مع نوبات هستيرية من البكاء والضحك ، مثل طفل يستسلم بعد نوبات الغضب العنيف.

يمكن للباحث تحقيق هذه المرحلة بسهولة أكبر ، وذلك من خلال افتراض موقف الأب.

وفي واقع الأمر ، فإن العديد من الأسرى في السجون الكورية ، قد تم استدراجهم من خلال شكل من أشكال العطف الأبوي- كالهدايا والحلويات في أعياد الميلاد ، والوعود بأشياء أكثر مرحاً في المستقبل.

يقارن الباحث"مولوني Moloney" هذا التائب والخاضع المفاجئ ، بالاندماج ، أو التلاؤم(التحول الداخلي) كما وصفته بعض الطقوس اللاهوتية.

وهكذا ، فإنه ومن أجل فهم أكثر ، نرى بأنه من المهم التأكيد على أن الخضوع عملية ، غير واعية ، وعملية متدرجة من عدة مراحل أولها الخوف ، ومن ثم الإذلال ، والخداع ، والوعود الواهمة ، وهكذا دواليك.

كما أن عملية الخضوع لم تعد تحت السيطرة الفكرية الواعية للدماغ. وقد قد ندعو هذه المرحلة أيضا بمرحلة التنويم المغناطيسي الآلي autohypnosis".

المرحلة الثالثة:

التكييف مع النظام الجديد

لا شك في أنه لا بد ، ومن خلال كل من التدريب المستمر والترويض ، أن يخترق اسطوانة الحاكي "الفونوغراف" الجديدة. و قد نقارن هذه العملية بتنويم مغناطيسي نشط من أجل الوصول إلى في عملية تحول الضحية.

ولا بد من وجوب تصحيح الانتكاسات العرضية للشكل القديم من التفكير ، كما في المرحلة الأولى.

حيث يتم مساعدة الضحية يومياً لترشيد وتبرير أيديولوجيته الجديدة للتخفيف من شعوره بالذنب.

ففي هذه المرحلة ، يقدم المحقق له الحجج ، والمعتقدات الجديدة لتسهيل حدة وطأة التحول ، والتي قد يعتبرها الضحية خيانة صريحة لمعتقداته ، ومبادئه—التي قد يكون أفنى حياته في سبيلها—وخيانة لرفاقه أيضا.

كما ويشكل هذا التلقين المنهجي-لأولئك الذين تجنبوا التلقين المكثف منذ فترة طويلة-الجانب السياسي الفعلي لغسيل الدماغ ، ويرمز إلى الحرب الباردة الأيديولوجية التي تحدث في هذه اللحظة بالذات.

المرحلة الرابعة :

التحرر من الإملائية الاستبدادية

وهكذا ، فإنه وبمجرد عودة الدماغ إلى جو ديمقراطي حر ، سرعان ما تنكسر تلك الموجة المنومة. حيث تحدث تداعيات عصبية مؤقتة في بدايات الصحوة ، مثل نوبات البكاء ، والشعور بالذنب والاكتئاب.

كما إن توقع وجود وطن معاد ، في ضوء استسلامه لتلقين العدو ، قد يعزز هذا الرد. وتصبح فترة غسيل الدماغ كابوساً.

ولكن فقط أولئك الذين كانوا من الشيوعيين الأقوياء من قبل ، قد يلتزمون بها ، ولكن هنا أيضاً. ولقد رأيت كيف يفرض العدو ضغطه الذهني ، وبشكل جيد ومتقن للغاية ، وكيف يحول رفاقه السابقين إلى كارهين أبديين للنظام.

الجزء الثاني

تقنيات إخضاع المجموعات البشرية

يهدف الغرض من الجزء الثاني من هذا الكتاب إلى إظهار جوانب مختلفة من الاستراتيجية السياسية ، وغير الاستراتيجية ، المستخدمة في تغيير المشاعر وخداع الجماهير ، وذلك بدءا من الإعلانات البسيطة ، وصولا إلى البرنامج الموضوع ، ومن ثم مسح الحرب النفسية والحرب الباردة الفعلية ، والذهاب بعد ذلك ، إلى دراسة الوسائل المستخدمة للتدفق الداخلي لأفكار الإنسان ، والسلوك.

كما وينتهي الجزء الثاني بإجراء دراسة دقيقة لكيفية استخدام واحدة من أدوات التهييج العاطفي والهجوم-سلاح الخوف-وماهي ردود الفعل التي يتعرض لها البشر حيال ذلك.

الفصل الخامس

الحرب الباردة ضد العقل

لا يمكن سوى للتفكير الأعمى الوحيد، أن يسمح لنا بالاعتقاد، بأن مجتمعنا خال من المؤثرات الخبيثة المذكورة في الجزء الأول.

والحقيقة هي أنها موجودة في كل مكان حولنا، سواء على المستوى السياسي، أو غير السياسي، وقد أصبحت خطرة على أسلوب الحياة الحر، مثلها مثل بعض الحكومات الاستبدادية العدوانية نفسها.

وهكذا، فإن كل ثقافة مؤسسية لأشكال معينة من السلوك، ستعمل على التواصل، وتشجيع بعض أشكال التفكير والتصرف، وبالتالي تشكيل شخصية مواطنيها. ولدرجة أن الفرد قد أصبح موضوعاً للتلاعب الذهني المستمر، ولدرجة أن المؤسسات الثقافية قد تميل إلى إضعاف القوة الفكرية والروحية، ولدرجة أن معرفة العقل تستخدم لترويض الناس، وظروفهم، بدلاً من تثقيفهم، ولدرجة أن الثقافة نفسها تنتج الرجال والنساء الذين يميلون إلى قبول أسلوب الحياة الاستبدادية.

وبالتالي، يمكن للرجل الذي ليس لديه عقل مستقل خاص به، أن يصبح، وبسهولة، بيدقا من بيادق ديكتاتور محتمل.

كما أنه ومن المثير للقلق، في كثير من الأحيان، أن نرى كيف أنه، وحتى الناس الأذكياء، ليس لديهم عقول مستقيمة التفكير الخاص بهم.

ونتيجة لذلك، فإن نمط العقل، سواء كان يسير نحو التوافق والامتثال أو غير ذلك، يكون مشروطاً وخاضعاً لظروف محددة، وفي وقت مبكر من الحياة.

وفي تجاربه النفسية الاجتماعية المهمة مع الطلاب ، اكتشفت العالم والباحث "آش Asch" ومن خلال اختبارات بسيطة ، أن هناك غضباً عارما ، تجاه رأي أغلبية مضطربة ، وفي أكثر من ثلث الأشخاص الذين قاموا باختباره ، ومن بين ما نسبته خمسة وسبعين في المئة من الأشخاص الذين خضعوا للتجربة ، وذلك بناءً على موافقة الأغلبية ، وبدرجات متفاوتة.

فلدى كثير من الأشخاص ، يكون وزن السلطة ، أكثر أهمية من جودة السلطة. [في الفصل العاشر ، الطفل هو أب الانسان ، وسوف أعود إلى هذه الرغبة الداخلية نحو التوافق].

وهكذا ، فإذا أردنا أن نتعلم كيفية حماية سلامتنا العقلية ، وعلى جميع المستويات ، يجب علينا أن ندرس ، ليس فقط تلك الجوانب من الثقافة المعاصرة -والتي يجب أن تفعل مباشرة مع النضال من أجل السلطة- ولكن أيضا تلك التطورات في ثقافتنا ، والتي ، عن طريق التخفيف من الوصول إلى حافة الانهيار لدينا ، يمكن أن يقودنا الوعي العقلي ، أو الاستفادة من القابلية لدينا ، إلى الموت العقلي-أو الملل- نحو الخضوع للشمولية.

إن الاقتراحات المفروضة بشكل مستمر ، والانطواء البطيء في أعقاب الاتصال الجماهيري الميكانيكي ، يشجع على تماثل العقل ، ويجذب الجمهور إلى "الحقبة السعيدة" من التكيف والتكامل والمساواة ، وحيث يتم تصوير الرأي الفردي بصورة نمطية تماماً.

فعندما أستيقظ في الصباح ، أقوم بتشغيل الراديو الخاص بي لسماع الأخبار ، وتوقعات الطقس. ثم يأتي الصوت البابوي ، والذي يخبرني بضرورة تناول حبة "الأسبرين" لصدقي.

فلدي "صداع" في بعض الأحيان(وكذلك الحال بالنسبة للعالم) ، وصدقي ، مثل أي شخص آخر ، يأتي من العديد من النزاعات التي تفرضها عليّ الحياة.

كما سيؤكد الإذاعي على مسامعي بأن ألا أفكر في الصراعات التي تسبب

الصداع ، وأن لا أفكر بالصداع نفسه.

ومن ثم ليقترح ، بدلاً من ذلك ، بأنني يجب أن أتراجع إلى هذا العمل السحري القديم من ابتلاع حبة الدواء.

وعلى الرغم من أنني أضحك ، وأنا أستمع إلى هذه الوصفة الطويلة من قبل المذيع ، والذي لا يعرف أي شيء عني أو عما يجول في صدري ، وعلى الرغم من أنني أتأمل -للحظة واحدة- في خنوع الإنسان لسحر الكيمياء ، فقد بدأت يدي بالفعل في الوصول إلى زجاجة عقار"الاسبرين".

وبعد كل شيء ، فإن الحقيقة الماثلة لدي ، هي أنني مصاب بالصداع فعلا.

ولذلك ، فإنه من الصعب للغاية ، الهروب من الاقتراحات المتكررة في الحياة اليومية. وحتى عندما يرفضها عقلنا النقدي ، فإنهم يجبروننا على فعل ما يقوله لنا فكرنا ، وهو أمر غبي.

وبالتالي ، فإن مكننة الحياة الحديثة ، قد أثرت بالفعل ، على الانسان ، ليصبح أكثر سلبية ، وتكيّف نفسه ، إلى وصوله إلى حالة الخضوع المقولبة ، والجاهزة.

فلم يعد يفكر الإنسان في القيم الشخصية ، وبما يمليه ضميره الخاص ، ولا بالتقييمات الأخلاقية ؛ بل أصبح يفكر أكثر فأكثر في القيم التي جلبتها له وسائل الإعلام.

فالعناوين الرئيسية في الصحيفة الصباحية ، تمنحه وجهة نظره السياسية المؤقتة ، وحيث ينفجر الراديو في أذنيه ، ويبثها التلفزيون ، في رهبة مستمرة وتثبيت سلبي.

وقد يحتج ، وبوعي ، على هذه الأصوات المجهولة ، ولكنه مع ذلك ، فإن اقتراحاتهم ، والمواضيع التي تتلى مرارا وتكرار ، وعدة مرات في الساعة ، سوف تترسب في نظامه العقلي. ولكن ما هو أكثر صدمة حول هذه المؤثرات ، هو أن العديد منهم لديهم لم يتم تطويره حول ما يتعلق بتدمير الإنسان ، ولكن في الأمل في تحسين عالمه ، وجعل الحياة أكثر ثراءً وعمقا ، وقيمة.

ولذلك ، فإن المؤسسات التي ابتدعها هو نفسه ، لمساعدة نفسه ، والأدوات التي اخترعها لتعزيز حياته ، والتقدم الذي أحرزه تجاه التمكن من نفسه وبيئته ، وكل ذلك ، يمكن أن يتحول إلى أسلحة دمار.

مهندسو العام الرأي

لا شك في إن الإيمان ، يتزايد ، وباطراد في بلدنا ، وبأن حملة الدعاية المتقنة ، إما لفكرة سياسية ، أو لعمق عميق يمكن أن تنجح في بيع الجمهور أية فكرة ، أو شيء يريد المرء أن يشتريه ، وأية شخصية سياسية ، يريد الشخص أن ينتخبها.

ففي الأونة الأخيرة ، تم التخطيط لبعض حملاتنا الانتخابية من قبل ما يسمى بمهندسي الرأي العام ، والذين استخدموا كل تقنيات الاتصال الجماهيري الحديث ، وجميع المعارف المعاصرة للعقل البشري ، لإقناع المجتمع الناخب إلى التصويت للمرشح الذي يدفع رواتب رجال العلاقات العامة.

وبالتالي ، فإن خطر مثل هذه الإعلانات ذات الضغط العالي ، هو أن الإنسان بعينه ، أو الطرف الذي يستطيع أن يدفع أكثر من غيره ، ويمكن أن يصبح ، مؤقتاً على الأقل ، الشخص الذي يمكنه التأثير على الناس ، للشراء ، أو التصويت لما قد لا يكون في مصلحتهم الحقيقية.

قد يحاول الأخصائيون في فن الإقناع وصياغة المشاعر العامة أن يعجنوا عجينة الإنسان العقلية ، مع جميع أدوات الاتصال المتاحة لهم: كالكتيبات ، والخطب ، والملصقات ، واللوحات الإعلانية ، والبرامج الإذاعية ، والبرامج التلفزيونية ، والإعلانات الطرقية ، والجولات الانتخابية ، وغيرها الكثير. وقد تهدأ عفوية وإبداع الأفكار ، بحيث تتحول إلى كليشيهات عقيمة ، ومبسطة توجه أفكارنا ، على الرغم من أننا لا نزال نتوهم بأننا فريدين من نوعنا ، وبأننا من ذوي المبادئ ، والضمير النقي ، وبأننا نتمتع بالأصالة والتفرد في رؤانا.

وهكذا ، فإن ما نسميه"إرادة الشعب" ، أو "إرادة الجماهير" لا نعرف عنها

شيئا إلا بعد أن يتم هذا التحرك الجماعي ، وبعد أن يتم التعبير عن إرادة الشعب ، سواء في الانتخابات ، أو في الغضب والتمرد.

وهذا يدل مرة أخرى على مدى أهمية من هو الذي يدير أدوات ، وآلات الرأي العام.

كما أنه ، وفي أعقاب مثل هذا الإعلان ، وهندسة الموافقة ، قد تتزعزع ثقة المواطن في قادته ، وقد يزداد عدد السكان الذين اعتادوا ، أكثر فأكثر ، على الخداع الرسمي.

وأخيراً ، وعندما لا يكون لدى الناس ثقة في أي برنامج انتخابي ، أو أية موقف ، وعندما لا يتمكنون من تشكيل أحكام ذكية أكثر من ذلك ، يمكن أن يتأثروا بسهولة بأي ديماغوجي ، أو ديكتاتور محتمل ، والذي قد يستمد قوته من ارتباكهم ، ومن همومهم على حد سواء. وكذلك من شعورهم المتزايد بعدم الرضا.

وربما يكون أسوأ جانب من هذا الترويج للأفكار ، هو أنه ، وفي كثير من الأحيان ، وحتى أولئك الذين يشترون الخبراء ، وحتى خبراء الرأي أنفسهم ، لا يدركون ما يفعلونه.

فهم أيضا يتأثرون بالعبارة الحالية ، والتي يعملون من خلالها ، وهي "إدارة الرأي العام" كما أنهم لا يستطيعون الحكم أكثر على الأدوات التي استأجروها.

ومن هذا المنطلق ، فإن الغاية لا تبرر الوسيلة أبداً. فبضعة خطوات فقط ، كافية على هذا الطريق ، والتي يمكن أن تقودنا تدريجيا إلى الشمولية ، أو الديكتاتورية.

وفي هذه اللحظة بالذات ، في بلدنا على الأقل ، تجري أبحاث معمقة في التحفيز.

ويتمثل هدفها في معرفة السبب ، وما الذي يعجب المشتري لشرائه. وما الذي يجعله يوافق على أن يضع صوته لصالح هذا المرشح في الانتخابات ، أو ذاك؟.

فالهدف هو تجاوز الحواجز المقاومة للجمهور المنتخب ، وكيفية شرائه.

نعم. إنه جزء من فلسفتنا الثقافية المتناقضة لتحفيز الاحتياجات الإنسانية ، وتحفيز رغبات الناس. فالفهم النفسي التجاري يريد أن يبيع للجمهور ، وللمشتري المحتمل ، العديد من المنتجات ، بل وحتى أكثر مما يرغب في شرائه.

ومن أجل القيام بذلك ، يجب إيقاظ دوافع طفولية ، مثل التنافس بين الأخوة ، وحسد الجار ، والحاجة إلى المزيد من الحلويات ، وبريق الألوان ، والحاجة إلى الكماليات أكثر فأكثر.

ولذلك ، يُعلم علم النفس التجاري البائع ، كيفية تجنب المعلومات غير السارة ، في إعلاناته ، وكيفية تنشيطها ، وعلى أن لا تسبب إزعاج حفيظة الجمهور المستهدف—كالإيحاءات الجنسية مثلا-وكيفية جعل كل شيء يبدو بسيطا وسعيدا ، وناجحا ، وآمنا على حد سواء!.

كما تُعلّم المتاجر كيفية تعزيز غرور المشتري ، وكيفية إرضاء العميل.

لقد اكتشف مهندسو التسويق ، أن جمهورنا يريد الجودة ، والمتانة في منتجاتهم. وعلى سبيل المثال لا الحصر ، يجب أن تحقق السيارة التي يرغبون بشرائها ، قدرة حصانية أكبر ، وذلك لتحقيق التوازن بين مشاعر الضعف الداخلي لدى المالك.

كما يجب أن تمثل السيارة الحالة الاجتماعية للسمعة ، وأثرها ، و من دون أن يشعر رجل العلم هذا بالفراغ.

ولذلك ، فإن وكالات الإعلان تحلم بعالم الإعلانات ، وعالم الأفكار الشا مخة المتألقة ، والتمجيد الديني المدمر ، وتكثيف النغمة المتشنجة ، والتعبير عن البذاءة المبتذلة ، وكل هذا من أجل دفع المزيد من المبيعات نحو الأفواه الشرهة لأولئك الأطفال الجوعى ، والمستهلكين.

ففي عالم الإعلانات لدينا ، يتم اختراع الاحتياجات الاصطناعية من قبل البائعين ، والمشترين المذهلين. وهنا يكمن التهديد ببناء عالم مزيف ، يمكن أن

يكون له تأثير خطير على عالم أفكارنا..

كما يؤكد هذا الوضع على الجشع العصابي لدى الجمهور ، والحاجة إلى الانغماس في شخصيات خاصة على حساب الوعي بالقيم الحقيقية. حيث يصبح الجمهور مشروطاً بقيم الموهبة.

وبالطبع ، يجد الجمهور الحر ، تدريجيا ، دفاعاته ضد الشعارات ، ولكن خيانة الأمانة ، وعدم الثقة ، تنزلق عبر حواجز وعينا ، وتترك وراءنا شعورا قاسيا بعدم الرضا.

وبعد كل شيء ، يرمز الإعلان إلى فن جعل الناس غير راضين عما لديهم. وفي هذه الأثناء ، فمن الواضح أن الإنسان سيواصل الهجوم ، والتسلل المستمر على حكمه الأفضل.

وفي عصرنا الكثير من الضجيج ، والإحباطات الكثيرة ، وتخلي العديد من العقول"الحرة" عن النضال من أجل الحشمة والفردية.

ولذلك ، فهم يستسلمون لما يدعى روح العصر وفي كثير من الأحيان ، دون إدراك بذلك.

كما أن الرأي العام يصوغ أفكارنا النقدية كل يوم. وبالتالي ، ومن دون علم منا ، قد نصبح مجرد رجال آليين(روبوتات) برأيهم. فالإكراه البطيء للنفاق ، والتقاليد في ثقافتنا ، والتي لها تأثير متساو ، فإن هذه الأمور تغيرنا.

فنحن نتوق إلى الإثارة ، وقصص الشعر ، والأحاسيس. كما أننا نبحث عن المواقف التي تخلق الخوف السطحي لدينا ، من أجل التغطية على القلق الداخلي.

كما ونحب أن نهرب إلى اللاعقلانية في بعض الأحيان ، لأننا نكره تحدي الدراسة الذاتية ، والتفكير الذاتي.

ولذلك ، فإننا خلال أوقات فراغنا ، نكون مشغولين ، وعلى نحو متزايد ، من خلال الأنشطة التلقائية ، والتي لا نأخذ فيها أي دور: كالاستماع إلى الكلمات المنقولة عبر الانترنت ، ومشاهدة شاشات التلفزيون. ومن ثم نسارع إلى ركن

سياراتنا ، ولننام بعد أن نتناول الحبوب المنومة.

وبالتالي ، فإن هذا النمط من المعيشة بدوره ، قد يفتح الطريق أمام هجمات متسلسلة ، ومتجددة في أذهاننا. وقد يرحب الملل بأي اقتراح مغر للتغيير.

الحرب النفسية كسلاح إرهابي

يمكن أن يكون كل اتصال بشري إما تقريراً عن حقائق مستقيمة ، أو محاولة لاقتراح أمور ، ومواضيع ، وحالات غير موجودة. ولذلك ، فإن هذا التشويه ، وانحراف الحقائق ، يضربان جوهر الاتصال البشري.

ويبدو أن المعركة اللفظية ضد مفهوم الإنسان للحقيقة ، وضد عقله لا تنتهي. وعلى سبيل المثال ، فإذا استطعت أن أغرس في الخوف والرعب واقتراح الهزيمة الوشيكة في أعداء المستقبل ، وحتى قبل أن يكونوا مستعدين للقتال ، فإنني قد حققت الانتصار في نصف معركتي بالفعل.إن استراتيجية الإنسان في استخدام قناع مخيف ، وصوت عال ، ليقول الأكاذيب من أجل التلاعب بصديق ، أو بعدو له ، هو من الأساليب القديمة قدم البشرية. فقد استخدم الناس البدائيون الأقنعة المثيرة للإرهاب ، أو التعويذات ، وأساليب السحر الأسود ، أو خداع الذات بقدر ما نستخدم الكلمات المنطوقة بصوت عالٍ ، لإقناع الآخرين ، أو لإقناع أنفسنا على أبسط تقدير.وفي الوقت الذي كان القدماء يستخدمون فيه دهاناتهم السحرية ، فإننا ، في المقابل ، نستخدم أيديولوجياتنا في العصر الحديث.

نعم. إننا حقا ، نعيش في عصر الإعلانات ، والدعاية ، والإعلام. ولكن فقط في ظل الأنظمة الديكتاتورية والاستبدادية ، وحيث أصبحت مثل هذه التشكيلات البشرية ، تتحول إلى اعتداء نفسي منهجي على البشرية.

فالأسلحة التي يستخدمها الديكتاتور ضد شعبه ، قد يستخدمها ضد العالم الخارجي أيضاً. وعلى سبيل المثال ، فإن الاعترافات الزائفة التي تحول أذهان رعايا الديكتاتور عن مشاكلهم الحقيقية ، يكون لها تأثير آخر: فهي(وأحياناً تنجح في

هدفها) لترويع جمهور العالم. من خلال تقوية أسطورة الدكتاتور الكلي ، وحيث تضعف مثل هذه الاعترافات إرادة الإنسان في مقاومته. ولذلك ، فإذا أمكن استخدام فترة السلام لتخفيف عنف العدو المستقبلي ، فقد تتمكن الجيوش الاستبدادية في وقت الحرب ، من الفوز ، وبانتصار رخيص وسهل. فالحرب النفسية الشاملة موجهة وبشكل كبير ، نحو هذه الغاية. إنها محاولة لتوجيه العالم وإضفاء الحيوية عليه في الخضوع. يعود تاريخ"نابليون بونابارت" إلى أوائل القرن التاسع عشر ، حيث قام بتنظيم مكتبه من أجل التأثير على تفكير الشعب الفرنسي. ولكن الألمان عرفوا كيف يتقنون استخدام ذلك التأثير بشكل كثر دهاء ، وعرفوا كيف يطورون أساليب التلاعب بالرأي العام ، وتحويل ذلك إلى آلة ضخمة ، ومنظمة تنظيماً جيداً. وبحيث أصبحت حربهم النفسية ، استراتيجية عدوانية في وقت السلم ، وهو ما يسمى بالحرب بين الحروب. فقد كان ذلك نتيجة للهجوم النازي على القيم ، والمعنويات الأوروبية وكذلك أثناء الحرب النازية العصبية ضد جيرانها ، مع أن الدول الأخرى في العالم ، قد بدأت في تنظيم قواتها النفسية الخاصة ، ولكن كان ذلك فقط في النصف الثاني من الحرب ، وقد تمكنوا من تحقيق بعض النجاح. ولكن كان الألمان قد شقوا طريق بداية طويلة.

كانت المدفعية النفسية "لهتلر" تتكون أساساً من سلاح الخوف.

فقد كان لديه ، على سبيل المثال ، شبكة من الصحفيين ، وخمسة من كُتّاب الأعمدة الرئيسيين في الصحف الرئيسية ، حيث كانت مهمتهم الرئيسية هي بث الشائعات ، والشكوك بين مواطني الدول ، والتي خطط في النهاية مهاجمتها ، وقتالها من أجل احتلالها.

ولذلك ، كان الناس غاضبين جدا ، ليس فقط من قبل نظام التجسس نفسه ، ولكن بسبب شائعة الجواسيس.

وقد نشر كُتاب الأعمدة الخامسة أولئك شعارات الهزيمة والارتباك السياسي:

"...لماذا يجب على فرنسا أن تموت من أجل إنجلترا؟".

وهكذا ، بدأ تسلل الخوف إلى العامة في فرنسا ، وأصبح ذلك واضحا في توجيه تصرفات الناس. فبدلاً من مواجهة التهديد الحقيقي للغزو الألماني ، وبدلاً من الاستعداد له ، فقد هزت جميع أوروبا ، قصص التجسس ، وناقشت المشاكل غير ذات الصلة ، وجادلت بلا نهاية ، حول كبش الفداء والأقليات.

وهكذا ، استخدم هتلر المخاوف الغامضة المتفشية ، لإظهار القضايا الحقيقية ، ومن خلال مهاجمة إرادة أعدائه للقتال ، بعد أن أضعفهم.

ولأنه لم يكتف بهذا الهجوم الاستراتيجي على إرادة الدفاع عن النفس ، فقد حاول"هتلر" شلّ أوروبا بتهديد الإرهاب ، وليس فقط بتهديد القصف ، والتدمير والاحتلال ، بل التهديد النفسي الضمني ، والذي يفرضه في تبجحه بالقسوة.

إن الخوف من وجود عدو شرس ، وشرير ، يجعل الإنسان أكثر رغبة في الخضوع ، وحتى قبل أن يبدأ القتال.

ولذلك ، فقد كانت الأعمال الإجرامية التي قام بها"هتلر" في الداخل ، مثل معسكرات الاعتقال ، وغرف الغاز ، وعمليات القتل الجماعي ، وأجواء الإرهاب في جميع أنحاء ألمانيا ، أدوات مفيدة جدا في خدمة آلة الدعاية التي كانت تخشى الخوف ، ولأنها كانت جزءاً من أوهامه.

وبالإضافة إلى ذلك ، فقد كان هناك سلاح مهم آخر يستخدمه الاستبداديون في حملاتهم لترويع العالم ، وإجبار المجتمعات على الخضوع. وهذا هو سلاح "الصدمة النفسية". فقد أبقى"هتلر" أعداءه في حالة من الارتباك المستمر والاضطراب الدبلوماسي.

كما انهم ، لم يكونوا على علم مسبق أبداً ، حول ما الذي يمكن أن يفعله هذا الطاغية المجنون ، والذي لا يمكن التنبؤ به.

لم يكن"هتلر" منطقياً أبداً ، لأنه كان يعلم بأن هذا هو ما كان يتوقع أن يكون عليه.

وبأنه لا يمكن أن يقابل المنطق سوى بالمنطق ، في حين أن المنطق غير المنطقي لا يمكن أن يخلط بين أولئك الذين يفكرون بشكل مباشر.

كما أن الكذبة الكبرى ، وتكرار ذات الهراء الرتيب ، يكونان أكثر جاذبية عاطفية في حرب باردة ، من المنطق والعقل. ففي حين يكون العدو لا يزال يبحث عن اعتراض معقول ، على الكذبة الأولى ، يمكن أن يهاجمه الاستبداديون بكذبة أخرى.

كانت الصدمات الذهنية الاستراتيجية هي الأدوات التي استخدمها النازيون عندما دخلوا"راينلاند Rhineland" في عام١٩٣٦ وعندما انتهوا من اتفاق عدم الاعتداء مع روسيا في عام١٩٣٩.

كما استخدم"ستالين" نفس الاستراتيجية في وقت الغزو الكوري في عام١٩٥٠ (والذي أداره ، وقاده نفسه) كما فعل الصينيين والكوريين الشماليين كذلك ، عندما اتهموا الولايات المتحدة بالحرب"البكيتريولوجية"(الجرثومية).

ومن خلال العمل بهذه الطريقة اللاعقلانية على ما يبدو ، فإن الاستبداديين يرمون أعداءهم المنطقين عقلياً ، إلى مدارك الحيرة ، والارتباك.

كما يشعر العدو بأنه مضطر إلى إنكار الأكاذيب الدعائية دائما ، أو شرح الأمور كما هي بالفعل ، وهذه الإجراءات تضعه على الفور في موقف دفاعي أضعف.

أما بالنسبة للكذبة الراكدة ، فلا يمكن أبداً تجاوزها ، بل يمكن دحضها فقط.

كما أن أسلوب الصدمة النفسية له تأثير آخر. فقد يخلط ذلك بين ذهن المواطن الفرد ، وفي أنه يتوقف عن إجراء التقييمات الخاصة به ، ومن ثم يبدأ في التململ ، وبشكل سلبي ، في آراء الآخرين.

كان تدمير هتلر لمدينتي"وارسو Warsaw" و"روتردام Rotterdam"–بعد الهدنة في عام١٩٤٠ يعتبر انتهاكا كاملا ، وفاضحا للقانون الدولي–مما أزعج فرنسا ، وهز الأمم الديمقراطية الأخرى وقتذاك. ولكونهم كانوا في حالة شلل من

الاستنكار الأخلاقي ، فقد أصبحوا غير مؤهلين ، نفسيا للتعامل مع الأهوال النازية.

وكما نجح التقدم التكنولوجي للعالم الحديث في تحسين ، وإتقان أسلحة الحرب الجسدية ، فإن التقدم في فهم الإنسان للتلاعب بالرأي العام ، قد مكّنه من صقل وإتقان أسلحة الحرب النفسية ، وعلى حد سواء.

الحاجز اللاهوتي

يمكن أن يؤدي التدخل المستمر في أذهاننا لضوضاء الحجج والدعاية ، إلى نوعين من ردود الفعل. وقد يؤدي ذلك إما إلى اللامبالاة ، وردة فعل عدم الرغبة في دراية بما يجري ، أو إلى رغبة أكثر تكثيفاً في الدراسة والفهم.

ولكن ، ولسوء الحظ ، فإن ردة الفعل الأولى ، هي الأكثر شعبية. فالهروب من الدراسة والوعي ، شائع جدا في عالم يرمي الكثير من الصور المربكة للفرد.

ومن أجل ديمقراطيتنا ، القائمة على الحرية والفردية ، علينا أن نعيد أنفسنا لمواقع البحث ، والدراسة ، مرارا وتكرارا.

لأنه ، وبخلاف ذلك ، يمكن أن نصبح ضحايا سهلين ، لهجوم لفظي جيد التخطيط على عقولنا وضمائرنا سواء بسواء.

إذ لا يمكننا أن نكون واعين ، بما يكفي ، للإكراه المستمر من حواسنا وعقولنا ، والهجمات الإيحائية المستمرة التي قد تمر عبر الحواجز الفكرية للبصيرة. في حين أن التكرار ، وتكييف بافلوف يستنزفان الفرد ، وقد يغريه في النهاية ، قبول الحقيقة التي كان قد تحداها في البداية ، واستهزأ بها.

ولذلك ، يعتبر الاستبداديون مبدعين في إثارة الذنب الكامن فينا ، وذلك عبر بتكرارهم المستمر كيف تصرف العالم الغربي ، إجرامياً ، تجاه الناس الأبرياء المسالمين.

كما وقد يهاجم الاستبداديون هويتنا ، مع قادتنا ، وذلك من خلال الاستهزاء بهم ، والاستفادة من موقف كل رجل ناقد تجاه جميع القادة.

كما أنهم في بعض الأحيان ، يستخدمون استراتيجية الملل ، لتهدئة الناس ، وحرفهم باتجاه الخنوع.

إنهم يودون أن يقع العالم الغربي بأكمله في حالة سبات ، وتحت وصفة وهم التعايش السلمي.

كما أنهم ، ومن خلال استراتيجية أكثر دقة ، يودون أن يحصلوا على جميع مفاصل علاقاتنا بالولاء مع الماضي ، وبعيداً عن الأقارب ، وأولياء الأمور إن استطاعوا الى ذلك سبيلا.

وهكذا ، فكلما تخلّى الفرد عن تلك المفاصل ، وعن مفاهيمه المزعومة ، كلما كان أكثر تعاونا ، وبشكل أفضل ، مع أولئك الذين يرغبون في الاستحواذ على عقله.

وبالتالي ، فإن كل استراتيجية سياسية ، تهدف إلى إثارة الخوف والشك ، تميل إلى عزل الفرد ، غير الآمن ، إلى أن يستسلم للقوى التي تبدو له أقوى من أصدقائه السابقين.

وأخيرا وليس آخرا ، دعونا لا ننسى أنه في معركة الحجج الواهية تلك ، فإن أولئك الذين يملكون أفضل استراتيجية شفوية ، وأكثرها قوة ، يميلون إلى الفوز.

وهكذا ، ينظّم الاستبداديون تدريباً جدلياً مكثفاً ، حوا موضوعاتهم ، لئلا تتحقق شكوكهم بشكل أفضل منهم. ولذلك ، فهم يحاولون فعل الشيء نفسه مع بقية العالم ، وبطريقة أقل اقتراباً.

ومن هذا المنطلق ، علينا أن نتعلم كيف نتصدى لوابل أفكار ، وبرامج أولئك الاستبداديين ، والناجم عن الكلمات بتدريب أفضل وفهم أفضل ، وعلى حد سواء.

ولكن إذا حاولنا الهروب من هذه المشاكل الدفاعية العقلية ، أو إنكار تعقيداتها ، فإن الحرب الباردة ستفقد مصداقيتها لأنها ستغرق ، وببطء ، وبالتدريج إلى مستوى كلمات غوغائية ليس إلا.

غموض لغز التعايش السلمي

هل من الممكن التعايش في ظل نظام استبدادي لا يتوقف أبدا عن استخدام مدفعيته النفسية؟.

وهل يمكن للديمقراطية الحرة أن تكون قوية ، بما يكفي ، لتحمل التدخل الطفيلي للاستبداد في حقوقها وحرياتها؟

يخبرنا التاريخ بأن العديد من الأيديولوجيات المتعارضة ، بل والمتضاربة ، قد تمكنت من التعايش في ظل قانون موحد ، يضمن التسامح والعدالة. حيث لم تعد الكنيسة تحرق المرتدين عنها.

ولكن قبل أن تتعايش الأضداد الاستبدادية ، والديموقراطيّة الحرّة معا ، وتحت مظلة قانون الإشراف ، والنوايا الحسنة المتبادلة ، يجب بناء قدر أكبر بكثير من التفاهم والتسامح المتبادلين.

وبالتأكيد ، فإن الحرب الباردة الفعلية ، والحرب النفسية ، لا تساعدان حتى الآن ، على تحقيق هذه الغاية.

فبالنسبة للاستبدادية ، فإن كلمة"التعايش" لها معنى مختلف عن معناها المتعارف عليه. ولذا ، فقد تستخدمه الاستبدادية كمجرد كلمة سر ، أو كاسترضاء ليس إلا. في حين يكمن الخطر في أن مفهوم التعايش السلمي ، قد يتحول إلى تمويه ، مما يضعف الوعي بالتفاعلات الحتمية ، وبالتالي يستفيد منها الحزب الأقوى نفسياً.

لقد تحدث"لينين"عن موجة التنفس الاستراتيجية(peredyshka) والتي يجب أن تُضعف العدو.

فالحركة المتحمسة جدا للسلام ، قد تعني تهدئة سطحية للمشاكل.

كما ويجب دراسة هذا النداء ، وإعادة النظر فيه ، خشية أن يؤدي ذلك إلى تخطي خطير للدفاعات ، والتي يجب أن تظل معبأة ومستعدة ، لمواجهة عدو لا يرحم. بالنسبة لأولئك الذين يعيشون بحرية في نظام ديمقراطي ، يجب أن يعني

التعايش الحرية والمشاركة المتبادلة.

كما ويمكن للمفهوم الاستبدادي أن يكون إخضاعا خانقا لمن يتحكم بهم ، ويشبه في ذلك ، وإلى حد كبير ، حالة السجناء الذين يتعايشون مع سجانيهم.

ولكن في أفضل الحالات ، يشبه تقليد العلاقة التكافلية المكثفة ، أو الطفيلية ، والتي نراها بين الحيوانات التي تحتاج إلى بعضها البعض ، أو كما نراها لدى الرضيع خلال سنوات الاعتماد على أمه.

أما أولئك الذين ينشدون الحرية. فهناك مفاهيم وأفكار لا يمكنهم أن يتعايشوا معها ، والتي لا تتسامح مع بعضها البعض.

ولذلك ، فإنه ، ومن أجل التعايش ، والتعاون ، يجب أن يكون لدى المرء مفاهيم وصور متشابهة للتكامل ، ومجموعة منطقية من الأفكار ، والانتماء المشترك ، بل والترابط بين الجنس البشري برمته ، على الرغم من وجود اختلافات عرقية وثقافية.

وإلا فإن الأيديولوجية المدعومة بالقوة العسكرية الأكبر ، ستخنق الأضعف.

إن التعايش السلمي يفترض-مسبقاً- من الجانبين فهماً عالياً لمشكلات وتعقيدات التعايش البسيط ، والاتفاق المتبادل والقيود ، وتنوع الشخصيات ، ولا سيما التعايش بين الأفكار والمشاعر المتناقضة ، والتي لا يمكن التوفيق بينها في كل فرد ، بالإضافة إلى التناقض الفطري لدى الإنسان بحسب الجغرافية ، والديموغرافية ، وغيرها.

كما أنها تتطلب فهماً لحقوق الفرد والمجموعة.

وهكذا ، فباستخدام"التعايش" ككلمة سرّية ، قد نطمس المشاكل التي ينطوي عليها الأمر برمته ، وقد نجد أننا نستخدم تلك الكلمة كعلامة تغطي الاستسلام التدريجي للخبير الاستراتيجي الأقوى.

الفصل السادس

دكتاتورية - التوتاليتاريا -

في الواقع ، يوجد ، بالفعل ، ما يسمى بتقنية غسيل الدماغ الجماعي. وحيث يمكن أن تتأصل هذه التقنية في بلد ما ، إذا كان المحقق قوياً ، ودقيقاً بما فيه الكفاية. وفي قدرته في أنه يمكنه أن يجعل معظمنا من ضحاياه ، ولو بشكل مؤقت.

ولكن ما الذي يؤدي-في بنية المجتمع-إلى جعل الإنسان عرضة لهذه التلاعبات الجماعية للعقل؟

تعتبر هذه المشكلة ذات انعكاسات هائلة ، مثلما تُعتبر هذه عملية غسيل دماغ.

كما أننا في السنوات الأخيرة ، أصبحنا أكثر إدراكاً للترابط البشري مع كل صعوباته ومضاعفاته. وذلك فأنا أدرك حقيقة أن التحقيق في موضوع الإكراه العقلي ، ومراقبة الفكر ، يصبح أقل متعة مع مرور الوقت.

وذلك لأنه قد يصبح أكثر تهديداً لنا هنا ، والآن ، وفي كل وقت.

لذا ، يجب أن ينصب اهتمامنا على الصين وكوريا حول تلبية الاحتياجات الأكثر إلحاحاً على عاتقنا. فهل يمكن أن تسيطر الميول الاستبدادية هنا ، وما هي الأعراض الاجتماعية التي قد تؤدي إلى مثل هذه الظواهر؟

وفي هذا السياق ، فلا شك في أننا سنواجه تلك الحقيقة الصارمة مع المعركة الذهنية الشاملة بين السيطرة على الفكر(ونتائجه)ومعايير الحشمة والقوة الشخصية والأفكار الشخصية والضمير الشخصي بالاستقلالية والكرامة.

كما سيكون علماء الاجتماع في المستقبل ، أكثر قدرة على وصف أسباب

ظهور التفكير الاستبدادي ، والعمل في الإنسان.

فنحن نعلم أنه بعد الحروب والثورات ، يجد هذا التدهور الذهني ، وبسهولة أكبر ، فرصة للتطور ، ولكن ، وبمساعدة من شخصيات ، مختلة عقليا ، فإن ذلك لا يزدهر إلا على بؤس الإنسان وارتباكه.

وصحيح أيضاً أن الجيل القادم ، سيبدأ ، تلقائياً ، في تصحيح الأفعال السيئة السابقة ، لأن النظام الاستبدادي القاسي قد أصبح مهدداً لهم.

ولكن مهمتي هنا ، هي وصف بعض أعراض العملية الاستبدادية الشموليّة (والتي تعني تدهور التفكير والتصرف) وكما لاحظتها في عصرنا الخاص ، مع الأخذ في الاعتبار ، أن النظام الاستبدادي ، هو أحد أكثر التشوهات العنيفة والمستمرة لنمو العقل البشري. إذ لا يوجد غسيل دماغ ممكن ، بدون وجود تفكير استبدادي.

وهكذا ، فإن الحقائق المأساوية للتجارب السياسية في عصرنا الحديث ، تجعل من الواضح تماما ، أن التقنية النفسية والتطبيقية ، يمكن أن تقوم بغسل أدمغة الأمم بأكملها ، وتقليل قيمة مستوى مواطنيها إلى أن يصبحوا نوعا من الرجال الآليين (الروبوتات) الطائشة ، والذين يتأقلمون على طريقة عيش أقل من عادية.

وربما يمكننا أن نفهم ، وبشكل أفضل ، كيف يحدث هذا الأمر المخيف ، من خلال دراسة دولة "أسطورية" ما ، والتي ، ومن أجل الدقة ، سوف نطلق عليها اسم "الدولة الاستبدادية Totalitaria".

مكننة، وبرمجة الإنسان

أولاً ، اسمحوا لي أن أنطق بكلمة تُدعى"الحذر". إذ يجب ألا نقع في خطأ الاعتقاد ، بأن هناك أمة معينة ، يمكن تحديدها بالكامل على هذه الأرض الافتراضية.

فالخصائص التي ستتم مناقشتها ، يمكن أن تصبح حقيقة واقعة هنا ، إن توفرت لديها التربة الخصبة ، والعوامل المساعدة على الوجود.

كما أن بعض الخصائص الاستبدادية كانت ، بالطبع ، موجودة في ألمانيا النازية ، ويمكن العثور عليها اليوم خلف الستار الحديدي ، ولكنها موجودة ، إلى

حد ما ، في أجزاء أخرى من العالم أيضاً ، وأقصد بذلك الاستبدادTotalitaria والتي قد تولد في أي بلد تتحول فيه الأفكار السياسية إلى صيغ لا معنى لها ، وحيث تُخلق فقط لأغراض الدعاية.

كما إنه ، وفي أي بلد تستحوذ فيه مجموعة واحدة -يساراً أو يميناً- على السلطة المطلقة ، لتصبح كلية العلم ، وكلية السلطة المطلقة ، وفي أي بلد يكون فيه الاختلاف ، والخلاف في الرأي ، جرائم ، ويكون فيها الخضوع المطلق ، يعني دفع ثمن غال جدا وهو الحياة برمتها.

وهكذا ، يمكن اعتبار الدولة الاستبدادية(التوتاليتاريا- Totalitaria) أو ما يمكن أن يُطلق عليها كذلك ، هي موطن النظام السياسي الذي نسميه بالنظام الديكتاتوري ، الشمولي ، والذي يُشكل الطغيان المنهجي جزءاً من تلك الدولة.

فهذا النظام لا ينبع من أي فلسفة سياسية نزيهة ، سواء كانت اشتراكية ، أو رأسمالية.

كما وقد يعارض قادة الاستبداد معظم الإيديولوجيات ، ولكن ما يستخدمونه ، من عبارات رنانة ، تبقى في الواقع ، مجرد كلمات عاطفية ، ومفاتيح رئيسية ، تستخدم لتبرير وجود هكذا نظام.

كما أنه ، وإذا لزم الأمر ، يمكن للشمولية الاستبدادية ، أن تغير شعاراتها ، وسلوكها بين ليلة وضحاها.

في حين أنه ، بالنسبة إلى الشمولية الاستبدادية سيكون ذلك حالة تجسّد حقيقي على أرض الواقع.

أما بالنسبة لي ، فهو البحث عن القوة الكلية ، وسعي الدكتاتور لحكم العالم.

ولذلك فقد تُستخدم كلمات ومفاهيم الاشتراكية والشيوعية وحتى مفاهيم أخرى مثل الديموقراطية ، كقناع للنوايا المستعصية ، والمفتوحة ، بطبيعة الحال ، نحو المجهول.

وبما أن النزعة الاستبدادية الشمولية ، هي في الأساس ، مظهر اجتماعي لظاهرة نفسية تنتمي إلى كل شخصية ، فإنه يمكن فهمها ، وعلى أفضل وجه ، من حيث تلك القوى البشرية ، التي تُنشئها ، وتشجعها ، بل وتعمل على ديمومتها ، فالإنسان له وجهان.

وجه يريد أن ينمو نحو النضج والحرية ، وحين ، مع ذلك ، يكون ذلك الطفل البدائي ، والفاقد للوعي الحقيقي ، يتوق إلى الحماية الكاملة ، وعدم تحمل المسؤولية. وحين يتعلم بنفسه ، وينُضجها على كيفية التعامل مع القيود والإحباطات في الحياة اليومية.

ولكن ، في الوقت نفسه ، يتوق ذلك الطفل في داخله ، لضربها ، والتغلب عليهم ، بل وإلى تدميرها في بعض الحالات-سواء كانت كيانات أو أشخاص.

ولذلك ، فإن الاستبدادية الشمولية تناشد هذا الطفل البدائي المشوش فينا جميعا.

كما ويبدو تقديم ، وعرض حل كافة المشاكل ، وكأنه يخلق حالة مزدوجة وتواقة للخلاص من تلك المشاكل.

وهكذا ، فإن نظامنا الاستبدادي الشامل ، والأسطوري ، هو حالة متجانسة ، ومطلقة ، ولا يُسمح فيها بدخول الشك والارتباك والصراع ، لأن الديكتاتور ، يهدف إلى حل جميع مشاكل رعاياه بالنسبة لهم ، ولأنهم يرونه كذلك.

وبالإضافة إلى ذلك ، يمكن أن تقوم"الاستبدادية Totalitaria" بفرض عقوبة رسمية ، حتى عن التعبير عن معظم الدوافع البشرية ، وغير المعادية للمجتمع.

كما وقد يرحب الطفل البدائي ، وغير المتحضر ، والمختبئ فينا ، بهذا التحرر من الإحباطات الأخلاقية.

ومن ناحية أخرى ، لا يمكن أن تكون ذواتنا الاجتماعية الناضجة ، والمتحررة سعيدة في ظل النظام الاستبدادي لأن ذلك النظام ، باختصار ، هو ثورة لمواجهة حتى النبضات الفردية.

كما أن الجذور النفسية للاستبدادية الشمولية ، عادة ما تكون غير عقلانية ، ومدمرة ، وبدائية ، على الرغم من أنها تتخفى وراء بعض الأيديولوجيات.

ولهذا السبب ، فإن التحرر سيكون أمرا مرعبا آخر ، ولا يُصدق ، بل وكابوس مقيم بالنسبة للنظام الاستبدادي نفسه.

وحيث لا بد ، بالطبع ، وجود اختلاف في التجربة النفسية للنخبة ، والذين يستطيعون أن يعيشوا من خلال احتياجاتهم من السلطة ، والجماهير ، ولكنهم يجب أن يقدموا أيضا ؛ ومع ذلك ، فإن المجموعتين تؤثران في بعضهما البعض.

فعندما تلبي حاجة الدكتاتور العميقة للسلطة بعض الحاجات العاطفية العميقة لدى سكان بلده ، وخاصة في أوقات البؤس ، أو بعد حالة الخروج من حالة مستعصية ، فإنه سيكون أكثر قدرة على تحمل السلطة التي يتوق إليها.

أما إذا عانت الأمة من هزيمة في الحرب ، على سبيل المثال ، فإن مواطنيها سيشعرون بالعار والاستياء.

ولذلك ، فإن فقدان ماء الوجه ليس مجرد تجريد سياسي ، بل إنه أمر حقيقي ، وشخصي جداً ، لشعب محتل. كما أن كل إنسان كان ، بوعي أو بغير وعي ، يعرف حدود أرض وطنه. فإذا كانت الدولة تعاني من مجاعة طويلة على سبيل المثال ، أو من حالة اكتئاب حاد ، فإن مواطنيها سيشعرون بمرارة العيش ، وسيصابون بحالة اكتئاب مزمن ، وسيتذمرون ، باستياء من كل شيء.

بل وسوف يقبلون برؤى ، ووعود الدكتاتور الطموح.

فإذا كان تعقيد جهاز الدولة السياسي والاقتصادي ، سيجعل المواطن الفرد يشعر بأنه ، لا حول له ولا قوة ، ومربك ، وعديم الفائدة ، وإذا لم يكن لديه أي شعور بالمشاركة في القوى التي تحكم حياته اليومية ، أو إذا كان يشعر أن هذه القوى شاسعة ، ومربكة ، وبأنه لم يعد قادراً على فهمها ، فسوف يدرك الفرصة الشمولية للانتماء ، وللمشاركة ، من أجل صيغة بسيطة تشرح ، وترشد ما هو أبعد من فهمه.

وعندما يتسلم الدكتاتور مقاليد السلطة المطلقة أخيراً ، فإنه سينقل أوهامه غير الطبيعية ، وغضبه ، وعصبيته ، بسهولة إلى رعاياه.

في الوقت الذي سيغذي استياءهم من الوضع القائم ؛ قوته الزائفة ، والي ستكون مثار تشجيع لهم وتحصين مشترك للأوهام.

تعتبر الاستبدادية الشمولية كمظهر اجتماعي ، مرض من أمراض العلاقات البينية ، ومثل أي مرض آخر ، يمكن للإنسان أن يقاوم ، وبشكل أفضل ، آثاره المتآكلة ، ولكن إذا كان ذلك من خلال المعرفة ، والتدريب المحصن ضده.

غير أنه ، وإذا لم يوفق بما فيه الكفاية ، للإمساك بمفاصل الخلل الاستبدادي الشمولي ، فعليه ، في تلك الحالة ، أن يجمع كل القوى الإيجابية في ذهنه للسيطرة على ذلك الخلل ، ومن ثم هزيمته.

وهكذا ، يستمر الصراع الداخلي ، والمُستعجل بين الطفل غير المسؤول ، وبين الشخص البالغ والناضج فيه ، وحتى يتم تدمير أحدهما ، أو كليهما ، وبشكل نهائي.

ولذلك ، فطالما بقيت شرارة واحدة ما ، فسوف تستمر المعركة. وطالما بقي الإنسان على قيد الحياة ، فإنه سيستمر في البحث عن النضج.

الإقناع الثقافي للاستبداد

تلعب العوامل الاجتماعية وكذلك العوامل الشخصية ، في المعركة ضد هذا المرض الرهيب ، دوراً هاماً.

وهنا ، يمكننا أن نرى هذا ، بوضوح أكبر ، إذا قمنا بتحليل الطرق التي تؤثر بها المثل العليا للثقافة ككل ، على ضعف مواطنيها ، تجاه الاستبدادية الشمولية.

ولذلك ، فإن أخلاقيات حضارتنا الغربية ، هي أقوى دفاع لنا ضد ذلك المرض ، ولأن المثل الأعلى لهذه الأخلاق هو نتاج سلالة من الرجال ، والنساء ، عبر الزمن ، من الذين يتمتعون بشخصيات قوية ، والذين يقومون بتقييم الأوضاع في المقام الأول من خلال عيون ضمائرهم الحية الخاصة.

فنحن نهدف إلى تطوير مواطنينا على الشعور بالمسؤولية الذاتية ، والرغبة في مواجهة العالم كما هو ، والقدرة على التمييز بين الصواب والخطأ ، من خلال مشاعرهم وأفكارهم.

في حين كان هؤلاء الرجال والنساء على حد سواء ، مدفوعون إلى العمل ، وفق بمعاييرهم الأخلاقية الشخصية ، وبدلاً مما تضعه بعض المجموعات الخارجية ، على أنها معايير صحيحة.

كما أنهم غير مستعدين لقبول التقييمات الجماعية على الفور ، ما لم تتطابق مع قناعاتهم الشخصية ، أو ما لم يتمكنوا من مناقشتها بطريقة ديمقراطية.

كما أن مثل هؤلاء الناس ، مسؤولون أمام مجتمعاتهم ، لأنهم مسؤولون أولاً عن أنفسهم. فإن اختلفوا ، فسوف يشكلون أقلية مخلصة ، وباستخدام حقوقهم في إقناع أشخاص آخرين ، وفي الأوقات المناسبة.

كما أن هناك ثقافات أخرى تؤكد على المواقف ، والقيم التي تختلف عن هذه.

في حين إن المثال الشرقي للإنسان ، كما نجده في الصين ، وبعض البلدان الشرقية الأخرى ، هو في المقام الأول من حيث الوحدة ، كونه واحداً مع العائلة ، وواحد مع الوطن ، وواحد مع الكون"النيرفانا nirvana".

وحيث تبحث الروح الشرقية عن اتصال جمالي مباشر بالواقع ، من خلال التعاطف ، والحدس اللا محدودين ، في حين أن الحقيقة الأبدية—وفق ما يعتقدون - تكمن وراء الواقع ، ووراء حجب حضارة"المايا Maya".

تنظر تلك الحضارات القديمة إلى الإنسان كجزء من الكون ، كما أن كينونته تبقى مجهولة الدوافع ، وإن كان ينشد عدم التهيج. وحيث يعلم بأن مصلحته العليا ، ككائن بشري مسالم ، تكمن في السلام ، وفي الراحة ، والاسترخاء ، وفي التأمل ، وفي غياب المعاناة الجسدية والعقلية.

في حين تكمن سعادة النفس الشرقية ، في نشوة الشعور بالاتحاد مع الكون

العالمي. ولذلك ، يمكن اعتبار أن المبادئ ، والفداء الذاتي ، والفقر ، هي مُثُل تتحقق ، وبشكل أفضل ، في الثقافة الشرقية ، وبشكل أفضل مما هو عليه الحال في مجتمعنا الغربي.

كما ان أفضل وصف للنمط الثقافي الشرقي الكلاسيكي ، هو نمط المشاركة. وحيث يُنظر إلى الفرد ينظر على أنه جزء لا يتجزأ من المجموعة ، والأسرة ، والطبقة الاجتماعية ، والأمة.

إنه ليس كياناً مستقلاً ، وذاتيا.

كما أن المثل العليا في هذه الثقافة ، تكمن في التوافق مع القواعد الجماعية وقبولها.

لذا ، يمكن تدريب الطفل الشرقي ، منذ مرحلة الطفولة ، على نمط الولاء للسلطة ولقواعد المجموعة.

في حين أن العديد من الثقافات البدائية ، تعرض أيضاً هذا النمط.

فبالنسبة إلى الشخص الذي تتم تربيته من خلال هذه الثقافات ، فإن المعايير الأكثر قبولا ، وأفضل الأفكار ، والأفعال التي يمكن تصورها ، هي تلك التي تقرها المجموعة.

ولذلك ، فإن العالم الاستبدادي للأفعال الجماعية ، والأفكار الجماهيرية ، تكون مفهومة ، وبشكل أكبر بكثير ، لدى أعضاء الثقافة المشاركة ، والتي تتسم بنمط المشاركة ، والأقل تفكيراً من الأفراد الفرديين الغربيين.

كما أنه ، ما هو بالنسبة لنا يعتبر نظاما صارما ، واستبداديا ، قد يكون بالنسبة لهم ذلك النظام المريح والمنظم ، والأمثل ، وعلى حد سواء.

وثمة مثال على نمط مكثف من المشاركة والمراقبة الفكرية الدقيقة-والذي تم توثيقه من قبل عالم الأنثروبولوجيا الشهير"دوزيير Dozier" في مجلة "نيويورك تايمز" عدد الحادي عشر من كانون أول/ديسمبر من عام١٩٥٥ ؛ وفي صفحة الرسالة العلمية في عدد الثالث من شهر كانون أول/ديسمبر من عام١٩٥٥-وهو أن هنود

قبيلة "بويبلو Pueblo" في منطقة"ريو غراندي Rio Grande" يعتقدون بأن سوء السلوك ، أو التفكير الخاطئ لرجل واحد في القبيلة ، يؤثر على جميع أبناء القبيلة الآخرين.

كما وقد يضايق ذلك التوازن الكوني ، ومن خلال الشعور بالضيق تجاه أي من إخوانه الرجال.

ولذلك ، فإن الشيفرة الأخلاقية للقرية ، تتمحور حول المجموعة لا الفرد. في حين أن الفرد الذي ينتهك هذا ، قد يعرض رفاهية الجميع للخطر. وحيث كان يتم تفسير انتشار الأوبئة ، وشح المحاصيل ، والجفاف ، على أنه نتيجة مباشرة لذلك الانحراف لأحد أفراد القبيلة.

كما كان يتم مراقبة أفراد القبيلة في القرية عن كثب ، بل والتجسس عليهم ، من أجل البحث عن الجن ، أو السحر.

وقد كان الجدال ، والقيل والقال ، والاتهامات بالسحر ، والشعوذة ، متفشية ، ولكن كان ذلك الهندي من القبيلة ، يبحث وباستمرار في ضميره ، عن الأفكار والمواقف الضارة. ويبدو الأمر كما لو أننا نراقب طقس التطهير في الدولة الاستبدادية. [انظر الفصل السابع].

وهكذا ، فإن مثل هذه الأشكال من النزعة الجماعية الزاحفة ، والمشاركة ، والتي قد نراها في كل تشكيل مجموعة حيث يتوقف التسامح لعدم التوافق. وحيثما تسيطر الحزبية الدوغمائية ، وحيث يتم إخضاع العقل.

كما وقد نكتشف بوجود تلك النزعات التعديلية في بعض الدوائر العلمية ، وحيث يوجد تركيز مفرط على أبحاث المجموعة ، والعمل الجماعي ، وبطاقات العضوية ، والاستخفاف بالرأي الفردي.

تتفاعل الثقافة التي يولد فيها الإنسان مع نظامه النفسي لإنتاج شخصيته ، وبنفس الطريقة التي يتفاعل بها جسده وعقله لإنتاج سلوكه.

ولذلك ، فقد تمنحنا ثقافتنا للحرية الفردية ، حصانة ولو جزئية ، من مرض

الاستبدادية الشمولية.

ولكن في الوقت نفسه ، يمكنها أن تجعل قيمنا ، غير الحيادية ، الشخصية ، غير الناضجة ، والمكبوتة عرضة لنا.

كما وقد يجعل نوع المشاركة من الثقافة ، الانسان ، أكثر عرضة بشكل عام للاستبدادية الشمولية ، على الرغم من أن الجهود الشخصية نحو النضج ، والتفرد ، يمكن أن تقدم للإنسان أيضاً ، بعض معايير الحماية ضدها.

وبسبب التفاعل بين هذه القوى الاجتماعية والشخصية ، لا توجد ثقافة آمنة تماما من الهجوم الداخلي من قبل الاستبدادية الشمولية ، أو من الدمار العقلي الذي قد تخلقه. وكما ذكرت من قبل ، فلدينا العديد من مثل تلك الدولة الاستبدادية ، ولكن تبقى الحقيقة الوحشية والمرعبة ، في أنه يمكن تحويل أي دولة كانت إلى دولة استبدادية.

وهكذا ، يتم رسم أهداف حكام دولنا الخيالية ببساطة حول: الاستبداد ، والهيمنة الكاملة على الإنسان ، ومن ثم على البشرية ، ووحدة العالم بأسره ، وإخضاعه ليكون تحت سلطة ديكتاتورية واحدة. للوهلة الأولى ، يمكن أن تكون فكرة الوحدة هذه أكثر جاذبية كفكرة ، ومبسطة ، لوحدة الأخوة بين الأمم ، وتحت سلطة مركزية قوية.

ولكن عندما يكون العالم موحداً ، فمن المؤكد بأنه لن تكون هناك حروب أخرى ، كما ان التوترات التي تواجهنا ستُزال ، وستصبح الأرض جنة حقيقية ، ولكن المفهوم البسيط لدكتاتورية عالمية ، هو أمر خاطئ ، بل ويعكس الخطر الكامن في الاستبدادي الشمولية.

والهدف: هو ان كل البشر مختلفون فيما بينهم ، والفرق بينهما ، هو ذاك الذي يستطيع أن يخلق العظمة ، التنوع ، والإلهام الإبداعي للحياة ، وكذلك التوترات الاجتماعية.

كما أنه لا يمكن تحقيق المفهوم الاستبدادي للتكافؤ إلا في حالة الموت ،

وعندما تتولى القوانين الكيميائية ، والفيزيائية التي تحكمنا جميعاً ، السيطرة الكاملة. فالموت في الواقع هو التعادل الكبير.

أما في حالة الحياة ، فكلنا مختلفون. كما وتتفاعل أجسادنا وعقولنا مع بعضنا بعضاً ، ومع العالم الخارجي بطرق مختلفة. فشخصية كل إنسان ، تعتبر فريدة من نوعها.

صحيح أننا جميعاً نشترك في بعض الصفات الإنسانية الأساسية ، ومع جميع الأفراد الآخرين في الجنس البشري ، ولكن الاختلافات في الشخصية ، تبقى هي أيضاً ، كثيرة ومتنوعة جداً ، ولدرجة أنه لا يمكن الجزم بأنه يوجد ، على ظهر البسيطة ، رجلان متشابهان تماما ، ولا حتى في أي مكان في العالم ، أو خلال التاريخ البشري برمته.

ولذلك ، فإن هذا التفرد ينطبق ايضا على المواطن الذي يعيش في ظل نظام استبدادي ، وكما هو الحال مع أي شخص آخر. وكإنسان ، فهو ليس مختلفاً عنا فقط ، ولكنه مختلف عن بقية مواطنيه.

ولكن مع ذلك ، فإنه ، ومن أجل خلق انسان ضمن إطار الصورة الاستبدادية ، من خلال مفاهيم التآخي والمساواة يعني قمع ما هو جوهري في الشخصية البشرية فيه ، والتفرد والتنوع ، وخلق مجتمع من الرجال الآليين (الروبوتات) وليس رجالا حقيقيين.

وقد عبّر العالم الاجتماعي الشهير "برونرBrunner"في مقدمته لكتاب "باور Bauer" حول علم النفس السوفييتي ، عن هذه الفكرة بطريقة مختلفة حيث كتب:

"...إن تصور الإنسان حول طبيعة الإنسان ، ليست مسألة استقصاء موضوعي فقط ؛ فهو ، وكما كان دائما ، أداة رئيسية للسيطرة الاجتماعية والسياسية. كما أن الذي يصنع تلك الصورة ، إنما يفعل ذلك مع عواقب وخيمة على المجتمع الذي يعيش فيه".

وهكذا ، تعزز"الاستبدادية Totalitaria" من وهم أن كل شخص هو جزء من الحكومة ، وهو الناخب. وحيث أنه لا يمكن لأحد أن يكون غير ناخب ، أو معاداً للناخبين.

ولذلك ، فليست ايجابياته ، وسلبياته الداخلية ، مشاكل خاصة بالفرد نفسه بعد الآن. فأفكاره تنتمي إلى الدولة ، والديكتاتور ، والدائرة الحاكمة ، والحزب.

ولذلك ، يجب السيطرة على أفكاره الداخلية. ولكن فقط من هم في السلطة ، يعرفون ما يكمن وراء حقيقة السياسة الوطنية.

كما أن المواطن العادي ، يصبح متعاقداً ، ومطيعاً كطفل. وفي مقابل التخلي عن شخصيته ، يحصل على بعض الامتيازات الخاصة: كالشعور بالانتماء ، والحماية ، والشعور بالارتياح لفقدان حدوده الشخصية ، ومسؤولياته ، ونشوة أن يتم استيعابه ، واستيعاب أقرانه ، في مشاعر جماعية واحدة لا يمكن السيطرة عليها ، وسلامة كونها مجهولة ، ومن كونها مجرد ترس في عجلة دولة قوية للغاية.

كما إن استبداد الاستبدادية الحديث ، هو نوع مختلف تماماً عن الاستبداد الشخصي الغريب ، والمستغرب في العصور القديمة. إنها قوة زهدية ، باردة ، ميكانيكية ، تهدف إلى ما يسميه الباحث"حنا أهريندت Hanna Ahrendt" إلى تحويل الطبيعة البشرية نفسها.

وحيث يفقد الإنسان أي غرور فردية بعد الآن ، ويفقد شخصيته أيضا ، ويصبح لا ذاتيا. وحيث أن نظام التسوية يعمل ، ومن أن كل ما يحاول أن يعلو فوق المستوى الشائع ، والمقرر ، سيتم الدوس عليه ، ودفعه للأسفل.

القائد المستبد "التوليتاري"

يعتبر قادة الاستبداد التوتاليتاريا من أغرب الرجال في الدول. فهؤلاء الرجال ، مثلهم مثل جميع الرجال الآخرين ، فريدون من حيث بنيتهم العقلية ، وبالتالي لا يمكننا إجراء أي تشخيص نفسي شامل للمرض العقلي لديهم ، الذي يحفز سلوكهم. ولكن يمكننا القيام بتشخيص بعض الصفات العامة بينهم ، والتي

ستساعدنا على فهم بعض صفات القائد الاستبدادي.

وهكذا ، فمن الواضح ، على سبيل المثال ، بأنه يعاني من حاجة ماسة للسيطرة على كائنات بشرية أخرى ، وعلى ممارسة سلطة غير محدودة ، وهذا في حد ذاته ، يعتبر انحرافا نفسيا ، وغالبا ما يكون متجذرا في مشاعر عميقة من القلق ، والإذلال والدونية.

كما ولا تُستخدم الأيديولوجيات التي يطلقها هؤلاء الرجال المستبدون ، إلا كأدوات تكتيكية ، واستراتيجية ، والذين يأملون من خلالها بلوغ هدفهم النهائي ، والمتمثل ، في السيطرة الكاملة على بقية الرجال الآخرين.

وقد تساعدهم هذه الهيمنة على تعويض المخاوف المرضية والشعور بعدم الجدارة ، حيث يمكننا أن نستنتج ذلك من الدراسة النفسية لبعض الديكتاتوريين الحديثين.

ولحسن الحظ ، ليس علينا أن نعتمد على صورة افتراضية بحتة لعلم النفس العقلي للديكتاتور الاستبدادي. فقد أعطانا الدكتور"جيلبرت Gilbert" والذي درس بعض شخصيات قادة ألمانيا النازية خلال محاكمات نورمبرغ Nuremberg فكرة مفيدة عن عقولهم الملتوية ، والتي كانت مفيدة جدا ، وخاصة لأنها تكشف لنا شيئاً عن التفاعل المتبادل ، بين القائد الاستبدادي وأولئك الخاضعين الذين يريدون أن يقودهم.

لقد تسبب انتحار الديكتاتور هتلر إلى فتح تحقيق سريري حول بنية شخصيته الغريبة ، ولكن الدكتور جلبرت كان قد سمع العديد من تقارير شهود العيان عن سلوك هتلر ومن أصدقائه المقربين ، ومن المتعاونين معه ، والتي كانت معلومات مخيفة حول محرك النازية.

فقد كان هتلر معروفاً بين أفراد عائلته بآكل السجاد لأنه كان غالباً ما يلقي بجسده على الأرض ، وهو في وضع صراخ ، ويركض في فناء الغرفة بغضب ، وكما لو أنه مريض مصاب بالصرع.

وهكذا ، ومن خلال تلك التقارير ، والشهادات ، فقد استطاع الدكتور "جيلبرت"أن يستنتج شيئاً عن جذور السلوك المرضي الذي أظهره ذلك "العبقري"المهووس.

كان عداء هتلر المزعج ضد اليهود مرتبطاً ، ولو جزئياً بصراعاته الأبوية ، والتي لم تُحلّ. وربما كان اليهود يرمزون إليه كالأب السكير ، والمكروه ، والذين أساؤوا معاملة هتلر ووالدته ، عندما كان"الفوهرر" المستقبلي لا يزال طفلاً.

كما كان من الواضح ، من خلال تفكير"هتلر"المتزمت للغاية ، وتعصبه الغاضب ، وإصراره على الحفاظ على نقاء الدم الآري وهوسه النهائي ، لتدمير نفسه ، والعالم ، بأنها كانت كلها نتائج نفسية مريضة.

كما أنه وقت مبكر من عام١٩٢٣ وقبل ما يقرب من عشر سنوات من استيلائه على السلطة ، كان هتلر مقتنعاً بأنه سيحكم العالم يوماً ما ، وقد أمضى وقتاً طويلا في تصميم نصب النصر ، وإبداع مجده ، بل ، ونصبه في جميع أنحاء القارة الأوروبية عندما يحقق ذلك النصر. وقد استمر في هذا الانشغال ، الوهمي ، حتى نهاية حياته. وحتى في خضم الحرب التي سعّر من إوار نيرانها في كل مكان ، والتي أدت به إلى الهزيمة ، ومن ثم إلى الانتحار ، والموت ، فقد كان هتلر يواصل مراجعة ، وتعديلات خططه المعمارية.

أما الديكتاتور النازي الثاني ، والذي يلي"هتلر" فقد كان "هيرمان جورينج Hermann Goering" والذي انتحر للهروب من التحقيق والسجن ، والذي كانت بنية نفسية مختلفة. فقد شجعت دوافعه العدوانية المرضية ، حول التقاليد العسكرية القديمة انتماءه إلى طبقة"يونكر" الألمانية ، والتي تنتمي إليها عائلته برمتها أيضا.

فقد كان ، ومنذ طفولته المبكرة عدوانيا ، وبشكل قسري ، وشرس ، وصريح. كما كان ساذجاً واستبدادياً فاسداً ، ومستغلاً للفرص التي خلقها النازيون ، ولكن لتحقيق مكاسب شخصية بحتة.

كما أن ازدراءه "لعامة الناس" كان غير محدود ؛ ولذلك ، كان يفتقد لصفة الرجولة الحقيقية ، ولم يكن رجلاً يتحلّى بالمعنى الحرفي للقيم الأخلاقية.

كما مختلفا تماما عن غيره من الرجال بسلبية تفكيره ، وغبائه في بعض المواقف.

أما الرقم الديكتاتوري الثالث ، فقد كان "رودولف هيس Rudolf Hess" ذلك الرجل المتعصب السلبي ، والموتور بشكل دائم ، ومهزوز الشخصية ، ومن الذين كتنوا يعيشون ، على الابتزاز ، والانتهازية التي كانوا يمارسونها في ظل رعيهم الأكبر "هتلر" وإلى أن أصبح أحد نواب "الفوهرر–هتلر".

كان هشا من الداخل ، وقد جعله ضعفه العقلي الداخلي ، من السهل عليه أن يعيش من خلال وسائل بديلة ، ولكن من خلال شخصيته الخاصة ، وقد دفعه ذلك ليصبح ظل رجل قوي على ما يبدو ، والذي منه يستطيع أن يقترض بعض القوة.

كما وقد أعطت الإيديولوجية النازية هذا الطفل المحبط ، وهماً بالتعرف على الدم النقي لجنس ذلك العرق "الآري" الألماني الجيد.

وبعد رحلته البرية إلى إنجلترا فقد أظهر هيس صفات "ذهانية" واضحة. وقد تجلى ذلك من خلال أوهامه حول الاضطهاد ، والهجمات الهستيرية ، وفترات فقدان الذاكرة ، والتي تعتبر من بين الأعراض السريرية ، والمعروفة ، لدى مرضى انفصام الشخصية.

كما لا يزال هناك نوع آخر من منظومة الدكتاتوريين النازيين ، وهو هانز فرانك Hans Frank أو محامي الشيطان وهو النموذج الأولي للمثليين اللاتينيين الكامنين ، والذي يغري ، بسهولة ، في المغامرة السياسية ، حتى عندما كان هذا يتعارض مع بقايا ضميره شبه الميت.

ولكنه ، وعلى عكس "جورينغ" فقد كان "فرانك" قادراً على التمييز بين الصواب وبين الخطأ.

كما ويخبرنا الدكتور "جلبرت" بعض المعلومات عن الجنرال "فيلهيلم كيتل Wilhelm Keitel" والذي كان يشغل منصب رئيس أركان جيوش هتلر والذي أصبح الناطق الرسمي باسم "الفوهرر" والذي كان يخلط بين الشرف العسكري، وبين الطموح الشخصي، في خدمة مصالحه الخاصة.

أما العقيد "هويس Hoess" والذي كان قائدا لفرق الموت التي كان يرمز إليها بحرفيّ "إس. إسS.S" فقد كان من نوعية مختلفة من الدكتاتوريين، والذي قتل الملايين في معسكر اعتقال"أوشفيتزAuschwitz ".

فقد كان صاحب شخصية مرضية مزمنة واضحة في حالته. كما كان، وطوال حياته، شخصية وحيدة، وكان يعاني الانفصام الشديد، ومن دون أي وازع، أو ضمير. كما وكان مجرما حقيقيا، ويعاني التوحد، وخال من أية قيم بشرية، ولم تكن الحياة البشرية، ولا القيم، تعني له شيئاً.

وبالإضافة إلى ذلك، فقد كان يسعى، وبشكل حدسي، وبمساعدة من كبير القائد"هيملر Himmler" لارتكاب المزيد من الأفعال الوحشية الأكثر عدائية، من بين جميع الوظائف النازية. لقد كان أداة مفيدة لارتكاب معظم الأعمال الإجرامية -والتي كانت توافق سياسة"الفوهرر".

ولكن لسوء الحظ، فليس لدينا صورة نفسية واضحة حتى الآن حول الديكتاتور الروسي"ستالين". على الرغم من أنه كانت هناك العديد من التقارير، والتي تفيد على أنه، خلال السنوات الأخيرة من حياته، كان يعاني رهاب اضطهاد هائل، وعاش في رعب مستمر، في أنه قد يصبح ضحية لعمليات تطهير معارضيه الخاصة، والتي كانت تجري بإشرافه.

وهكذا، يُظهر التحليل النفسي لهؤلاء الرجال، بوضوح، بأنه يمكن بناء ثقافة مرضية-عالم مجنون- وذلك من خلال بعض أنواع التأثير النفسي- النفسي، والمثير للإعجاب.

إذ لا تحتاج الشخصيات السياسية الفاسدة، حتى إلى فهم العواقب

الاجتماعية والسياسية لسلوكها. كما أنهم لا يضطرون إلى الإيمان الأيديولوجي، بغض النظر عن مدى قدر عقولهم في إقناع أنفسهم بأنفسهم، ولكن من خلال تشويه شخصياتهم الخاصة.

كما انهم ليسوا مدفوعين بالرغبة المعلن عنها، لخدمة بلدهم أو أبناء جلدتهم، ولكن بدافع الحاجة، والإلحاح الساحقين لإشباع رغبات هياكلهم المرضية الشخصية. في حين تبقى الأيديولوجيات التي يطلقونها ليست أهدافاً حقيقية. بل عبارة عن أجهزة، وبرامج ساخرة، والتي يأمل هؤلاء الرجال المرضى، من خلالها، تحقيق بعض الشعور الشخصي من قيمتها وقوتها للوصول إلى مصادر القوة والهيمنة.

كما أن الأكاذيب الداخلية الخفية، تغريهم بالانتقال من سيئ إلى أسوأ. وكذلك يفعل الخداع الذاتي الدفاعي، واعتقال البصيرة، والتهرب من التعارف العاطفي مع الآخرين، وتدهور التعاطف-فالعقل لديه العديد من آليات الدفاع التي من شأنها إضعاف الضمير.

كما يمكن رؤية مثال واضح على ذلك في الطريقة التي دافع بها القادة النازيون عن أنفسهم، وذلك من خلال التبرير الذاتي المستمر، بل وطالبوا بالإفراج عنهم، وذلك عندما تم عرضهم أمام المحامين في محاكمات "نورمبرج".

وقد ادعى هؤلاء القتلة، بتعرضهم للظلم، والإيذاء، بسبب الاتهامات الموجهة إليهم.

ولكن كانت صورة البراءة أمامهم بعيدة المنال.

وهكذا، يمكن القول بأن أي شكل من أشكال القيادة، إذا لم يخضع لضوابطه العقلانية، والمنطقية، وللمعايير الإنسانية، فقد يتحول، وإن تدريجيا، إلى الدكتاتورية. كما أن كون المرء قائداً، ويتمتع بقوة كبيرة ومسؤولية، تجاه حياة الآخرين، فإن ذلك سيجعله لأن يكون بمثابة اختبار ضخم للنفسية البشرية.

فالزعيم الضعيف هو الرجل الذي لا يستطيع مواجهة ذلك الاختبار، والذي

يتخلى ببساطة عن مسؤوليته.

في حين أن الديكتاتور هو الرجل الذي يحل محل المعايير الحالية للعدالة، والأخلاق، وذلك من خلال مكانة خاصة تعلو أكثر فأكثر، ومن خلال المزيد، والمزيد من اكتساب السلطة، ولكنه في النهاية يعزل نفسه، أكثر وأكثر عن بقية البشر.

كما وتبدأ شكوكه تنمو، وبسرعة، مما يزيد من عزلته التي تنمو مع تلك الشكوك، وفي نهاية المطاف، يصل إلى الحلقة المفرغة، والتي تؤدي به إلى أن يصاب بجنون العظمة، والذي يبدأ في التطور.

وبالتالي، ليس الدكتاتور فقط رجل مريض، بل هو أيضا انتهازي شرس، وقاس. ولا يرى أية قيمة في أي شخص آخر، كما ولا يشعر بالامتنان لأي مساعدة قد يتلقاها.

كما أنه مشبوه، وغير شريف، بل ويؤمن بأن غاياته الشخصية، تبرر أية وسيلة يمكنه استخدامها لتحقيقها. وبما فيه الكفاية، فإن كل طاغية لا يزال يبحث عن بعض التبرير الذاتي. ولكن من دون إيقاظ هذا الجهاز المهدئ لضميره، لن يتمكن من العيش والاستمرار.

في حين أن مواقفه تجاه الآخرين، لا يتعدى مجال التلاعب. والذي لا ينظر إليهم، سوى مجرد أدوات للنهوض بمصالحه الخاصة. كما ويرفض مفهوم الشك والتناقضات الداخلية والتناقض الفطري بين الناس. و ينكر الحقيقة النفسية التي ينمو بها الإنسان حتى النضج، ومن خلال التجربة، ومن خلال التجربة، والخطأ، ومن خلال التفاعل بين المشاعر المتناقضة. لأنه لن يسمح لنفسه بالتجربة، والتعلم من خلال التجربة والخطأ، وحيث لا يمكن للدكتاتور أن يصبح شخصاً ناضجاً أبداً.

ولكن سواء اعترف بها أم لا، فلديه صراعات داخلية، ويعاني، في مكان ما، من الارتباك الداخلي. في حين أنه يحاول، وبكل قوة، قمع "نقاط الضعف"

الداخلية تلك ، وبشدة.

لأنه يؤمن بأن تلك النقاط ، ولو وصلت إلى السطح ، فقد تعرقل تحقيق أهدافه.

ولكن ، ومع ذلك ، ففي الهجمات الغاضبة تظهر قوته الضعيفة. ذلك لأن الدكتاتور كائن خائف بطبعه ، ولو بدون وعي ، من تناقضاته الداخلية ، كما وأنه يخاف من نفس التناقضات الداخلية لإخوانه من الرجال. ولذلك ، فهو يفكر بضرورة التطهير ، والإقصاء ، والترويع ، والقتل ، لكي يستمر في قيادة أدواته الداخلية الخاصة به.

كما ويعتقد بأنه من الضروري أن يقتل كل من يشكك بنزاهته ، بل وأن يدمر كل شخص يرتكب خطأ ما ، مهما كان صغيرا ، ويسجن كل من لا يمكن أن يثبت أنه وحيد الذهن تماما.

وفي النظام الاستبدادي ، يزرع الديكتاتور العدوان الكامن ، والوحشية الكامنة في الإنسان ، ولدرجة أنها يمكن أن تنفجر في أية لحظة ، وذلك من خلال الأعمال الإجرامية الجماعية ، كالتي أظهرها اضطهاد"هتلر" للأقليات.

وفي نهاية المطاف ، فستُظهر البلاد علم الأمراض الحقيقي ، وهو الهيمنة مطلقة على الميول التدميرية وذاتية التدمير.

الاستسلام النهائي للروبوت (الرجل الآلي)

ماذا يحدث للرجل العادي حيال في مثل هذه الثقافة؟.

وكيف يمكننا وصف المواطن في ظل النظام الاستبدادي؟.

ربما يكمن الجواب الأبسط على هذا السؤال في القول بأنه قد تم اختزاله إلى الدقة الميكانيكية ، لدولة تشبه الحشرات.

إذ لا يمكنه تطوير أية صداقات ، أو ولاءات ، أو علاقات دافئة ، لأنها قد تكون خطرة بالنسبة له. فصديق اليوم قد يكون عدو الغد. كما وقد يعيش في جو من الشك المستمر –ليس فقط من الغرباء ، بل حتى من عائلته– ويخاف أن

يعبر عما يجول في نفسه لئلا يخيم قريبا في معسكر الاعتقال أو السجن.

كما أن مواطنو الاستبداد لا يتحدثون مع بعضهم البعض. ولكن عندما يتحدثون ، فإنهم يهمسون همسا ، وهم يلتفتون ذات اليمين وذات الشمال بحثا عن مُخبر ما أو عن جاسوس مختبئ بين اكتافهم ، والذي قد يمسك بقبضته القوية تلك الأكتاف في أية لحظة ، وبشكل خفي. إذ لا بد من وجود ذلك الجاسوس ، والذي لا مفر منه.

في حين أن صمتهم الداخلي يظل في تناقض حاد قياسا مع ذلك القصف اللفظي الرسمي.

فقد يتجرأ مواطنو"التوتاليتاريا" إطلاق بعض الضجيج ، ولكن ذلك يبقى ضمن النطاق الأضيق ، وتكون لأفكار المطروحة إما تافهة لا قيمة لها ، أو قد تكون منمقة وفيها الكثير من التدليس. أو أنهم قد يكررون الشعارات الرسمية بين بعضهم البعض همسا ، ولكنهم لا يقولون شيئاً.

تكشف الأدبيات الحالية أن تزايد اهتمام المؤلفين الرئيسيين الكبار ، ومن بينهم"ويلز H.G.Wells " و"هكسلي Huxley" و"أورويل Orwell" أكثر فأكثر ، بالمستقبل المروع للإنسان الآلي التابع ، والذي تم تدريبه كآلة على معيار المطابقة. وبأنهم إنما يترجمون لنا الخوف المشترك من الحضارة الآلية القادمة.

وهكذا ، لم يعد المواطن ضمن النظام الاستبدادي يعرف جوهر العقل الحقيقي. ولم يعد يشعر"بالأنا" الذاتية ، ولا"الأنا" الشخصية. ولا حتى يشعر بنفسه ككائن بشري مستقل. فهو ليس أكثر من خزان معبأ بوابل الإعلام الرسمي ، والإكراه العقلي.

كما ليس لديه أية شخصية خاصة به ، وليس لديه ضمير فردي ، ولا أخلاق شخصية ، ولا قدرة على التفكير بوضوح وبأمانة. حيث يتعلم ، عن ظهر قلب ، يتعلم الآلاف من الحقائق الملقنة ، ويستنشق العقيدة ، والشعارات مع كل نفس يجذبه.

ولذلك ، فهو يصبح مجرد متحذلق نظري يجتر النظريات المؤد لجة أمامه ، ومطيعاً ، في حين يجعل النظام الاستبدادي الناس من حوله كشيء يشبه الطناجر المليئة بالمعلومات ، بدلاً من وجود الأفراد ذوي الشخصيات الحرة المتنامية.

فأن تصبح أكثر حكمة وحرية ، يعني نسيان الانتقائية ، وتغييرات العقل. وهذا ما نقبله ، وهذا سنتركه وراءنا.

ولذلك ، يتطلب تعديل التنبيه تغييراً في الأنماط ، والقدرة على أن تكون غير مهيأة ، للتراجع أو إلغاء التوضيح لكي تصبح ناضجة لأنماط جديدة.

كما أنه ليس للمواطن الذي يعيش في ظل نظام مستبد أية فرصة لمثل هذا التعلم ، وذلك من خلال عدم الكشف عن مستويات النمو ، بل من خلال التجربة الفردية.

فالتبسيط الرسمي يكمن في حث الجمهور الأسير ، على القبول والتلقين. في حين يتم استبدال النشوة الجماعية والتعصب الجماعي للفكر الفردي الهادئ والنظر فيه.

لقد علّم الديكتاتور"هتلر" شعبه أن يسير ، وأن يخوض المعارك ، ولكنهم في النهاية لم يعرفوا لماذا كانوا يسيرون ويقاتلون.

لماذا؟ لأن الناس يصبحون كالقطعان—والذين يتم تلقينهم ، وإدارتهم من قبل قطعان مهووسة أخرى–و مخمورين أولاً بحماس وتوقعات سعيدة ، ثم بالإرهاب والذعر.

فالشخصية الفردية لا يمكن أن تنمو في ظل الاستبداد. ولذلك ، يتم ترويض الكتلة الهائلة من المواطنين فيما يشبه بحالة"السير أثناء النوم somnambulism" الشخصية والسياسية.

قد يكون من المشكوك فيه علميا مقارنة الخبرات المكتسبة من الحالات المرضية الفردية مع الظواهر الاجتماعية وتحليل الانهيار الجزئي"للأنا" في ظل الشمولية الاستبدادية عن طريق المقارنة مع حالات الجنون الفعلية.

ولكن هناك في الواقع ، الكثير مما يمكن مقارنته بين ردود الفعل الغريبة لمواطني النظام الاستبدادي ، وثقافتهم ككل من جهة ، وبين ردود فعل الانفصام الشخصي للمرضى المنضوين من الناحية الأخرى.

فعلى الرغم من أن مشكلة السلوك "الفصامي"الشيزوفريني" لدى الأفراد والمجموعات معقدة للغاية ، ولا يمكن معالجتها بالكامل في نطاق هذا الكتاب ، فإن المقارنة يمكن أن تكون مفيدة في بحثنا عن فهم طبيعة وتأثير الشمولية الاستبدادية.

الانسلاخ العام عن الواقع

هذه الرحلة إلى عالم علم الأمراض ليست وصفاً لتشابه من قبيل الصدفة فقط بين المرض ، والنظام السياسي. ولكن يجب أن تكون بمثابة إشارة إلى حقيقة أن الانسحاب الاستبدادي وراء التبريرات الرسمية ، والخيال الفردي ، هو أمر يمكن أن يحدث إما في الحياة الاجتماعية ، أو داخل العقل الفردي.

كما ويعتقد كثير من العلماء في وجود علاقة بين التدهور الثقافي ، وانسحاب الفصام الشخصي.

ودعونا نوضح بإيجاز ، ردود أفعال المصابين بمرض الفصام الشخصي الفردي للجزء الداخلي الكامل والمُبرمج ، وحيث يكون الانطواء الذهني بمثابة فشل شخصي للتكيف مع عالم يعاني من عدم الأمان والخطورة.

فقد تؤدي الحوادث العاطفية البسيطة ، في كثير من الأحيان ، إلى مثل هذا التراجع الفصامي-وعلى سبيل المثال ، اقتحام الجداول الزمنية والعادات القسرية على العقل أثناء مرحلة الرضاعة ، أو فرط الحساسية المريع ، لثقافتنا المفرطة ، أو حتى المرضية.

وحيث يتم إجبار العديد من الأطفال على الانطواء الفصامي"الشيزوفريني" أمام الوالد الغاضب.

وفي بعض الأحيان قد يؤدي الافتقار إلى الاتصال الخارجي إلى دفع الإنسان إلى حالة من العزلة ، بل وإلى العزلة المطلقة ، وأحياناً تفضيله للوحدة.

وقد ثبت أن هناك نزعة معينة إلى ما يسمى بانسحاب الفصام. ولكن مع ذلك يمكن أن يثيرها الجميع.

ولكن أيا كان السبب ، يصبح مريض"الفصام الشخصي(الشيزوفرينيا) كائناً مفترساً ، وضائعا في غياهب وحدته.

وهنا تبدأ الحياة الخيالية الواعية ، واللاواعية ، في أن تهيمن على المواجهة الصاخبة للواقع. وفي النهاية تصبح أوهامه الغريبة أكثر واقعية بالنسبة للفصام من العالم الفعلي.

لذا ، فهو يخفي نفسه أكثر فأكثر عن الستار الحديدي الخاص به ، وفي أرض الأحلام والتقهقر الخيالي الذي بناه لنفسه.

وهذه هي الجنة "النيرفانا" التي ينشدها ، حسب ما يتخيل ، وحيث يتم تحقيق كل أحلامه فيها. في حين أن الجمود والتعصب تكون من البدائل.

وفي هذه الحالة ، يتراجع المريض إلى شكل السلوك الطفلي الخفيف ، ويرفض كل ما علمه المجتمع إياه.

وكما أنه ، في خياله ، يعيش في عالم دائماً ما يطيع أوامره دون نقاش. فهو القاهر ، وهو الملك. والعالم يدور حول ميوله الإلهية.

ولكن الواقع يتطلب ، كما هو معروف ، التكيف والتعديل المتجدد والتحقق ، وأن يصبح مضطهداً ، يهاجم خيره بالقوة الإلهية.

ولذلك فهو يتعامل مع كل تشويش مقلق في عالمه الوهمي من قبل الفصام إما مع عدوانية هائلة أو مع تشكيل الوهم الثانوي لحماية الوهم الأول ، أو مع مزيج من الاثنين معا.

كما ويُظهر مريض الفصام الشخصي عداءً هائلاً تجاه العالم الحقيقي وممثليه.

فالحقيقة تسرق منه كل أوهامه من القدرة المطلقة ، وشعوره المهلوس بالحماية الكاملة ، كما كان في الرحم.

لقد أظهرت التجربة السريرية أن مرض انفصام الشخصية غالبا ما يبدأ

بالسلبية-وهو الدفاع ضد تأثير الآخرين ، وهو كفاح مستمر ضد التطفل العقلي ، وضد ما يشعر بأنه اغتصاب للعقل شديد الحساسية.

وحيث يتحول هذا الموقف الدفاعي تجاه العالم تدريجياً إلى موقف عدائي تجاه كل شيء ، وليس فقط نحو التأثيرات من الخارج ، ولكن أيضاً تجاه الأفكار والمشاعر من الداخل.

وأخيراً ، يصاب الضحية بالشلل بسبب عدائه وسلبياته. ويتصرف حرفيا كما لو كان ميتاً.

يجلس بوضعية ثابتة ، وبلا أدنى حركة ، ولساعات.

وقد يصبح في حالة مزمنة ، بحيث لا بد من إطعامه بالقوة ، وارتداء ملابسه بالقوة. وحيث يتحرك المصاب بالفصام مثل دمية على خيط ، وفقط عندما يجبره شخص ما على ذلك.

وفي هذه الحال ، فإننا من الناحية السريرية ، نطلق على هذا النقطة-موقف الموت.

إعادة التوجيه

يفضل مرضى الفصام الانطوائيون الحياة التلقائية الروتينية ، والانكفاء من أجل اللجوء من العالم الخارجي ، ولكنهم قد يشاركون العالم الخارجي قليلا ، شريطة أن يسمح لهم بالانغماس في أوهامهم الخاصة. فهم يسلمّون تماماً إلى الانهزامية الذاتية.

كما أنهم لا يتجمعون أبداً في مجموعات ، ونادراً ما يتحدثون مع بعضهم البعض ؛ وحتى عندما يفعلون ، فليس لديهم أي اتصال حقيقي متبادل. وذلك لأن كل مريض منهم يعيش في معتكفه الخاص.

كما أنه في الأسطورة الشمولية الاستبدادية- على سبيل المثال ، في درس "دريتي رايخ"- في الفلكلور النفسي لحالتنا الأسطورية ، يلعب الخيال الخفي للرحم المتقن من الناحية التقنية ، السخرية المثالية ، دوراً هائلاً.

ففي عالم مليء بعدم الأمان ، وعالم يتطلب التعديل ، والتنبيه للإنذار المستمر ، تخلق الاستبدادية وهم الحالة المثالية والمعجزة القديرة-وهي الحالة التي ، في شكلها النهائي ، ستتم تلبية كل حاجة مادية. وسيتم تنظيم كل شيء ، تماما كما كان الأمر بالنسبة للجنين في الرحم ، أرض النعيم والارتباط ، وتماما كما هو الحال بالنسبة لمرض الفصام الشخصي حين يكونون في المستشفى العقلي.

وحيث لا يوجد صراع اجتماعي ، ولا صراع عقلي. ويتحرك العالم كما الساعة. ولا يوجد تفاعل حقيقي بين الناس ، لا صراع للآراء أو المعتقدات ، ولا توجد علاقة عاطفية بين هؤلاء الزملاء في ذلك الرحم.

ولأن كل شيء موجود ككيان مستقل ، ويحمل ذات الرقم في نفس نظام الايداع.

أما في النظام الاستبدادي ، فلا يوجد إيمان في بقية الرجال الآخرين ، و لا قيم ، ولا إيثار ، ولا حب ، لأن العلاقات الحقيقية بين الرجال لا وجود لها ، تماما كما لا وجود لاستمرارية الانفصام. هناك إيمان فقط ، وإخضاع لنظام التغذية ، وهناك في كل مواطن خوف هائل من أن يتم طرده من هذا النظام ، وخوف من التعرض للضياع التام ، وهو مشابه لشعور الانفصام ، وهو الشعور بالرفض والخوف من الواقع.

كما أنه ، وفي خضم الوحدة الروحية والعزلة ، هناك الخوف من الشعور بالوحدة الأكبر ، والعزلة الأكثر إيلاما.

ولذلك ، فإنه ، وبدون وجود لوائح وقائية من الخارج ، قد ينفجر الجحيم الداخلي. لذا يجب استخدام النظام الخارجي الميكانيكي القوي لتغطية الفوضى الداخلية ، والتي تقترب من الانهيار.

لقد اكتسبنا خبرة جيدة في سنوات ما بعد الحرب ، وذلك إثر تعاملنا مع العديد من اللاجئين من العالم الاستبدادي والذي انهار عندما اضطروا للتعامل مع عالم الحرية ، حيث كانت هناك حاجة لمبادرة شخصية.

فالخوف من الحرية قد جلبهم إلى حالة من الذعر. ولم يعد لديهم أي نفوذ قوي ، بما فيه الكفاية ، للبناء والحفاظ على دفاعاتهم ضد المطالب التنافسية للواقع الديمقراطي الحر.

وكما هو الحال في مرض انفصام الشخصية ، لا يمكن أن تكون "الأنا" الانفرادية والفردية ، موجودة في النظام الاستبدادي.

كما أنه في انفصام الشخصية ، تنكمش"الأنا" كنتيجة للانسحاب من الإرهاصات الناجمة عن الرهاب الاستبدادي ونتيجة للدمج المستمر في المشاعر الجماعية.

فإذا كان ينبغي أن تنمو مثل هذه الأنا المنكمشة ، بموقفها النقدي الخاص ، واحتياجاتها من التحقق من الحقائق ، ومن أجل الفهم ، فسوف يتم التغلب عليها ، واعتبارها"أنا" خائنة ، وغير مترابطة.

تطلب الاستبدادية من مواطنيها الخضوع الكامل ، والاتحاد مع الزعيم. إنها هيمنة القائد التي تجعل الناس بلا شخصية تقريباً ، لأنهم مصابون بالفصام. ولأن هذا ، مرة أخرى ، قد يؤدي إلى فقدان السيطرة على محركات معادية ومدمرة.

كما وقد شهد علماء النفس مراراً وتكراراً في ما يمكن أن نسميه نفسية معسكر التركيز. فعندما جاء الضحايا في البداية إلى المخيم –والذين كانوا مكرسين لإبادتهم التدريجية– فقد أظهر معظمهم خسارة كاملة في الذات ، وكان البعض الآخر يعاني من فقدان الشخصية المطلقة ، إلى جانب اللامبالاة ، وفقدان الوعي.

وقد تم إجراء نفس الملاحظات بين أفراد فريق عملنا في كوريا. حيث تحسنت الحالات لدى بعض ضحايا معسكرات الاعتقال فور عودتهم إلى المجتمع العادي ؛ ولكن في حالات أخرى ، بقي هذا الفعل الشيزوفريني من الأنا المفقودة ، وكما ذكرنا أعلاه ، فقد تطورت في بعض الأحيان إلى حالة ذهان حقيقي.

الحالة الرحمية

تعتبر الشمولية الاستبدادية حالة هروب الإنسان من واقع الحياة الرهيب في رحم القائد الظاهري. وحيث يتم توجيه إجراءات الفرد من هذا الرحم-من المعتكف الداخلي. وحيث يكون المركز "الصوفي"-إن صح التعبير- هو المسيطر على كل شيء.

وحيث لم يعد الإنسان بحاجة إلى تحمل المسؤولية عن حياته الخاصة. فالنظام ، والمنطق منذ عهد ما قبل الولادة ، قد تعهد بذلك. ولن يكون سوى السلام والصمت ، وسلام الولاء المطلق.

على الرغم من أن أعضاء"الرحم" أولئك لا يتواصلون حقا. ولا يوجد بينهم سوى الصمت ، صمت خيانة محتملة ، وليس صمتاً ناضجاً للتكتم والتحفظ.

كما و تعمل الاستبدادية على تعميق الفجوة بين الأشياء التي يظهرها المرء ، والأشياء التي يحلم بها المرء ، ويفكر بها في أعماق نفسه.

كما إنها تطور العقلية لانشقاق الصمت السياسي. فأيا كان ما تبقى من الشعور الفردي والرأي يتم الاحتفاظ به في العقل ، وعلى أن يبقى مغلقا بعناية.

كما أنه في عالم "الشيزوفرينيا" في ظل النظام الاستبدادي ، لا يوجد تبادل حر ، ولا محادثة ، ولا تعجب ، ولا إطلاق حالات من التوتر العاطفي.

إنه عالم من المتآمرين الصامتين. وفي الواقع ، فإن جو الشك هو المهاجم الكبير للحرية العقلية ، وذلك لأنه يجعل الناس يتشبثون ، ويتآمرون ضد أعداء غامضين ، أولاً من الخارج ، ثم فيما بينهم.

كما أنه في النظام الاستبدادي ، تتم مراقبة كل مواطن ، وباستمرار. وحيث تشكل الدولة الأسطورية ضمير الفرد. وفي أن المواطن يمكنه ، وبالكاد ، القيام بأي عمل من تلقاء نفسه. فجيرانه يراقبونه ، وساعي بريده ، وأولاده ، وكلهم يمثلون الدولة المعاقبة ، وتماماً كما يجب عليه أن يمثل الدولة ، ويشاهد الآخرين. ولذلك

فإن الخيانة جريمة. وإن كانت خيانة تفكير أو فكرة.

وبالإضافة إلى ذلك ، فإن الحاجة إلى العثور على المؤامرات ، لاكتشاف المضطهدين والمجرمين ، تعتبر من المظاهر الأخرى للمصابين بمرض الانفصام الشخصي. كما يرتبط نفسيا بالحاجة الطفولية للشعور بالقدرة الكلية. في حين أن مشاعر جنون العظمة تنمو بشكل أفضل في جو من الخفاء ، ومن السرية.

فالسرية والتآمر يزيدان من وهم القوة. وهذا هو السبب في أن الكثير من الأشخاص ، يحبون الدخول في حياة أشخاص آخرين ولعب دور الجاسوس.

كما أن هذا الشعور بالتآمر ، يكمن أيضا وراء الصراع الباثولوجي مع مضطهدين خياليين ، صراع نجده في كل من المرضى العقليين ، وفي عقولنا الكلية الأسطورية ، والتي لا تبرح مخيلتنا. ولذلك فنحن مصابون برعب دائم ، ولا ننفط نحادث أنفسنا قائلين:

"إنه هناك!" "إنه يطاردنا!".

وبالتالي فإن كل المخاوف الداخلية لفقدان الوهم النيرفاني في ذلك الرحم تصبح متفشية. وتطارد الأشباح ، والنسور الغامضة ، خارج السكينة والجنة الموعودة.

كما أنه وفي ظل هذه الأوهام ، يصبح البطريرك ، الدكتاتور ، المعبود ، والخطر العالمي ، والمنقذ القاهر في آن واحد.

ولكن ، ولا حتى مواطني النظام الاستبدادي يحبون هذا العملاق القاسي حقاً. والذي يشبه سرطان الثدي الذي يُرضع ويغذي ، واليد التي توجه ، وتحرم كثيرا ما وجدت في الخيال ، ولدى الأطفال المنفصمين ، والذين يعانون من ذلك المغذي كعدو ، والغول السائد ، والذي يرشو العقل لتقديم المزيد من الولاء ، والخضوع.

لا يمكن التعبير عن الكراهية العميقة التي يشعر بها الشخص المريض تجاه الشخصية الأبوية مباشرة ، وبالتالي يتم تهجيرها على الذات ، أو إلى كبش فداء.

ولكن كبش الفداء ، هو أيضا جزء من الاستراتيجية الشمولية. وكما أشرنا

من قبل ، فإن كبش الفداء يستوعب مؤقتاً كل غضب الفرد الداخلي والغضب الكلي.

فالزنوج ، والشيوعيون ، والرأسماليون ، والمغامرون ، وأتباع الحرب ، يستطيع أي منهم ، أو كل منهم القيام بذلك الدور.

ولعل أكبر الأخطار ، بالنسبة إلى العقل الاستبدادي ، هو استخدام الفكر والوعي ، ومطلب"المثقفين" في التحقق ، والتفكير الحر.

كما يتم اختيار الانحراف من قبل مواطني النظام الاستبدادي ، كما من قبل مشافي المجانين ، وإن بشكل أكبر من التعب ، والمراقبة الفكرية.

وفي مركز المخاوف الشمولية الاستبدادية ، فإن الوهم والخوف يقفان كإله صنم في وجه الإنسان ، وهو الذي يتغذى على أعصابهم ، وأحلامهم. وبأنه لا يقهر. وذلك لأنه يستخدم هبة التكيف العظيمة التي يمتلكها الإنسان ليجلب له العبودية. ولأنه يجب أن ينمو القائد الأساسي في عقل ولب كل رجل ، وامرأة ، وكذلك ولاء المشاعر والأفكار.

ولكن هل يعي مواطن الاستبداد هذا؟.

على الاغلب لا. فقد علمنا علم النفس الحديث مدى قوة الآلية العقلية لإنكار الواقع.

وحيث تتجاوز العين الموجودات الخارجية عندما لا يريد العقل حدوثها.

كما ويتم تشكيل التبريرات الثانوية والأوهام لدعم وتفسير هذه الرفض.

ففي الأنظمة الاستبدادية ، نجد نفس الاستهتار بحقائق الواقع ، وكما يفعل مرضى انفصام الشخصية. وإلا كيف لنا أن نفسر حقيقة أن الديكتاتور"هتلر" كان لا يزال يحرك جيوشه على الورق ، وبعد هزيمته بالفعل؟.

وبالإضافة إلى ذلك ، تغطي الاستراتيجية الشمولية الفوضى الداخلية ، والنزاعات ، بسبب النظام الصارم لدولة الشرطة الأمنية.

وكذلك يفعل المريض القهري"الشيزوفريني" عن طريق روتينه الداخلي ،

وجداوله الداخلية.

كما أن هذا الروتين ، وهذه الجداول ، هي دفاعه الخاص ضد الحوادث المؤلمة في الواقع الخارجي. وحيث أن هذا "الروبوت الداخلي" قد يؤدي إلى إنكار الحقائق الداخلية ، والاحتياجات الداخلية كذلك.

فالمواطن في النظام الاستبدادي ، يعاني القمع المزمن ، ورفض حاجته الداخلية للحرية ، وقد يرضى بمواجهة حتى العبودية كأداة تحرير له. بل وقد يذهب إلى أبعد من ذلك- حيث يتوق إلى الهروب من الحياة نفسها ، وهو الوهم بأنه قد يصبح كلي القدرة من خلال التدمير الكامل.

لقد دعا جنود فرق الموت"S. S" الألمانية هذا العمل السحري "بلوت كيت Blutkitt"

(ربطة العنق) وهي ربطة عنق الجريمة الدموية التي يرتكبونها بحق المواطنين ، والتي تربطهم معا في ملزمة واحدة ، وإعدادهم للقاء جوقة الإله.

ولكن ، ومع هذا التوحيد السحري فيما بينهم ، فهم على استعداد لكي يموتوا بشجاعة ، ورباطة جأش. فالفوضى الفوضوية ، والحاجة إلى العظمة ، هي ما يتناوبون عليه ، و كما يفعل المريض الذهاني.

وبنفس الطريقة ، يبحث مواطنو النظام"التوتاليتاري"(الاستبدادي) عن مكان "بطولي" لهم في التاريخ ، على الرغم من أن الثمن سيكون إما الموت ، أو الفناء.

كما وينظر العديد من الجنود-الذين تعبوا من قسوة الحياة الطبيعية-إلى لحظات عنف من تجاربهم في الحرب ، على الرغم من الجوع والرعب ، كتجارب هائلة في حياتهم.

ولكنهم هناك ، وعلى حدود جبهات القتال ، شعروا بالسعادة للمرة الأولى ، والوحيدة في حياتهم.

ولكن ، وعلى الرغم من أن كل هذا يبدو كفصل من فصول الكوميديا المريرة ، فإن خيال الفصام قد علمنا كيف يمكن للعقل أن يتراجع إلى الوهم

عندما يكون هناك خوف من الوجود اليومي.

ففي ظل هذه الظروف ، يبدأ الخيال بالسيطرة على الواقع ، وسرعان ما يفترض صحة ما لم تكن له حقيقة.

ولذلك ، فإن العقل الشمولي الاستبدادي في هذه الحالة يشبه العقل "الشيزوفريني" الذي يعاني الفصام. وحيث يكون لديه ازدراء للواقع.

لنفكر لحظة في نظرية"ليسينكوLysenko" وحرمانها من تأثير الوراثة:

فالعقل الاستبدادي لا يلاحظ ، ويتحقق من انطباعاته عن الواقع. بل ويملي على الواقع كيف يجب عليه أن يتصرف ، ولذا ، فإنه يجبر الواقع على الامتثال لأوهامه.

وهكذا ، فإن المقارنة بين الشمولية الاستبدادية ، وبين الذهان ليست مسألة مقارنة رضية. فالتفكير الوهمي يزحف حتما في كل شكل من أشكال الطغيان والاستبداد. والقوى الرجعية ، اللاواعية ، تدخل حيز التنفيذ. في حين أن قوى شر الماضي القديم تعود من جديد.

كما ويتطور الإكراه التلقائي ، على التدمير الذاتي ، لتبرير خطأ واحد ، ولكن بخطأ آخر جديد ؛ لتوسيع وتوسيع دائرة مرضية مفرغة ، بحيث تصبح هي النهاية المهيمنة في الحياة. كما أن الرجل المخوّف ، والمثقل بثقافة لا يفهمها ، يتراجع إلى خيال الوحشية لقوة لا حدود لها ، من أجل تغطية الفراغ داخل نفسه. وحيث يبدأ هذا الخيال مع تقديم الولاء للقادة ، ومن ثم يستولون على الجماهير التي يظلمونها. ولكن ما الذي يمكن أن يفعله الآخرون عندما يتم القبض عليه في تلك الآلة الهائلة المسماة"الاستبداد"؟. يصبح التفكير-والدماغ نفسه-غير ضروري ، ولكنه يبقى مخصص فقط للنخبة. ولذلك ، على الإنسان أن يتخلى عن تفرده ، وشخصيته الفردية ، ويجب أن يستسلم لأنماط التماثل ، والمساواة في ما يسمى التكامل والتوحيد القياسي. وهذا يولد فيه الفراغ الداخلي الكبير للطفل المتوحش ، وخواء "الروبوت" الذي يتوق إلى التدمير العظيم دون قصد.

الفصل السابع

التفسير بواسطة التفكير التوليتاري

من أجل التحقيق في القوى الاجتماعية في العمل التي تقوض التطور الفردي الحر لعقل الإنسان، علينا أن ننظر إلى جوانب متعددة للحياة السياسية.

وبصفتي طبيب، وطبيب مختلط على وجه الدقة، فإني لا أرغب في ربط نفسي بدولة سياسية واحدة، أو تيار سياسي ما، بل أريد أن أصف ما يمكن تجربته في الحياة الاجتماعية في كل مكان.

وعندما يكون التفكير الإنساني، والعادات البشرية في طور إعادة التشكيل، فإنهما يكونان تحت تأثير الاضطرابات السياسية الهائلة.

وفي أحد البلدان، قد يحدث هذا بين عشية وضحاها، ولكنه قد يحث في بلدان أخرى، ببطء أكثر.

ولذلك، فإن مهمة علماء النفس هي مراقبة، ووصف تأثير هذه العمليات على العقل البشري.

وعندما تكون الأمة قد خضعت، ولو لمرة واحدة، للخضوع تحت نير الاستبداد، وعندما يستسلم شعبها مرة واحدة إلى التبسيط والتشويش لدى الديكتاتور المستقبلي، فكيف يحافظ القائد على سلطته؟

وما هي التقنيات التي يستخدمها لجعل مواطنيه مسيطر عليهم، وخاضعين لاتباع نظامه الدموي؟

والجواب، لأن النفس الناضجة للإنسان تقاوم الشمولية الاستبدادية،

ولذلك ، يجب على الديكتاتور أن يعمل ، ويخطط باستمرار لإبقاء رعاياه في الخط المطلوب ، ولحجب حاجتهم للتنمية الفردية ، والتمرد ، والنمو الصحي.

وهكذا ، فإننا ، و عندما نفحص تقنياته ، سنصل إلى فهم أفضل للشمولية الاستبدادية ، والتفاعل بين أساليب الديكتاتور ، وشخصيات رعاياه.

وبالإضافة إلى ذلك ، فنحن بحاجة إلى هذا الفهم ، وإن على نحو يائس ، لأننا يجب أن نعترف بأن القوى في "التوتاليتاريا" والتي تجعل ذلك "الإنسان الآلي" (التابع ، والخاضع) والمتهور من الرجال الأحياء ، والذي يمكن أن يتطور أيضاً ، وإن كان عن غير قصد ، فيما يسمى بالمجتمعات الديمقراطية الحرة.

استراتيجية الإرهاب

لقد استخدم الطغاة سلاح الإرهاب منذ زمن سحيق ، وذلك لصنع أداة واعية للإنسان.

ولكن في النظام الاستبدادي ، فقد تم تنقيح استخدام هذا السلاح إلى جعله ذلك السلاح الذي يمكن أن يمحو كل أنواع وأشكال المعارضة.

كما أن قادة"التوتاليتاريا"وعلى من أنهم يحكمون بالترهيب والقوة ؛ ولكنهم يفضلون الولاء من خلال الخوف ، على الولاء من خلال الإيمان.

فالخوف والإرهاب يجمدان العقل والإرادة على حد سواء. وقد يخلقون شللاً نفسياً عاماً.

أما في حالة الهلع الناجمة عن الإرهاب الشمولي الاستبدادي ، فإن الناس يشعرون بحالة من الانفصال عن بعضهم البعض ، وذلك من خلال حالات الفراغ المفرط ، وحيث أن كل إنسان يتحول إلى مجرد روح موحشة وخائفة. وحتى الذعر الذي يحوم معاً ، يمكن أن يشتبه في كونه مؤامرة ضد الدولة.

وهكذا ، وبعد انفصاله عن أي اتصال عاطفي حقيقي مع رفاقه ، وذلك من خلال عزلته الداخلية ، يصبح مواطن"التوتاليتاريا"(الاستبداد) غير قادر ، وبشكل

متزايد ، على محاربة تأثيراته اللاإنسانية.

تُعد "التوتاليتاريا"(الاستبداد) في حالة تأهب دائم لمواجهة الخطأة الاجتماعيين ، ومنتقدي النظام ، وبحيث يصبح الاتهام بالمعارضة يعادل الإدانة ، في نظر العامة.

كما ويعتبر التلميح والتشهير والإدانة من العناصر الأساسية في الاستراتيجية الشمولية(الاستبدادية). وحيث أن الأمة بأكملها ، مكرسة للاقتراح بأن كل إنسان هو عدو محتمل للنظام. ولا أحد مستثنى من هذا الرعب. وبأن أي إنسان كان قد يتعرض لذلك ، وبغض النظر عن مستوى رتبته ، أو مرتبته.

ومن أجل ترسيخ الاستبداد ، فإن النظام الاستبدادي يستخدم الأدوات الفاعلة لإخضاع الناس ، ومن بينها جهاز الأمن السري ، والشرطة السرية ، والتي تخلق الرعب والهلع داخل البلاد ، بينما يعمل الجيش على خلق الرعب والهلع في الخارج.

كما أن مجرد التفكير في تفشي الإرهاب-حتى لو كان هناك إرهاب مستقبلي محتمل-يجعل الرجال غير راغبين في التعبير عن آرائهم وفضح أنفسهم. في حين أن كل من مواطني نظام"التوتاليتاريا" وجيرانهم ، يتأثرون بهذا الخوف العام. وثمة مثال واضح حول كيفية عمل هذا الشلل ومدى تأثير الخوف في الواقع ، يمكن أن ينظر إليه في حقيقة أنه في عام١٩٤٨ في أوروبا الغربية ، والذين شعروا بظل الاحتلال الاستبدادي المتوقع ، فقد ظنوا بأنه أكثر أمانا لانتقاد ومهاجمة أصدقائهم الأميركيين من العثور على خطأ مع عدو شمولي استبدادي ، والذي قد يكتسحك فجأة ودون سابق إنذار.

ولا شك في أنه لا بد لنظام"التوتاليتاريا" من بناء السجون ومعسكرات الاعتقال ، وكنتيجة مباشرة من أجل إثارة الخوف والرعب بين السكان. والذين قد يطلق عليها اسم"المعاقبة" أو"المعسكرات" ، ولكن هذا ليس سوى مبرر رخيص لحقيقة وجودها.

ففي مراكز الخوف هذه ، لا أحد يصحح حقاً ما قد يراه خطأ. ولأنه ، كما كان ، قد طرد من الإنسانية ، وأهدر ، قُتل ، على الرغم من أنه ليس كذلك ، ولكن لئلا يقل نفوذ الإرهاب.

ولكن حقيقة الأمر هي أن هذه السجون لا تُبنى من أجل معاقبة المجرمين الحقيقيين ، بل من أجل مفعول تأثيرها الرهيب على المواطنين.

فالسجون بالنسبة لمواطني "التوتاليتاريا" (الاستبداد) تُمثل تهديداً دائماً لحياتهم ، وهو تهديد مستمر.

فقد وضعوا عبئاً يكاد لا يُدعم على التعاطف والخيال لدى هؤلاء المواطنين ، على الأقل مؤقتاً ، على السطح الخارجي للأسلاك الشائكة.

وبالإضافة إلى الخوف من الخضوع لنفس المعاملة القاسية ، والخوف من الإذلال ، والإهانة ، والموت ، فإن مفهوم معسكر الاعتقال في حد ذاته ، يثير مخاوف كل إنسان من أعماق نفسه ، حيث سيُطرد من المجتمع ، والخوف أن يكون وحيداً ، وهائما في الصحراء ، غير المحبة ، وغير المرغوب فيها.

توجد عدة أشكال أخف من الإرهاب الجماعي ، وعلى سبيل المثال ، استراتيجية عدم وجود راحة سياسية.

فالإنسان في ظل النظام الاستبدادي يجب أن يسير دائما على الطريق المرسوم وضمن شكل التخطيط الرسمي. ولذلك ، فهو دائما ، على وعي بالسيطرة والمراقبة ، والتجسس ، والقوى المتخفية ، والمتحفزة لأي أمر كان ، والتي تكون على أهبة الاستعداد في انتظار مطاردته ، والقبض عليه ، ومعاقبته.

وحتى في أوقات الفراغ ، والأعياد ، يكون ذلك المواطن البائس منشغلا ببعض البرامج الرسمية ، وبعض الحقائق التي يمكن تعلمها ، وبعض الاجتماعات السياسية ، وبعض العروض.

فلم يعد الهدوء والعزلة موجودين. وليس هناك وقت للتأمل ، أو للتفكير ، وحتى للذكريات. وهكذا ، يتم القبض على العقل ضمن شبكة من التفكير

الرسمي والتخطيط المنهجي.

ولذلك ، فحتى المسرات والأحداث السارة من الصمت المختار ذاتيا ، تعتبر ممنوعة.

كما يجب على كل مواطن من مواطني النظام الاستبدادي ، الانضمام إلى مسيرات التأييد ، والصراخ بأعلى صوت ممكن للهتاف بالشعارات الموضوعة مسبقا.

ولذلك ، يجد ذلك المواطن نفسه وقد أصبح عالقاً في النشاط المستمر ، والذي يفُقده القدرة على إدراك ما يحدث له.

كما يمكن أن يصبح هناك المزيد من الضغط والتخويف ، والتركيز على زيادة الإنتاج من قبل الأفراد ، والمصانع ، والمؤسسات الزراعية ، وسلاحاً لزيادة السيطرة والإرهاب.

ولذلك ، فقد أصبحت حركة"ستاخان نوفيت Stakhanovite" في روسيا كالعصا المخيفة ، والتي كانت تحث على زيادة ثابتة في معايير الإنتاج ، حيث كانت تشكل تهديداً للكثيرين. مما اضطر العمال إلى زيادة وتيرة عملهم وإنتاجهم ، وإلا فإنهم سيُعاقبون بشدة. وكان لا بد من التركيز على السرعة في كل شيء ، فالسرعة تجعل الإنسان أكثر فأكثر ترساً ، وبلا حيلة ، ضمن سير عجلة الاستبداد.

لا يمكن للإرهاب أن يكفّ عن نفسه أبداً. أو أن يقف عند حيد معين ، فهو يزدهر في طاعته ، الخضوع إليه ، ولذلك فهو ينمو في الفراغ.

كما أن الإرهاب كأداة ، يعني الانتقال التدريجي إلى الإرهاب كهدف- ولكن الإرهاب في الواقع ، هو استراتيجية هزيمة الذات. فالإنسان سوف يثور في نهاية المطاف ، وحتى إن كان يعيش في ظل ديكتاتورية مطلقة. وحتى عندما يتم خفض قيمة كرامة الرجال إلى جعلهم كعرائس من قبل قادة: التوتاليتاريا" (الاستبداديين)والذين سوف يصبحون في نهاية المطاف محصنين ضد كل

التهديدات. وهكذا ، سوف يفقد سحر الإرهاب في النهاية قوته.

فأولاً ، سيصبح مواطنو "التوتاليتاريا" مدمنين على الإرهاب ، ولن يعدوا- حتى الموت—خطراً داهما ، ومهددا بعد ذلك.

وبالتالي ، فإنه ، وعندها سيبدأ عدد قليل من المتمردين بمحاولة القيام بالثورة النهائية ، ولأن الحكومة الشمولية الاستبدادية ، وعن طريق الخوف والإرهاب ، تعزز التمرد الداخلي ، في القلة التي لا يمكن تفكيكها.

ولذلك ، فإنه ، وحتى في ألمانيا الهتلرية النازية الحديدية ، كانت هناك حركة مقاومة تدعى

"المساوة هي الحل gleichgeschaltet" وكانت حركة مقاومة نشطة.

طقوس التطهير

إن تطهير المستويات العليا من الحكومة ، هو عادة تاريخية قديمة. كما كان الصراع بين الآباء والأبناء ، وبين الجيل القديم من كبار السن ، وبين الجيل الأصغر سنا ، من الطقوس الموغلة ، ومنذ عصور ما قبل التاريخ.

وقد نقلت إلينا كلاسيكيات "فريزر Frazer" التي تحمل عنوان "الغصن الذهبي The Golden Bough" الكثير عن هذا الأمر.

فقد كان كاهن الوثنيين القدماء قد احتل منصبه العالي بعد قتل سلفه. كما وفي وقت لاحق في التاريخ ، قدم الملك—والذي أعلن ، مؤخرا ، المجرمين بدلا من ذلك ، كتضحيات للآلهة ، في يوم تنصيبه ملكا على العرش.

وهكذا ، فإنه ، وفي ظل النظام التوتاليتاري(الاستبدادي) فإن طقوس القتل والتطهير ، هي جزء من آلية الحكومة ، وهي لا تخدم وظيفة رمزية فحسب ، بل وظيفة حقيقية للغاية بالنسبة للديكتاتور.

ولذلك ، فإنه يتحتّم عليه أن يقضي على كل أولئك الذين تجاوزهم فيما بعد ، وبعد أن تمكن من التسلل عبر التسلق الذي لا يرحم إلى السلطة ، وخشية أن تندلع مشاعر الاستياء والغضب المحبط لدى الجميع ، مما قد يعرض وضعه أو ،

حتى حياته ، للخطر.

كما ويعكس التطهير خاصية أخرى للحياة في ظل النظام التوتاليتاري (الاستبدادي) وهي أنه يجعل من الحياة تبدو كقصة درامية من قصص الخيال ، وبأن الحزب ، سيكون دائما ، في حالة تأهب ويقظة ، للحفاظ على نفسه نقيا ونظيفا.

لقد أثبت الطب النفسي أن القيام بعمليات التطهير لدى الأفراد العصابيين ، هو في الواقع دفاع مشرّد ، ضد غضبهم وعنفهم الداخلي. وهو يلعب نفس الدور في المجتمعات ، وعندما يرتفع إلى مستوى طقوس معتمدة رسمياً ، فإنه يُرجع المواطنين إلى سن الرضاعة.

إنه يجعل مواطني نظام "التوتاليتاريا"(الاستبداد) يشعرون وكأنهم أطفال-بل وما زالوا يكافحون من أجل تعلّم عاداتهم في التدريب على استعمال المرحاض للمرة الأولى ، وما زالوا يستمعون إلى أوامر الوالدين التي يكررونها بأنه عليهم أن يكونوا نظيفين ، وأن يكونوا نظيفين ، وأن يكونوا نظيفين ، وأن يكونوا جيدين ، وأن يكونوا جيدين ، وأن يكونوا جيدين ، وأن يكونوا موالين ، وأن يكونوا مخلصين ، وأن يكونوا مخلصين. وهكذا دواليك...

ومن هذا المنطلق ، فإن التكرار المستمر لهذه الأوامر ، سيعزز شعور كل مواطن بالذنب الطفولي وبالعيب الدائم ، وبالنقص في الشخصية.

كما ويرافق التطهير الاستبدادي دائما احتفالا مفصلا للاعتراف ، حيث يتوب فيه المتهم ، علانية عن خطاياه ، مثلما كان يفعل مشعوذو العصور الوسطى.

ويمكن تلخيص تلك الصيغة العامة للاعتراف هكذا:

"...نعم ، أنا أعترف بشكوكي ، وبذنوبي. ولكن بفضل نقد الرفاق البنّاء ، فقد تمكّنت من تنقية تفكيري. وإنني أحترم تواضع رأي رفاقي ، والحزب ، وأنا ممتن للغاية لإتاحة الفرصة لي لتصحيح أخطائي. فقد مكنتني ذلك من عبء التنصل من أسئلتي المنحرفة. ولذلك ، فإنني أقدر فضل الزعيم المفدى ، وغير

الأناني ، وأعلن ولائي لحكومة الشعب".

وفي هذا السياق ، ثمة تأثيرات جوهريان حول هذه الاستراتيجية للتعبير العام عن العار ، أو شبهة التمرد:

فهي تخدم ، مثل طقوس التطهير نفسها ، لإثارة مشاعر الاستسلام الصبياني بين الناس ، ولكنها ، في الوقت نفسه ، تقدم لكل مواطن ، الدفاع النفسي العميق لمواجهة نفسه التي وسوست له بالتمرد. وكذلك عن العجز ، والشعور بالذنب ، وعدم الجدارة.

ولكنه ، وفي مكان ما في داخله ، يعرف المواطن الذي يعيش في نظام "التوتاليتاريا"(الاستبداد) بأنه قد تخلى عن نضجه ومسؤولياته.

وهكذا ، فإن تطهير العامّة ، يخفف من شعوره بالخجل. وحيث يواسي نفسه سرا بأن:

"...نعم. إن الآخرين ، هم المذنبون والقذرون ، والمعارضون ، وليس أنا". وذلك حسب ما أصبح يعتقد. وبأنهم:

".. هم الذين يتآمرون باستمرار ، وسيظلون يتآمرون".

ولكن تلك الأمور التي ينبذها علنا ، والتي يشتبه في أن أولئك"الآخرون" ينتهجونها ، هي الأمور الحقيقية ، والصحيحة أيضاً عما يدور في نفسه.

ولكنه خائف من أن يخونه الآخرون ، لأنه لا يستطيع أن يتأكد في ذهنه ، من أنهم لن يخونوا.

وهكذا تزداد توتراته الداخلية ، في الوقت الذي يوفر له التطهير عروضاً دورية ، ومستمرة ، لخوفه ، ولإله التهديد.

وفي الحقيقة ، فإن هذا الطقوس من الاعتراف القسري ، والتطهير يجب أن تتكرر مرة أخرى ، فهي تشير مرة أخرى ، إلى أن الإنسان سيطور دفاعاً عقلياً داخلياً ضده ، وأنه كلما زاد استخدامه ، كلما أصبح أقل فاعلية كوسيلة لإثارة الذنب والإرهاب.

ومثلما يصبح المواطن الذي يعيش في نظام "التوتاليتاريا"(الاستبداد) أكثر صلابة ، أو روعاً من رعب التطفل الرسمي المستمر على حياته الخاصة ، فإنه يصبح محصناً تقريباً ، من صرخات الخيانة والتخريب.

وبنفس الطريقة ، فعندما يصبح التطهير أقل فاعلية كأداة ترويض ، فإن الطاغية سيستخدمه ، وبشكل أكثر تكرارا لتهدئة مخاوفه الخاصة.

ويقدم لنا التاريخ الكثير من الأمثلة عن الثورات التي غرقت في نهاية المطاف ، في عهد دموي ، من الإرهاب والتطهير. في حين واجه بعض من أبطال وقيادات الثورة الفرنسية ، الأكثر تفانياً ، عقوبة إعدامهم على مقصلة الجمهورية ، والتي كانوا ساعدوا على خلقها.

الاتهامات الوحشية، والسحر الأسود

إن الاتهام الوحشي والسحر الأسود ، مثل كل أدوات ترويض النظام "التوتاليتاري" الأخرى ، ليسا شيئاً جديداً ، ولكنها تعود إلى الحضارات البدائية ، وإلى عصور ما قبل التاريخ ، حيث كانت حرفة السحر الأسود بسيطة ، إلى حد ما.

فقد كان على أفراد قبيلة"الشامان shaman" فقط أن يدمروا ، أو يشوهوا تمثالاً صغيراً للمجرمين المتهمين ، وذلك في إشارة لتوجيه إصبع الاتهام ، أو وضع عصا خاصة في وجه الرجل نفسه ، أو لعنه ، وتعبئته بكلمات وإيماءات غاضبة ، وذلك من أجل جعل ضحيتهم تنهار ، ومن ثم تموت. وذلك في قبوله الأعمى للطقوس السحرية ، حيث كان الخوف يسكن الضحية ، والذي غالبا ما يقوم بتقديم نفسه مستسلما لتلك الطقوس السحرية ، ومن لمواجهة عقوبة الموت ، أو الانتحار.

ولذلك ، كان لذلك القتل السحري للعدو مضاعفات نفسية متعددة. فغالباً ما كان يُنظر إلى ضحية تعويذة السحر ، كممثل للإله القبلي ، والسلطة الداخلية والأب.

وبأنه يجب أن يُقتل لأن وجوده قد أثار الذنب ، والندم بين شعبه. ولكن موته

قد يُسكت الأصوات الداخلية المماثلة لـه في إنسان يراقب، بل ويحذره من السقوط الوشيك، ومن التعرض لذات العقوبة.

وفي بعض الأحيان، كانت تأتي الضحية من قبيلة مختلفة عن قبيلة المتهمين. وفي هذه الحالة، يكون الغريب هو كبش فداء أسهل، ولذلك فإن معاقبته، لا تزال بمثابة صدام للمشاعر المتناقضة بين أفراد قبيلة القتل.

وهكذا، فإن الكراهية تجاه الأخر ستنمو، وسينمو معها العدوان في نفس كل فرد من أفراد القبيلة حيال قبيلته، وحيال نفسه.

وبالتالي، فكلما زاد الخوف في المجتمع، كلما شعر كل فرد من أفراد المجتمع، بالذنب، وكلما ازدادت الحاجة إلى كبش الفداء الداخلي، والأعداء الخارجيين. كما أن الشك، والارتباك الداخلي، سيجعل من الضروري البحث عن التفريغ، وهذا سيحدث في افتعال الحروب الخارجية.

يكون الجو العام في النظام"التوتاليتاري"(الاستبدادي) مشبعا بالثرثرة، والنميمة، والشائعات.

كما أن أي اتهام، حتى لو كان غير صحيح، يكون له تأثير أكبر على المواطنين، من التبرير اللاحق. حيث تصنع فواتير من التفاصيل، ولكنها تكون مصنوعة كلها ضد الأبرياء، وخاصة ضد القادة السابقين الذين تمكنوا من تطوير بعض الاحترام الشخصي، والولاء، بين أصدقائهم وأتباعهم.

ولذلك، فإن التهم المفبركة الموجهة ضدنا، تُحيي دائماً، الشعور بالذنب، واقتراف الأخطاء، بل وتحثنا على الارتجاف والرهبة.

وفي تحليلنا للقوى النفسية التي تقود أسرى الحرب، وغيرهم من الضحايا السياسيين إلى الاعتراف، ومن ثم إلى الخيانة، فقد رأينا مدى قوة الشعور بالذنب الخفي، والشك، لدى كل رجل يدفعه الضغط الشديد إلى الاستسلام لمطالب وأيديولوجيات العدو.

وهكذا، فهذه تلك الآلية نفسها، تعمل، وباستمرار بين المواطنين الذين

يعيشون في ظل النظام"التوتاليتاري"(الاستبدادي).

كما وتذكره الاتهامات ضد الآخرين بثوراته الداخلية ، وأعماله العدائية ، والتي لا يجرؤ على خوضها في العلن ، وهكذا يصبح المتهم ، حتى عندما يكون بريئا ، كبش الفداء ، لإحساسه الخاص بالذنب.

كما ويجعل الجُبن المواطنين الآخرين ، في بلدنا الأسطوري ، يبتعدون عن الضحية ، وذلك خشية أن توجَّه إليهم أصابع الاتهام.

وبالتالي ، فإن حقيقة أن اغتيال الشخصية ، هو أمر محتمل ، بل ويكشف عن ضعف وحساسية التعاطف الإنساني بشكل عام. فحتى في المجتمعات الديمقراطية الحرة ، فإنه غالباً ما تُجرى الحملات السياسية في جو من الاتهامات الفاضحة ، وباهظة الثمن ، وصولا إلى المناورات العنيفة.

وفي اللحظة التي تبدأ فيها استراتيجية الاتهام الوحشي ، بكل ضجيجه المثير للجدل والافتراء ، فإننا سننسى القصد الاستراتيجي وراء كلمات ، وعبارات الاتهام ، وسنجد أنفسنا متأثرين بالصياح ، والاستماع.

وسنبدأ نحدث أنفسنا بأنه "لربما هناك شيء ما خفي في هذه القصة."

وهذا ، بالطبع ، هو بالضبط ما يريده قاذف التهم.

كما أنه لا يزال الوهم المعشش في أذهان السياسيين ، قائما ، بأن الغاية تبرر الوسيلة. ولكن حملات التشهير ، غالبا ما تنتج نتائج متناقضة ، لأن حقيقة أن اتهاماً لا أساس له ، سيُضعف من المعنى الأخلاقي لكل من المستمع والمتهم على حد سواء.

هوس التجسس

يصل "هوس التجسس SPY MANIA" في النظام الاستبدادي التوتاليتاري في هذه الحلقة المفرغة من التوبيخ إلى أقصى قدر من الإزهار. حيث يغرق ، في عهد ، الاشتباه ، والشبهات ، في حين يعاني المواطن الذي يعيش في ظل النظام الاستبدادي "التوتاليتاري" من وهم رهيب من الاضطهاد "الجاسوس المهووس"

ومن هوس التجسس على حد سواء.

ولذلك ، فإن ذلك المواطن يعيش ، وباستمرار ، في حالة تأهب ، وحتى حين مشاهدة رفاقه الآخرين ، أو الجلوس معهم. كما ويبقى على حذر شديد في علاقاته مع الآخرين ، فقد يتحول جاره المُقرّب ، والصالح ، في أي لحظة ، إلى مخرب أو خائن.

كما أنه من النادر ما يبحث المواطن الذي يعيش في ظل النظام الاستبدادي "التوتاليتاري" عن الارتباك ، أو الشك ، أو العيوب في روحه الخاصة ، ولكنه سيطرحها على كباش فداء آخرين ، إلى أن يصبح هو نفسه ضحية لشخص آخر من نوع "الجاسوس المهووس" والذي قد يشي به في اية لحظة.

وهكذا ، سيحاول كل مواطن يعيش في ظل النظام الاستبدادي "التوتاليتاري" ، وباستمرار البحث عن أفكار الآخرين الأعمق. لأن أفكار المرء المخفية الخاصة به ، قد يتم تبادلها مع جيرانه الأقرب ، في حين قد يصبح التفكير بحد ذاته هو العدو المستطير.

كما ويرتبط هذا الخوف الكبير من الأفكار الداخلية لإخواننا من البشر بعملية عامة من إعادة التقييم ، وذلك من نتائج الإصابة بوهم "جنون الارتياب" من الآخرين نحو الآخرين ، كنتيجة للخوف والتفكير الاستبدادي.

كما أنه ، وفي حالات الحرمان من الولاء البشري ، وفي الوهم المستمر عن الخيانة والتخريب ، يتم التعبير عن الأساطير الطفولية بأكملها حول"التوتاليتاريا" ونبذها من العلاقات الإنسانية الناضجة.

وهكذا ، فإنه ، ومن خلال الاستجواب القسري ، واغتيال الشخصيات ، والإذلال ، والإرهاب العقلي ، وإحباط المعنويات-مثل ما يحدث في عمليات غسل الأدمغة الفردية والجماعية- يمكن أن يكون الإنسان محبطاً للغاية ، بحيث يقبل أي نظام سياسي. ولا شيء أكثر من ذلك.

إذن ، فلماذا يعارض الأمور؟.

كما ولا بد من التأكيد في هذا السياق، على أنه في النظام الاستبدادي "التوتاليتاري" ليست هناك سياسة مفتوحة، ولا مناقشة حرة، ولا اختلاف صادق في الرأي. لا يوجد سوى الدسيسة، والإدانة، والعمل المخيف، على إخضاع الجماهير.

وهكذا، فإن استراتيجية الاتهام الوحشي للآخرين، لا تُستخدم فقط ضد المواطنين الذين يعيشون في ظل النظام الاستبدادي"التوتاليتاري" ولكن أيضاً ضد بقية العالم على حد سواء.

وذلك لأن "التوتاليتاريا" تحتاج إلى صور لأعدائها الخارجيين- والتي يجب أن تكون على هيئة الوحوش القاسية الوهمية، والتي تنشر الطاعون والأمراض- لتبرير مشاكلها الداخلية.

وبحيث تهدأ بقايا ضمير الفرد، وتحتجزها هجمات بجنون العظمة على بقية العالم:

"فالعدو يسمم طعامنا، ويرمي الخنافس والبكتيريا إلى محاصيلنا".

كما وستهدف هذه الأسطورة من المؤامرة العالمية الخيالية، إلى دفع مواطني الخوف من النظام الاستبدادي"التوتاليتاري" إلى موقف دفاع منسق ضد تلك المؤامرة الوهمية وخطورتها البالغة، والتي يحيكها النظام"التوتاليتاري".

وبالتالي، يستطيع هذا النظام من أن يخفي، في نفس الوقت، الإخفاقات الداخلية الحقيقية، والتي تؤدي إلى تناقص المحاصيل، ونقص الغذاء.

كما إن إلقاء اللوم على الآخرين يعزّز إحساس كل مواطن بالمشاركة، في المجتمع الاستبدادي، ويخلق صوتاً داخلياً مزعجاً يطالبه بدور الفرد المسؤول عن نفسه.

كما أن أسطورة التآمر الخارجي، تزيد من شعور الفرد بالاعتماد على قادة النظام الاستبدادي، ومن عدم النضج. فقد أصبح الآن فقط، وعلى يقين، بأن زعيمه الديكتاتوري، يستطيع حمايته من العالم الشرير في الخارج-عالم يُوصف له

كحديقة حيوان شاسعة ، تسكنها تنانين القنابل الذرية ، ووحوش قنابل الهيدروجين.

استراتيجية التجريم

كما ذكرنا من قبل ، قد يكون المواطن الذي يعيش في ظل النظام الاستبدادي "التوتاليتاري" قادراً على تلبية بعض احتياجاته غير العقلانية ، والغريزية ، في مقابل خضوعه للرق الاستبدادي.

وقد علمتنا ألمانيا "هتلر" النازية ذلك النمط المقبول.

كما ويتم تشجيع المواطن الذي يعيش في ظل النظام الاستبدادي "التوتاليتاري" (وعضو الحزب) على خيانة أصدقائه وأولياء أموره ، وهو أمر غالبا ما يريده الطفل الغاضب المحبط.

ولكن قد يعيش في حالة طويلة في العمل على محاولة الاعتداءات ، والرغبات المكبوتة بشدة للانتقام.

وحيث لم يعد بحاجة إلى قمع ، أو رفض بعض دوافعه البدائية.

كما ويدفع النظام العبء الكامل لشعوره بالذنب ، ويضع بين يديه قائمة جاهزة ، وتضم الآلاف من المبررات والإغراءات للإفراج عن دوافعه السادية.

في حين تساعد الكلمات المفتاحية المنمقة ، مثل"الضرورة التاريخية" الفرد على ترشيد الفجور ، وتبرير الشر في الأخلاق والخير. ولذلك ، فإننا نرى ، ونلاحظ هنا كمّ الفساد الكبير للمعايير المتحضرة.

كما أنه ، وفي استراتيجيته للتجريم ، يدمر الدكتاتور الاستبدادي ضمير أتباعه ، وتماما كما يدمر ضميره نفسه.

وفي هذا السياق يمكن ذكر أولئك الأطباء النازيين ، والذين تعلّموا ودرسوا طيلة حياتهم ، والذين بدأوا حياتهم المهنية بقسم"أبقراط" ووعدوا بأن يكونوا عوناً للإنسان ، ولكن بعد ذلك ، وبدم بارد ، مارسوا أشد أنواع التعذيب قسوة ، على ضحاياهم الذين كانوا يخضعون لتركيزهم في السجون ، ومعسكرات الاعتقال.

وهكذا ، فقد ذبحوا الأبرياء ، وبالآلاف من أجل اكتشاف الحدود الإحصائية للتحمل البشري. كما أصابوا الآلاف الآخرين مثل"خنازير غينيا" وفقط لأن "الفوهرر" أراد ذلك.

ولذلك ، فقد فقدوا معاييرهم الشخصية ، وأخلاقهم ، وبشكل كامل ، بل وبرروا كل جرائمهم ، وبأنهم إنما كانوا ينفذون أوامر ، وإرادة "الفوهرر" وقادته النازيين.

وبالتالي ، فقد شجعتهم تلك الكلمات الرنانة ، والمشحونة ، على تقديم ضمائرهم بالكامل إلى الدكتاتور.

تتطلب عملية التجريم المنهجي استنباط الناس.

وكما قال أحد رجال العصابات في حكومة "هتلر":

"عندما أسمع كلمة"حضارة" ، أتحسس مسدسي"!.

وقد تم ذلك لإثارة غريزة القسوة باستمرار.

كما ويُطلب من الناس ألا يؤمنوا بالفكر ، ولا بالحقائق الموضوعية ، بل لأن يستمعوا ، فقط ، إلى الإملاءات الشخصية لدولة"مولوخ Moloch" ، وإلى "هتلرHitler " وإلى"موسوليني Mussolini" ، وإلى "ستالين Stalin ".

كما أن التجريم ، هو تكييف الناس للتمرد ضد الإحباطات المتحضرة. فقد أظهر لهم الدماء وأكباش فداء الدم ، وإبعادهم آلاف السنوات عن المثاقفة ، التبادل الثقافي ، والذي يبتعد عنهم.

كما أن هذا الإبعاد عن المثاقفة ، سيؤدي بالناس إلى حالة من الهستيريا ، وإثارة الجماهير ، وتجانس العواطف.

وكل هذا إنما يميل إلى إيقاظ الإنسان البدائي"النياندرتالي Neanderthal".

وكذلك إلى تبرير الجريمة ، وعلى الأخص حين تكون مع عقيدة براقة من التفوق العرقي ، ومن ثم التأكد من أن الناس سوف يتبعونك.

كان"هتلر" يعلم جيداً ما كان يفعله عندما حوّل معسكرات الاعتقال

الألمانية ، إلى ساحات إعدام ، وبعد أن أطلق العنان لشهوات جنود فرق التعذيب والموت الخاصة به. وكان يقول:

"دعهم يقتلون ، ويرتكبون المجازر. لأنهم ، بمجرد أن قرروا السير معي ، فيجب أن يستمروا بالسير معي ، وحتى النهاية"!.

إن استراتيجية التجريم ليست موجهة فقط لسحق ضحايا النظام الاستبدادي ، ولكن أيضاً تجاه حقن نخبة الجالسين على هرم السلطة-العصابة الحاكمة- بتلك المشاعر السامة ، بالقوة ، والنشوة ، والتميز ، والذي يدفعهم أبعد وأبعد عن كل شعور إنساني ؛ بحيث يصبح ضحاياهم ، في أعينهم ، مجرد كائنات ، وبدون هوية بشرية ، وبالتالي ، فإنهم يتحدثون من خلف الأقنعة ، وأنظمة "الروبوت".

كما أن استراتيجية التجريم هذه ، هي التنظيم المنهجي للعواطف الدنيا في الإنسان ، ولا سيما تلك التي يجب على الدكتاتور أن يثق بها كمساعد مباشر له ، والتي لا بد من أن يغرسها في عقول أتباعه المخلصين.

وهكذا ، فإنه ، وتحت ضغط الفكر الاستبدادي ، يتعرف كل مواطن تقريباً على العصابة الحاكمة ، والذين يجب أن يثبت الكثير منهم ، ولائهم ، بالقتل ، وارتكاب المجازر ، أو على الأقل التعبير عن موافقتهم على عمليات القتل والإعدامات ، والمجازر.

وفي المقابل ، فإن الملل من أنماط العيش التلقائية في النظام الاستبدادي "التوتاليتاري" سوف يقود المواطنين إلى الترحيب بمغامرة الحرب ، والجريمة ، والتدمير الذاتي.

وحيث أن كل عمل جديد ، من أعمال التعذيب والجريمة ، سيقود إلى روابط جديدة من الإخلاص والولاء المطلق ، والطاعة العمياء ، وإلى انعدام الضمير أيضا ، ولا سيما داخل العصابة الرائدة.

وفي نهاية المطاف ، يتوجب على الأعضاء القياديين ، ومدفوعين بالجريمة ،

والشعور بالذنب ، والإثم ، وأن يلتزمون بكل ذلك ، لأن سقوط النظام سيؤدي إلى سقوط العصابة بأكملها ، سواء على صعيد القادة ، أو الأتباع.

كما أن ذلك ينطبق على العالم الإجرامي. فعندما يتخذ الإنسان الخطوة الأولى ، ويرفض قوانين المجتمع ، وينضم إلى العصابة الإجرامية ، فسيصبح في حالة حرب مع العالم الخارجي ، وتقييماته الأخلاقية. ولأنه من الآن فصاعدا ، تستطيع تلك العصابة الحاكمة ، من ابتزازه وإخضاعه.

وهكذا ، تتحول الحلقة المفرغة في النظام"التوتاليتاري" (الاستبدادي) لتجريم المواطنين ، والذين يصبحون فيها هم الوسائل في حد ذاتها ، إلى مؤامرة ساخرة ، ومغطاة بالعلم الساخر ، للمثالية اللائقة.

وحيث يستخدم زعماء البلد كلمات بسيطة ، ومؤثرة مثل"الحملة العالمية للسلام" في حين يبتهج المواطنون ويفتخرون بهذه الكلمات.

ولكن عددا قليلا منهم فقط يعرفون ما مغزى تلك الأفعال الخادعة التي تكمن وراء تلك العبارات المنمقة.

أما بالنسبة لألمانيا "الهتلرية" فقد تم دمج كل تلك هذه الانحرافات في أسطورة قومية عظمى أطلق عليها لقب"الرايخ الثالث" ، والإمبراطورية الجديدة ، والجمهورية الشعبية–ورغبة المواطن في القيام بشيء بطولي يتم تحديده بعمل شيء عنيف وجنائي. وحيث يصبح الدم سائلاً سحرياً ، ويتحول سفك دم شخص آخر إلى عمل فاضل ، ومُعمّد للحياة.

وبالتالي ، يرتبط القتل غير المحدود ، كما يمارس في الأنظمة الاستبدادية ، بالمخاوف العميقة ، واللا واعية.

فالضعفاء والمرضى العاطفيين ، في أي مجتمع يقتلون خوفا ، من أجل الحصول ، وبطريقة سحرية ، على قوتهم بل وسرورهم بما يفعلون ويحققون ، فضلا عن ممتلكاتهم المادية بالطبع.

كان قتل الملايين في أفران الغاز النازية جزءاً من هذه الأساطير القديمة في

القتل. ولربما اعتقد أفراد العرق الآري الرئيسي ، بأن ذبح اليهود سيضمن أن الألمان سوف يتحملون الألم ولقرون عديدة عما اقترفته أيديهم بحق ضحاياهم!.

إنه جزء من أسطورة بدائية قديمة ، أنه ، من خلال قتل العدو ، فإن المرء يحصن ذاته ، ويطيل حياته ، ولكن دعونا لا ننسى أن قوى العقل والتفاهم في الإنسان ضعيفة إلى حد ما. ولأنه من الصعب السيطرة على السيارة المنفجرة بمجرد أن يشب فيها الحريق.

ولذلك ، يجب على النظام الاستبدادي أن يقتل ، ويذبح ، ويفتعل الحروب.

كما وتكرّس "التوتاليتاريا". الاستبدادية الكراهية ، حيث أن"الناطق" باسم هذا النظام الاستبدادي ، لا بد وأن يكون في العادة"سوبرمان" صارم ، وقاس ، وشرس ، ولكنه مخدوع بالطبع—كغيره من القادة في الحلقة الضيقة للدكتاتور ، ووحيدا ، ولذلك ، فهو يدعو إلى الكراهية والظلم ، ويثير التعصب المكثف دون عوائق ، أو أي شعور أو ندم ، أو وازع أخلاقي.

كما وتعزز صيحات المعارك من قوة قبضة يد الدكتاتور على رعاياه ، لأن كل مواطن ، ومن خلال أعماله المذنبة ، يتعلم أن يكره ضحيته ، والتي تزيد معاناتها أكثر من شعور المجرم العميق بالذنب ، وقد يجعلهم ذلك أكثر ولاء وطاعة.

الدلالات اللفظية، والضبابية الدلالية، وإخضاع الناس.

ومن هذ المنطلق ، فقد أصبحنا ، بعد الحرب العالمية الأولى ، أكثر وعيا بمواقفنا تجاه الكلمات. بل وأصبحت تلكم المواقف تتغير تدريجيا.

كما تضاءلت ثقتنا في الكلمات الرسمية ، والكلمات المبتذلة ، وبالعلامات التجارية المثالية كذلك.

وقد أصبحنا أكثر إدراكاً لحقيقة أن الأسئلة المهمة التي كانت تُطرح ، فإن الجماعات ، والقوى ، لم تكن تقف وراء تلك الكلمات ، وما هي نواياها السرية.

ولكن بطرقنا البسيطة ، فإننا غالباً ما ننسى طرح هذا السؤال ، لأننا جميعاً ، أكثر عرضة للضوضاء والكلمات المتكررة.

إن صياغة الأكاذيب الدعائية الكبيرة والعبارات الاحتيالية الغامضة لها غرض محدد وجد جيد في النظام التوتاليتاري(الاستبدادي) وقد اكتسبت الكلمات نفسها ، وظيفة خاصة في خدمة السلطة ، والتي قد نطلق عليها في البداية اسم "تصريف الكلام verbocracy" حيث يخلط الكذبة الكبيرة ، والشعار العنيف ، مما يُضعف شوكة وعنفوان المستمعين ، الأمر الذي يؤدي بمعظمهم ليصبحوا مستعدين لقبول كل أسطورة عن وهم السعادة المقترحة.

كما إن مهمة الداعية الاستبدادي ، هي بناء صور خاصة في أذهان المواطنين ، وذلك حتى لا يروا بعيونهم ، ويسمعوا بآذانهم ، ولكنهم سوف ينظرون إلى العالم من خلال ضباب ووهم تلك الكلمات الرسمية الرنانة ، كما وسوف يطورون تلك الصورة الآلية للحاكم شبه الإله. وكذلك الردود المناسبة للأساطير الاستبدادية.

وهكذا ، فإن الاستخدام المتعدد للكلمات في الكلام المزدوج ، يعتبر بمثابة هجوم على منطقنا ، أي هجوم على فهمنا وهو ديكتاتورية متجانسة بالفعل.

ويمكن على سبيل المثال لا الحصر ، ذكر بعض الأقوال من ذلك الهراء الذي يمارسه النظام الاستبدادي في استخدام تصريف الكلام:

"السلام هو الحرب ، والحرب هو السلام"!.

"الديمقراطية هي الطغيان ، والحرية عبودية"!.

"الجهل هو القوة"!.

"الفضيلة هي الرذيلة بعينها ، والحقيقة مجرد كذبة"!.

"هكذا تقول وزارة الحقيقة في رواية "جورج أورويل George Orwell" القاتمة ، والتي تحمل عنوان "١٩٨٤".

كما ورأينا كيف أن هذا الخيال المرعب يتحول إلى حقيقة عندما عاد جنودنا ، والذين قضوا سنوات طويلة في معسكرات السجون الكورية الشمالية ، إلى ديارهم ، وهم يتحدثون عن الصين الشموليّة الاستبدادية بالكلمات الخادعة

حول "ديمقراطية الشعب".

يجبر الناس على التفكير التلقائي المرتبط بهذه الكلمات. فالكلمات التي نستخدمها ، تؤثر على سلوكنا في الحياة اليومية. بل وهي التي تحدد الأفكار التي نحملها.

أما في النظام الاستبدادي ، فيتم استبدال الحقائق بالخيال ، والتشويه. حيث يتم تعليم الناس الكذب ، وبشكل منتظم وعن عمد.

وهكذا ، يتم إعادة بناء التاريخ ، وتبنى الأساطير الجديدة ، والتي يتمثل هدفها المزدوج:

-بتعزيز وتملق الزعيم الاستبدادي.

-الخلط بين المواطنين غير المحظوظين في البلاد.

في حين تكون المفردات كلها ، عبارة هي مجموعة محشوة بشعارات التنويم ، وبطء.

أما في الضباب الدلالي الذي يتخلل الغلاف الجوي ، فستفقد اتلك لكلمات وظيفتها التواصلية المباشرة. بل وتتحول إلى مجرد علامات قاطعة ، ولذلك ، فإن أدوات ووسائل النظام الاستبدادي ، سوف تسارع إلى إثارة ردود أفعال تتسم بالتخويف والرعب.

حقا إنها صرخات معركة ، وإشارات الباحث"بافلوف" وحيث لم تعد تمثل التفكير الحر.

كما ويتم تحويل الكلمة ، التي كانت تعتبر في البداية رمزاً للإنسان الحر ، إلى مجرد أداة ميكانيكية.

وبالتالي ، فقد تكون للكلمات في النظام الاستبدادي تأثير مغر ، ومهدئ ، أو ساحر ، لسامعيها ، ولكن لا يُسمح لها أن يكون لها معنى جوهري. فهي مجرد مكيفات ، ومحفزات عاطفية ، وتخدم بصمات أنماط التفاعل المرغوب على المستمعين.

كما إن كسل الإنسان العكسي ، ومقاومته للعمل الشاق للتفكير، يجعل من السهل نسبياً على الدكتاتور"التوتاليتاري"(الاستبدادي) أن يجعل رعاياه يقبلون ذلك الكم الكبير من الكذب.

في البداية يمكن للمواطن أن يقول لنفسه: "كل هذا مجرد هراء-كلام مزدوج خالص". ولكنه في واقع الحال الذي يعيشه ، فإنه يحاول إهماله ، وذلك لكونه قد أصبح خاضعاً لقوة ذلك الكذب المتأصل.

هذه هي خدعة الكلام المزدوج. فعندما يهمل الإنسان الذي يعيش في ظل النظام الاستبدادي ، تحليل تلك الكلمات ، والتحقق منها ، يصبح ضائعاً فيها ، ولا يمكنه رؤية الفرق بين المنطق والعقلنة.

وفي النهاية ، لن يعود بإمكانه تصديق أي شيء ، فتتراجع قدرات تفكيره إلى مرحلة البلادة السخيفة.

في حين أنه ، وبمجرد أن يقبل مواطن النظام الاستبدادي"التوتاليتاري" بمنطق قادته ، فإنه لن يعود مفتوحاً للنقاش أو الجدال.

وللأسف ، فإنه في عالمنا الغربي ، غالبا ما نلتقي هذا التهرب من الوضوح الدلالي. ودعونا لا ننسى أن المعركة من أجل الكلمات ، هي جزء من الحرب الباردة الأيديولوجية في عالمنا.

لقد تسلل شيء ما إلى نظامنا الآلي للاتصال ، والذي جعل أساليب تفكيرنا تتدهور. فالناس الذين يعرضون الأفكار والمفاهيم. لم يعودوا يكافحون من أجل فهم واضح. ولذلك ، تحلّ الصورة المشهورة ، محل معركة إيجابيات وسلبيات المفاهيم.

كما أنه ، وبدلاً من استهداف الفهم الحقيقي ، يستمع الناس إلى التكرار الملل ، وغير المبرر ، لذات الكلمات ، مما يمنحهم المزيد من الغرق في وهم التفاهم.

ومن ناحية أخرى ، فإن للتواصل شخصية أكثر طفولية ، وسحرية للمواطن الذي يعيش في النظام الاستبدادي. وحيث أن الكلمات لم تعد تمثل معان

مفهومة أو أفكار واضحة. وبالتالي فإن أولئك يربطون مواطني النظام الاستبدادي بالاعتماد التام على القائد ، بقدر ما يرتبط الرضيع بكلمة من كلمات والديه.

فقدان الإرادة

يشير الباحث "بايفيلد Byfield" في كتيبه حول "فقدان الإرادة logocide" أن الكلمات تستخدم عادة كأدوات للثورة الاجتماعية. ولذلك يتوجب على السياسيين الذين يبحثون عن السلطة ، أن يسوقوا علامات جديدة ، وكلمات جديدة ذات جاذبية عاطفية مع السماح لنفس الممارسات القديمة ، والمؤسسات ، أن تستمر كما كانت عليه من قبل... فالخدعة هي استبدال صورة غير مقبولة ، رغم أن المادة تظل كما هي.

وبالتالي ، يجب على الشموليين الاستبداديين أن يبنوا لغة كراهية من أجل إثارة المشاعر الجماعية.

وقد جربنا جميعا ، كيف أن كلمة "السلام" لا تعني السلام. بل وأكثر من ذلك ، فقد أصبحت أداة دعائية لإرضاء الجماهير وإخفاء العدوان.

وهكذا ، فإن الفكر الواقعي في الفكر الاستبدادي ، والإيقاع الرسمي للديماغوجيين ، يعمل على إزعاج ، وخنق عقول المواطنين الحرة.

ويمكننا أن نقول في هذا السياق ، بأن "تصريف الكلام verbocracy" يحولهم إلى ما يسميه علم النفس اللاإرادي إلى آلة دعائية حيث يصبح الناس فيها قادرون على التقليد فقط ، ولكنهم غير قادرين على الإحساس الفضولي بالموضوعية ، وبالمنظور الذي يؤدي إلى التشكيك والفهم ، وإلى تشكيل الأفكار الفردية والمثل العليا. وبعبارة أخرى ، فإن الفرد سيصبح كالببغاء ، يكرر شعارات جاهزة ، وكلمات دعائية ، ودون فهم ما تعنيه حقا ، أو ما الذي تريد من وراءه تلك القوى المهيمنة.

كما أن هذه الببغاء ، قد تعطي المواطن الذي يعيش في ظل النظام "التوتاليتاري" (الاستبدادي) بعض المتعة العاطفية الطفولية ، ولكن.

كما أن الشعارات الحماسية ، والهتافات ، وكلمات التبجيل الإيقاعية مثل "يعيش الزعيم" و"يحيا القائد" توفر له نفس النوع من متعة أناشيد الأطفال الذين يتمتعون بالصوت من خلال الهذيان ، والصراخ.

وهكذا ، فإن إساءة استخدام الكلمة ، وتكريس الدعاية ، يكون أكثر وضوحا لدى النظام"التوتاليتاري"(الاستبدادي) من أي جزء آخر من العالم.

ولكن هذا الشر موجود في كل مكان. ويمكننا العثور على الكثير من الأمثلة في المحادثات الفعلية. وحيث يستعمل العديد من المتحدثين ، الكلام الشفهي ، لتغطية الفراغ الفكري ، ولإثارة المشاعر ، ولإبداء الإعجاب ، بل وحتى التقديس ، لما هو فارغ جوهرياً ، وعديم القيمة.

ولذلك ، فإن أولئك المتفوّهين المزيفين يبرزون ليصبحوا هم المثل الأعلى في عصرنا. كما ويتم تكثيف الضباب الدلالي في ظل النظام "التوتاليتاري" (الاستبدادي) من خلال تنظيم المعلومات. وحين أن مواطني بلدنا الأسطوري لا يستطيعون حتى الوصول إلى مصادر الحقائق والآراء. فهم ليسوا أحراراً في التحقق مما يسمعون أو يقرؤون.

إنهم ضحايا"عسكرة" قائدهم—حيث يتم تحديد الأحكام من خلال العلامات الرسمية لكل شيء ، ويحمّل الجميع ذلك.

إفساد المعنى

إن الرغبة في إضفاء قدر كبير من المعنى على تسمية كائن أو مؤسسة ، والنظر فقط في قيمتها الجوهرية ، و بشكل غير عادي ، هي سمة مميزة في عصرنا ، ويبدو أنها تتزايد.

وقد أُطلق على هذا الشرط اسم"إفساد المعنى labelomania" وبأنه الاحترام المبالغ فيه لاسم السبر العلمي—الملصق ، المدرسة ، الدبلومات ، الدرجة العلمية—ولكن مع تجاهل مفاجئ للقيمة الأساسية.

كما أننا نرى الناس ، وفي كل شيء يخصنا في المجتمع ، وهم يطاردون بعد

الصيغ الثابتة ، والأئتمانات ، والعلامات ، والرتب ، والملصقات ، لأنهم يعتقدون بأنه إذا كان للمرء أن يكون له مكانة ، فعليه الاعتراف بأن هذه العلامات المميزة ، ستكون ضرورية.

وهكذا ، ومن أجل الحصول على القبول ، يكون الناس مستعدين للخضوع لتدريبات معينة ، وتهيئة غير عملية ، وغير معقدة-ناهيك عن النفقات-في المدارس ، والمؤسسات الخاصة التي تروج لبعض العلامات والدبلومات والواجهات المتطورة. فمنذ وقت ليس ببعيد ، عمل زميل ، وطبيب نفساني في عيادة استخدم فيها مصطلحات مختلفة ، والذي انتقد أفكار معلميه السابقين ، وقد تم التعبير عن تلك المصطلحات بعبارات مختلفة ، وغير تلك الخاصة بالعيادة ، والتي تم انتقادها.

كان زميلي معالجاً عملياً جيداً ؛ ومع ذلك ، فقد أصبح بدوره ، بحاجة إلى العلاج النفسي ، وذلك لمواجهة التشويش التام الناتج عن الاتصالات اليومية مع الأتباع العدائيين لمصطلحات مختلفة ، وتماماً كما أفرج عن بعض جنودنا من معسكرات الاعتقال الكورية.

هناك شيء غير مرغوب فيه بشكل أساسي في الحاجة إلى التعبير عن جميع الآراء والتقييمات في العبارات المبتذلة والملصقات المقبولة. وهو إنه ينطوي على تخفيض قيمة العمل أو الفكرة المعنية ، وينكر الاختلافات البشرية الدقيقة بين الناس والظواهر التي تصفها كلماتهم.

كما أنه في نظام"التوتاليتاريا"(الاستبدادي) يعاني الإنسان من القلق الشديد ، خوفاً من أي انحراف عن الآراء المحددة ، وطرق التفكير التي تسمح لهم فقط بالتعبير عن أنفسهم وفقاً للشروط التي ينص عليها "دكتاتورياتهم".

وبالتالي فإنه بالنسبة للمواطن في نظام"التوتاليتاريا"(الاستبدادي) تصبح التسمية المعترف بها ، أكثر أهمية من التغيير الأبدي ، والذي يعني الحياة.

كما أنه ، وعندما تفقد الكلمات وظيفتها التواصلية ، فإنها تكتسب المزيد

والمزيد من الوظائف المخيفة والتنظيمية والتكييفية.

ولذلك ، يجب تصديق الكلمات الرسمية ، ويجب إطاعتها. في حين يصبح الخلاف ، والاختلاف ، رفاهية جسدية وعاطفية ، وعلى حد سواء.

كما أن التضحية والقوة التي تكمن وراءها ، تصبح هي المنطق الوحيد المسموح به. في حين يتم تشويه وقمع الحقائق المخالفة للخط الرسمي ؛ وحيث أن أي شكل من أشكال التسوية العقلية تصبح خيانة محض.

وفي المقابل ، فإنه لا وجود في نظام "التوتاليتاريا"(الاستبدادي) بحث عن الحقيقة ، ولكن فقط ، ذلك القبول القسري للعقائد الشمولية الاستبدادية ، وذات الكليشيهات الجاهزة ، والمُعدّة مسبقا.

أما الأمر الأكثر إثارة للرعب ن فهو أنه ، وبالتوازي مع الزيادة في وسائل الاتصال لدينا ، فقد انخفض فهمنا المتبادل. واستحوذ ارتباك ، أقرب إلى الجعجعة ، على العقول السياسية ، وغير السياسية ، نتيجة للاضطراب اللفظي ، والضوضاء اللفظية على حد سواء.

جريمة "الردّة" في نظام "التوتاليتاريا" الاستبدادي

يجعل النظام"التوتاليتاري" الاستبدادي من الانسان المفكر ، مجرما ، وذلك لأنه ، في بلدنا الأسطوري ، يمكن معاقبة المواطن بقدر ما يتعلق بالتفكير الخاطئ ، وكما هو الحال بالنسبة للخطأ. ولأن أعين الشرطة السرية في كل مكان ، فإن منتقد النظام ، يكون عرضة للكثير من أساليب التآمر إذا أراد أن يكون لديه محادثة آمنة ، مع من يريد ، ولأن الثقة شبه مفقودة. كما أن ما كنا نسميه"الفتة النازية" كان بحثاً دقيقاً قبل البدء في التحدث إلى صديق.

وبالتالي ، يمكن أن يكون"المجرم" في النظام"التوتاليتاري" الاستبدادي ، كبش فداء عرضي ، ويستخدم للإفراج عن العداء الرسمي ، وغالبا ما تكون هناك حاجة لكبش فداء.

ومن يوم إلى آخر ، يمكن أن يصبح المواطن بطلاً ، أو شريراً ، وذلك حسب

احتياجات الحزب الاستراتيجية. كما أن كل المثل العليا الناضجة للبشرية ، تقريبأن تعتبر جرائم في النظام "التوتاليتاري" الاستبدادي ، وحيث تعتبر الحرية ، والاستقلال ، والتوفيق ، والموضوعية كلها خيانة صريحة للنظام.

ولكن ثمة جريمة أخرى وجديدة في النظام"التوتاليتاري" الاستبدادي ، وهي جريمة"المرتد" والتي يمكن وصفها بأنها الرفض العنيد للاعتراف بالذنب المنسوب.

ومن ناحية أخرى ، فإنه يُنظر إلى"البطل" المرتد في النظام"التوتاليتاري" الاستبدادي هو ذلك الخاطئ التائب ، والخائن الذي خان ثدي أمه ، والخائن المتخلي ، والمجرم الذي يدين نفسه ، والمخبر ، وحمام البراز. أما المواطن العادي ، والملتزم بالقانون في النظام"التوتاليتاري" الاستبدادي ، فهو أبعد ما يكون عن كونه بطلا ، ولكن على الرغم من احتمال أن يكون مذنبا بالمئات من الجرائم الأخرى.

فهو مجرم إذا كان عنيداً ، ومدافعا شرسا عن وجهة نظره الخاصة. وهو مجرم إذا رفض الانخراط. وهو مجرم إذا لم يشارك بصوت عال ، وبقوة في جميع الأفعال الرسمية ؛ فالاحتياطي ، والصامت ، والذي يمارس الانسحاب الأيديولوجي ، هو خائن. وهو مجرم إذا لم يكن سعيداً ، لأنه مذنب فيما سماه النازيون العصيان الفيزيولوجي. كما يمكن أن يكون مجرما عن طريق الارتباط أو الانفصال ، وعن طريق كونه كبش الفداء أو عن طريق الإسقاط ، عن طريق النية ، أو عن طريق الترقب. وهو مجرم إذا رفض أن يصبح مخبرا. كما ويمكن محاكمته وإدانته من قبل كل ما يمكن تصوره ، أي إذا أدين بذنب اتباعه"النظام العالمي الجديد cosmopolitanism" والإقليمية. أو الانحراف عن الآلية ؛ أي نحو الإمبريالية والقومية. أو السلمية ، والعسكرية. والموضوعية ، والنضالية ؛ "الشوفينية" والتكافلية العملية والمثالية.

وهو مذنب في كل مرة بذنب ملفق جديد.

وهكذا ، فإن المرور الآمن و الوحيد لسلوك المواطن في النظام"التوتاليتاري" الاستبدادي يكمن في التنازل الكامل عن سلامته العقلية.

الفصل الثامن

المحاكمة قبل المحاكمة

بالنسبة لمحكمة التحقيق الخاصة في البحرية الأمريكية في واشنطن ، والتي كان عليها الحكم على إحدى حالات غسيل الدماغ ، سئلت ، كشاهد خبير ، إذا كان بإمكاني شرح لماذا خضع ، بعض الضباط الأمريكيين ، وبسهولة إلى الضغط النفسي الذي مارسه العدو عليهم.

كان ذلك في الأيام التي كانت فيها تحقيقات الكونغرس في بلادنا تجري على قدم وساق.

ولكن ، وبكل صدق ، كان عليّ أن أجيب بأن الاقتراحات الإكراهية في بعض الأحيان ، والتي تستند إليها مثل هذه التحقيقات ، يمكن أن تمارس ضغطاً مطابقاً على العقول الحساسة. فالناس مكيفة بالعديد من العمليات النفسية ، في مناخنا السياسي اليومي.

وعلى الرغم من أننا قد تم تحذيرنا مسبقا ، مما قد تفعله التقنيات الشمولية الاستبدادية في العقل ، فهناك ما يدعو للقلق من احتمال تعطيل القيم الناجمة عن بعض مشاكلنا. لقد نجح الديكتاتور الاستبدادي في تحويل جهاز"العدالة" إلى أداة تهديد وهيمنة.

فعندما كان الشعور بالعدالة المتوازنة ، يُعترف به في يوم من الأيام ، باعتباره أنبل المثل ، والذي يحمل أسمى المبادئ المثالية للإنسان المتحضر ، فإن هذا المثل الأعلى قد سخر منه الآن المتشائمون- مثل "هتلر" و"غوبلزGoebbels"- ووصفوا العاطفة الاصطناعية بأنها مفيدة فقط ، لإقناع الناس أو إرضائهم.

وهكذا ، فإنه في أيدي المحققين والقضاة الاستبداديين ، أصبحت العدالة مهزلة ، وقطعة من الدعاية لتهدئة ضمير الشعب.

وحيث يساء استخدام السلطة الاستقصائية-لإثارة التحيزات والعداوات بين هؤلاء المتفرجين الذين أصبحوا مرتبكين للغاية- للتمييز بين الصواب والخطأ.

لقد علمتنا الدكتاتورية أيضا ، بأنه يمكن استخدام المحاكم والقضاء ، كأدوات للتحكم في الفكر. ولهذا السبب علينا أن ندرس كيف يمكن استخدام مؤسساتنا ، عن قصد أو عن غير قصد ، أو بخلل ، لتشويه مفاهيمنا عن الحرية الديمقراطية.

سقوط العدالة

بالنسبة لعلم النفس ، ربما كان الجانب الأكثر إثارة للاهتمام في محاكمات التطهير في موسكو بين عامي ١٩٣٦ و١٩٣٨ هو الإحساس العميق بالصدمة الأخلاقية التي يشعر بها الناس في جميع أنحاء العالم ، وذلك حين اهتزت ثقتهم في العملية القضائية إلى أسسها بسبب هذه الانحرافات من العدالة.

غالباً ما كانت المناقشات حول المحاكمات ، قلقة بشأن مسألة ذنب المتهم ، أو براءته ، وذلك أكثر من السؤال عن سخرية العدالة المرعبة التي قدمتها المحاكمات.

ففي مكان عميق ما في روح الانسان ، تكمن القناعة الراسخة بأن القاضي ، بحكم تعريفه ، رجل مستقيم ومحايد ، وأن الطريق إلى الحاكم هو الطريق إلى الحقيقة المنشودة ، وأن القانون يقف فوق الفساد ، والتدهور ، والانحراف. بالطبع ، نحن ندرك بأن القضاة هم بشر مثلنا ، ومن أنهم يمكن أن يخطئوا ، كما يفعل البقية منا ، ونحن مستعدون لقبول الظلم المؤقت ، لأننا نعتقد بأنه سيكون هناك تبرئة في نهاية المطاف وأن سيادة القانون والعدالة ستبقى منتصرة.

وفي اللحظة التي تصبح فيها العملية القضائية مهزلة ، ومجرد عرض لتخويف الناس ، يتأثر شيء في نفس الإنسان وبشكل عميق.

فعندما لم تعد العدالة عمياء ، ولكنها أصبحت تنظر إلى اقتناص الفرص

الرئيسية ، أصبحنا خائفين ومنزعجين ، بل وقلقين. فإلى يمكن للإنسان أن يلتجىء إذا لم يجد العدالة في المحاكم؟

خلال فترة العلاج النفسي ، تم استدعاء أحد مرضاي إلى هيئة المحلفين. وقد أزعجته التجربة بعمق ، إذ يبدو أن المدعي العام في هذه القضية ميالا ، و أكثر اهتماما بانتزاع الإدانة أكثر منه في معرفة الحقيقة.

وعلى الرغم من أن كلمة هيئة المحلفين كانت الكلمة الأخيرة ، وأدانت ، من خلال حكمها ، استراتيجية المدعي العام ، إلا أن محلفنا كان مستاءً للغاية.

وقد سألني:

"ماذا يحدث" في حالات أخرى؟.

لنفترض أن المحلفين لا يمكن أن يروا الحقيقة من خلال سفسطة مرافعة المحامي؟.

ولنفترض أنهم أخذوا بما يقول من خلال اقتراحه المستمر وإصراره؟

وهكذا ، فإنه في الواقع ، يمكن استخدام أية محاكمة كانت ، كسلاح للترهيب ؛ إذ يمكنها ، وبطريقة خفية ، تخويف المحلفين ، والشهود ، بل والجمهور بأكمله.

وفي النظام "التوتاليتاري"(الاستبدادي) توجد بعض المحاكم العليا ، وفقط للقيام بهذه المهمة في الترهيب ؛ حيث يتمحور هدف وجودها برمته من أجل الإثبات لمواطنيهم ، وللعالم ككل ، بأن هناك قوة عقابية وتهديدية

تتحكم ، بل وتسيطر على الحكومة ، وأن هذه القوة يمكن أن تستخدم السلطة القضائية لأغراضها الخاصة.

وهكذا ، فقد يصبح التحقيق الرسمي والموضوعي ، سلاحاً للسيطرة السياسية ببساطة ، وذلك من خلال الاقتراحات والادعاءات التي تصاحبه حتماً.

كما إن الشخص الذي يخضع للتحقيق ، يكاد يكون موصوما أوتوماتيكيأن ومتهما بشكل مسبق ، بل ويمكن أن تُلقى عليه التهم جزافا ، وفقط لأن شكوكنا

تدفعه إليه. وحقيقة أنه يخضع للتمحيص ، ستجعله موضع شك.

وهكذا ، فإن ما يسمى "بالسلطة الديمقراطية للتحقيق" قد تصبح هي السلطة على التدمير.

لذا ، يتوجب علينا الحذر من هذا الخطر!.

كما أن طريقة الموافقة ، أو رفض للاستجواب ، قد تغير تفكير الإنسان برمته حول الحقائق.

وبالتالي ، فإن أي إجراء قضائي ، سواء كان قانونياً أو تحقيقياً ، والذي يتلقى الدعاية المطلوبة ، وعلى نطاق واسع ، يمارس بعض الضغوط النفسية على عامة الجمهور. وليس فقط المشاركين في العمل ، والذين قد يكون لديهم مصلحة في النتيجة النهائية ، فقد يصبح المواطنون ككل ، مشاركين في ذلك ، ولو عاطفيا ، في تلك الإجراءات.

كما ويمكن أن يكون أي تحقيق رسمي ، إما مجرد إظهار للسلطة ، أو فعل من الحقيقة.

وحيث يمكن للسلطة أن تبرز ، من قبل حكومة استبدادية ، أو من قبل قاض ديماغوجي عديم الضمير ، وحيث يمكن أن يكون لها عواقب مخيفة.

وهكذا ، تعتبر قضية إعدام "الرايخستاغ" الألماني ، ومحاكمات التطهير في "موسكو" وإجراءات المحكمة ضد أسرى الحرب في الصين ، أمثلة رئيسية للعمل "القانوني" الذي ساعد على ترسيخ السلطة السياسية لرجال ، وقضاة عديم الرحمة ، والذين كانوا يخلطون التهم والأحكام بين مواطنيهم الذين لا حول لهم ولا قوة.

وبالإضافة الى ذلك ، فقد كانت هناك ثمة نوايا إضافية شكلت صدمة للرأي العام في العالم.

فإذا نظرنا إلى التحقيق القانوني من وجهة نظر كل مشارك من المشاركين ، فسوف نرى ، وبوضوح أكبر ، تلك المخاطر التي يجب علينا الحذر منها.

الديماغوجي كمدّعي عام، ومنوّم مغناطيسي

تشير الأحداث الأخيرة في بلدنا ، وبوضوح ، إلى أن الطرق المستخدمة لإرضاء السعي إلى القوة ، والتعطش إلى السلطة ، تظهر نمطاً عالمياً. فالأقنعة السحرية القديمة المستخدمة لإخافة الناس ، قد يكون تم استبدالها بإظهار قوة جسدية مفرطة من قبل "بطل" على شكل مصطنع ، وكموضوع للإعجاب والتعرف على العقول الطفولية ، و لكن الأصوات الصاخبة للدعاية لا تزال معنا ، تضخمت ألف من قبل الإذاعة والتلفزيون ، ويعملون على تخويف وتنويم إلى مغامراتنا الأقل انتباهاً ايضا.

وبناء على ذلك ، فإن أي جمهور كان ، وفي جميع أنحاء العالم ، والذي يشاهد ويصغي إلى ذلك الغوغائي الذي يلعب جميع أدواره المختلفة ، أي المتهم الصالح ، والضحية الشهيدة ، وصوت الضمير ، فسيتم إلقائه مؤقتاً في حالة من الخمول المليء بالحيوية ، ومن خلال الغفلة المنهكة ، ومن خلال التكرار الرتيب. والتهديدات والاتهامات والكليشيهات الجاهزة.

ولذلك فإن "الديماغوجي" مثل "الديكتاتور" الاستبدادي ، يعرف جيدا كيف يضع موجة ذهنية على عقول الناس ، وكيف يخلق نوعا من الاقتراح الإيحائي الجماعي ، والتنويم المغناطيسي الجماعي.

لذا ، لا يوجد فرق جوهري بين التنويم المغناطيسي الفردي ، وبين الجماعي.

ففي التنويم المغناطيسي -وهو الشكل الأكثر حدة من الايحاء-يصبح الفرد ، آلياً بشكل مؤقت ، سواء كان ذلك جسدياًن أو ذهنياً.

وهكذا ، ففي مثل هذه الحالة السريرية للإخضاع العقلي التام ، يمكن أن تحدث ، وبسهولة تامة عند الأطفال والأشخاص البدائيين ، ولكن يمكن أن تنشأ أيضا في البالغين المتحضرين أيضاً. وحيث يمكن خفض بعض مستوى العقل ، وهذا ما حدث بالضبط مع الأسرى الأمريكيين في معسكرات السجون الكورية ، حيث تم تحقيق هذا الشرط بالضبط.

كما أنه ، وكلما شعر الفرد بنفسه ليكون جزءاً من المجموعة ، كلما كان من السهل أن يصبح ضحية اقتراح إيحائي جماعي. وهذا هو السبب في أن المجتمعات البدائية ، والتي لديها درجة عالية من التكامل الاجتماعي ، وتحديد الهوية ، تصبح حساسة للغاية حيال تلك الاقتراحات الإيحائية. وكما يمكن للسحر ، والسحرة ، في كثير من الأحيان ، الاحتفاظ بولاء قبيلة كاملة ، في ظل تعويذاتهم.

وهكذا ، فمن السهل إخضاع معظم الحشود للتأثير والتنويم ، لأن الشوق ، والعاطفة ، والتوق الشائع ، يزيد من قابلية كل فرد في المجموعة.

كما أن كل شخص لديه ميل للتمييز مع بقية المجموعة ، ومع القائد كذلك ، وهذا يجعل من السهل على القائد ، أن يضع الناس في قبضته.

وكما ذكر الدكتاتور "هتلر" في كتاب "كفاحي" يمكن للزعيم الاعتماد على زيادة خضوع الجماهير بين يديه.

فالرعب المفاجئ ، والخوف ، والإرهاب هي الأساليب القديمة المستخدمة للحث على التنويم المغناطيسي ، والتي ما زالت تُستخدم من قبل الديكتاتوريين ، والديماغوجيين.

كما أن التهديدات ، والاتهامات غير المتوقعة ، وحتى الخطب الطويلة ، والملل ، قد تطغى على العقل ، بل وتنقله إلى حالة منومة.

وبالإضافة إلى ذلك ، فثمة تقنية أخرى ، وسهلة ، وهي العمل باستخدام كلمات موحية بشكل خاص ، والتي يكررها الدكتاتور والديماغوجي بشكل رتيب ، والتي تثير الشفقة على الذات! وعلى الأخص حين يخبر الناس بأنهم تعرضوا "للخيانة" وأن قادتهم قد هجروهم.

ولكن يتوجب على الديماغوجيا المتبعة من قبل الدكتاتوريين ، ومن وقت لآخر ، أن تضيف بعض النكات.

فالناس يحبون الضحك. كما أنهم يحبون أن يشعروا بالرعب ، والرهبة بشكل

خاص ، ولأن ذلك سيزيد من انجذابهم على حد سواء. كأن يقص عليهم بعض الحكايات الدموية ذات المغزى الذي يصب في مصلحته ، والسماح لهم أن يتجمعوا معا في مشاعر من التوتر المثير.

كما أنه من المحتمل أن تلك الجماهير قد تطور حالة من الرهبة هائلة ، حول ذلك القائد الذي يخيفهم ، ولذلك ، فسوف يكونون مستعدين لمنحه الفرصة كيما يُخرجهم من رعبهم العاطفي. وفي التوق إلى التحرر من الخوف ، فقد يكونون مستعدين للتنازل تماماً عن أي شيء آخر.

لقد عززت الإذاعة والتلفزيون من قوة التنويم المغناطيسي للأصوات والصور والكلمات.

وفي هذا السياق ، يتذكر معظم الأميركيين ، وبوضوح ، ذلك اليوم المخيف من عام١٩٣٨ عندما بث "أورسون ويلز Orson Welles" فيلم الغزو من المريخ ، حيث أرسل مئات الأشخاص بحثا عن ملجأ ، وهم يركضون من هاربين من منازلهم مثل الحيوانات المذعورة ، والتي تحاول الهروب من حريق نشب في الغابة.

ولذلك ، يُعد بث ذلك الفيلم واحداً من أوضح الأمثلة على قوة التنويم الهائل ، والضخمة ، لمختلف وسائل الاتصال الجماهيري ، والتأثير الهائل الذي يمكن أن يكون له هراء إذاعي موثوق به على الأشخاص الأذكياء والعاديين على حد سواء.

كما أنه ليس فقط تلك القوة موحية من هذه وسائل الإعلام هي التي تعطي ذلك التأثير التنويم المغناطيسي. فقد أصبح لدينا وسائل الاتصال التقنية الكافية ، والتي تجعل من الناس كتلة واحدة ضخمة المشاركة.

وحتى عندما أكون وحدي مع الراديو الخاص بي ، فلا شك بأنني أكون متحدا ، ولو تقنياً ، مع الكتلة الضخمة من المستمعين الآخرين. وأراهم في ذهني ، وأنا دون وعي ، وحيث يمكنني التعرف عليهم دون وعي كذلك ، لأنني وطالما أنني أستمع ، فأنا واحد منهم ، ومعهم.

ولكن ومع ذلك ، فليس لدي اتصال مباشر عاطفي معهم. ويرجع هذا ، جزئياً ، إلى أن الإذاعة والتلفزيون يميلان إلى إزالة العلاقات العاطفية النشطة بين الناس ، وتدمير القدرة على التفكير والتقييم العام ، والتقييم الشخصي كذلك. ولذلك ، فإن تلك الوسائل الاعلامية ، ومن يقوم عليها ، ويديرها ، يمسكون بتلابيب الذهن مباشرة ، ولا يمنحون أذهان الناس أي وقت للتهدئة ، أو الحوار الجدلي مع عقولهم ، أو مع أصدقائهم ، أو مع كتبهم.

كما لا تسمح تلك الأصوات الصادرة عبر الأثير ، تلك التبادلية التي تثير الحريّة في الحوار الحر ، والمناقشة الحرة ، وبالتالي تحرض على القبول أكثر سلبية ، وكما هو الحال في التنويم المغناطيسي.

وهكذا ، يمكن اعتبار العديد من الناس ، في حالة من التنويم المغناطيسي ، ولكن الحريصين على احلام اليقظة ، والبقاء في تلك الحالة المنوّمة طوال حياتهم.

ولذلك ، فإن هؤلاء الناس ، يقعون ، وبسهولة ، فريسة للاقتراح الإيحائي الجماعي.

كما أنه قد يكون للخطب المطولة ، أو الخطب المثيرة ، عدة أهداف ، سواء كانت ظاهرة أو خفية ، وذلك لأنها إما ستعمل على إضعاف المستمعين ، وتجعلهم أكثر نضجاً للتعبير الجماعي ، أو أنها ستجعلهم أكثر استياءً وتمرداً.

فالخطابات الطويلة ، هي عنصر أساسي من عناصر التلقين الاستبدادي ، وذلك لأن الملل من التكرار ، سوف يخترق دفاعاتنا العقلية في النهاية.

ولذلك ، فقد استخدم"هتلر" هذه التقنية من التنويم المغناطيسي الجماعي ، من خلال الرتابة ، وحولها إلى ميزة هائلة. والتذ لا تزال تحدث حول العالم ، وستبقى كذلك إلى ما لا نهاية ، ولذلك فقد كان يشمل الإحصاءات الطويلة والمملة للغاية في خطاباته.

كما أن التكرار الملحّ لعبارات التخويف اللفظي المستمر للجمهور ، هو أداة معترف بها للاستراتيجية الاستبدادية. ولذلك ، يستخدم الزعيم الديماغوجي هذا

الأسلوب الإيحائي أيضاً ، بالإضافة إلى المناورة الأكثر تعقيداً لمهاجمة المعارضين ، والذين يُعتبرون عادةً ، خارج الشكوك.

كما أنه غالباً ما تقترن هذه المناورة بتجدد النداء إلى الشفقة على الذات.

كان "هتلر" يستخدم شعار(أربعة عشر عاما من الخزي والعار) هو الشعار الذي استخدمه في تشويه الفترة الخلاقة جدا ، بين الهدنة المبرمة في عام١٩١٨ إلى السنة التي استولى فيها على مقاليد السلطة.

كما كان شعار(عشرون عاما من الخيانة) هو الشعار المستخدم في بلادنا ، ومنذ فترة ليست بالبعيدة ، والذي يبدو وكأنه شعار مشبوه ، وبشكل مثير للريبة ، وهو أمر مألوف لدى أي شخص يشاهد صعود وهبوط الدكتاتور"هتلر".

كما أن أسطورة الغدر ، و"الطعن في الظهر" تقلل من مستوى كل من يأخذ بها ، إلى مستوى الطفولة المشبوهة.

ولذلك ، فإن هذا الخطابة الالتهابية ستؤدي ، في نهاية المطاف ، إلى إثارة ردود فوضوية ، بل وعدوانية لدى الآخرين.

لا يهتم الديماغوجي بالهجمات اللفظية المؤقتة على نفسه ، وحتى أن القذف الفظي ، يمكن أن يسعده ، لأن هذه الهجمات تمنعه من الظهور في عناوين الأخبار ، وفي نظر الجمهور ، وربما تساعد على زيادة مخاوف الناس منه.

ولذلك ، فمن الأفضل أن تكون مكروها ، و مخيفا ، من أن تكون منسيا!.

وبالتالي ، يظهر الديماغوجي من خلال المناقشات المطولة ، والمربكة لسلوكه.

كما أنه يعمل على شل عقول الناس ، وإخفاء القضايا الحقيقية ، وراء رتبته الحمراء تماماً. ولكن إذا استمر هذا الأمر لمدة طويلة ، وبما فيه الكفاية ، فإن الناس سيسأمون ، ومن ثم سيستسلمون ، ويرغبون في الذهاب إلى النوم ، وهم على استعداد لترك "البطل" الكبير.

وفي الواقع ، فإن النازية والفاشية قد راهنتا على الخوف من الشيوعية كوسيلة للاستيلاء على السلطة لأنفسهما.

ما شهدناه مؤخراً في هذا البلد ، غير المخطط له رغم أنه بلا شك ، يشبه بشكل مخيف المرحلة الأولى من الهجوم الاستبدادي المتعمد على العقل بواسطة الشعارات والشكوك. يثير الضجيج العنيف والصاخب ردود فعل عاطفية عنيفة ويدمر السيطرة العقلية. عندما يبدأ الغوغاء بالتشدق والهذيان ، يميل تفكيره إلى أن يفسر من قبل الجمهور العام كدليل على إخلاصه وتفانيه. ولكن في معظم الحالات ، تعتبر مثل هذه الإعلانات دليلاً على العكس تماماً ، وهي مجرد جزء من استراتيجية البحث عن السلطة التي يقوم بها الديماغوجيون.

هناك "وثيقة حول الإرهاب" شمولية تناقش بالتفصيل استخدام موجات متعاقبة من الإرهاب جيدة التخطيط والمتكررة لجلب الناس إلى الخضوع. إن كل موجة من ترويع الحرب الباردة تخلق تأثيرها بسهولة أكبر -بعد موجة تنفس- من تلك التي سبقتها ، لأن الناس ما زالوا قلقين من تجربتهم السابقة. تصبح المعنويات أقل وأقل ، ويصبح التأثير النفسي لكل حملة دعاية جديدة أقوى ؛ تصل إلى الجمهور خففت بالفعل. يصبح كل المنشق خائفا أكثر وأكثر بحيث يمكن اكتشافه. لم يعد الناس تدريجيا على استعداد للمشاركة في أي نوع من النقاش السياسي أو للتعبير عن أرائهم. في الداخل ، استسلموا بالفعل للقوى الدكتاتورية المرعبة.

يجب أن نتعلم كيف نتعامل مع الديماغوجيا والدكتاتور المرتقب في وسطنا كما يجب أن نعامل أعدائنا الخارجيين في حرب باردة - مع سلاح السخرية. الغوغائي نفسه غير قادر تقريبا على الفكاهة من أي نوع ، وإذا عاملناه بروح الدعابة ، سيبدأ في الانهيار. بعد كل شيء ، ترتبط الفكاهة بإحساس من المنظور. إذا استطعنا أن نرى كيف ينبغي أن تكون الأمور ، يمكننا أن نرى كيف يمكنهم الحصول عليها ، ويمكننا التعرف على التشويه عندما نواجهها. ضعوا عبارات الديماغوجيا في المنظور ، وسترى كيف أنهم مشوهون تماماً. كيف يمكن لنا أن نأخذها على محمل الجد أو الإجابة عنها بجدية؟ لدينا عمل مهم للحضور إلى

- أمور الحياة والموت سواء لأنفسنا كأفراد أو لأمتنا ككل. يعتمد الديماغوجي على فعاليته على حقيقة أن الناس سوف يأخذون بجدية الاتهامات الرائعة التي يقدمها. سوف يناقش القضايا الزائفة التي يثيرها كما لو كان لها واقع ، أو سيتم رميها في حالة من الذعر من خلال اتهاماته واتهاماته بأنهم سوف يتخلى ببساطة عن حقهم في التفكير والتحقق من أنفسهم.

والحقيقة هي أن الديماغوجية ليست جذابة لما هو عقلاني وناضج في الإنسان. بل تكون جذابة لما هو غير عقلاني وغير ناضج.

كما أنها ، وفي محاولة الرد على شبح المنطق فهي سرعان ما ستحاول بذل المستحيل لتحقيق أهدافها. وهكذا ، فقد نقبل بادئ ذي بدء ، بذلك ، ونقبل مقارعة المعارك ، ولأننا سنجد أنفسنا محاصرين في الحجج حول المصطلحات التي اختارتها الديماغوجية. وبالتالي فإنه من السهل دائماً ، هزيمة العدو على أرضك ، وعن طريق اختيار الشروط الخاصة بك.

وبالإضافة إلى ذلك ، فإما أن يكون الغوغائي ، أو يتظاهر ، بأنه غير قادر على مجاراة نوع المنطق الذي يجعل المناقشة والتوضيح ممكنا. فهو سيد في تغيير الموضوع. أو الاستعداد للأمر لأسوأ وهو أن ننخرط في حجج لا نهاية لها ، ولا طائل من ورائها ، وستكون النتيجة حتمية مع أشخاص أقل اهتماماً بالحقيقة ، والخير الاجتماعي ، والمشاكل الحقيقية ، وأكثر من اهتمامهم من أي شيء آخر. إنهم ديماغوجيون ، والأنانية والمصلحة الخاصة هما محور الحياة بالنسبة لهم.

أما في دفاعهم ضد الهجمات النفسية على حريتهم ، فيحتاج الناس إلى الفكاهة ، والحس السليم أولا. كما إن الموافقة المتسقة ، أو القبول الصامت لأي استراتيجية تحفز على الإرهاب ، لن يؤدي إلا إلى سقوط نظامنا الديمقراطي ككل.

وبالتالي ، فلا شك في أن الارتباك يقوض الثقة. وفي بلد مثل بلدنا ، حيث يعود الأمر إلى جمهور الناخبين لتمييز الحقيقة ، فإن معرفة شاملة بالطرق التي استخدمها الديماغوجيون لخداع ، أو لتهدئة الجمهور ، تعتبر ضرورية للغاية.

المحاكمة بوصفها صكّ التعميد

يمكن أن تكون قابلية تكيّف الإنسان مسؤولية شديدة الوقع عليه ، وعلى حريته الديمقراطية ، في ظل احترام هام آخر.

وحتى عندما لا تكون هناك محاولة متعمدة للتلاعب بالرأي العام ، فإن المناقشة غير الخاضعة للرقابة للإجراءات القانونية ، مثل المحاكمات السياسية أو الجنائية ، في عناوين الصحف وفي الأعمدة الحزبية ، تساعد على خلق جو عاطفي جماعي. مما يجعل من الصعب على المعنيين مباشرة للحفاظ على الموضوعية التي تشتد الحاجة إليها ، وبذلك إصدار الحكم وفقا للحقائق ، بدلا من الاقتراحات ، والخبرات الذاتية.

وبالإضافة إلى ذلك ، فإن أية عملية قضائية تتلقى دعاية واسعة النطاق ، تمارس ضغطاً ذهنياً على العامة ، وبشكل عام.

وبالتالي ، لا يمكن أن يشارك المشاركون في هذه الحالة فقط ، ولكن المواطنين بالكامل ، وعاطفياً ، في الإجراءات. كما أن أية محاكمة ، يمكن أن تكون إما نتيجة عمل سلطة ما ، أو فعل من الحقيقة.

وقد يصبح الفحص الموضوعي على ما يبدو ، سلاحاً للسيطرة ، وببساطة ، من خلال عمل الاقتراحات التي تصاحبه حتماً.

ولذلك ، وكقوة عمل نافذة من قبل حكومة استبدادية ، يمكن أن تكون للمحاكمة عواقب مخيفة.

وتُعد محاكمات التطهير في موسكو وقضية إعدام "الرايخستاغ Reichstag" الألماني مثالين رئيسيين حول ذلك.

وعلى الرغم من أننا قد لا نملك ، بالطبع ، مثل هذه المخلوقات المرعبة ، والتي تقود العدالة في هذا البلد ، ولكن ميلنا لتحويل الأعمال القانونية إلى يوم ميداني للصحف ، والإذاعة ، والتلفزيون ، ووسائل الإعلام الأخرى ، يضعف من قدرتنا على الوصول إلى العدالة والحقيقة.

ولذلك ، فسيكون من الأفضل لو أننا أجّلنا مناقشة مزايا أية قضية قانونية ، إلى ما بعد صدور الحكم.

وكما رأينا بالفعل ، يمكن لأي شخص أن يتعرض للمضايقة في اعترافاته. كما وليست عملية القتل القاسية هي الطريقة الوحيدة للوصول إلى هذا الهدف. إذ يمكن أن يقترف الرجل الذنب بمجرد اتهامه ، وخاصة عندما يكون ضعيفاً للغاية ، في مواجهة تأثير الغضب الجماعي والرأي العام.

في حين أنه ، وفي ظروف الخوف غير العادي ، والتحيز ، يشعر الناس بالحاجة إلى كبش فداء ، وبشكل أقوى من الأوقات الأخرى.

وبالتالي ، يمكن خداع الناس بسهولة من خلال اتهامات زائفة تلبي حاجتهم لإلقاء اللوم على شخص ما ، وليكون ، في طبيعة الحال ، كبش الفداء.

وهكذا ، فقد ضحى ضحايا الغوغاء في بلدنا ، بالتعبير عن عاطفة الجماهير ، ومن ثم فقد أطلقت التهم على بعض الخونة ، والمتعاونين.

كما أنه في الرأي العام ، يصبح قرار المحاكمة نفسها ، حكم المذنب.

مجالس التحقيق "الكونجرس"

اسمحوا لي أولاً أن أقول بأنني أعتقد اعتقادا راسخا ، بأن حق الكونغرس في التحقيق ، واقتراح تشريع على أساس هذا التحقيق ، هو واحد من أهم ضماناتنا الديمقراطية.

ولكن ، ومثل أية مؤسسة إنسانية أخرى ، يمكن إساءة استخدام حق الكونغرس ، في التحقيق ، وإساءة استخدامه.

كما قد تصبح سلطة التحقيق ذاتها قوة تدمير-ليس فقط الرجل الذي يتعرض للهجوم ، ولكن أيضاً السلامة العقلية لأولئك الذين هم ، بطريقة أو بأخرى ، شهود على التحقيق.

وبطريقة خفية أيضا ، قد يكون للموجة الحالية من تحقيقات الكونجرس ، تأثير قسري على مواطنينا.

وحيث يكون بعض الشخصيات الدكتاتورية مهووسة بالحاجة المرضية للتحقيق ، ويتم إجراء تحقيقات الكونجرس لأجلها.

وتكون النتيجة في أن كل من لا يوافقهم الرأي ، والتصرف ، وكل ما لا ينحني ويخضع ، سيكو موضع شك ، وريبة ، وموضع اتهام ، وسيخضع لتدفق كبير من التشويه والتهميش على حد سواء.

في حين سيكون الميل الأعظم من جانب الجمهور ، هو عدم التصديق على كل ما يقوله معارضو الغوغاء ، وابتلاع العبارات التي أدلى بها أولئك الذين يستسلمون لسلطته ، أو الذين يميلون نحوها ، لأنهم يؤمنون بالأهداف التي يدعي المسؤول بأنه يدعمها.

أما من الناحية النفسية ، فمن المهم أن نفهم أن الحقيقة البسيطة المتمثلة في المقابلات ، والتحقيق لها تأثير قسري.

وبمجرد أن يخضع الشخص المتهم للاستجواب ، فقد يصاب بالشلل بسبب الإجراءات القهرية ، وسرعان ما سيجد نفسه يعترف بأفعال لم يفعلها أبداً.

كما أنه ، وفي بلد حيث الرغبة في التحقيق ينتشر ، وحيث ينتشر الشك وانعدام الأمن. فسيصاب الجميع بمشاعر القدرة الكلية للباحث.

ولذلك ، فإن التنصت على المكالمات الهاتفية ، على سبيل المثال ، سيكون بنفس القوة ؛ لأن التنصت سيفضح أسرار الآخرين.

وفي الأوساط النفسية ، يتم الآن إعطاء قدر كبير من الاهتمام لتأثير المقابلات ، واستجوابات الناس.

لذا ، يجب أن يكون القائم على المقابلة النفسية ، على دراية بالعمليات المختلفة بين الأشخاص ، والتي ينطوي عليها هذا النوع من التواصل ؛ لأنه إن لم يكن كذلك ، فلن يتمكن من معرفة أين تكمن الحقيقة.

وبدلاً من ذلك ، سيحصل على إجابات مضمنة في أسئلته ، وعلى إجابات قد لا تكون لها علاقة بالواقع الحقيقي.

كما أن هذا لا يحدث فقط في الحالات التي يظهر فيها كل من المحاور ، ولكن على الشخص الذي تجري المقابلات معه ، وعن سوء نية.

في حين يمكن أن يحدث ذلك على الرغم من نواياهم الأفضل. فلكل شخص يجلب للمقابلة مجموع عام من كل علاقاته السابقة بين الأشخاص.

وفي الأساس ، فإن"اللفظ ، والخطأ" الأولي يحدث أثناء ما يمكن أن نسميه فترة الامتصاص ، وحيث يقوم كل طرف بتعبئة نفسه ، من أجل معرفة ما يتوقعه الطرف الآخر ، وأين تكمن نقاط ضعفه ، وفي الوقت نفسه ، يحاول إخفاء نقاط ضعفه ، والتأكيد على نقاط القوة الخاصة به.

ولذلك ، يميل الإنسان في الطريق تمت مواجهته فيه فجأة ، إلى إعطاء الإجابة التي يعتقد أنه يتوقعها.

فكل محادثة ، وكل علاقة لفظية تتكرر ، على الأقل إلى حد ما ، وكل نمط من العلاقات اللفظية المبكرة بين الطفل ووالديه.

أما بالنسبة إلى رجل أو امرأة قيد التحقيق ، فقد يصبح المحقق بمثابة الوالد ، سواء أكان جيداً أم سيئاً ، موضع شك أو استسلام. ولكن ، وبما أن المحقق نفسه لا يدرك في الغالب هذه العملية اللاواعية ، فإن النتيجة يمكن أن تكون معركة مربكة لاتجاهات غير واعية ، أو شبه واعية ، حيث تكون الكلمات المنطوقة غالباً ، مجرد غطاء لمحادثة مشكوك فيها بين الطبقات الأعمق لكلا الشخصيتين.

وهكذا ، فإن جميع الأشخاص الذين يتم استجوابهم بشكل منهجي ، سواء في المحكمة ، أو أثناء التحقيق في الكونجرس ، أو حتى عند التقدم للحصول على وظيفة ما ، أو إجراء فحص طبي ، سيشعرون بأنهم مكشوفون. وبالتالي ، فإن هذه الحقيقة بحد ذاتها ، تثير مواقف ذهنية دفاعية غريبة. وقد تكون هذه المواقف مفيدة ووقائية ، ولكنها في بعض الأحيان ، قد تكون ضارة بالفرد.

فعندما يبحث شخص ما عن وظيفة ، على سبيل المثال ، قد يصبح أكثر غموضاً ، وفي حماسه إلى"ترك انطباع جيد" و"الوضع أفضل ما لديه قدماً" ،

وقد يعطي انطباعاً سيئاً ويثير الشكوك.

لأنه ليس بسبب م نقوله فقط ، بل بالطريقة التي نقول بها ، والتي تشير إلى نزاهتنا ، وتوازننا. وقد تعطينا الأصوات العصبية أو الإيماءات ، أو التوقفات ، أو لحظات الصمت أو التأتأة.

كما أن الحماسة العدوانية قد تتسبب في إغوائنا لقول ما هو أكثر من اللازم. كما ويمنعنا أمر ما من قول ما نريد بما فيه الكفاية.

ولذلك ، فإن المدعى عليه في دعوى قضائية ، أو في تحقيق دفاعي ، لن تكون فقط حول الاتهامات الموجهة إليه ، أو الأسئلة التي يجب عليه الإجابة عنها ، بل إنه أكثر دفاعية عن ذنبه اللاوعي ، وعن شكوكه حول قدراته الخاصة.

لقد أخبرني العديد من زملائي في الطب ، والطب النفسي ، والذين تم استدعاؤهم كشهود خبراء في الإجراءات القانونية ، من أنه ، وفي نفس اللحظة التي كانوا يخضعون فيها لاستجوابهم ، كانوا يشعرون بأنفسهم ، وكأنهم أمام المحاكمة ، وبل وأدينوا تقريباً.

ولذلك ، فقد كان يبدو أن استجوابهم ، في كثير من الأحيان ، كان طريقة أقل ، في الوصول إلى الحقيقة ، وأكثر من كونه شكلاً من أشكال الإكراه العاطفي ، وهو ما أضر كثيراً بكل من الحقائق والحقيقة. وهذا هو السبب في أن كل نوع من قوة التحقيق يمكن أن يتحول ، وبسهولة ، إلى قوة إكراهية.

كما إن جعل الشهود والمتهمين ، يعانون من الخوف الشديد ، من مسرح المحاكمة ، يمكن أن يكون سلاحاً شرساً للشمولية الاستبدادية.

وذلك لأن الأطباء النفسيين وأطباء علم الاجتماع ، يقدرون هذه الحقائق ، وهناك الآن اتجاه قوي في هذه الدوائر لاستخدام ما يمكن أن نسميه التقنية السلبية في إجراء المقابلات. فعندما لا تكون أسئلة المحاور موجهة نحو أية إجابة محددة ، فسيتم تشجيع الشخص الذي يجري استجوابه على الإجابة بمبادرته الخاصة ، وانطلاقاً من رغبته في التواصل.

وهنا يبرز السؤال المحير:

"ماذا فعلت بعد ذلك؟".

مما يثير ردة فعل أكثر حرية ونزاهة من السؤال.

"هل ذهبت إلى المنزل بعد ذلك؟"

الشاهد، وشهاداته الذاتية

لقد رأينا في السنوات الأخيرة مسيرة طويلة من عودة الشيوعيين الذين كانوا قد أدلوا بشهاداتهم ، وبحرية ، وبشكل علني ، حول ماضيهم.

كما أنه وفي الوقت الحالي ، لا يزال لدينا نوع آخر من الموكب: وهم أولئك المرتدون ، والمتراجعين.

ولكن كيف لنا أن نعرف الحقيقة من الباطل في كل هذا المستنقع من الشهادات المتضاربة؟.

وكيف لنا أن نمنع أنفسنا من الخلط بيننا ، وبين الشهادة المتناقضة للرجال والنساء ، والذين يمكن أن تؤثر كلماتهم على مسار تصرفات أمتنا؟.

وكيف يمكننا أن نتعلم تقييم ما يقولونه من الناحية النفسية؟.

وما مدى موثوقية شهادتهم ، سواء كانت ودية أو غير ودية؟

وهكذا ، فإنه ، وبشكل عام ، يمكننا أن نقول بأن أولئك الذين يعتبرون الأكثر تميزاً في أقوالهم ، هم عادة ، الأقل موثوقية. وذلك لأن الكثير منهم-سواء كانوا من الرجال أو النساء-كانوا قد تبنوا ، في الماضي ، أيديولوجية شمولية استبدادية انطلاقا من شعورهم العميق بانعدام الأمن الداخلي.

ولكنهم غيروا من قناعاتهم في وقت لاحق ، وحين ظهرت اللحظة التي شعروا فيها بأن أيديولوجيتهم المختارة قد أخفقتهم.

كما أنه ، وعلى الرغم من أن عقولهم كانت معتقلة ، وبلا هوادة ، ولفترة طويلة ، إلا أنهم كانوا قادرين على التخلص من الضغط الذي كان يمارسه ذلك النظام الاستبدادي بالكامل.

وهذا ما فعلوه من خلال عملية إعادة ترتيب البيت الداخلي في نفوسهم ، وتصويب الملاحظات والقناعات سواء بسواء.

بيد أنه ، ومع ذلك ، فإن ما اعترفوا بشأنه ، كان مجرد مجموعة معينة من القواعد الإيديولوجية الصارمة. ولكن معظمهم لم يهدر ، جنبا إلى جنب مع هذه القواعد ، كراهيتهم الخفية ، وانعدام الأمن في وقت مبكر.

وربما تخلوا عن الأيديولوجية السياسية التي قدمت لهم الدفاعات والمبررات ، لكنهم احتفظوا باستيائهم.

من الشائع للغاية العثور على أشخاص يسعون إلى ملاذ فوري ، في مؤسسة أخرى ، ومنظمة بشكل صارم.

ولأنهم يرون الأمور الآن في ضوء مختلف ، فإن الحقائق والمفاهيم القديمة ، ستكتسب أهمية مختلفة.

إلا أنه ومع ذلك ، وفي كل حين ، فإن الحافز الدائم إلى تبرير الذات ، والإفراج الذاتي ، والذي يعمل في جميع الأشخاص ، والذي يحفز في هذه الحالات ، الولاء السابق للشيوعية ، هو العمل الفعلي.

ولذلك ، يجب عليهم الآن إثبات عدم شعورهم بالذنب حول ما فعلوه ، وتقديم ولائهم لأفكارهم الجديدة المعتمدة. وحيث لا تزال عواطفهم—والتي ارتدت الأن زيا جديدا—موجهة نحو هدف التبرير الذاتي.

وبالتالي ، فإن النظرة الجديدة في نظر المتحول—هذا الترتيب الجديد للمطالب الداخلية وطرق إشباعها— هي نظرة منطقية وعقلانية تماماً ، مثلما كانت له مجموعة سابقة من التوقعات والرضا.

ولكنه الآن يعيد اكتشاف تجارب عديدة ، ومنذ زمن طويل.

كما أن أصدقاءه السابقون سيصبحون أعداءه. بل وسينظر كل منهم إلى الآخر على أنهم متآمرون ، سواء كانوا كذلك بالفعل أم لا.

كما أن المتحول نفسه ، لن يكون قادرا في بادئ الأمر ، على التمييز بين

الحقيقة والخيال ، وبين الحقيقة والطلب الذاتي.

وبالتالي ، فقد يحدث تشويه كامل للمفاهيم والذكريات. بل وقد يستخف بذكرياته الخاصة ، وهذه العملية هي في معظمها ، لأنه لا يدرك مكنونات نفسه بشكل حقيقي بعد. وفي هذا السياق ، فإنني أتذكر ، وبوضوح ، أحد الأمثلة حول مثل هذا السلوك خلال الحرب العالمية الثانية.

فقد أصبح النازي السابق ، عضواً شجاعاً في الحركة السرية ضد النازيين. وذلك بعد أن سعى ، وباجتهاد ، إلى تصحيح سلوكه في الماضي ، وليس فقط من خلال محاربة النازيين ، ولكن أيضا من خلال نشر جميع أنواع الشائعات المثيرة للقلق حول أصدقائه السابقين. وعن طريق جعلها تبدو أكثر قسوة ، فقد كان يعتقد بأنه يمكن أن يُظهر نفسه كما لو أنه قد كان أكثر ولاء.

وبالمثل ، فإن حالات النفي والبيانات غير الصحيحة ، والتي يمكن أن يقوم بها المتحوّل أمام المحاكم ، أو لجان الكونغرس ، لا تكون ، في كثير من الأحيان ، من الأكاذيب الواعية ، بقدر ما هي نتاج للترتيبات الداخلية الجديدة.

ولذلك ، فقد يتم طي كل اتهام حول ماضيه ، وتحويله إلى أداة جديدة لاستخدامها في عملية التبرير الذاتي.

بيد أن عددا قليلا من هؤلاء الرجال فقط ، كانت لديهم الشجاعة الأدبية للاعتراف بأنهم ارتكبوا أخطاء حقيقية في الماضي.

وذلك لاقتناعهم بأن المسافة بين الكذبة البيضاء ، والنسيان ، والقمع الانتقائيين ، غالبا ما تكون قصيرة جدا.

وقد اكتشفت هذا بنفسي ، عندما كنت مسؤولا عن التحقيقات التي جرت مع أعضاء المقاومة ، والذين كانوا معتقلين في قبضة النازيين.

وبالتالي ، فقد وجدت بأنه كان من المستحيل تقريباً ، الحصول على معلومات موضوعية عنهم ، وحول ما كشفوه للعدو بعد تعرضهم لعمليات التعذيب.

كما أنه ، وحين كانت تتم مواجهتهم عن الإبلاغ عن الخيانة القسرية ،

كانت وجوههم تتلون على الفور ، ومن ثم يبدؤون بتلفيق قصصهم عن طريق الأكاذيب البيضاء ، والتشوهات الذاتية الثانوية.

وهكذا ، فإنه واعتمادا على شعورهم بالذنب ، فقد كانوا إما أنهم يتهمون أنفسهم كثيرا ، ويضعون اللوم على ضعفهم ، وقلة قدرتهم على تحمل التعذيب ، أو لم يجدوا أي عيب في سلوكهم.

الحق في التزام الصمت

بعيدا عن عمل لجان التحقيق في الكونجرس ، فقد جاء مؤخرا هجوما قانونيا خطيرا على "الحق في التزام الصمت" وذلك عندما يتعارض تقديم المعلومات مع ضمير الشخص الموجود على المنصة. حيث يمكن أن يصبح هذا الهجوم بمثابة غزو خطير على الخصوصية البشرية. كما إن تقويض قيمة الشخصية ، والضمير الخاص ، يشكل خطراً على الحفاظ على الديمقراطية ، وكالخطر الذي يسببه العدوان الاستبدادي.

ولذلك ، علينا أن ندرك أيضا ، بأنه غالبا ما يكون من الصعب على الشهود أن يختاروا بين ازدراء الكونجرس واحتقار الصفات الإنسانية.

كما قد يكتشف المسؤولون بعض "الخونة" المزعومين بإجبارهم على خيانة أصدقائهم السابقين ، ولكن في الوقت نفسه ، فإنهم يجبرون الناس على خيانة الصداقات.

تُعتبر الصداقة واحدة من أغلى ممتلكاتنا البشرية. إذ يمكن لأية حكومة ، أو وكالة ، وتحت ستار "ازدراء الكونجرس" أن تجبر الاعترافات والمعلومات المنتزعة تحت الضغط ، على فرض خيانة الولاءات السابقة.

فهل هذا غير قابل للمقارنة مع ما يفعله الاستبداديون القسريون؟ وبأي تكلفة؟

ونتيجة لذلك ، فإننا نحصل على "شخصية مزيفة pseudopurge" والناتجة عن ضعف الشخصية ، والقلق في الضحية.

وبالإضافة إلى ذلك ، فنحن ننتهك واحدة من المبادئ الأساسية للديمقراطية – ألا وهي احترام قوة شخصية الانسان. لقد اعتقدنا دوما ، من أنه من الأفضل أن نطلق سراح عشرة أشخاص مذنبين ، من شنق شخص بريء-في معارضة مباشرة لمفهوم الاستبداد ، وبأنه من الأفضل أن يعلق عشرة رجال أبرياء ، بدلا من أن يطلق سراح رجل مذنب.

كما وقد نعاقب المذنبين بهذه الاستراتيجية ، وذلك بإجبار رجل ما على الكلام ، وعندما يحثه ضميره على الصمت ، ولكننا بالتأكيد ، فإننا نحطم كرامة الأبرياء ، بتدمير ضمائرهم.

على الرغم من أن قضاة المحكمة العليا مثل "دوغلاس Douglas" و"بلاك Black" كان لديهم رأي مخالف حول دستورية قانون الحصانة لعام [صحيفة "نيويورك تايمز The New York Times" صفحة٢٧ من عدد آذار لعام١٩٥٤] (انظر الفصل الرابع عشر)في التأكيد على الحق في التزام الصمت كحق دستوري ، من التعديل الخامس-وذلك لضمانة الضمير الشخصي ، والكرامة الشخصية وحرية التعبير كذلك.

ولكن كان ذلك على أنه خارج نطاق سلطة الكونجرس ، في إجبار أي شخص على الاعتراف بجرائمه حتى عندما يتم ضمان الحصانة.

ولذلك ، فإن حاجة الفرد إلى عدم خيانة ولاءاته السابقة- حتى عندما يكون قد ارتكب خطأ في الحكم السياسي في عصر أقل تفاهما-لا يقل أهمية عن أهمية ضرورة مساعدة الدولة في تحديد مواقع المخربين.

وفي هذا السياق ، دعونا لا ننسى أن خيانة المجتمع متجذرة في خيانة الذات ، وذلك من خلال إرغام شخص ما على خيانة مشاعره الداخلية ، ونفسه ولذلك ، فنحن في الواقع ، نجعل من السهل عليه خيانة المجتمع الأكبر ، وفي وقت ما في المستقبل.

كم انه إذا كان القانون يجبر الناس على خيانة مشاعرهم الأخلاقية الداخلية

حول الصداقة ، وحتى لو كانت هذه المشاعر مبنية على الولاء للأحداث ، فإن ذلك القانون ذاته يقوض سلامة الشخص ، حيث تتفاقم مشاعر الكراهية ، والإكراه ، ويبدأ القتل.

كما يلعب ضمير الفرد دوراً هائلاً في الاختيار بين المعارضة الموالية ، والمطابقة السلبية. ولذلك يجب على القانون أن يحمي الفرد أيضاً من انتهاك معاييره الأخلاقية الشخصية ؛ وإلا ، فإن الضمير الإنساني سيخسر في المعركة ، بين الضمير الفردي والسلطة القانونية.

وهكذا ، لا بد ، يبدأ التقييم الأخلاقي بالفرد وليس بالدولة.

عقلية الابتزاز

لقد أدى مفهوم غسل الأدمغة إلى بعض الآثار القانونية ، كما وقد أدت هذه الآثار ، بدورها ، إلى جوانب جديدة من الجريمة المتصورة. وذلك لأن التقارير حول غسل الدماغ الشيوعي لأسرى الحرب في كوريا ، والصين ، كانت قد نُشرت ، وعلى نطاق واسع ، في الصحف ، ولأنها أثارت بالغ القلق إثر ذاك بين العلمانيين.

وهكذا ، وكما ذكر في الفصل الثالث ، فقد استولى العديد من مرضى الفصام ومرضى الحدود ، على هذا المفهوم الجديد لغسل المخ ، ومستخدمين ذلك كتفسير لنوع غريب من الوهم الذي يحيط بهم—ووهم التأثر.

كما كان يتملك بعض هؤلاء الأشخاص ، شعورا بأن عقولهم قد انبثقت ، كما لو كانت من الخارج ، من خلال موجات الراديو ، أو بعض الاتصالات الغامضة الأخرى ، فقد كانت الأفكار موجهة.

كنت قد تلقيت خلال السنوات الأخيرة ، عدة رسائل من هؤلاء المرضى ، والذين يشكون حول مشاعرهم من غسيل الدماغ المستمر. والذي بدا وكأنه قد أصبح المفهوم الجديد للقسر العقلي السياسي ، والذي تم تركيبه في نظام الأوهام.

كما استشارني العديد من المحامين للحصول على معلومات حول العملاء

الذين أرادوا مقاضاة ممرضات غسيل الدم المتخيلة.

ولذلك ، يمكن استخدام نفس المفهوم ، الذي استخدم أعلاه لمراعاة الشكوك المرضية ، وبشكل خبيث ، لتوجيه الاتهام ومقاضاة أي شخص قدم نصيحة مهنية للناس ، أو حاول التأثير عليهم.

وفي هذه اللحظة بالذات(خريف١٩٥٥) تجري العديد من الإجراءات القضائية حيث تتم مقاضاة المدعى عليهم في جريمة غسيل دماغ من قبل طرف ثالث. وهم متهمون بأنهم قد نصحوا ، بصفتهم المهنية ، شخصا ما بأن يفعل شيئا ضد مصالح المدعي.

أما الآن ، فإن المحامي"شايستر shyster" قادر على مهاجمة العلاقات الإنسانية الدقيقة ، وتحويلها إلى مسألة فاسدة.

وهذا هو ذات الشر القديم من استخدام التعاطف ، ولكن ليس من أجل التعاطف ، بل من أجل الكراهية والهجوم.

كما أنه ، وبقيامه بذلك ، فقد يسيء المتهم المعاملة في جعل هذه العلاقات الإنسانية مفتوحة ؛ كما يستغل المتهم الوضع الغريب في الولايات المتحدة ، بأنه ، وحتى الفائز ببراءته المزيفة في إجراءات المحكمة في ظل القانون الأمريكي ، يجب أن يدفع تكلفة مساعدته القانونية.

وهذا يعني عملياً ، من أن ثم مواضيع قضائية صعبة في قضيته ، كما يجب عليه دفع ما لا يقل عن ثلاثين ألف دولار قبل أن يتمكن من الوصول إلى المحكمة العليا-إذا كانت القضية تخص المحكمة العليا-ومناشدة لأعلى شكل من أشكال العدالة في بلادنا. وهكذا ، وبسبب هذه الزاوية الجديدة ، التي تطورت خلال السنوات القليلة الماضية ، من حالة غسيل المخ ، فقد أصبحت مهنة الطب النفسي أكثر عرضة للهجوم غير المعقول.

وفي إحدى الحالات ، فقد شعر الطرف الثالث بأنه قد أصبح مصاب بمعاملة نفسية جعلت المريض أكثر استقلالية ، وفي وضع تجاري مزعج ، كان فيه

مستسلماً في السابق. كما أنه ، وفي حالة أخرى ، تمت مقاضاة الطبيب ، لأنه تمكن من تحرير مريضه من علاقة حب مستسلمة ، ووعد مبهم بالزواج.

وفي حالة ثالثة ، تغير المريض أثناء العلاج من أساليب وكالة تجارية تعاملت معه بشكل سيء.

وهكذا ، فإنه ، وفي كل تلك الحالات ، يمكن أن يحل الطرف المقيم بخيبة أمل ، على أساس ما يسمى بغسل الأدمغة والتأثير الخبيث.

في حين أنه ، وفي العديد من حالات هذا النوع من الابتزاز ، فقد كان يتم التوصل إلى تسوية باهظة الثمن خارج المحكمة ، وذلك لأن إجراء المحكمة كان سيصبح أكثر تكلفة بكثير.

وفي المقابل ، فإن الطبيب النفسي الممارس ، والذي يتعرض للهجوم بهذه الطريقة ، لا يواجه فقط الضغوط المالية التي يفرضها عليه الطرف غير الراض ، والمحام خبيث ، ولكن في العديد من الولايات ، لا تعترف المحكمة حتى بقسمه المهني للسرية.

يقول قسم أبقراط:

"أياً كان ، فيما يتعلق بممارستي المهنية ، أو لا علاقة لها به ، فقد أرى أو أسمع في حياة الرجال الذين لا يجب التحدث إليهم في الخارج ، ولن أفشي ، كطرف ، بجميع هذه الأشياء ، وأتعهد بوجوب أن تبقى سرية.

بيد أن بعض المحاكم ترى أن التحقيق والعلاج الجسدي فقط ، هما صحيحان كعلاج طبي ، ولا يمكن الكشف عنهما ؛ حيث لا ينظر إلى المحادثة الشخصية-جوهر العلاج النفسي-كعمل طبي.

كما ويعتبر الاختباء وراء السرية المهنية بحد ذاته ، ازدراء للمحكمة.

وهناك صعوبة إضافية تتمثل في أن هذا الاتهام بسوء التصرف من قبل طرف ثالث-وليس من قبل المريض نفسه- لا يشمله التأمين ضد سوء التصرف المعتاد.

ولذلك ، تكمن أهمية مثل هذا الهجوم الغادر على العلاقات النفسية- على الرغم من ندرة عدد الحالات التي قد تكون في هذه اللحظة-في أنها تفتح الطريق أمام العديد من مشاكل الابتزاز الذهني الأخرى.

وهذا يعني أن العلاقات الشخصية الدقيقة ، يمكن مهاجمتها ، ومحاكمتها في المحكمة ، ولمجرد أن طرفاً ثالثاً يشعر بأنه مستبعد ، أو مهمل ، أو متضررٍ مالياً.

إذ لا يمكنني مقاضاة شركائي لأنهم قدموا لي نصيحة مالية خاطئة ، ولكن يمكنني مقاضاة مستشار نفسي بسبب سوء الممارسة لأنه"غسل دماغ" موكلي.

ولكن تبقى الاحتمالات الجديدة للابتزاز العقلي والاتهام الخفي مفتوحة! وتدريجياً ، بحيث يمكننا أن نفتعل نية خاطئة وتوقع خاطئ ، ومشورة توجيهية غير مطابقة ، وفي النهاية ، تأثير إنساني بسيط وأصيل ، وهي أمور تُعتبر بالفعل افعالا إجرامية في البلدان الاستبدادية.

كانت كلمة "الابتزاز Blackmail" تستخدم في الأصل في حرب الحدود بين إنجلترا ، واسكتلندا.

كما كان هو الاتفاق الذي أبرمه المهربون على عدم نهب أو مضايقة المزارعين- مقابل المال أو الماشية.

في حين أن الأصل الانكليزي المتوسط للكلمة يأتي من"maille" والذي يعني الكلام أو الإيجار أو الضرائب.

كما ان المعادل الفرنسي المقابل للكلمة يجعلها أقرب إلى مفهوم الإكراه العقلي. وهذا يعني إجبار الزميل الآخر"على الغناء" وعلى الاعتراف بأشياء ضد إرادته عن طريق التهديد بالعقاب البدني ، أو التهديد بالكشف عن أسراره.

ولذلك فقد أصبحت تعني ، في التحليل الأخير ، الإكراه العقلي.

قد نطلق على الابتزاز العقلي الميل المتنامي لتجاوز أخلاقيات الإنسان وكرامته. إنه الميل إلى إساءة استخدام المعرفة الوثيقة لما يجري في شقوق الروح ، وإصابة شخص آخر وإحراجه.

كما أن الابتزاز العقلي يبدأ في أي مكان يأخذ فيه الشعور بالذنب ، مكان افتراض البراءة.

في حين يُستخدم اصطياد المواقف القذرة ، والإحساس الخاطئ ، من أجل إحراج الضحية ، والتي نراها في كثير من الأحيان ، بواسطة الصحافة الصفراء.

في حين أنه لا يؤدي فقط إلى عدم الاحتشام ، بل ويقوّض ، في نفس الوقت ، حكم الإنسان ورأيه. ومن خلال الإثارة التي يتمتع بها ، فإنه يحول دون القضاء على العدالة في المحاكم.

وهكذا ، فإن ما يمكن أن ينجزه الطفل الضعيف بدموعه ، يمكن أن يقوم به متذمر الأنين المتعجرف ، بأوهامه حول التأثير الخبيث لغسيل الدماغ.

كما أن المريض الانتحاري ، قد يمارس نفس النوع من الضغط.

ولذلك ، فإنني على يقين من أنه ، في المستقبل ، يجب على المحكمة العليا أن تضع قواعد تتحكم في هذه الأشكال الجديدة من الاتهامات ؛ ومع ذلك ، فإن جوهر المشكلة يبقى في الشكوك المتزايدة داخل الإنسان في عصرنا الانتقالي.

فنحن نبتلع عقول الرجال مع الكثير من الإجراءات الأمنية ، ومع ملفات سرية. ونحن نبتز بالثرثرة ، مع ضغوط خفية داخل جماعات الضغط السياسي ، وبواسطة جماعات الضغط داخل مؤسسات القرار ، وحتى عن طريق حجب صداقتنا.

القاضي وهيئة المحلفين

ولكن ماذا عن الأشخاص الذين يُطلب منهم أن ينقبوا عن الحقائق ، وعن التمييز بين الحقيقة والباطل ، للوصول إلى أحكام عادلة ونزيهة؟.

يتأثر القاضي وهيئة المحلفين بأنفسهم من مجريات الحياة كغيرهم من البشر. كما ويتأثرون بالجوانب الخارجية والاحتياجات الداخلية التي تكمن وراء سلوك المدراء ، والمسؤولين الآخرين في القضية.

ولكن من المفترض أن تعلو النزاهة على كل شيء ، وعلى خلفياتهم ،

واحتياجاتهم الشخصية ورغباتهم ، وأن تصدر هيئة صنع القرار في المحكمة حكما صارما على الأدلة ، وغير مقيدة بأي تحامل أو رغبات ذاتية.

ودعونا نأخذ في الاعتبار أنه ليس فقط أولئك الذين يرتبطون رسمياً بقضية ما ، يتخذون قراراً بشأنها ، بل قد يكون كل من يعرفها. أنت وأنا ، الجمهور ، قضاة ، وهيئة محلفين أيضاً.

يواجه القاضي وهيئة المحلفين المهمة الصعبة ، والمتمثلة في إيجاد الحقائق على أساس الحقائق وحدها ، وحتى في ظلها ، وتحت تأثير مشاعر الجماعة القوية ، وقد يحدث إعادة ترتيب عاطفي لحقائق تذكر.

كما ويتأثر القضاة والمحلفون بالجو العاطفي الجماعي المحيط بالقضايا المثيرة للجدل ، ومن الصعب عليهم الحفاظ على الموضوعية التي تشتد الحاجة إليها. في حين يقدم المحلف المتوسط بالفعل ، إلى الطلب العاطفي الشعبي قبل بدء المحاكمة ، وحيث أثبتت عدة محاكمات جرت عن الاضطهاد العنصري.

وفي الآونة الأخيرة ، هاجمت سلطتان قانونيتان نظام المحاكمة بواسطة هيئة محلفين ، أحدهما بسبب تأخرها في اتخاذ إجراءات بشأن العدالة ، والآخر لأنه اعتبرها وسيلة عفا عليها الزمن لإدارة العدالة.

كما إن المحاكمة-بواسطة هيئة محلفين- هي من مخلفات القرن الثالث عشر ، والذي كان من المقرر أن تحل محل المحاكمة السحرية عن طريق المحنة- فقد قررت الآلهة والمصادفة الشعور بالذنب-واستبدال المحاكمة بالمعركة-قررت المهارة البدنية والسلطة أي طرفين كانا مذنبين.

في حين أن المحاكمة التي قامت بها هيئة محلفين من الأقران ، ومن قبل جميع من عرفوا المتهمين وظروف الجريمة المزعومة ، قد خدمت هدفها في مجتمعات منظمة بسيطة إلى حد ما ، ولفترة طويلة.

ولكن في مجتمعنا المعقد اليوم ، وحيث يعرف الناس معلومات أقل عن بعضهم البعض ، وحيث تتداخل اتصالات متعددة للعقل ، فقد تغيرت الأمور.

"يتأثر المحلف العادي بالعاطفة ، والتحيز لإرثه ، وتدريبه على خلفية محددة".

كما أن هيئات المحلفين ليست قادرة دائما ، على متابعة تعقيدات الإيجابيات والسلبيات ، وتفسير الحقائق. وبالإضافة إلى ذلك ، يعرف العديد من المحامين كيف يفتن هيئة المحلفين ، وكيف يمسك بأذهانهم ، وكيف يؤثر على حكمهم.

وعلاوة على ذلك ، فإن اختيار المحلفين ، قد يؤخر بدوره عملية العدل أكثر فأكثر. وكمثال بسيط على كيف يمكن للتأثير الفردي والشخصي والاجتماعي أن يؤثر على ردود فعل المحلفين الحالية ، دعونا ننظر إلى الارتباك الداخلي الذي يحدث عادةً بسبب كلمة"خائن".

فهنا لدينا كلمة قاسية ، ومشحونة عاطفياً. فإذا اتهم شخص ما بأنه "خائن" أو " مخرب" ، على أساس حقائق لا يمكن إنكارها ، فإن أي محاولة للتفسير العلمي والنفسي لسلوك هذا الشخص ، سوف تعتبر بالفعل ، فكراً خادعاً.

وهكذا ، يكون قرار الإجماع هو أنه يجب معاقبة ذلك الخائن. وبأنه ينتمي إلى حثالة المجتمع ، ومن الأفضل اصدرا الحكم عليه بالموت.

كما أنه ، وفي هذه الحالة ، فإنه ، وحتى المحامي الذي يدافع عنه أمام المحكمة ، قد يتهم بالتواطؤ في الخيانة.

وفي هذا السياق ، فكلنا نعرف الكثير من الكلمات —التي تعتبر بمثابة الزناد الذي يطلق القرار من سلاح المحكمة- والتي تثير على الفور ، الارتباك في إدراكنا الموضوعي ، والحكم ، لأنهم يلمسون مشاعر غير فاعلة ، وغير واعية.

وعلى سبيل المثال ، يمكن أن تصبح كلمات مثل "هذا الشيوعي" و"المثليين جنسياً" كلمات محيرة ، وتؤدي إلى وجود مخزون من المشاعر المظلمة إلى أفعال.

كما أن الديماغوجيين يحبون استخدام مثل هذه الكلمات من أجل إثارة مشاعر الجماهير ، والتي لا يستطيعون السيطرة عليها ، والتي يعتقدون بأنها مناسبة جدا لاستراتيجية اللحظة. وهذا يمكن أن يصبح ، على أية حال ، مثل اللعب بالديناميت.

وهنا ، قد يتأثر أي واحد منا بأية أمثال أو كليشيهات مألوفة مثل:

"لا يوجد دخان من دون نار". أو "لا يمكن للص سوى أن يكون لصا" وهكذا دواليك... وقد كنت شهدت ذات مرة ، نقاشا ساخنا ، ومثيرا للاهتمام ، حيث كان قد وُبِّخ لكونه "مزواجا قذرا".

وهكذا ، وبمجرد أن تم توجيه الاتهام إليه ، تحول الرأي العام ضده.

كما أنه وحتى القاضي ، يمكن أن يتأثر بصعوبات تأثيرات مواقفه العاطفية ، لا سيما من خلال شهادة مائلة من الشهود ، والذين قد يحاولون التضليل.

ولكن في بريطانيا العظمى ، تكون المحاكم أكثر وعياً بتأثير موقف التحيز من جانب المحلفين. فهناك تتم حماية عملية المحاكمة ، وعلى نطاق واسع ، ويكون معظمها من خلال منع المناقشات والمداولات قبل المحاكمة ، بغض النظر عن عدم شعبية المتهم.

الاستجواب المُتلفز

كما يؤثر الاستجواب الرسمي المفتوح والعلني على من يراقبه أيضا-وقد تؤثر المحاكمة على حقيقة تأثرهم في نتائجها.

فعلى سبيل المثال ، كانت قد عُرضت جلسات إجرامية متعددة في هذا البلد على الناس بواسطة التلفزيون.

وحيث مكن للمواطنين-الذين يجلسون براحة في المنزل بعيداً عن المشهد- أن يروا كيف كان محامو الدفاع يناورون بالوقائع ، أو كيف أصدروا التعليمات إلى موكليهم(ومن بينهم قادة الجريمة المعروفين) حتى أنهم كانوا يظهرون مناوراتهم تلك في العلن.

ولكن ، وعلى الرغم من أن أفعالهم قد تكون حيلاً شفافة ، مع ظهور مباراة مصارعة المحكمة الثابتة ، فإن النتيجة كانت أن بعض ضحايا المجرمين الذين لم يكونوا يشعرون بالرضا ، وعلى الأخص حين كان يتم تقديم المحامون-وبشكل استعراضي انفعالي سخيف-لمرافعاتهم ، بينما كان المجرمون هادئين ، ومطمئنين

وذاتياً ، الأمر الذي بدا أكثر إثارة للإعجاب.

في حين أنه ، وفي كثير من الأحيان ، لا يمكن للضحايا الوقوف في دائرة الضوء ؛ حيث كان ذلك يجعلهم يشعرون بالراحة ، وعدم الحرج.

ومن ناحية أخرى ، فإن المجرمين إما كانوا ينكرون كل الاتهامات التي كانت تنسب إليهم ، حيث يكون الاستنكار بطبيعة الحال لصالحهم ، أو يقدمون اعترافات محددة ، والتي سرعان ما تتحول إلى حلبة أسئلة هستيرية من أجل نيل الشفقة. وهكذا ، فإن التأثير السحري لجميع المتفرجين المجهولين–لأن الشاهد أو المدعى عليه تخيلوا موافقتهم أو عدم موافقتهم–كان يؤثر على نتائج جلسات الاستماع. وقد كنا جميعا ، وجميع الذين شاهدوا مجريات تلك المحاكمات والمرافعات ، على درجة من القدرة الذاتية على استقراء وتوقّع ما ستؤول إليه قرارات وأحكام تلك المرافعات في هذه الجلسات.

يقوم التلفزيون–في العادة–بعرض المحاكمة الجماعية لمثل هذه الجلسة ، ولكن ليس عن غير قصد العدالة ، ولكن المشاعر المتغيرة للجمهور ، تصبح جزءا من أجواء قاعة المحكمة.

فكل قطعة من الأدلة في جلسة الاستماع هذه ، تكون ملوّنة بالشائعات ، والشحنات العاطفة ، ولكنها قد تترك لدى المتفرجين المفعمين بالصدمة ، مشاعر الشك ، والريبة العميقة بأنّ جلسة الاستماع لم تصل حقاً إلى حقائق الإدانة.

البحث عن قرار الحكم المستقل

إن شعور الإنسان بالعدالة ، له آثار دقيقة للغاية. وعلى سبيل المثال ، فحالما يغازل "جوستيا" الأصدقاء الأقوياء أو يصبح منقاداً تماماً ، وكذلك مجريات المحكمة ، فسيشعر الناس بعدم الأمان ، ويزداد قلقهم. ولكن شعور الإنسان بالعدالة ، يحتاج إلى أكثر من مجرد ضمان لرضاه وإرضائه.

كما إن الإحساس بالعدالة ، هو موقف داخلي ، يهدف إلى تحقيق القواعد القانونية المثالية ، والتي يمكن أن تلهم المجتمع ، وترفعه إلى مستوى أخلاقي أعلى.

ولا يقتضي الأمر بمجرد الحد الأدنى من السلوك اللائق ، والذي يفرضه القانون ، بل أكثر من ذلك ، ليصل إلى الحد الأقصى للمبادرة الشخصية ، واللعب النظيف المتبادل.

كما أنه من المفروض على المحكمة هنا أن تقوم بفلترة الأحداث للوصول إلى الحكم العادل ، وأن تطالب بالعدالة الشخصية والاجتماعية ، للحد المشترك من المطالب في خدمة التبادل بين العلاقات بين الناس ، وبين المجتمع وحكومته. في حين أن أي شعور مثالي بالعدالة ، لا بد وأن يتطلب تضحية ما ، ويعني تحديد الذات المستقلة ، وذلك لأن العاطفة تكون مقتل المحاكمة ، وقد تكون هي العدو الأول.

وهكذا ، فإن مبدأ العدالة هذا ، ليس صالحاً للأفراد فحسب ، بل يجب أيضاً أن يحكم المجتمعات ، والدول.

وبالإضافة إلى ذلك ، فإنه ، وفي مثل هذا الجو التضليلي الحر المتبادل للسلطة فقط ، ونيابة عن العدالة المتزايدة ، يمكن للديمقراطية أن تنمو.

ولكن هل يمكن للناس أن يتعلموا الرؤية الموضوعية وبطريقة منفصلة عن مشاعرهم الشخصية؟

والجواب الأكيد هو نعم ، يستطيعون ذلك.

كما ويمكن تغيير الطرق الموضوعة مسبقا للرؤية والشهادة. وحيث يدرك العديد من الناس الضرر الذي قد يلحقه الرجال بأنفسهم ، وبالآخرين عندما يُقدمون إلى حالة الشغف والتحامل الجماعي. ومن ثم يتعلم هؤلاء الأشخاص من خلال التحقيق ، والملاحظة الذكية ، كيف يكونون أقل تحيزاً ، وكيف يرون الأحداث من زاوية الحقائق ، مع إعادة ضبط دائم للعقل ، والعين ، والبحث عن الحقيقة بمصداقية ، وحياد.

أما في حالة السجناء في معسكرات الاعتقال ، أو في معسكرات وسجون الأسرى ، فلا شك في أنه سيتم قصف تلك المعسكرات ، وباستمرار ، بالشائعات

والاقتراحات ، وتشويه الملاحظات ، وحتى الحقائق ، بحيث يصبح موقف الدفاع غير ذي جدوى أمام تلك الشائعات التي قد تغير مجرى المحاكمات برمته.

وحيث أن هيئة الدفاع ، ستكون بالكاد قادرة على تقديم تقرير موضوعي بشأن تصرفات موكليهم ، وزملائهم. ولذلك ، فإن الموقف الجماعي –وحتى ليوم- يبقى موجها وفق تصورات المحكمة وآرائها. فالموكل الذي أصبح كبش فداء.

وكذلك هو الحال لدى السجين المتهم ، والذي تتمثل مهمته في التخفيف من جو غضب زملائه السجناء ، لن يتمكن من تحييد جميع التقارير اللاحقة حوله ، وذلك ببساطة لأن عدد الشهود الموضوعيين المزعومين كانت ضده.

ولذلك ، فقد يكون من الصعب للغاية ، فصل الشائعات عن الحقائق ، وتحييد التهم ذات الأدلّة العينية.

وإضافة إلى ذلك ، فإن في الإنسان حاجة غريزية للتوافق مع الأغلبية ، وكذلك في التوافق مع رأي القوي.

كما أن هذه الحاجة متجذرة في الرغبة البيولوجية للسلامة الشخصية. ولهذا السبب ، فقد نما شعور قوي بالمشاركة بين الجنود في معسكرات الاعتقال ، وفي سجون الأسرى. وفي معسكرات التحقيق.

ولذلك ، غالبا ما وكانت النتائج ، والأحكام ، عبارة عن تزييف كامل للوعي حول ما حدث. فقد ضاعت الملاحظة الفردية في التأثير القوي للرأي العام.

ومن هذا المنطلق ، فلا بد من أنه في عصر علم النفس في المستقبل ، وعندما يكون فهم سلوك الإنسان مفهوماً بشكل عام ، سنكون أكثر إدراكاً لأهمية الشهود الموثوق بهم.

كما وسيتم فحص كل تقرير ، وكل جزء من الشهادات ، أو المؤيدين ، ومن ثم الموازنة في ضوء خلفيته النفسية والتاريخية.

وسوف يضحك مواطن المستقبل ساخرا ، عندما ينظر إلى الوراء ، وإلى الوقت الذي ضاع سُدىً خلال المحاكمات ، لأن الحقائق الواضحة ، وعلى جانب

واحد ، لم تُخرج لتحدي الحقائق الواضحة بنفس القدر على الجانب الآخر.

كما وسيفهم هؤلاء المواطنون المستقبليون ، من أننا قد كشفنا فقط ، عن عدواننا المتبادل ، وعن مشاعر الخوف وانعدام الأمن من خلال سلوكنا ، والمشاعر التي حركتنا بشكل إلزامي ، وبطريقة خادعة ، للقيام بإعادة ترتيب ذاتي لذكرياتنا ، وانطباعاتنا.

ولكنه ذلك المواطن المستقبلي ، سيشير إلى أن التفكير الموضوعي كان في مهده في تلك الأيام.

الفصل التاسع

الخوف كأداة الإرهاب

الخوف من العيش

الخوف الذي تثيره العلاقات الإنسانية في عصرنا هذا ، قوي لدرجة أن الجمود والموت العقلي غالباً ما يبدو أكثر جاذبية من اليقظة العقلية والحياة.

وقد تحدث علم النفس الكلاسيكي ، غي غالب الأحيان ، عن الخوف من الموت ، والمجهول العظيم ، كسبب للعديد من المخاوف ، ولكن الدراسات النفسية الحديثة ، قد أظهرت لنا ، أن الخوف من العيش ، هو الخوف الأكبر والأعمق والأكثر رعباً. فالعيش غالبا ما يبدو خارج قوتنا. كما إن الخروج من الاعتماد الطفولي ، الآمن نسبياً ، على الحرية والمسؤولية ، هو أمر خطير ، بل وخطير جدا.

كما أن الحياة تتطلب العيش بنشاط ، وعفوية ، وفيه ما هو صحيح ، وما هو خاطئ. كما وتتطلب الحياة النوم والاستيقاظ ، والمنافسة والتعاون ، والتكيف ، وإعادة توجيه مسار الطريق في بعض الأحيان ، وتقييم ما يتوصل إليه الإنسان.

كما أن الحياة تنطوي على علاقات متعددة ، ولكل منها الآلاف من المضاعفات ، والتراكيب ، وهذا ما قد يجعلنا نعبش بعيداً عن حلمنا بالحماية ، بل وقد يطالب بأن نكشف عن نقاط ضعفنا ، ونقاط قوتنا اليومية لإخواننا من الناس ، ومع كل أعمالهم العدائية ، وكذلك عواطفهم.

كما وتتطلب الحياة منا ، بناء دفاعات مفيدة ، والتي قد يتم استبدالها بدفاعات بأخرى في بعض الأحيان ، وذلك لأنه علينا تغيير أهدافنا وعلاقاتنا من حين لآخر.

كما أن الحياة تتوقع منا أن نكون في مسار محدد من أجل التعاون في بناء الحرية. وقد تطلب منا أن نسلم ، وننتصر ، وأن نضبط أعصابنا تارة ، وأن نثور حينا.

ولذلك ، فإن الحياة تسرقنا من سبات طفولتنا المفعم بالرضا ، ومن السحر ، والأوهام التي كنا نعيشها في طفولتنا.

فالعيش يتطلب التبادلية في العطاء والأخذ.

وقبل كل شيء ، فإن العيش هو الحب. ولذلك ، فإن الكثير من الناس يخافون من تحمل مسؤولية المحبة ، والاستثمار العاطفي في أقرانهم من الناس. ولأنهم يريدون فقط أن يكونوا محبوبين ، وأن يكونوا محميّين-كما كانوا في مرحلة الطفولة- ولأنهم خائفون من التعرض للأذى ، ومن رفض الآخرين لهم.

ويمكننا أن نرى هذا ، وبوضوح ، في حقيقة أن الكثير من الناس يحتضنون ، وبكل قوّة ، إحباطات الحياة التي تُعرض عليهم-القيود العقلية للأفكار المسبقة المعتادة ، أو القيود الاستبدادية التي تفرضها سياسات القوة في مجتمعاتهم.

وفي كتابه"الهروب من الحرية" يصف الكاتب"إريك فروم" بوضوح ، كيف يمكن لضغوط الحرية ، وعندما لا تكون متوازنة بالمسؤولية والفهم ، أن تدفع بالناس إلى الإطار الشمولي"الاستبدادي" للعقل ، وأن يستسلموا بحرياتهم ، والتي كانوا قد اكتسبوها بشق الأنفس. ولذلك ، فإن هذا الاستسلام ليس أقل من موت عقلي بطيء.

إن قادة الاستبداد ، سواء كانوا من تيار اليمين أو اليسار ، يعرفون ، وأكثر من أي شخص آخر ، كيف يستغلون حالة هذا الخوف من الحياة. لأنهم يزدهرون على الفوضى والحيرة.

كما أنهم ، وخلال الاضطرابات في السياسات الدولية ، أكثر سهولة- وقربا- ولذلك ، فإن استراتيجية الخوف هي واحدة من أكثر تكتيكاتهم قيمة.

كما أن التعقيدات المتزايدة لحضارتنا ، وإداراتها ، تجعل تأثير سياسة القوة

عاليا ، وأكثر من أي وقت مضى.

فعندما يضيف الاستبداديون إلى تكتيكاتهم ، كل الحيل الذكية ، والتي ناقشناها بالفعل-تكييف"بافلوف" ، كاقتراح متكرّر ، وتحرر من خلال الملل والتدهور المادي- يمكنهم كسب معركتهم من أجل السيطرة على عقل الإنسان.

كما أننا ، وفي الفصول السابقة من هذا الكتاب ، كنا قد وصفنا بالتفصيل ، بعض التقنيات التي يمكن من خلالها أن يتحول الإنسان إلى مجرد"إنسان آلي" في خدمة الاستبداد ، وبعض الاتجاهات التي تعمل ، وحتى في البلدان الحرة ، لسرقة الإنسان من سلامته العقلية.

ولذلك ، فمن المهم لنا أن ندرك بأن التركيز على التطابق ، والخوف من الحياة العفوية ، يمكن أن يكون له تأثير مدمر تقريبا ، مثل الهجوم المتعمد للاستبداد على العقل.

كما إن المطابقة والخوف من العيش ، يسرقان الطريق الحر للحياة ، ومن أعظم رصيد لها في النضال ضد الاستبدادية.

وهكذا ، يمكن القول بأن قوتنا البشرية ، تكمن في تنوع واستقلال الفكر ، وفي قبولنا لعدم المطابقة مع الأنظمة الاستبدادية ، وفي رغبتنا في مناقشة ، وتقييم وجهات النظر المتضاربة المختلفة.

ولأنه ، في حال تماثلنا مع منطق الاستبداد ، فإننا سنرفض تنوعات الحياة ، وتعقيدات ، وفضائل العقل البشري ، والوعظ العقائدي الصارم ، وبر الذات ، وحيث نصبح ، وبالتدريج ، نقبل تبنّي الموقف الاستبدادي ، والذي نأسف له.

كما أنه لم يكن الوهم قط ، ملكية حصرية لأي بلد ، أو طبقة ، أو مجموعة ، وحيث أن ذلك الوهم الاستبدادي ، والذي يمكنه ، في حد ذاته ، التشجيع على القتل ، ويمكن لأفكاره أن تغزونا من العديد من الجبهات ، من اليمين واليسار ، ومن الأغنياء ، أو من المحرومين ، وكذلك من المحافظين ومن المتمردين سواء بسواء.

ولكن ، لم يكن الخوف والتخويف هما النتيجة فحسب ، بل أيضا أدوات الإكراه العقلي.

وبالرغم من أنه لا توجد حتى الآن نظرية موحدة للخوف والقلق ، فإننا لا نعرف ، على وجه الدقة ، لماذا وكيف يؤدي تطور هذه المشاعر إلى عواقب وخيمة كهذه ، في حين أنه من المهم لنا ، أن نفهم ما هي الأدوات المفيدة التي تؤدي الى الخوف والهلع ، لنرى ، من خلال الوصف ، ما تستطيع هذه المشاعر الغامرة فعله في الناس.

إن معظم الناس يفكرون في ردود فعل الخوف ، كما لو كان نوعا من التعبيرات الهستيرية لليأس. ولكن ، كما ينبغي أن يوضح هذا الفصل ، فإن للخوف والذعر أيضاً تعبيراتهم المتناقضة في التسيّب ، واللامبالاة ، وهي ردود الفعل ، التي قد تكون أقل شيوعاً من حيث كونها مجرد خوف ، ولذلك يمكن أن تكون أكثر خطورة على الفرد من صرخة هستيرية عالية.

إنها المخاوف الصامتة المخفية ، والتي لها مثل هذا التأثير على سلوكنا الاجتماعي والسياسي.

كما إن الخوف والذعر ، هي ردود فعل قوية ، ليس فقط على الخطر والتهديد الصريح ، بل هي أيضاً ، ردود أفعال تجاه التباطؤ البطيء ، والانتقال من الدعاية المقلقة ، والموجة المستمرة من الاقتراحات ، والأوامر التي نتعرض لها جميعاً.

يعمل الخوف في كل مكان حولنا ، وغالباً ما يلقي ظلاله في الأماكن التي لا نتوقع في الغالب ، العثور عليها.

فقد نتصرف بدافع الخوف ، ولكن دون معرفة ذلك. وقد نعتبر أن سلوكنا طبيعي وعقلاني تماماً ، في حين أن علم النفس يخبرنا ، بأن الخوف الزائف قد بدأ بالفعل في العمل بذواتنا.

كما أن الخوف والكارثة ، يعززان من الحاجة إلى اللجوء للانطواء تحت ظل قائد قوي. ولذلك ، فإنها ستؤدي إلى رعي الناس معاً ، والذين يبتعدون ، تدريجيا ،

عن الرغبة في أن يكونوا مجرد خلايا فردية مستقلة الذات بعد الآن؛ فهم يفضلون أن يكونوا جزءاً من منظمة اجتماعية ضخمة ، تحمي من التهديد والضيق ، ومن خلال التوحد مع القائد. وهذا ، في حد ذاته ، يعتبر رد الفعل الغريزي المتوخى ، للحماية ، وهو موجه أيضا ضد المعارضة والفردانية ، وضد النفس الأنانية.

ولذلك ، فإننا نرى في هذا انحداراً نحو حالة ، أكثر بدائية ، للمشاركة الجماعية.

صحيح أن عملية تقلص "الأنا" هذه هي الجانب السلبي من رد الفعل نحو الكتلة. لكنه ومع ذلك ، فإنه يحفز الاعتراف بالحاجة إلى التعاون والمساعدة المتبادلة.

في حين أنه ، وخلال الحرب الأخيرة ، والحالات الطارئة ذات الخبرة العامة ، فقد أصبح الكثيرون ، لأول مرة ، على علم بالعلاقات العاطفية التي تربطهم بجيرانهم على سبيل المثال. وفي الوقت نفسه ، يمكن للخوف أن يثير القلق الشكوك ، والحاجة إلى البحث عن كبش فداء.

ولكن من المفارقات فيما يتعلق بالخوف ، فهو أنه ينشر مشاعر دافئة من العلاقات غير الناضجة ، والشك البارد في نفس الوقت.

فعلى الرغم من وجود اتجاه واعٍ ، وفي جميع أنحاء العالم ، للتغلب على الخوف ، ومشاعر انعدام الأمن ، إلا أنه يوجد أيضاً تيار أقل وعياً ، يثير مخاوف و مخاوف و مخاوف جديدة.

وسواء كان مدركاً لذلك أم لا ، يعيش الإنسان الحديث في جو من الخوف -الخوف من الحرب ، الخوف من قنبلة هيدروجينية ، الخوف من الأنظمة الاستبدادية ، الخوف من عدم التوافق ، الخوف من المعارضة ، وهكذا دواليك...

وهكذا ، فقد بدأ الخوف ، وبالفعل ، في التأثير على سلوكنا ، في الوقت الذي ندرك ذواتنا فيه.

كما أنه ، وبمجرد أن يخترق الخوف العقل ، ويحفز الخيال ، فإنه سرعان ما سيبدأ في توجيه أعمالنا ، سواء كنا نريد ذلك أم لا.

وبما أنه لا يمكننا القضاء على جميع الآلاف من التوترات والمواقف المثيرة للقلق في العالم الحديث ، إلا أنه يمكننا أن نتعلم التعرف على بعض أكثر أشكال ردود فعل الخوف وفهمها.

وبهذه الطريقة ، يمكننا أن نحصل على التحرر الجزئي من التوترات التي تنشأ عن ذلك الخوف ، كما ويمكن أن نتعلم كيفية التعامل مع تلك التوترات ، وبشكل أكثر فعالية.

أوهامنا حول الخطر

لا أزال أتذكر ، وبوضوح ، تلك ظهيرة ذلك اليوم المشمس خلال الحرب العالمية الثانية ، حين كنت لا أزال في أعيش في هولندا.

كنت ألعب كرة التنس مع بعض الأصدقاء. وكنا جميعاً نستمتع بذلك الجهد المرضي لرياضتنا ، ولكن استمتاعنا باللعبة ، كان مشوباً ، وإلى حد ما ، من قبل اللاعبين في الملعب التالي. والذين كانوا يتحدثون لغة المحتل المكروه ، وعلى الرغم من أننا كنا جميعا نرتدي نفس الزي الرياضي الموحد الأبيض ، وقد كان من الواضح بأنهم كانوا ضباطا نازيين ، كما أنه كان من الواضح لدينا أيضا ، بأنه قد الذي تم نسيان—ولو مؤقتا- ذلك الوهم الذي يعيشونه لقهر العالم ، وإخضاعه ، بل وكانوا يحاولون الاسترخاء مثل باقي البشر العاديين.

ولكن ، وفجأة ، سمعنا هدير الطائرات من بعيد ، ومن ثم أصوات دوي القنابل المخيفة ، وأصوات طلقات مضادات الطائرات الأرضية ، والتي امتزجت معا لتحدث ذلك الدوي المرعب.

وكان بعضا من تلك الطائرات العصبية السريعة ، تحلقّ على ارتفاع منخفض للغاية ، وعلى مسافة قريبة من الأرض ، ولكن سرعان ماتوضح بأن تلك الطائرات

كانت تعود لأصدقائنا من انكلترا أن وهنا جاء التهليل كما لم يكن من قبل.

وهنا ، توقفت أنا وأصدقائي عن اللعب ، ومن ثم بدأنا نلوّح بمضاربنا نحو تلك الطائرات بحركات تحية ، وترحيب ، ونحن نشاهد مناورات تلك الطائرات.

كانت رد فعل جيراننا مختلفاً تماماً. فقد أصبحوا مذعورين. في حين قام أحدهم برمي مضرب التنس الخاص به في الهواء ، وركض مسرعا باتجاه ما ، فيما ألقى الآخرون بأنفسهم ، وجهاً لوجه ، نحو خندق مجاور لملعب التنس.

ولكن على الرغم من أننا قد وجهنا جميعا ، وبشكل موضوعي ، نفس خطر مهاجمة الطائرات الإنجليزية ، إلا أن الأمر ، بالنسبة إلى الألمان ، كان مختلفا ، فقد كانت هذه طائرات العدو ، بينما كانت نفس الطائرات ، أصدقاء لنا.

ولذلك ، فأنا متأكد من أنه ليس من الضروري بالنسبة لي أن أضيف أنه ، وبعد هذا الوقت ، قد تم منع مواطني هولندا الهولنديين من لعب التنس في ذلك الملعب.

ولكن عندما ، وبعد عام واحد على تلك الحادثة ، كنت قد وصلت إلى مدينة"لندن". وبالصدفة ، شنت الطائرات الألمانية هجوما مباغتا أثناء الليل ، وهكذا ، فقد انتابني نفس الشعور الذي انتاب الضباط الألمان في ملعب التنس ، وبالطبع كان يجب أن يكون. فقد بدا الأمر بالنسبة لي لحظتذاك ، كما لو أن كل رصاصة ، وكل قنبلة قذفتها تلك الطائرات ، إنما كانت موجهة نحوي.

ولذلك ، يمكن القول بأن دور الخيال في حالة الخوف ، وهو دور عظيم جدا ، ومن أن قنبلة العدو قد يكون لها معنى مختلف بالنسبة لنا ، من قنبلة صديقة.

يمكن تعريف الخوف ، وببساطة شديدة ، كرد فعل داخلي على الخطر.

ولكن يبقى هذا التعريف بسيطا-وبشكل خادع ، لأنه ، وبمجرد تقديمه ، فإننا سنواجه مشكلة جديدة والتي تتمحور حول:

"ما الذي يجب علينا تعريفه على أنه خطر"؟.

يمكن التعرف بسهولة ، على سبيل المثال ، على القنابل ، والحرائق ،

والزلازل ، والأوبئة كأخطار. وكذلك التعذيب الجسدي ، والهجوم الشمولي ، والاستبدادي المباشر ، وعلى الانهيار الاقتصادي المفاجئ.

ولكن هناك العديد من الأخطار العاطفية الخفية أيضا ، والتي تثير خيالات وتوقعات خائفة ، والتي غالبا ما تكون مقترنة بالرؤى الداخلية للكوارث والأزمات.

وكما تظهر الأمثلة ، فإن هذه الأخطار إنما يواجهها أشخاص مختلفون ، وبشكل مختلف.

إنه موقفنا الشخصي تجاه الحياة ، ونحو الجنس البشري الذي يحدد ما إذا كنا نعتبر الوضع إما تحدياً مرحباً به ، أو خطراً لا يمكن تحاشيه. في حين أن بعض الناس ، يتمتعون بالتحكم الدقيق ، والتكييف الميكانيكي لحياتهم.

ولذلك فإن النظام الاستبدادي ، والذي يراقبهم ، ويراقب حركاتهم ، وسكناتهم ، وأفكارهم ، وعلى مدار الساعة ، هو بالنسبة إليهم —على سبيل المثال— لا يشكل خطراً عليهم. ولأنهم ، في ذلك إنما يقدمون نوعاً من النوم اليومي الخالد ، والخالي من المسئولية. ولذلك ، فإن الحرية ، بالنسبة لهؤلاء الناس ، هي الخطر ، في حين أن الاعتماد على القادة ، هو محض سلامة ممتعة.

كما أن هناك آخرون ، يكرهون أي تدخل في حريتهم الشخصية ، ونزاهتهم ، بل ويستمرون في حالة تأهب دائم ، وشرس ، من أجل الدفاع عن أنفسهم ، ضد أي ضغط خارجي —سواء أكان حقيقيا ، أم كان مجرد غرور.

خوف الارتياب

حتى عندما يكون الناس مستعدين ومدربين بشكل جيد لمواجهة كارثة متوقعة ، مثل السجن ، أو غسيل الدماغ ، فإن التأثير الفعلي للخطر ، قد يثير كل أنواع السلوك الدفاعي. وقد يؤدي الإفقاد إلى إضعاف الشخص ، لأن الترقب الطويل يتيح لجميع أنواع الأوهام الخفية أن تتفشى.

كما ويمكن لدى أقلية من الأشخاص ، التعبير عن هذا ، في ردود فعل الخوف المرضية ، مثل الانهيار العصبي الكامل ، أو الشلل التام.

كما أن كل شخص ، يمكنه أن يُظهر عتبة مختلفة لمقاومة الخطر ، وهذه العتبة قد تتغير يوماً بعد يوم ، وذلك اعتماداً على ثباتنا البدني والعقلي.

وكقاعدة عامة ، لا تظهر القوات عديمة الخبرة على الفور ، الخوف المرضي في القتال ؛ فهذا السلوك يستغرق بعض الوقت ليتطور تطوير.

ومن المفارقات أن ردود الفعل حول الخوف وحالات الضعف ، غالبا ما تتطور بعد أن يمر الخطر الحقيقي. فعندما ينتهي توتر المعركة ، أو ضغوط الحياة اليومية ، في معسكر السجن ، ولم تعد هناك حاجة إلى إخفاء مخاوف المرء والتحكم في سلوكه ، يُترك العديد من الناس ، ليرتاحوا ، ويمنحون تنفيساً مجانياً لجميع مخاوفهم.

لقد عانى الناس في مدينة"دوفر Dover" في"انجلترا" في عام١٩٤٤ نوعا من الانهيار العصبي الجماعي ، وذلك عندما ، وبعد السماع اليومي ، وعلى مدى أربع سنوات ، لأصوات القصف المستمر من قبل الألمان ، والخوف المرافق ، وحين توقف القصف فجأة ، وبالكامل بعد أن توغلت قوات الحلف المنتصرة عبر الساحل البلجيكي وحين ساد الصمت المطبق. في تلك اللحظة ، انهار العديد من سكان "دوفر". كان الأمر كما لو أن الصمت غير المتوقع ، قد أدى بهم إلى حالة من الصدمة.

وهكذا ، يُعتبر ذلك كردة فعل الخوف المتناقض ، وبعد أن يمر الخطر الأكبر ، والمهم بالنسبة لنا لكي نفهمه.

كما ويعرّف الاستراتيجيون الاستبداديون ، من أنه ، وخلال فترة الهدوء المؤقت ، والاسترخاء بعد التوتر المزمن ، فإن الناس يفقدون يقظتهم ، وبالتالي يمكن فهمهم ، وبسهولة أكبر ، بعد إحكام القبضة الاستبدادية العقلية.

وفي استراتيجيتهم للإرهاب ، فإنهم يستخدمون ، وعن وعي ، العمل النفسي للتعبير عن التنفس.

لأنه ، وبمجرد أن نترك ، ونسقط الدفاعات الخاصة بنا ، فإن ذلك يعني بأن

مخاوفنا قد تراكمت ضد الخطر ، بحيث يمكن أن نصل إلى حالة ابتلاع أية اقتراحات قوية.

ولذلك ، فإن الاستبداديين أيضا في"وثيقة الإرهاب" يطلقون على أسلوب الاستفادة من مثل هذا التخفيف"استراتيجية الخوف الكسري".

ففي فترة هادئة ، بين التوترات الحادة ، يمكنهم ، وبسهولة تكييف عقول ضحاياهم.

وقد استخدم الدكتاتور"هتلر" فترة الاسترضاء في مدينة"ميونخ" بهذه الطريقة بالتحديد.

ولكنه ، وخلال هذا الوقت ، كانت وسائل ماكينة دعايته الإعلامية تقصف آذان وأذهان الناس بشكل منقطع النظير.

وسواء كان رد الفعل على الخوف ، والخطر فورياً ، أو متأخراً ، فإن معظم الناس يُبدون ، تحت الضغط ، سلوكاً يمكن القول عنه بأنه يقع في نطاق أحد الأنماط التالية:

الانحدار: وهو فقدان السلوك المعرف.

التمويه والتخفي: وهو ما يسمى بردود الفعل"المخادعة أو الباهتة".

الذعر المتفجر: وهو الدفاع من خلال"القتال أو الهروب".

تهيئتنا النفسية الجسمية: حيث يتولى الجسم المسؤولية.

الارتداد

على الرغم من أن معظم الناس يعرفون أكثر أو أقل حول مفهوم الارتداد ، أو الانحدار ، من خلال إعادة الساعة الثقافية إلى الوراء ، إلا أنهم يتفاجؤون ، مع ذلك ، لرؤية الرجال والنساء المختبئين خلف ماضيهم ، وذكرياتهم ، وهم يفقدون عاداتهم المكتسبة من الحضارة في أوقات الكوارث والهلع.

وقد كنت قد عالجت ذات مرة ، مهندساً كان ضحية لزلزال في بلد أجنبي. والذي أصبح ، بعد الزلزال ، يتصرف كالطفل تماماً.

ولذلك ، فقد قمت بتجربة جميع أنواع العلاجات ، ولكن لم تكن أي منها ناجحة ؛ ولم نتمكن أبداً من تغيير سلوكه الطفولي. ولذلك ، لم يستطع ذلك المريض طريق العودة إلى سلوكه الطبيعي الكافي. ولأنه ، ومنذ ذلك اليوم المشؤوم ، ظل محصوراً في كهف الهروب.

كان يبدو ، وكأنه قد نسي كل شيء تعلّمه في حياته ، وبضربة واحدة. حيث لم يعد يعتبر رجلاً ناضجاً ، وعالماً محترفاً. كان كالطفل الرضيع. وكان يشبه— في تصرفاته— تصرف الطفل رضيع ، في حين كان لا بد من إطعامه بالملعقة ، وتلقيمه الغذاء مثل الطفل الرضيع.

كما تم العثور على ضحية أخرى ، من ضحايا ذلك الزلزال ،كمنت أعرفه تمانا ، فقد كان أستاذ الرياضيات ، وقد تم العثور عليه في حديقة منزله ، وبين أنقاض ما تبقى منه بعد أن توقف الزلزال ، وانتهى.

كان استاذ الرياضيات نصف عار ، ويلعب بألعاب أطفاله. وقد رفض تماما أي اعتراف بالحالة الطارئة الحقيقية ، والتي وجد نفسه فيه ، وقد تراجعت حاله ، إلى فترة عدم المسؤولية الطفولية.

ولذلك ، يصادف هذا السلوك التراجعي ، كشكل من أشكال الدفاع ، وفي كل مكان في المملكة الحيوانية. فعندما يكون الكائن الحي في خطر ، فإنه يسقط تعقيده ، ويتراجع إلى شكل أبسط من الوجود.

وعندما تصبح ظروف المعيشة خطرة ، تتحول بعض الكائنات الحية المتعددة الخلايا ، والتي تتعرض للخطر ، وبسهولة إلى كائنات أحادية الخلية ، وبسيطة الحماية. كما وقد تحدث هذه العملية الارتدادية ، والتي تسمى"التكميم" على سبيل المثال ، عندما يتعرض الكائن الحي لدرجات حرارة غير طبيعية ، أو إلى جفاف غير طبيعي. وهكذا ، يخضع الإنسان لنفس قاعدة الدفاع البيولوجي. فعندما تكون الحياة معقدة للغاية بالنسبة له ، فإنه غالبا ما يحول عقارب الساعة إلى الوراء ، ويصبح بدائيا مرة أخرى.

كما وقد يحدث بعض التفكك المفاجئ ، وانهيار الوظائف. وهذا النوع من السلوك الرجعي ، شائع في الأطفال. فعندما يكونون خائفين ، غالباً ما يعودون إلى حديث الطفل ، أو إلى التبول في الفراش.

كما أنه ، في المناطق التي تم قصفها خلال الحرب العالمية الثانية ، بدأت العديد من الفتيات في سن المراهقة المتأخرة ، في اللعب مع الدمى مرة أخرى.

وحتى الرجال والنساء ، والذين يبدون متقلبين ، وناضجين ، قد يظهرون الآلاف من أعراض هذه العودة إلى الطفولة عندما يهاجمهم الخوف.

وعلى الرغم من أن أعراضهم ليست دائما ، درامية ، كالأمثلة أعلاه ؛ إلا أنه ، ومع ذلك ، فهي من أعراض الخوف.

وعندما يبدأ الناس في التألق ، ويفقدون لياقتهم اليومية ، وعندما يتجهون نحو سحر الحماية الخاصة ، وعندما يخترعون قصصا عن هشاشتهم السحرية ، وعندما يتباهون أكثر ، ويأكلون المزيد من الكعك والحلوى ، ويصرخون أكثر ، ويتحدثون أكثر ، ويبكون أكثر ، ويفقدون سلوكهم الرسمي القوي ، والمستقر ، فهم يتصرفون بدافع الخوف. كان الناس خلال الحرب العالمية الثانية ، في معسكرات الاعتقال والملاجئ الجوية ، يتعرفون على بعضهم البعض ، كما يفعل الأطفال في قفص اللعب ، والذين لديهم هبة بديهية بسيطة ، في معرفة من يمكنهم الوثوق بهم.

وفي عصرنا القلق ، فإننا نشعر بأننا نملك نفس الظلال المخيفة ، والتي كانت تطارد إنسان العصر الحجري ، وقد نتفاعل معها من خلال التصرف ، ومثلما كان يفعل أسلافنا الأبسط.

التنكّر، التمويه والتماهي، والخداع

هناك نمط مختلف عن الخوف ، وهو التمويه والتخفي-وهو لعب الغميّضة مع القدر. وغالباً ما يُنظر إلى هذه الخدع الواقية المفيدة في الحيوانات الدنيا ، والتي تكتسب مؤقتاً ، شكل أو لون بيئتها.

إنه مثل التمويه العسكري. حيث يتعرف الجميع على تغيرات الألوان كما

تفعل الحرباء ، وحيث أن هناك العديد من الحيوانات الأخرى ، التي تستطيع تغيير شكل ولون جلدها ، أو جسمها في أوقات الخطر.

ومع ذلك ، لا يدرك العديد من الناس أن جلد الإنسان ، يُظهر أيضاً محاولات بدائية للتمويه. فظاهرة لحم"الاوزّة" تشبه رد فعل قطة خائفة متمردة. كما في الشيب المفاجئ الذي يصيب الشعر ، أو تغير لون الجلد ، والذي يعرف تقنياً بخشوف الخوف ، حيث يؤدي إلى تغيّر لوننا الخارجي. كنت قد ذهبت ، خلال الحرب العالمية الثانية ، مع فريق الإسعافات الأولية إلى مدينة"روتردام" بعد تعرض المدينة للقصف الشديد.

وعندما نظرنا إلى الناس ، كان انطباعنا الأول بأنهم كانوا جميعهم يرتدون أقنعة. فقد تجعّدت جلودهم ، وأظهروا حالة من ردة فعل التمويه النموذجي. في حين كانوا جميعا ، لا يزالون خائفين بشدة ، وتحت تأثير الصدمة.

وقد بدا الأمر ، كما لو كانوا مختبئين من جحيم النار الهائل الذي ألقي عليهم. هناك نفسية موازية لهذه التفاعلات الفيزيائية. ويطلق عليها تسمية نمط "المتظاهر" أو "المموه الخادع" أو "الباهت". كما وينظر علم النفس الفعلي إلى كل من ردود الفعل ، "التظاهر" و"المموه" كتراجع سلبي عن الواقع.

في حين أن هذا التفاعل يشابه تأثير الصدمة ، أو عصاب المعركة ، والتي تعتبر دراستها واحدة من أكثر فصول الطب استيعابا.

وبالتالي ، يمكن للجندي ، والمدني على حد سواء ، الدخول في حالة من الشلل العقلي. وفي مثل هذه الحالة ، تصبح الضحية غير مبالية ؛ فهو غير قادر على التحدث ، أو التحرك. كما ولا يوجد–بالنسبة له– واقع أخطر من الذي فيه بعد الآن.

لذا ، فهو يبدو ميتا. في حين تبدو عيناه المحترقان فقط ، على قيد الحياة.

وغالباً ما يكون لموقف الموت هذا ، أو رد الفعل المؤلم ، تأثير مرعب على المارة أيضا. إذ لا يوجد شيء معدي مثل الإغماء في أي مكان مزدحم.

وهكذا ، فإنه ، ومن الأهمية القصوى بمكان ، أن ندرك كيف يمكن أن يصبح حال الأشخاص السلبيين ، والمصابين بالشلل واللامبالاة ، والخاضعين تحت ظروف يجب أن تتطلب أقصى درجات النشاط.

يستخدم الاستبداديون رد فعل الإنسان السلبي للإرهاب عندما يضعون سجناءهم في معسكرات اعتقال ضخمة ، ومع عدد قليل من الحراس فقط. وهم يراهنون على أن رد الفعل السلبي سيُبقي الضحية خارج حدود التفكير بالثأر ، أو محاولة الهروب. لأنه مثل الطير الذي يقف متجمدا في قفصه ، عندما يقترب الثعبان ، إذ يمكن للإنسان أن يستسلم وبشكل سلبي ، لما يخافه ، ويخشاه ، وذلك من أجل التخلص من توتر الترقب. في حين أن اللص الذي يستسلم طوعا للشرطة ، إنما يفعل ذلك لأنه لا يستطيع تحمل التوتر ، وعدم الأمان ، ولعدم معرفة متى سينكشف أمره ، ويعتبر ذلك مثالا واضحا.

كما يكمن رد الفعل التمويهي النفسي وراء الصدمة العاطفية ، والذعر الصامت ، كالشلل العقلي الذي يتغلب على بعض الناس عندما لا يستطيعون التعامل مع الظروف التي يجدون أنفسهم فيها.

فالاستسلام السلبي لما يخشاه الانسان ، هو أحد ردود الفعل الأكثر شيوعاً لدى الإنسان تجاه الخطر المفاجئ ؛ ولا يقتصر ذلك على الشخصيات المرضية.

كما يحدث هذا في كثير من الأحيان أكثر من الذعر الشديد سواء كان مستترا ، أو علنيا ، ويعرض نفسه في العديد من آليات السلوك الخفية.

فقد يهرب الناس إلى الشكاوى المتعلقة بالأمراض الجسدية. وقد يلجؤون إلى المهام والهوايات الزائفة"المهمة جداً". وقد ينكرون خطراً حقيقياً في حالة التهاون ، والذي يبدو وكأنه يثبت نفسه بنفسه. فهم يصبحون عنيدون ، وغير مطواعين. ولا شيء يمكن فعله حيال ذلك.

كما أنهم لا يهتمون بالسياسة. وسيحاول البعض أن يبيع لنفسه ، والآخرين ، نظرية شل اليأس ، وحتمية الموت.

ولكن دون التطرق حتى للحديث عن القنبلة النووية! إذ سوف يلقي آخرون أنفسهم في غياهب النسيان من الإفراط في إدمان شرب الخمر، أو إخفاء أنفسهم في مؤتمرات طويلة، وعديمة الجدوى.

وهكذا، يمكن القول بأن لدى كل انسان خط"ماجينو Maginot" الخاص به، وهو حصن عقلي يعتقد بأنه مصون.

وقد اعتدنا أن نسمي هذه السياسة بسياسة طير النعام-وسياسة النعام هي واحدة من أكثر الاستراتيجيات خطورة في العالم.

فحذار من الاستبداد الذي يبشّر بالسلام. فقد يكون نيته دفع العالم إلى استسلام سلبي إلى ما يخافه.

كما ان عبادة السلبية، وما يسمى بالاسترخاء، هي واحدة من أخطر التطورات في عصرنا.

وبشكل أساسي، قد يمثل ذلك أيضاً نمط التمويه، والرغبة المزدوجة في عدم رؤية المخاطر، وتحديات الحياة وعدم رؤيتها.

ولكن لا يمكننا الهروب من جميع التوترات التي تحيط بنا. فهي جزء من الحياة، وعلينا أن نتعلم كيف نتعامل معها، سواء شئنا ذلك أم أبيناه.

كما علينا التصرف حيالها بشكل مناسب، واستخدام أوقات فراغنا لأنشطة أكثر إبداعاً ومرضية.

فالاسترخاء الصامت والوحيد-مع الكحول والحلويات، وشاشة التلفزيون، أو لغز جريمة القتل-قد يُهدئ العقل ومن ثم ليقوده إلى سلبية، قد تجعله-تدريجياً-عرضة للإيديولوجية المغرية لبعض الأعداء الذين يخشونهم.

في حين أن إنكار خطر-الاستبدادية من خلال السلبية، قد تجعل الانسان يستسلم -تدريجيا- لارتباطاته لأولئك الذين كانوا يخافون منه في البداية.

الذعر المتفجّر

معظم الناس على دراية أكثر بالتفاعلات الحركية المتفجرة ، والتي نسميها الذعر والتدافع أكثر مما هي عليه مع ردود فعل الخوف الأخرى. وهو ما نسميه "الهستيريا الجماعية".

فقد يعاني الطفل من نوبات الغضب ، ويصاب كبار السن بردود فعل غاضبة وغير متحكم فيها ، و"ردود فعل حول القتال أو الهروب".

فعلى الرغم من أننا عادة ما نفكر في كلمة "الذعر" بوصفها ظواهر مثل "التدافع الهستيري" من مسرح محترق ، أو هروب مجموعات سكانية كاملة من ماكن سكناها خوفا من الإرهاب ، فهناك العديد من الخطوات الدقيقة ، والتي تقود إلى الأعراض الأولى للاضطرابات التي نشعر بها جميعاً عند حدوث تهديد ما ، كنداءات كبيرة من البكاء والجري ، والقتال ، والتي نراها في حالة من الذعر الشديد.

كما يُظهر الإنسان أشكالاً كثيرة من السلوك المحموم ، والهستيري-كنوبات الصرع(كما في الخندق ، أو صرع الحرب) والغضب ، والتذمر ، وتدمير الذات ، والعدوان الإجرامي ، والهروب من الجيش ، والشغب ، والاندفاع غير المنضبط ، والسرعة الفائقة في القيادة.

وقد يتصرف جندي في حالة ذعر ، مثل طفل غاضب. فقد يهاجم أصدقائه ، أو يطلق النار على أفراد قواته الخاصة. كما انه ، وعند وقوع حالة من الذعر ، قد يبدأ المدنيون في البكاء ، والصراخ ، والركض بلا هدف ، وهم يلوحون بأيديهم. أو قد يصرخون ، ويصرخون ، أو يبكون لطلب المساعدة.

وحيث أن الشخص المذعور ينشر الذعر. وفي كل مرة يصرخ فيها ، فهو يحرض الآخرين على الركض أيضا. في حين أن الذعر ليست مسألة طاقة خام ، أو طاقة فاشلة أبداً ، بل مسألة نقص في البنية الداخلية ، وقدرة فاشلة على التنظيم. كما في تردد الزعيم المذعور في استخدام الصلاحيات الموكلة إليه.

وبالتالي ، فإن شخصية الطفل مع نوبات الغضب ، تكمن في أعماقنا جميعا.
ولذلك ، فكلما كان الخطر أكثر غموضاً ولا يمكن محاسبته ، كلما كانت ردود أفعالنا أكثر بدائية.

كما وتؤدي أعمال الشغب والحركة الجماهيرية الغاضبة ،وتفشي الجريمة ، إلى زيادة الخوف والذعر ، وبالتالي يمكن استخدامها لتعميق شعور الإنسان بعدم الأمان ، وزيادة استسلامه السلبي إلى البيئة الاستبدادية الشمولية.

وفي حين أن أي نظام إرهاب يرغم ضحاياها على قمع ردود أفعالهم المتمثلة في التمرد والغضب.

فكلما تم قمع ردود الفعل هذه ، كلما تعرض الضحايا لغضب داخلي هائل ، وحيث يجب عليهم أن يتحملوا وقته وينتظروا حتى يُسمح ببعض أشكال التفجير المقبولة اجتماعياً.

ولذلك ، فغالباً ما تكون الحرب ذعراً عالمياً ، وتصريفا جماعيا للغضب الداخلي المتراكم.

وهنا أيضا ، يتم التخلص من المخاوف الداخلية للبشرية في الدمار الشامل.

انهيار وظائف أعضاء الجسم

لا بد من القول بأن المجموعة العظيمة من التفاعلات النفسية الجسدية ، وعلى الرغم من أنها ليست لغزا ، إلا أنه من الصعب تفسيرها.

ولذلك ، دعونا ننظر إلى مثال قد يجعل هذه الظاهرة أكثر وضوحا.

في مدينتي في"هولندا" وبعد قصف قليل خلال الحرب العالمية الثانية ، اندلع وباء مرض المثانة-على الأقل كان هذا هو التفسير الأول.

فقد عانى الناس من الحاجة للتبول في كثير من الأحيان ، ولدرجة أن نومهم قد أصبح قلقا ، ومزعجا.

ولم يكن أحد تقريباً ، يستطيع أن يستريح ليلة كاملة.

كما أنه ، ولفترة قصيرة ، كانت هناك طفرة في ممارسة أطباء المسالك البولية.

ثم كان الأطباء النفسانيون قادرين على توضيح أن هذا الحافز للتبول ، كان أحد ردود الفعل الأولى على الخوف.

ولذلك ، فقد كان على الضحايا فقط ، أن يفكروا ، ومرة أخرى ، في طفولتهم ، وأن يتذكروا ردود فعلهم الجسدية قبل إجراء الفحوصات في المدرسة لمعرفة ما كان يحدث.

كما ويمكن وصف زيادة التبول ، بأنها واحدة من أجهزة خفض التوتر في الجسم.

فقد يتفاعل الجسم مع الخطر ، والذعر ، ومع مجموعة متنوعة من الأعراض الجسدية. كما أن العرق ، والتبول المتكرر ، وخفقان القلب ، والإسهال ، وارتفاع ضغط الدم ، ليست سوى عدد قليل من الأعراض.

فنحن نعلم أن العديد من ردود الفعل هذه ، مرتبطة بتعبئة الجسم لدفاعات محددة ضد الأخطار المهددة. كما أن الطرق المحددة التي تتطور بها الأمراض الجسدية المرتبطة بالخوف والقلق ، ترتبط ، وإلى حد كبير ، بتاريخ الحياة الشخصية للفرد ، وخاصة تطوره خلال مرحلة الطفولة.

فالرضيع الذي يكون في وقت مبكر ، وغارقا في التوق إلى وضع رضاعة الحليب في فمه ، فإنه–ومع مرور السنين–سوف ينمو يتحول إلى شخص بالغ ، والذي سيحاول ملء فمه مرة أخرى ، وبمجرد حدوث شيء يهدده.

ولذلك ، فقد أصبح الإفراط في تناول الطعام بالنسبة لذلك الإنسان يعمل كنوع من أجهزة تهدئة الخوف لديه.

كما أنه في عملية تربية الطفل ، يقوم الوالد بتدريب بعض أعضاء الطفل ، وعن غير قصد ، على التفاعل مع توترات الحياة.

ولأن الإنسان لديه العديد من الأعضاء الجسدية ، فيمكنه إظهار تنوع هائل في استجاباته الجسدية ، والعاطفية للتهديدات ، سواء كانت من الخارج أو من الداخل.

كما يميز الطب النفسي الجسماني بين أنواع مختلفة من الشخصيات ، وذلك من حيث الأعضاء المختلفة التي تستجيب للإجهاد الخارجي أو الخطر.

وعلى سبيل المثال ، فهناك نوع من قرحة المعدة ، ونوع من الربو ، ونوع من التهاب القولون ، ونوع من فشل القلب.

كما أن كل واحد من هذه الأنواع المرضية يظهر رد فعل مختلف على نفس المعركة-المعركة ضد الخوف.

في حين يمكن التعبير عن مشاعر التوتر الاجتماعي في الأمراض العضوية المختلفة. ففي حالة الخوف الشديد ، تكون بعض أعضاء الجسم أكثر تفاعلاً من غيرها.

وكما رأينا في مثالنا السابق ، فإن الحاجة إلى التبول المتكرر ، هي ردة فعل شبه عالمية على الخوف. في حين أن "اضطراب المعدة" هو رد فعل خوف عالمي آخر.

كانت الفرق الطبية خلال الحرب العالمية الثانية ، تحاول عبثا البحث عن الخلل الذي يتسبب في مرض معوي غير معروف بين الجنود الأمريكيين ، والذين كانوا يستعدون للهبوط في واحدة من جزر العدو في المحيط الهادئ. وقد بحث الأطباء ، وعلماء الأحياء ، وفتشوا ؛ ولم يعثروا على شيء. فقد اختفى المرض الغامض ، كما ظهر فجأة ، وبعد أن بدأ الغزو ، وتمكن الجنود من تفريغ شد الانتظار للاحتلال. لم يكن هؤلاء الرجال غريبين ، أو غير عاديين ، بأي شكل من الأشكال. وحتى عندما يقبل أحد بوعي تحدي الخطر ويكون مستعداً لمواجهته ، فإن القوى المضادة في الجسم قد تهزم الجهد العقلي. وذلك لأن العقل يريد أن يكون شجاعاً ، ولكن الجسم ينجو من المرض.

في حين أن تناسق تربية الأطفال ، والأمن العاطفي في المنزل ، والتكيف الدائم للقبول بمختلف تحديات الحياة-كل هذه العوامل ، هي التي تحدد كيف سنرد عندما نخضع للاختبار.

وهكذا ، وفي علاجهم للجنود المذعورين خلال الحرب الأخيرة ، فقد أعطى الأطباء النفسيين بعضا من وقتهم لتفسير ردود الفعل المختلفة للخطر.

فعندما بدأ الضحايا في فهم ردود أفعالهم ورأوا مدى شيوعها ، وأخذوا الخطوة الأولى ، والأكثر أهمية نحو العلاج. فلم يعودوا يخافون من مخاوفهم. ولم يعدوا في رعب من الجُبن. وكان من المهم بالنسبة لهم ، أن يعرفوا أن ما كان قد أدى بهم إلى مستوى الطفولة العاجزة ، وكان جزءاً من نمط عالمي من السلوك الدفاعي.

كما فهموا ذلك ، وقد أصبحوا أقل خوفاً ، وخجلاً من مخاوفهم الخاصة.

وكانوا يعرفون أن أجسادهم كانت تتفاعل كالكثير من الآخرين ، وأصبحوا قادرين مرة أخرى ، على قبول واجباتهم بهدوء وبسيطرة أفضل.

كما وأصبحوا يعتمدون على القدرة على الاحتمال ، والقدرة على الاعتماد على المعرفة الذاتية ، بقدر ما يعتمدون على المساعدة والدعم ، والتي نحصل عليها من الآخرين. كما انه في أوقات التوتر والنكبات ، يبدأ الناس بالتحقيق في النقاط الضعيفة ، ونقاط الضعف في كل من أصدقائهم وأعدائهم على حد سواء.

في حين يستمر هذا الاختبار باستمرار خلال الحرب الساخنة ، ولكنه يحدث أثناء الحرب الباردة أيضاً. وحيث تمارس الحرب الباردة ضغطاً مستمراً على خيال الإنسان والثبات العقلي ، وهي سبب العديد من ردود الفعل السريعة على الهروب أو ردود الفعل الجسدية.

كما أنه ، وعندما يواجه الخوف والخطر ، يجب على الانسان أن يختار:

هل ينغمس في غضب لا ضابط له؟ وهل سيركز على الحماية الذاتية؟.

أو هل سيقبل مسؤولياته؟.

تُظهر ردود الفعل التي وصفناها حول الخوف ، كيف أن الدافع الأساسي للحماية الذاتية(على الرغم من أنه قد يكون مضللاً) يمكن أن يكسر جميع دفاعاتنا الحضارية.

ولذلك ، فإن التدريب فقط ، ومن ثم الإعداد الواعي للخطورة ، الداخلية والخارجية على حد سواء ، يمكن أن يعطي الإنسان القوة للسيطرة على ردود الفعل في الاختيار.

كما ويبدأ هذا التدريب داخل نواة الأسرة ، ويدعمه مثال المجتمع السلمي الحر. وهؤلاء هم المعلمون الأوائل في المعركة المستمرة بين الخوف الداخلي والخطر الخارجي.

كما يمكن مساعدة أولئك الذين يواجهون خطر غسل دماغ ببساطة عن طريق جعلهم على دراية بالحقائق.

في حين يكون للمعرفة وظيفة حماية جزئية ، وهذا ينتمي إلى أفضل أمان يمكننا تقديمه لهم.

ولأنه يأخذ التأثير الضعيف للتوقعات القلقة ، والغامضة بعيدا.

ولذلك ، فإنه ، ومع هذه المساعدة ، يتم تعزيز ضعفهم الذهني ضمن قوة داخلية ، وعلى سبيل المثال ، كالتربية الجيدة ، والتحدي ، والفرصة التي يعطيها مجتمعهم لهم.

الجزء الثالث

الشفقة غير المزعجة

لقد أصبح من المؤكد فيما يتعلق بمسار التحقيقات المتعلقة بالسيطرة على الفكر ، وتشويه العقل ، والتطهير ، أنه لا بد من إعارة المزيد من الاهتمام ، إلى الوسائل التي تم إعدادها من قبل الأفراد لتقديم التقارير عن العقلية.

كما انه يمكن للشفقة ، والتنمية الشخصية والتأثيرات الثقافية المختلفة أن تجعل الانسان أكثر عرضة للاقتداء والهجوم الديكي.

وفي الجزء الثالث ، أطلب من القارئ أن يلفت انتباهه إلى اختلافاتنا في التكنولوجيا والتقنية ، وكيف يمكن لأفكار الدفع المسبق ، والوفد الجماعي ، أن تتعرض لتأثير أدمغتنا ، وقبل أن ندرك ذلك.

يستدعي الفصل الأخير ، واستفساري حول الخيانة والولاء مرة أخرى ، إلى انتباهنا حول التأثير الزائف للتأمل في أفكارنا الشخصية عن الولاء.

الفصل العاشر

الطفل هو أبو الإنسان

لقد حان الوقت لنسأل أنفسنا ما إذا كان من الممكن أن يكون هناك شيء ما في نمونا وتطورنا ، والذي قد يجعلنا أكثر عرضة للتطفل العقلي ، ومن ثم إلى غسل الدماغ في نهاية المطاف.

فهل هناك ، على سبيل المثال ، احتياجات قسرية خاصة فينا؟.

وما الذي يتم توصيله وتعليمه ، للطفل الذي قد يبقيه سجيناً روحانياً في بيئته؟.

هذه أسئلة مهمة ، وتتطلب تحقيقاً فلسفياً وتعليمياً شاملاً.

إلا أنه ، ومع ذلك ، ولأغراض عملية ، قد نحصر اهتمامنا على مجالين مختلفين من التطور ، وهما:

١-تأثير الوالدين.

٢-تأثير بعض العادات الاجتماعية.

وقد تم التحقيق حول ذلك بالفعل ، في الجزء الثاني من هذا الكتاب.

ولذلك ، أجدني ، بأنه لا بد لي ، في الواقع ، من أن أكرر بأنه ، ومن خلال تجربتي ، فإن كل أولئك الذين تلقوا تعليمهم بموجب قواعد صارمة للغاية من الطاعة والتوافق ، تتحلل بسهولة أكبر تحت الضغط.

فخلال الحرب العالمية الثانية ، وعندما تم استجواب ضباط ينتمي إلى فرق الموت الخاصة بالدكتاتور"هتلر" فقد كان ذلك صعبا عليهم بعد أن أصبحوا هم السجناء ، فاستسلموا بسهولة ، وباحوا بأسرارهم العسكرية.

وبعد أن عاشوا لسنوات تحت القيادة الشمولية الاستبدادية ، فقد كانوا مطيعين جدا للأصوات القائدة الجديدة.

وفي بعض الأحيان كان علينا فقط تقليد الأصوات الصاخبة لأسيادهم ، فقد كانوا على استعداد بتبادل رئيسهم السابق من أجل الجديد.

ولذلك ، وبالنسبة لهم ، فقد أصبح كل أمر ، هو الدافع التلقائي للطاعة الجديدة المطابقة.

وفي تعاملنا مع أعضاء الحزب الشيوعي في هذا البلد ، فقد كانت لدينا تجربة مماثلة:

حيث كان الأعضاء مستسلمين سياسياً ، وقد غيروا استراتيجيتهم الحزبية المعوقة ، إلى مجموعة معاكسة من التكتيكات ، وفي اللحظة التي أمرت فيها "موسكو" منهم بذلك.

كيف يمكن لبعض أنظمة الاستبداد أن تتطور.

لقد أولي اهتمام متزايد للحوافز النفسية المختلفة التي أدت إلى نشوء التطرف السياسي ، والعقلية الشمولية الاستبدادية لدى الرجال والنساء ، والذين نشأوا في جو ديمقراطي ، ولكنهم اختاروا طواعية أن يربطوا أنفسهم ببعض الأيديولوجية الشمولية الاستبدادية.

إن علماء النفس الذين تواصلوا مع الموقف الاستبدادي ، ودرسوا أولئك الذين يتأثرون به بسهولة ، يتفقون ، وبشكل عام ، على أنه في البلدان الديمقراطية الحرة ، يتم تحديد خيار الشمولية الاستبدادية ، ودائما تقريبا ، من خلال عامل الشخصية الداخلية-الإحباط ، إذا سوف تفعلها. فعادة لا يكون الفقر ، ولا المثالية الاجتماعية ، هي التي تجعل الإنسان شمولياً ، ولكن في الغالب ، هناك عوامل داخلية مثل الخضوع الشديد ، والمازوشية من جهة ، أو شهوة السلطة من جهة أخرى.

ولذلك ، يلعب التنافس بين الأخوة غير الملتزمين ، دوراً أيضاً ؛ وقد عالجت العديد من المتعاونين مع النازيين ، من الذين كان سلوكهم السياسي مدفوعاً ، وإلى حد ما ، بحقيقة أنهم الأبناء الأكبر سناً ، ولا يمكنهم تحمل المنافسة مع إخوانهم الأصغر سناً.

وبالتالي ، فإن كل هذه العوامل ، تساعد على تفسير لماذا يمكن للشماليين في كل مكان أن يستخدموا دعاية العنف الخاصة بهم ، ولاستغلال الاستياء والكراهية والعنصرية والغضب السياسي.

إنهم يعلمون أنه عليهم فقط اللعب على هذه المشاعر غير الناضجة للحرمان وعدم الرضا لإحضار الناس تحت النص الإملائي.

وفي تجربتي الخاصة ، لقد دهشت لرؤية مدى أن غير الواقعية ، هي أسس الخيار السياسي بشكل عام.

ونادراً ما وجدت شخصاً اختار أي حزب سياسي معين-ديمقراطي أو استبدادي-من خلال دراسة ومقارنة المبادئ.

كما أنه ، وفي كثير من الأحيان ، يتم تحديد اختيار الإنسان لانتماءاته السياسية عن طريق اللامبالاة ، ومن خلال التقاليد العائلية ، وبالأمل لتحقيق مكاسب مالية ، أو بعوامل أخرى غير ذات صلة.

وهكذا ، فإن هذا النقص في الدوافع العقلانية ، يمكن أن يجعل الناس أكثر عرضة للإغراءات الشمولية الاستبدادية ، وحتى في المجتمع الديمقراطي.

وأتذكر بوضوح شديد ، على سبيل المثال ، طبيب هولندي ذهبت معه إلى كلية الطب. والذي وقع في حب ابنة شيوعي ، وتزوجها في النهاية.

في البداية كان منزعجاً من الصراع بين مبادئه وعشقه ، ولكنه ، تدريجياً ، استلهم مبادئه ، وبدأ في تبرير خط سير الحزب.

وقد كنت التقيت به في وقت لاحق ، ومن ثم من وقت لآخر.

لقد كان طبيباً ممتازاً وزميلاً مرحباً به ، وقد أخذ مساعينا نصف الخطيرة عن

سياسته في جزء مهم منها. ولكننا ابتدأنا فيما بعد نناقش الأمور بمزيد من الجدية حقاً ، فقد تحول إلى رجل آخر ، و مختفا تماما ، حيث جلس في ركنه الدفاعي الرسمي ، وأصبح رجلاً مختلفاً-حامضاً ، وميكانيكياً ، و يوزع الحجج الجاهزة.

وقد كنت ألتقي به خلال الحرب ، وبشكل متكرر في سياق عملنا المشترك تحت الأرض.

لقد كان منزعجاً تماماً من اتفاق"ستالين" مع "النازيين" ، ولكن في اللحظة التي غزت فيها روسيا وأصبح حليفاً له ، بدأت مظاهره الخاضعة و العدوانية بالظهور مرة أخرى. فعلى الرغم من أنه لم يكن فقط مقاتلاً قوياً ضد النازيين ، ولكنه أصر على أنها كانت الطريقة الوحيدة للقتال.

ولكنه فقد حياته في مهمة خطرة فوق الأرض ، وكان لدي دائماً ، شعور بأنه كان مرحباً به لمشاعره الانتحارية الكامنة.

كما وقد رأيت بعض الأمثلة الدراماتيكية في كل من النازيين والشيوعيين الآخرين ، وعلى حد سواء ، وعن كيفية أن الاستياء الشخصي ، خارج معاناة الظلم الحقيقي ، يمكن أن يقود الإنسان إلى جانب الثوار.

وقد كان بعضا هؤلاء الناس ، من النوع الذي قدم ، وببساطة ، وبشكل سلبي إلى حركة أقوى منهم-رجالا ونساء حيث كانت أيديولوجيتهم تعتبر انعكاسا لأي جانب كان قد التقطهم أولا.

كما كانت دوافع الآخرين ، بسبب الحاجة للتنفيس عنهم ، هي الغضب ، والاستياء الشخصيين في بعض الاتجاهات ، واستخدام الإجراءات السياسية لتلبية هذه الحاجة.

ولكن إذا أردنا الوصول إلى أي فهم حقيقي للعوامل الداخلية التي تقود الإنسان إلى تبني أيديولوجية شمولية استبدادية ، فإنه يجب أن نحفر أعمق قليلاً من هذا ، ويجب أن نولي اهتمامنا لبعض الجذور الأساسية لهذه المشكلة.

الحضانة المقولبة

أحد الأشياء المهمة التي تعلمناها من علم النفس الحديث هو أن جذور العديد من مواقفنا ومشاكلنا كبالغين ، تكمن في العودة إلى الوراء ، وفي حالة هدوء سنوات الحضانة والأطفال.

ولذلك ، فقد تبدو حياة الطفل هادئة ومتناغمة ، ولكن منذ لحظة ولادته ، فإنه يبدأ يسمع آلاف كلمات التذمر ، سواء أكان ذلك من باطن عقله ، أومن العالم الخارجي.

فحين كان لا يزال في رحم أمه ، لم يكن يعرف الحرارة ، ولا البرودة. أما الآن ، فإن بشرته تنقل هذه الأحاسيس له.

وبينما كان آمناً ضمن جسد والدته ، ولم يكن عليه حتى أن يتنفس ، أو يأكل أو يفرز. أما الآن ، فيجب أن يفعل كل هذه الأشياء بنفسه.

وبالتالي ، فإنه يحتاج إلى المساعدة في القيام بها في بادئ الأمر ، وحتى يعتاد على أدائها لوحده ، كما أنه بحاجة إلى الحماية ، ومن أجل هذه الحماية والمساعدة ، يجب عليه الاعتماد على العمالقة الكبار ، الأم والأب.

ولذلك ، فهو معتمد على الآخر تماماً ، وبشكل كامل ، وغير قادر على العثور على استجابات ملائمة لاحتياجاته. هناك ، ومع وسائل التكييف المحدود له ، ومع الحد الأدنى من أنماط العمل الفطرية.

الدفء والغذاء ، والمحبة ، والأشياء التي تحتاج للحفاظ على حياته ، وتأتي إليه عندما يفعل "الصحيح". شيء والشيء الصحيح هو علم ، الشيء المتحضر ، وليس الغرائبية ، شيء بدائي.

أما العمالقة والديه ، أو الأوصياء عليه ، فإنهم يبدؤون بقولبة ذلك الطفل ، وفقا لعاداتهم الخاصة ، ويجب أن يُقدّم إلى كل العادات الخارجية ، بل وأن يطالب —وعلى شكل صراخ في بعض الأحيان— ليحصل على ما يريد من الاحتياجات.

كما يتعلم كيف يجب عليه اتباع مئات من القواعد التربوية الخفية ، وغير

المفهومة ، وذلك من أجل أن يتم التعامل معها بالمودة والحماية التي يعتمد عليها.

وهكذا ، فإن كل هذا سيحوله لكائن متعايش مع بيئته ، وإن بنسب متفاوتة سواء كان ذلك أقل امتثالا أو أكثر. كما إنه سيستوعب أخلاقيات والديه ، كما هي ، وستتحول لتصبح قوة دائمة في داخله. فهو مطبوع بكل أنواع العادات ، والتي تخدمه ليصبح شكلاً معيّناً من التكيّف ، وهو الذي يفكّر به أبواه ومجتمعه له.

كما أن النماذج التي سيأخذها سلوكه البالغ ، تنبئ بها الأشكال التي يتخذها سلوك والديه. فالأم الصبورة ستورث الصبر لابنها ، بينما ستورث الأم المتوترة ، ذات التوتر إلى ابنها ، وكذلك الأم التي تعاني من المشاعر القهرية ، والتي ستلقي بظلالها على مشاعر ابنها فيصبح متوترا.

وكذلك ، فإن الطفل الذي يولد في كنف والديه اللذين منحاه الكثير من الحب والرعاية ، فإن ذلك الحب سوف سنطبع في ذاكرته ، وعقله الباطن ، وستتكون لديه صوره الداخلية عن الحب والعطف ، ولذلك ، فإنه سيكون أفضل قدرة على قبول جميع القيود والأوامر التي يضعها الآباء في المنازل ، وعلى حرية الإقامة ، وجميع القواعد التي توضع ضمن العائلة.

كما وسوف يقبل كافة الجداول الزمنية ، والتدريب على الدخول إلى المرحاض ، والارتباك الأبوي ، دون الكثير من الاحتجاج الداخلي ، وحتى عندما تتعارض احتياجاته مع هذه المطالب الاجتماعية.

فقد يرغب في أن يتناول طعامه في اي وقت ، وحسب جدوله الخاص ، إذ لا ينبغي أن يكون جائعا. وقد يرغب في النوم عندما يكون والداه ، مستيقظان.

كما أن احتياجات المجتمع ، تطلب منه أنه يتعلم تأجيل إشباعاته الخاصة ، ولكنه سوف يستجيب إلى هذا الطلب بطريقة متوقفة على إحساسه بالأمن ضمن نطاق عاطفة والديه.

فالحاجة إلى الانتظار للحصول على الطعام ، وعدم السماح له بالرضاعة بعد

الآن ، واضطرار إلى التحكم بنفسه ، وكذلك حاجته إلى إفراغ كل هذه الأمور ، تتطلب من الطفل القيام بتكيفات جديدة ، وصعبة في البداية.

وحيث يجب أن تتحول رغبته في تحقيق الإشباع الفوري ، وغير المشروط لاحتياجاته إلى شيء أكثر تعقيداً-وهو نمط كامل من الاستجابات المتعلمة.

ليس من المهم بالنسبة لنا أن نصف هنا الطرق المختلفة التي تلتقي بها هذه الالتزامات الثقافية المبكرة مع الطفل. ولكن من المهم أن نفهم أن المهد ، والتغيير الذي يحدث أثناء فترة الحضانة ، والردود الفطرية الطبيعية للانطوائية الأولى فيه ، فإن الطفل البدائي ، سيتحول إلى قالب آخر يصنعه الكبار ، الذين قد تركوا طفولتهم ، مع إرث من الإحباطات الناجمة عن عملية القولبة هذه.

وهكذا ، تنجم المشاكل الفردية عن أنماط فردية لتربية الأطفال ؛ فهذه الأنماط ذاتها هي بحد ذاتها درجة معينة من نتاج التقاليد الثقافية التي تتجذر فيها ، وأعراف المجتمع الذي يولد فيه الطفل. ولدرجة أن مجتمعنا يفرض على الأطفال الإحباط ، والقيود ، والتي لا يكون مستعدا لها على الصعيد الجسماني البيولوجي ، أو على الصعيد العاطفي ، وإلى هذه الدرجة التي تمهد ثقافتنا الطريق لمشاكل السلوك لدى الكبار ، وللمواقف العصبية من الخضوع أو العدوان ، والتي قد تجد تعبيراً بالولاء لبعض الجماعات الاستبدادية.

فعلى سبيل المثال ، يمكن أن يبدأ بناء الطفل في موقف مذل وخانع ، وذلك عندما يقوم الوالدان بفرض تطبيق صبغة صارمة على قواعد السلوك التلقائية على الرضيع. وحيث يمكنهم جعله مرعوبا من عملية الذهاب إلى الحمام ، أو من خلال أسلوب تعليمه كيف يجب أن ينظف نفسه.

كما أنهم قد يجبروه على النطق في وقت مبكر جدا ، أو أن يفرضوا عليه البقاء صامتا ، عندما يكون مصابا بحكّة مزمنة ، تجعله ينفج بالبكاء الشديد حين يفقد القدرة على التحكل ، ولعلو صوت صراخه في أرجاء المنزل وإلى أن ينام منهكا ، أو ان يُفرض عليه أن يخلد إلى النوم ، وهو لا يزال مفعما بالطاقة ، واليقظة.

وهكذا ، فإن مثل هؤلاء الآباء يفرضون على أطفالهم شعوراً دائماً بالذنب ، فهو يشعر بالانزعاج ، وعدم السعادة في كل مرة لا يمتثل فيها لمطالبهم.

ولكنهم في نفس الوقت ، يجبرونه على حبهم حتى عندما يكونون غير سعداء أو مسرورين. وقد يجبرونه على الاعتذار عن السلوك الذي قد يبدو مقبولا تماما بالنسبة له ؛ فقد يطلبون منه الاعتراف بذنوب لا وجود لها ، والتي لا تعتبر ذنوبا لطفل في مثل سنه.

ولذلك ، فإن بعض تقنيات غسل الدماغ يمكن رؤيتها منذ فترة المهد. حيث يجوز للوالدين استجواب طفلهم بأي وقت ، أو ربطه بهم ، أو إبقائه تحت أعينهم باستمرار.

فهم ، وعلى الرغم من اهتمامهم اللطيف به ، لم يتركوه لوحده للتمتع بالشعور بالأمان مع نفسه.

وبالتالي ، يصبح الطفل العاجز في مثل هذه البيئة غير آمن عاطفيا.

وفي مقابل فإن الحصول على أمن أكثر أمناً ، يصبح أكثر توافقاً ومطابقة ، على الرغم من أن هذا السلوك المطابق يغطي احتجاجاً داخلياً وعداءً كبيراً.

فعندما لا يسمح الآباء للطفل بالتعبير عن احتياجاته الغريزية علانية ، ومباشرة ، فإنهم يجبرونه على البحث عن طرق أخرى للتعبير عنها.

وإذا كان أثناء تدريبه المبكر-الذي قد يبدأ منذ يوم ولادته- يواجه الطفل قيوداً لا نهاية لها على التعبير المباشر عن احتياجاته ، ولذلك ، فإنه سيحاول إيصال هذه الاحتياجات بطرق غير مباشرة ، وذلك من خلال التوتر والأرق والبكاء.

فبدلاً من أن يكون قادراً على استخدام المنافذ الطبيعية لحركاته الغريزية ، يُسمح للطفل ليشرح ، وليعمل فقط من خلال قمع تلك الحركات ، والتحكم فيها. كما أنه ، وفي كفاحه من أجل السيطرة على محركات أفعاله ، ومشاعره ، من أجل إرضاء والديه ، فقد تصبح وسائل الطفل الطبيعية للتعبير مقلوبة. وهكذا ، فبدلا من التعبير ، يكتسب القمع.

وهنا تكمن جذور سلوك الكبار مثل الخضوع المدقع ، والحافز للمطابقة.

وقد يتم تشكيل الأساس لهذا النمط"المازوشي" من العطاء في مرحلة الطفولة. في حين يكون التقديم والاعتراف ، هما الاستراتيجيتان الوحيدتان الممكنتان للطفل في عالم أكثر قدرة على التعامل معه.

وحيث يجب التعبير عن التمرد الداخلي ، والعداء ، والكراهية ، وبطريقة متناقضة. فصمت الطفل الجامد هو دليل على أنه يريد البكاء ، والصراخ.

كما أن يستطيع أن يوبّخ ويهاجم -بشكل غير مباشر- العالم العدائي ، وذلك من خلال الإيماءات السحرية أو السلوك المهول ، أو حتى من خلال نوبات الصرع.

في حين أنه قد يكون مضطرا لقمع حاجاته الغريزية في بعض الأحيان ، ووسائله ، لتحقيق الإشباع ، وقد يخفي وجودها حتى من نفسه.

وهكذا ، تصبح مطابقة السطح وسيلة الاتصال الوحيدة ، وعندما يحدث ذلك ، تكتسب الكلمات والإيماءات وظيفة إخفاء. فهو لم يقل أبدا ما يعنيه ، وهو لا يعرف حتى ما يعنيه.

كما أن حوامل العناية بالصغار ، والتي يقوم بها الكبار وفق تكيفاتهم ، ستنعكس دون شك على تربية الأطفال وبشكل واضح.

وبالتالي ، يمكن أن ينمو الطفل ، والمدرّب على التماثل ، وليصبح شخصاً بالغاً ، ومستعدا-مسبقا- ليرحب بذلك الارتياح الناجم عن المطالب السلطوية للزعيم الاستبدادي. إنه تكرار مرحب به لنمط قديم يمكن اتباعه ، ومن دون استثمار طاقة عاطفية جديدة. وهكذا ، فإنه ، وبعد أن تدرب منذ نعومة أظافره ، في السابق ، على تحويل عدوانه إلى كبش فداء ، يمكنه الآن أن يزيح استياءه الخفي من قواعد ولاء والديه تجاه المجتمع ككل. أو قد يجد طريقة لإطلاق سراحها في انفجار باهر من العدوان المكبوت ، والذي قد يتجلى من قبل الغوغاء من الضباط ، أو جنود"هتلر"العصاميين. أو حتى ضمن أشكال أخرى من

السلوك الأبوي والأمومي أيضا ، وتأثيرها على الطفل.

وهكذا ، فإذا تم تدريب الطفل ، وبشكل مبكر ، على العادات التي يمكن أن تتطور بشكل عفوي في سن متأخرة ، فقد يظهر جميع أنواع التشوهات في سلوكه الطبيعي. ويمكن اعتبار مثال تأثير التدريب في السن المبكرة على دخول المرحاض ، وهو مثال شائع ، ولكن هناك العديد من الأوامر الأبوية الأخرى التي يمكن أن يكون لها نفس التأثير على الطفل. كالطريقة التي يرتدي فيها الطفل ثيابه لوحده ، أو الطلب المستمر من الوالدين له لأن يكون دائما ، هادئا ، ونائما ، ومطيعا ، وهي أمثلة صالحة أيضا.

كما أنه ، وعندما يتم تطبيق أي أمر صارم للغاية ، وقبل أن يتمكن الطفل من التعامل معه ، فإنه يمارس تأثيراً محبطاً وبشكل هائل.

وإن ما تم فرضه على الطفل من قبل بعض القوة الخارجية ، سيتحول ليصبح قاعدة داخلية أوتوماتيكية وإلى إكراه. وهنا ، دعونا نعود إلى جلسة التدريب للحظة ، فعلى الرغم من أنها ليست سوى جزء واحد فقط من نمط التدريب بأكمله. يتعلم الطفل الذي يتدرب على التحكم في حاجته للتخلي في سن مبكرة جداً ، وليظل نفسه نظيفاً وممسكاً ، وتحت كل الظروف.

كما يتعلم جسده كيفية التحكم في نفسه تلقائياً ، ولكن في مكان ما بداخله ، يشعر الطفل بالازدراء من أولئك الذين أجبروه على القيام بهذا السلوك.

وقد يكبر ليصبح شخصاً بالغاً ، وعدائيا مزمناً ، وناضجاً لنداء بعض الأيديولوجيات العدائية أيضا.

ولكن في الحالات الأقل حدّة ، يمكن أن يؤدي الصراع بين المحظورات الخارجية ، والحاجات الداخلية إلى التخلي عن نمط مستمر من انعدام الأمن الداخلي. أو يمكن أن يؤدي ذلك إلى استياء متشدد ، ودائم ، والذي يمكن استخدامه بسهولة من قبل أي ديكتاتور محتمل.

ولذلك ، فإن ما يتعين علينا التأكيد عليه هو: أقرب شبكة اتصال بين ما

يمارسه الآباء والأمهات على ما يسميه علم النفس ، مستوى ما قبل اللفظي واللاواعي.

فهناك اتصال دون كلمات. حيث تنقل الأم أمزجتها مباشرة إلى الطفل ؛ والذي يستشعر بها ، ويلتقط مشاعرها. كما وينقل الطفل أيضاً إحساسه إليها ؛ فتشعر بألمه ، وأفراحه بمجرد أن يفعل. في حين أن هذه الحساسية لدى الطفل تجعله يتفاعل ، وبشدّة كبيرة-فهو على وعي عميق بمشاعر والديه.

كما أن مثل هذه العوامل الوالدية السلبية مثل القلق ، وعدم الأمان ، والمشاعر الطفولية ، والتنافر المتبادل ، والحب العصبي ، والفقر ، والنضال من أجل الوجود ، والاستبداد القسري ، كلها لها تأثير هائل على الطفل.

وقد كنت منذ وقت ليس ببعيد ، قد عالجت طفلاً كان يرفض أي عرض أو إغراء لكي يتناول طعامه من والدته فقد"عرف" الرضيع بأن الأم كانت تكن له مشاعر عدائية ؛ فشعرت بنفورها ، ورفضتها.

ولكن الرضيع يقبل الطعام والحنان من الجميع. وحيث يبدأ التفاعل بين مواقف الوالدين وتنمية الطفل عند الولادة.

ولربما يمكن رؤية واحدة من أكثر الأمثلة الواضحة على النمو المشوه ، وذلك من خلال حالة واحدة كنت أعالجها خلال الحرب العالمية الثانية ، وعندما طُلب مني القيام بدراسة نفسية لمتعاون مزعوم مع النازيين.

كان هذا الرجل ، والذي كان في إنجلترا عندما رأيته ، قد قال لي بأنه غادر "هولندا" والتي أصبحت محتلة من قبل ألماني النازية بعد ذلك ، لأنه لم يعد يتفق مع الغزاة الألمان.

ولكنه عندما وصل إلى إنجلترا ، كان ، كمسألة روتين حذرة ، يشك في كل من يرتاد منزله ، بل ويعتبرهم كجواسيس محتملين ، ولذلك كان يُخضعهم إلى نوع من التحقيق الخفي ، وحيث كان يشتبه بالجميع.

ومن هنا ، فسرعان ما أُخِذ إلى مركز صحي لعلاج امراض العقلية والنفسية

بسبب سلوكه الغريب.

على الرغم من أنه لم يكن يبدو عليه ، ظاهريا أن وكأنه يعاني من أية أعراض ، ولكن ذهنه كان مريضا ، بل ومزمنا ، ولذلك ، فقد واجه صعوبة كبيرة في التعامل مع الأشخاص الآخرين.

وعندما ذهبت لمقابلته فيما بعد ، فقد أصبح واضحا لي بأنه كان مرتبكا تماما.

كما كان يتهرب من أسئلتي ، واستفساراتي كثيرا ، ولدرجة أنه كان من المستحيل تقريبا فهمه.

وحين سألته عما يتذكره من فترة طفولته. لم يكن من السهل عليه التحدث عنها ، ولكنه أخبرني أخيراً عن خلفيته الطفولية. فقد كان الطفل الوحيد لوالديه. وكانت والدته عضوا مهيمنا في الأسرة ، وتعمل بنشاط في البحث العلمي. في حين كان والده ، وهو شخصية ضعيفة وغامضة ، نادرا ما يتواجد في المنزل. حيث كان يعمل كمدير في شركة كبيرة ، ولذلك ، فقد كان دائم السفر. ولكن في المناسبات النادرة ، وعندما يحدث أن يكون الأب في المنزل ، فإن المريض يتذكر هنا ، بأن أبواه كانا يظلان صامتين ، دون كلام ، ولا جدل ، ولا حوار ، كما وكان يسود الصمت بينهما لفترة طويلة ، على الرغم من أن والده كان يحتج ، في بعض الأحيان ، ضد أسلوب والدته المستمر ، من التوجيهات ، وإلقاء الأوامر بعصبية.

وفي بعض الأحيان ، كان ذلك الصبي يضطر للوقوف إلى جانب والدته ، وفي انتقاد انفصال والده عن العائلة ، وعدم اهتمامه ، ولكنه في بعض الأحيان ، كان يلجأ إلى والده من أجل بعض الحب ، وذلك بعد أن توفيت والدته. ولكنه كان في الغالب ، يبقى ضائعا ، ووحيدا في المنزل في ظل غياب والده المستمر.

وهكذا ، فقد طوّر ذلك الصبي ، في سن المراهقة المتأخرة ، بعض الشذوذ الجنسي ، والذي لعب فيه الدور السلبي الخاضع. ولكن تأثيره لم يتفاقم إلا بعد أن جعله أحد أصدقائه يحضر مسيرة "فاشية".

وهكذا ، فقد أثار إظهار القوة والعدوان ذلك الصبي ، وبشكل كبير ، وحتى أن ذلك قد أثار فيه الأحاسيس الجنسية أيضا. ولذلك ، فقد انضم إلى المجموعة "الفاشية" ، مما اثار الفزع الشديد لوالديه ، ولكنه لم يكن نشطا للغاية في العمل الحزبي ، لأن الحزب لم يوفر له الإرشاد والمحبة التي كان يتوق إليها.

وهكذا ، وبعد الغزو والاحتلال النازي ، طالبه الحزب بأن يكون أكثر نشاطاً ، وكمتعاونٍ مع الألمان. مما جعله يخالف مكنونات ضميره ، وهذا ما جعله مستاء ، وقد تفاقم هذا الاستياء ، تدريجيا ، في نفسه ليصبح مريضا ، ومن ثم ليتطور ذلك المرض إلى عدة أمراض أخرى ، ومنها قرحة المعدة الناجمة عن الضغوط النفسية ، وذات المنشأ العاطفي في الأساس ، مما جعله يراجع طبيبا نفسيا.

بيد أنه ، ومع ذلك ، لم يكن قوياً بما يكفي للانسحاب من الحزب تماماً. وبالتالي ، فقد شعر بأنه كان عالقاً بين خطيرين متعارضين-الحزب والخيانة.

وهكذا ، عاد نضال الطفولة لديه ليبدأ من جديد. وحيث بدأ يشعر بنفسه كشخص ضعيف ، وخائف ، وغير آمن لا مع الأب ، ولا مع الأم.

لذا قرر الفرار من البلاد ، لأنه كان لديه شعور غامض بأن ذلك سيساعده على الابتعاد عن صراعاته.

ولذلك ، فإنه ، وحين وصل إلى إنكلترا ، لاجئا ، فقد شعر بالرضا تماما. ولكنه ، ببساطة ، لم يكن يفهم الطبيعة الخطيرة للاتهامات الموجهة ضده.

وعندما تحدثت معه عن الشؤون الدولية ، والعالمية ، وعن نشاطه السياسي ، كان يغرق في صمته. كما لم يكن يتذكر أياً من تفاصيل سلوكه السياسي. فقد كان الأمر-بالنسبة له-كما لو أنه كان يعيش حالة حلم يقظة ، منذ اللحظة التي هرب فيها من"هولندا".

كما كان من الممكن تماما ، أن يكون العدو قد استخدمه كأداة ، ولكن في الوقت الذي رأيته فيه ، كان مجرد شاب يعاني من الذهان شبه الذهني. وقد مكث في المصح العقلي والنفسي طوال مدة الحرب.

وبالتالي ، فثمة شيء واحد يبرز ، وبوضوح في هذه الحالة(بصرف النظر عن تعقيداتها كظاهرة مرضية) وهو البحث المستمر للشباب عن السلطة ، وقوة التأثير. وهذا البحث هو العمود الفقري الروحي ، والشائع جدا بين الناس ، والذين يطورون مرفقات الاستبداد.

حين يقطع الأب الحبل

لقد أظهرت لنا الدراسات النفسية مرارا وتكرارا ، موقف الطفل تجاه السلطة الأبوية ، ومع كل المضاعفات الداخلية الخفية الناجمة ، تلعب الدور الأولي ، وتحديد كيف سيكون التعامل مع البيوت التي تحتوي على الأعمال العدائية ، سواء كانت العائلات تعلم كيف بتعامل معها ، أو لم تعلم ، وما إذا كان يتم توجيههم نحو الأهداف المدمرة.

وكما قلنا في وقت سابق ، فإن الآباء ، والأسرة ، يشكلون البيئة الكاملة للطفل ، وعلى الأخص ، خلال السنوات الأولى من الحياة. فهي الشرط الأساس لبناء خصيته في المستقبل. وفي الأسرة ، فإن الأب هو الذي يحدد ، عادة ، ما إذا كان الطفل سيلتزم بالعلاقات الطبيعية القوية مع أمه ، و احتياجات التبعية ، وكذلك احتياجات الحماية ، أو طريقة الخروج من هذا المجال ، حيث الأمهات هن اللواتي سيقمن بمهمة تشكيل روابط جديدة مع اشخاص جدد.

وهكذا ، فإن الأب هو أول من يقطع العلاقة البيولوجية الأساسية بين الأم والطفل. وهو ما يسميه المحلل النفسي أول رقم تحويل ، وهو أول نموذج أولي جديد يمكن للطفل أن ينقل إليه توقعاته عن الإشباع ، ومشاعره من الألفة ، والرضا ، فالخوف ، يمكن أن تصبح هذه أول علاقة تجريبية جديدة مع الأب ، في حين تصبح العلاقة مع العم هو النموذج الأولي لكل علاقة اجتماعية لاحقة.

كما أن العلاقة الأولية للطفل مع أمه ، هي علاقة بيولوجية ، وتكافلية بحتة. وحيث يتم استبدال الرحم بالسرير.

فالأم هي المعرفة ، وهي التي تستطيع القيام بكل شيء. ولذلك ، يصف

التحليل النفسي علاقة الطفل مع الأم كواحدة من التبعية الفموية ، لأن الطفل يكون عاجزا على أن يعتمد ، وبشكل كامل ، على الغذاء ، والرعاية والدفء الذي توفره الأم.

كما أن تبعية القليل من البشر ، تدوم لفترات أطول من الحيوانات الأخرى. وهذه الحقيقة هي التي تجعل من الانسان كائنا تابعا للقطيع ، ويعتمد على التعاون مع الآخرين.

وهكذا ، وحين يجلب الأب شخصاً ثالثاً ، ليس له دور في علاقة التبعية البيولوجية هذه ، في حياة الطفل. وعندما يقطع علاقة الطفل مع والدته ، يقطع الحبل السري النفسي تماماً ، وكما يقطع الطبيب حبل السرة الجسدية عند ولادة الطفل. والذي كان أولاً ، يعطي الطفل الفرصة لنقل المشاعر والتوقعات إليه ؛ ولكنه في وقت لاحق ، فإنه يجلب الطفل بنشاط أكبر خارج مجال الأمهات ، ويعلمه أكثر وأكثر حول العلاقات الاجتماعية. ولذلك ، فإن الدور المحدد للأب ، كنموذج أولي ، ليس بسيطا كما يبدو لكثير من الآباء.

فالأب ليس مجرد لعبة يستطيع الطفل لعبها من حين لآخر. كما ويحتاج الطفل للتمييز مع هذا العملاق الذي يعيش معه ومع الأم ؛ والذي يريد أن يصبح متآلفا مع هذا العملاق ، بل ويريد أن يصبح العملاق جزءا من عالمه.

وقد يريد الطفل أكثر من هذا-إنه يريد أن يستحوذ على رضا الأب حتى يتمكن من الاستحواذ على حب الأب بقدر ما يفعل ذلك مع الأم.

ولكن الطفل سينقل بعض محبته واستثماره العاطفي إلى الأب فقط إذا رأى شيئاً من الأمومة فيه. ولذلك ، يستطيع الأب أن يفعل الأشياء نفسها التي تستطيع الأم أن تقوم بها ، كأن يقوم بإطعامه ، ويمكن أن يتغاضى عنه ، ويمكنه أن يعتني به ، وبالتالي يمكن للطفل أن يحافظ على شعور الامتنان والعاطفة تجاه هذا الشخص الثالث.

ولكن هذا التحول لا يمكن أن يحدث بالمشاعر إلا عندما تكون العلاقة بين

الوالدين نفسها ، علاقة هادئة ، ومتوازنة. إذ كيف يمكن أن يتعرف الطفل على والديه ، ويحبهما ، وهما في نزاع دائم مع بعضهما البعض؟

إن هذه الصورة ، بالطبع ، هي صورة مُبسّطة للغاية. فهناك أمهات يتصرفن العكس ، وذوات عواطف جليدية ، فيما يتصرف الآباء بكثير من الحنية ، والحب ، وهنا تنقلب الأدوار ، فيصبح الأب أمومي العاطفة ، وحضنه دافئ كحضن الأم.

وبالإضافة إلى ذلك ، يوجد الأجداد ، أو الأبوان بالتبني ، والذين يستطيعون أيضا تولي مسؤولية التربية. كما أن هناك العديد من بدائل الأم أو الأب وعلى حد سواء. ولكن هذه ليست وجهة نظري. فوجهة نظري هي أنه ، وفي كل حالة ، يجب أن يكون هناك شخص ما ، يمكن أن يصبح نموذجاً أولياً لعلاقات الطفل مع الكائنات الجديدة ، ومع العالم من حوله. ولذلك ، فمن المرجح أن يكون هذا الشخص الأول هو الأب ، وهو الذي يغيّر اعتماد الطفل البيولوجي على العلاقات النفسية. فعندما لا يكون هناك شخصية الأب ، أو إذا كان الأب ضعيفاً جداً ، أو مشغولاً جداً ، أو أن ينكر اهتمامه ويطمس عاطفته تجاه الطفل ، فإن النتيجة ستكون في أن علاقة الطفل بالوالدة ، والاعتماد عليها ، ستظل قوية وستستمر لفترة طويلة جداً.

وبالتالي ، قد تصبح حاجة الطفل للمشاركة الاجتماعية ، والروابط القطعية مع الآخرين له حاجة مستهلكة. وكشخص بالغ ، قد يكون مستعداً للانضمام إلى أي مجموعة اجتماعية تعده بالدعم والطمأنينة. أو يمكن تحويل استيائه اللاواعي ضد الأب ، والذي لم يساعده على النمو والاستقلال ، إلى استياء ضد رموز السلطة الأخرى ، مثل المجتمع نفسه.

وعلى أية حال ، فقد يؤدي ذلك بالطفل إلى أن يتوجه إلى سوء التوافق والصعوبات. وسيؤدي ذلك ، بطبيعة الحال ، إلى أن ينمو الطفل ، ويتحول إلى شخص بالغ ، ولكنه يبقى غير بالغ.

وفي دراسة عن العيش بالوكالة ، فقد وصفت التطور العاطفي الذي تم التوصل إليه عندما لا يلعب الأب دوره الصحيح أو أن يكون غير موجودا.

فالطفل الذي نشأ في مثل هذا الجو العاطفي ، سيبحث باستمرار عن شخصيات قوية ، وقد تكون بمثابة وكيل للعلاقات العادية ، والتي كان يمكن للطفل أن يعيشها في الحياة.

وقد تعاملت مع العديد من حالات الشذوذ الجنسي ، وأشكال أخرى من التنمية المجهضة ، سواء في الرجال أو تلك التي لدى النساء ، والتي كانت تُعزى مباشرة تقريبا ، إلى حياة تكافلية شديدة الارتباط مع الأم ، والتي تنتج في مثل هذه البيئة.

وفي بناء وعي الإنسان الذاتي المستقل ، وإرساء قدرته على إقامة علاقات سهلة ومريحة مع رفاقه ، يلعب الأب دور الزعيم الطبيعي ، وحامي الأسرة ، وهو يلعب دوراً حيوياً أيضا. ألا وهو قطع الحبل. كما ويجوز له أن يشرح النمط المتأخر من التبعية والاستقلال. ويمكن أن تصبح سيطرته النفسية المحتملة إما نعمة أو نقمة ، وذلك لأن موقف الطفل العاطفي تجاه والده ، يصبح النموذج الأولي لموقفه تجاه قادة المستقبل ونحو المجتمع نفسه. وقد رأينا ذلك ، وبوضوح في حالة "جاسوسنا" المريض ، والذين لم يكن لديه رجل قوي يعتمد عليه في حياته.

وهكذا ، فإن العديد من الأشخاص الذين قمت بالتحقيق معهم ، والذين اختاروا أن يعرِّفوا أنفسهم بمجموعات شمولية عدوانية ، كان لديهم هذه المشكلة.

أما بالنسبة لمثل هؤلاء الناس ، فقد أصبح الحزب الاستبدادي أباً صالحاً ، ووكيلاً يغذي الجميع بالكراهية المخفية ، والمحبطة. وحيث يحل الحزب ، كما كان ، كل مشاكلهم الداخلية.

ومن هنا ، يمكننا القول بأن الصراع الأبوي في مرحلة الطفولة المبكرة ، وعدم الاتساق ، والتهديد ، والمواقف غير المحبوبة تجاه الطفل ، يمهد الطريق للتمرد والخضوع ، وتكرار هذا النمط في وقت لاحق في الحياة.

كما يمكن أن تؤدي الرغبة في الانفصال عن نمط الأسرة إلى التمرد ، ولكن الشكل الخاص للتمرد ، يعتمد على ما يمكن للحركات السياسية تعديله وتوجيه استياء الشخص.

إلا أن هذا لا يعني ، بالطبع ، أنه لا يوجد نواة صلبة من أصحاب العقول الشمولية الاستبدادية ، والتي تتغذى في مهد عقائد آبائهم الاستبداديين ، والذين يقدمون أنفسهم لمهامهم الحزبية ، لأنهم لم يعرفوا أبدا عالما مختلفا.

ووفقا لما ذكره"آلموند Almond" توجد هذه الأنواع بشكل خاص في عالمنا الغربي ، بين المتطرفين ذوي المستويات العالية.

فهم يتجرعون الشكل الشمولي والاستبدادي للاشتراكية مع حليب أمهم. وهم أعضاء في مجموعة متزايدة من المحاربين الاستبداديين الوراثيين.

وهنا ، لا حاجة إلى تمرد أب ليصبح ثورياً متطرفاً.

ولكن الجزء الأكبر من الطموح الاستبدادي في المجتمعات الديمقراطية هو الرجال والنساء ، كالنساء اللواتي ينجذبن إلى هذه الطريقة المدمرة للحياة ، ولأسباب عاطفية داخلية غير معروفة لأنفسهن.

وقد أظهرت لي تجربتي الخاصة مع كل من الشيوعيين والنازيين ، خلال الحرب العالمية الثانية هذه الحقيقة مراراً وتكراراً.

ففي هولندا ، وكما هو الحال في البلدان الأخرى المحتلة من قبل النازيين ، قاتل الشيوعيون والمتعاطفون معهم بشجاعة معنا ، وفي باطن الأرض ، وبوصفهم رفاقنا المؤقتين. ولكنهم ، وحتى أثناء ذلك الوقت من الأزمة القومية والإرهاب ، لم يكونوا أبداً خالين من اللوم المرّ والكراهية تجاهنا.

فقد كانوا يصرّون على أن أيديولوجيتهم كانت هي الوحيدة الصحيحة ، وقد كانوا يظهرون ذلك ، في بعض الأحيان ، صراحة ، وعلنا ، وأحيانا سرا ، بأنه ، وعندما يهُزم النازيون ، فإنهم سيجددون نضالهم ضد النظام الاجتماعي. ودعوني في هذا السياق ، أُعطي مثالاً واحداً فقط لتوضيح هذه النقطة.

كان أحد الشيوعيين طبيباً شجاعاً جداً(وليس من نوعية نفس الرجل الذي تحدثت عنه سابقاً).

وقد كن قد قتل زعيماً نازياً ، ولكنه ، في وقت لاحق ، توفي هو نفسه ميتة فظيعة.

كان ذلك الرجل ضخما ، ولكنه لم يتمكن أبداً من التغلب على البر والصدق ، وعلى العدوانية الذاتية. وفي نفس الليلة ، غامر بحياته ، وسعى إلى بيتي لاجئا ، وطلبا للمأوى ، ولكنه وشعر بأنه مضطر إلى الدخول معي في مناقشة سياسية نظرية ، وطويلة ، ومليئة بالمرارة.

كان يوبخ ، وبشدة ، جماعات المقاومة الأخرى ، لأنهم لم يشاركوا وجهات نظره السياسية. ووجهات نظر أمثاله ، وكذلك مُثله العليا ، ولكنه كان يشكرني على كل ما فعلته لأجله ، وقد بدا لي صادقاً ، ولكنه كان مليئاً بالكثير من العداء ، والذي لم يتم حله تجاه حكومة بلده الأم ، والتي كان على استعداد في كل وقت للإطاحة بها.

كان جوهر تفكيره الخاطئ الذي وجدته هو الارتباك حول الغايات والوسائل في النضال من أجل العدالة الاجتماعية. فبالنسبة له ، أصبحت التكتيكات والاستراتيجية أكثر أهمية من الهدف النهائي للتعايش السلمي بين الناس على وجه الأرض.

ولكن جاء موته العنيف ، بعد أن قام باغتيال أحد الضباط القادة في فرق الموت الألمانية.S.S كجزاء له نتيجة حقيقة أنه اتبع تكتيكات تتجاوز الاحتياجات الاستراتيجية في الوقت الراهن.

صحيح ، أنه في النهاية قد وهب حياته في سبيل مثله العليا ، ومن أجل أرض وطنه ، ولكن حتى نهاية حياته ، ظل يحمل ضغينة مريرة ضد كل أولئك الذين لم يكونوا متفقين تماما مع كل ما كان يفكر به ، بل وما كان يشعر به أيضا.

وعلى الرغم من أن ذلك الحقد الشخصي والعداء المزمن ، هو ما دفعه إلى التخطيط السيئ ، وإلى مصيره النهائي.

لا يدرك معظمنا ، وبشكل واضح وكامل ، بأنه إلى جانب رغبتنا في أن نكون مواطنين صالحين ومعتدلين ، فلدينا أيضاً رغبات مخفية تنتهك ولاءاتنا تجاه التكوين الاجتماعي ، والذي نعتبر نحن أعضاء فيه.

كما أن هذه الرغبات لا تستند إلى العقل والذكاء. ولأنها تنقى رغبات عاطفية بحتة.

وقد تم تأسيسها بالطرق التي نتأثر بها ، ومن خلال علاقتنا مع والدينا ، ومن خلال نظامنا التعليمي ، ومن خلال مواقفنا تجاه أنفسنا ، ونحو السلطة.

ولكن جميع الأشخاص الذين يلتزمون ، وبشدة ، في أية مجموعة من المعتقدات السياسية ، وخاصة أولئك الذين اعتنقوا بعض الأيديولوجية الشمولية الاستبدادية ، يعتقدون أن مواقفهم تنبع من قناعة منطقية ، وهي نتيجة للتطور الفكري الطبيعي.

كما ويصرّون على أن أولئك الذين لا يتفقون معهم ، ملتزمون بطريقة تفكير خانقة ، وعفا عليها الزمن. كما لا يمكنهم أن يروا مواقفهم الانتقامية والولائية كشيء اجتماعي ، وغير طبيعي.

أما بالنسبة إلى علم النفس ، فمن الواضح ، وبشكل جليّ ، أن لهذه المواقف جذورها ليس ضمن القناعات الفكرية ، ولكن في بعض الحاجة العاطفية العميقة الجذور. وقد رأيت في كثير من الأحيان ، حالات كان فيها هذا الولاء الأعمى المتصلب للأيديولوجية الشمولية في الواقع تمرداً متحدياً ضد الحاجة الداخلية الملحة للنمو والتغيير ، وإلى الحماسة التي قد لا تكون مدروسة في بعض الأحيان. وفي هؤلاء الناس ، كان اختيار حزب سياسي خاص ، مجرد بديل فقط عن حاجتهم إلى التبعية. وغالبا ما يكون العناد الأيديولوجي في هذا المنحى مأساويا ، لأنه يمكن أن يغطي التفاعلات العصبية الأساسية ، والتي يمكن أن تؤدي ،

بدورها ، إلى تدمير الذات. كانت إحدى مرضاي امرأة شابة ، ومن الذين كانوا على قناعة في اعتناق معتقداتهم اليسارية المتطرفة دفاعاً ضد مشاعرها الخفية المحبطة تجاه الأب الرجعي. وقد استغرق العلاج الذي طال أمده ، جهودا كبيرة لجلبها إلى حالة فهم الطبيعة الحقيقية للصعوبات التي تواجهها ، وفيما إذا كانت ترى من أنه لم يكن هناك شيء مخجل ، أو مثير للاشمئزاز عن الحب الطفولي ، والاستياء ، والتي كانت تحاول إخفاء ذلك من خلال السلوك السياسي لها. وهكذا ، فإن الحاجة إلى السلطة ، وعندما لا تكون مفهومة ، والمقاومة المرتبكة للسلطة أيضا ، هي الجذور التي قد تنمو منها المواقف الشمولية الاستبدادية.

ولذلك ، ففي كل مرة يفشل فيها الأب ، إنما يضع نمطاً من المشاكل المستقبلية مع السلطة.

فبدلاً من علاقة ناضجة مع رفقائه ، يصبح الطفل شخصاً بالغاً ومضطراً إلى اختيار علاقة استبدادية للحفاظ على توتراته الداخلية تحت السيطرة.

وكلما كان هناك صراع بين الوالدين ، ينمو الطفل ليتحول إلى شخص بالغ مثقل بالنزاعات ، والتي قد تكون حريصة على قبول الحلول البسيطة لعروض الشمولية الاستبدادية.

وكلما كان هناك إكراه من قبل الوالدين ، أو لهما ، فقد تعطي الطفل الفرصة لتطوير مواقفه ، وتقييماته ، وقيمه الخاصة بشكل متطرف ، وبحيث يكبر الطفل ليتحول إلى نسخة مطابقة لأحد والديه ، وعلى الأغلب/إلى تقليد الشخصية الأقوى ، ولذلك ، فقد يمضي بقية حياته باحثا عن سلطة خارجية ، وعن شخص ما ، يملي عليه ما يجب فعله.

الفصل الحادي عشر

العدوى العقلية والخداع الشامل

التأكيد على أخطائي

من المعروف في علم النفس أن الكذبة التي أكررها عشر مرات، سوف تصبح نصف حقيقة بالنسبة لي. في حين أني، وبينما أستمر في إخبار الحقيقة إلى الآخرين، فستتحول الحقيقة إلى وهم.

ولذلك، فإننا نعيد اكتشاف هذه الظاهرة كل يوم في ذلك المختبر الضخم للعلاقات الإنسانية الذي نسميه الاستشارات النفسية والعلاج النفسي.

ودعونا ننظر إلى مثال واحد بسيط، وهي حالة طفلة تتمتع بصحة جيدة، وتقرر يوماً ما، بأنها لا تريد الذهاب إلى المدرسة، لأن العمل المدرسي يبدو بالنسبة لها عملا صعبا، ومرهقا للغاية.

ولذلك تُخبر والدتها في الصباح الباكر بأنها تعاني من الصداع، وحيث توافق والدتها على بقائها في المنزل.

وهكذا تتجنب الفتاة العمل المدرسي الذي تخشاه، بل، وتحصل على حالة من الإشباع العاطفي الإضافي والمتمثل في تمريض والدتها اللطيف لها، ومنحها جرعة حنان أكبر، لأنها مريضة، وتعاني الصداع. وهكذا، فقد اصبح من السهل على تلك الفتاة الصغيرة، في المرة التالية التي تريد فيها البقاء في المنزل، من التظاهر بأنها تعاني من الصداع—وفي المرة الثالثة يصبح الأمر أسهل. وتدريجياً تبدأ الفتاة بنفسها في الاعتقاد لمرضها المزعوم، والمتكرر.

قد يكون ضميرها قد سبب لها بعض الإزعاج في المرة الأولى التي كذبت

فيها على أمها ، ولكن كذبتها الأولى قد أصبحت حقيقة مربكة لها فيما بعد.

وهكذا ، وفي الوقت الذي ستصبح فيه بطلتنا امرأة ناضجة ، سيتعين عليها استشارة الطبيب حول صداعها المتكرر باستمرار. وسيضطر الطبيب ، والمريض إلى قضاء ساعات طويلة ، ودون التوصل إلى حل لفك تشابك شبكة الأكاذيب المتأصلة ، واللاذعة ، والشكاوى ذات الرثاء الذاتي ، وحتى يعيد المريض اكتشاف أن اساس صداعه ، كان قد بدأ في ذلك اليوم الذي لم ترغب في الذهاب فيه إلى المدرسة ، فكذبت على والدتها.

وهكذا ، فإن ذات الصداع الوهمي ، قد يصيب العالم نفسه. وحيث أن الديماغوجية السياسية هي ، إلى حد ما ، تبقى مشكلة في بلادنا.

كما أن الشكل الخاص الذي تأخذه هذه الديماغوجية ، هو مجرد مرحلة عابرة ، ولذلك ، عندما يتم وضع تنانيننا الحالية والأشباح الداخلية ، فقد تنشأ الديماغوجية الأبدية من جديد.

وسوف يتهم الآخرون بالتآمر لإثبات أهميته. وسيحاول أن يخيف أولئك الذين ليس لديهم قبضة حديدية مثله ، وهكذا دواليك.

كما أنه ، وحين لا يجرؤ على ذلك ، فسيجذب ، ولو مؤقتاً ، بعض الأشخاص إلى شبكة أوهامه. وربما سوف يرتدي عباءة الاستشهاد لإثارة دموع الضعفاء. ومع انفعاليته وشكوكه ، فسوف يحطم ثقة المواطنين في بعضهم البعض. كما وأن أوهامه العظيمة ، ستصيب تلك الأرواح غير الآمنة ، والتي تأمل في أن يحل عليها بعضا من بريقه الديكتاتوري.

ولسوء الحظ ، فقد تمت دراسة مشكلة الوهم بشكل حصري تقريباً ، من حيث مظاهره المرضية فقط. فالطبيب النفسي الذي واجه أوهام العظمة في مرضاه في الماضي ، كان يفتقر إلى الخلفية الفلسفية والاجتماعية اللازمة لتمكينه من تشكيل مقارنات بين نظمه الوهمية لمرضاه ، وبين الوهم الجماعي في العالم.

كما أنه ، وفي التعامل مع المرضى الذين يعانون من جنون العظمة ، أو هوس

الاضطهاد ، فقد كان يميل إلى الاعتماد كثيرا على فرضيات تشرح الأوهام المرضية باعتبارها نتاج التغيرات التشريحية في الدماغ الفردي.

ولذلك ، فهو لم يعط اهتماما كافيا لمسألة ما إذا كانت هذه الظواهر ترتبط بأي شكل من الأشكال ، بطريقة غير طبيعية في التفكير لدى شخص طبيعي جسديا.

ولكن ، ومع نمو علم"الأنثروبولوجيا" والعلوم الاجتماعية في العقود الأخيرة ، فقد تم تسليط ضوء جديد على موضوع المشاعر الجماعية ، وعلى الوهم الجماعي.

وهكذأن فمن الواضح أن هذه الظواهر ليست ظواهر يمكن لطبيب الأمراض أن يفحصها تحت المجهر. فهم مطالبون بمعرفة التاريخ ، وعلم النفس الاجتماعي ، وجميع الدراسات التي تهم العلاقات بين البشر والتفكير الجماعي للإنسان.

وللوصول إلى مرحلة سريرية من دراسة هذا الموضوع ، من الضروري التخلص من الأفكار الفلسفية الثابتة المختلفة ، والتي هيمنت على الفكر العلمي منذ عهد الفيلسوف"أرسطو".

كما أن هناك ، على سبيل المثال ، عقيدة هوية لجميع عمليات التفكير ، والعالمية الممكنة للفهم الإنساني.

في حين يعتمد هذا أساسا على الاعتقاد بأن جميع البشر يفكرون بنفس الطريقة.

ولكن عكس هذه الفرضية ، فإن الحقيقة التي يمكن ملاحظتها هي أن الفلاسفة أنفسهم يواجهون أقصى صعوبة في التوصل إلى التفاهم المتبادل.

وقد يرجع هذا ، وإلى حد كبير ، إلى حقيقة أن الأشخاص المختلفين ، لديهم أساليب ومعايير مختلفة في التفكير.

ولعدة قرون ، تبنّى العلم مقولة "أرسطو" والتي يعتقد معظمها وفق قواعد المنطق المعمول بها ، والتي تنطبق بنفس الطريقة مثل قوانين الطبيعة.

لقد كان الفيلسوف"فرانسيس بيكون Francis Bacon" هو أول من أشار ،

في نظريته حول الأصنام ، والمُثل العليا ، من أنه ، وعلى الرغم من وجود قوانين المنطق والتفكير الواضح ، فإن الناس قد يستخدمونها ، أو لا يستخدمونها ؛ وذلك تبعاً للظروف العاطفية ، و"غالباً ما تكون الأفكار هي الستائر المسرحية لإخفاء العواطف الشخصية وردود الأفعال".

وفي هذا البيان ، كان الفيلسوف الذي عاش في زمن الأديب الإنجليزي "وليم شكسبير" يكاد يكون يهاجم المنطق الظاهري للديماغوجية الحديثة.

فمنذ عصر النهضة ، كان قد تم الاعتراف بأن المشاعر الإنسانية والميول الشخصية هي القوالب والفكر المباشر ، وقد وجدت وجهة النظر هذه مبكراً ، أكثر تعبيراً في أعمال كل من"سبينوزا Spinoza" و"باسكال Pascal".

فعندما نتواصل مع ظواهر الشغف الجماعي ، والوهم الجماعي ، يصبح من المستحيل إبقاء علم النفس الحديث خارج الصورة ، سواء نظرنا إليه فلسفياً ، أو سياسياً. ولأننا ، عند دراسة هذه المشكلة ، نواجه على الفور السؤال ، المطروح ، وهو هل تنشأ هذه الظواهر المقلقة في الحياة الجماعية ، والتي تؤدي إلى الكثير من سوء الفهم المتبادل ، من حقيقة أن المجموعة ، وفي مرحلة خاصة ، تكون غير ناضجة ، ومراهقة من الناحية النفسية ، والتنمية السياسية؟

ولأنه ، وحين نختبر هذه المشكلة ، فسوف تساعدنا دراسة تاريخ نمو الوعي والوعي في العقل الفردي وهو يمر عبر المراحل المتعاقبة من الطفولة إلى النضج ، في تسليط الضوء على المشكلة ، وحيث يمكننا ، في الواقع ، أن نجد توازياً بين مثل هذه المراحل من النمو في الفرد ، وبين المجموعات البشرية.

مراحل التفكير والوهم

[وهنا سأتبّع جزءا من تصنيف"فرينزي S.Ferenczi" ومن من كتابي عن الوهم].

إن النفس تواجه العالم الخارجي باستمرار ، وتتواصل معه ، وفي كل مرحلة من مراحل تطور الفرد ، يكون العالم وأحداثه متباينة ، وبشكل مختلف.

فعلى الرغم من أن العلماء المختلفين قد توصلوا إلى استنتاجات مختلفة حول المراحل المختلفة وآثارها ، فإن الاعتراف بالتغيير ، ونمو النظرة الشخصية يبقى واحدا من أهم النتائج العلمية في علم النفس ، بل ويتفق عليه جميع علماء النفس.

وهنا ، اسمحوا لي أن أشرح ، وباختصار هنا ، النهج التنموي لعلم النفس البشري. وحيث إنه ليس الوحيد ، ولكنه يعمل على توضيح التأثير الهائل للتفكير ، غير الناضج ، والوهم ، على آرائنا النهائية.

فعلم النفس التطوري-وكما هو مدروس في الأطفال ، والأوليات-يفترض في الأصل من التفكير ، في كل من الفرد والجنس على حد سواء ، وهي مرحلة الهلوسة العقلية ، والتي لا توجد فيها تجربة الاختلاف بين عالم الداخل ، وبين العالم الخارجي ؛ وحيث أن الفصل العقلي ، والتواصل بين الذات والعالم ، لم يحدث بعد.

يُنظر إلى النفس على أنها قوة مطلقة-كل ما هو موجود داخل النفس ينسب إلى الكون أيضاً ، ويتصور أن يكون جزءاً من هذا الكون.

ووفقا لعلم النفس التطوري ، فإن الطفل يختبر العالم بهذه الطريقة ، وفي أنواع معينة من الجنون ، سيعود البالغ إلى هذه المرحلة من الهلوسة.

ومع ذلك ، فإنه ، وحتى الرجل الناضج لا ينجح تماماً ، في فصل الخيال الداخلي ، عن الواقع الخارجي ، وغالباً ما يعتقد أن مزاجه الخاص ، والذاتي ينجم عن بعض أحداث الواقع الخارجي.

وفي المرحلة التالية ، فإن تلك الفكرة من التفكير الحيواني ، تبقى ماثلة ، وحيث لا يزال هناك شعور جزئي بالوحدة بين"الأنا" وبين العالم.

كما أن الخبرة الداخلية للفرد ، و مخاوفه ، ومشاعره ، يتم عرضها على عوامل مبدئية في العالم الخارجي.

فالعالم الخارجي ، هو تهديد شيطاني مستمر له. في حين أن الطفل الذي

يصطدم بالطاولات ، سيؤدي ذلك إلى أنتصبح تلك الطاولات كقوة حية معادية ، ولذلك ، يعود إلى الخلف.

كما أن رجل القبائل البدائي ، والذي تصطاد الحيوانات ، ويعتبرها كفرائس ، ينسب إلى الحيوان ، بأنه يخشى من قوة إلهية ، ولذلك ، فهو إله معاد.

وفي الواقع ، قد يكون العالم الخارجي بأكمله مليئا بمخاوف البشر. ففي أوقات الذعر والخوف ، قد نلجأ جميعاً إلى جوارنا ، ومع خونة غير موجودين ، أو كاتبين للعمود الخامس في الصحف.

وقد ينخرط تفكيرنا الحيواني ، وباستمرار ، في اتهام الآخرين بما يحدث بالفعل داخل عقولنا.

ولأنه ، في الوقت الحاضر ، لا توجد الشياطين والأشباح في الأشجار ،ولا في الحيوانات البرية. فقد غيروا منازلهم ، ليجعلوها تسكن في مختلف أنواع كبش الفداء ، والتي خلقها الديكتاتوريون ، والديماغوجيون.

أما المرحلة الثالثة ، فهي التفكير السحري ، وحيث لا يزال هناك شعور بالعلاقة الحميمة بين الإنسان وعالمه الخارجي.

بيد أنه ، ومع ذلك ، يضع الإنسان نفسه في مواجهة العالم ، وبشكل أكبر في الاتحاد معه. فهو يريد أن يتفاوض مع القوى الغامضة من حوله. في حين أن السحر هو ، في الواقع أبسط استراتيجية للإنسان.

فقد اكتشف بأنه يستطيع التلاعب بالعالم ، عن طريق العلامات ، والإيماءات ، أو أحياناً ، بأفعال ، أو تغييرات حقيقية.

كما ويقوم بإعداد الأعمدة الطوطمية السحرية ، والكتل القربانية ؛ ويصنع التعويذات ، والأدوية الغريبة. وكذلك يستخدم الكلمات كإشارات قوية ، لتغيير العالم.

وقد طوّر طقوساً خاصة ، لتلبية حاجته للتصالح مع العالم الخارجي.

فمن منا لم يشعر بالرغبة المفاجئة في احصاء الحصى ، أو ليس هو صاحب

الغيرة من تميمة ، أو رمزا سريا آخر وبأنه سيفقد قوته إذا كان وجوده معروفا للآخرين؟

وبأنه لن يتمتع الشخص بالراحة المنشودة ما لم تعمل هذه الرموز عملها لبناء السعادة والحياة الجيدة.

ولذلك ، فنحن جميعا ، ما زلنا نعيش في عالم السحر ، ونمسك في وهم التلاعب السعيد بالطبيعة.

ولكن قد تدفع القبيلة الحديثة وعيها حول السيارات الآلية ، وبحيث يصبح الساحر مصاباً بجنون العظمة وراء عجلة القيادة. وحيث يتم جلب الملايين من الضحايا إلى مذبح إله السرعة ، وبسبب الوهم الخفي لدينا من أن السرعة المسعورة تطيل الحياة.

لذا يتم استبدل المحرك ، والأداة التي تصبح أكثر من كونها مجرد تميمة غامضة في الأيام السابقة. وحيث لا تزال المعرفة في خدمة السلطة ، بدلاً من خدمة التفاهم.

وفي المرحلة الأخيرة من التطور العقلي ، يقوم الإنسان بفصل كامل بينه وبين العالم الخارجي. فهو لا يعيش فقط مع الأشياء ويحاول التلاعب بها ، لكنه يعيش أيضا في الأشياء المعارضة لها.

ولذلك ، فإنه ، وفي هذه المرحلة من المواجهة بين الواقع الناضج ، يصبح الإنسان مراقباً لحياته الخاصة. ويدرك الهاوية من كيانه. ويرى جسده وعقله ، منفصلين عن العالم.

وبأنه ، وبواسطة يديه ، وأذنيه ، وعينيه ، وعقله المسيطر ، سيكون قادرا على مواجهة الواقع. فيتراجع عن العالم ويلاحظ ذلك.

كما أنه ، في الواقع ، يبقى ذلك الحيوان الوحيد الذي يمشي منتصباً ، وليواجه العالم بشكل مباشر. وهو الحيوان الوحيد الذي يستخدم يديه ، وعينه كأدوات تحقق.

وتدريجيا يصبح جسد عقليته أداة يمكن أن يقبل بها ، أو يرفضها. كما أن الانسان فقط ، هو القادر على رؤية محركاته وغرائزه ، وإما أن تكون خطرة ، أو تكون مفيدة.

كما ولا يعرف الإنسان فقط الخوف المفروض من الخارج ، ولكنه يعرف الخوف الداخلي ، والخوف من فقدان الضوابط الداخلية ، والتي كان قد اكتسبها بثمن باهظ.

ومع وصول الأذرع والأيدي إلى الخارج ، وليس فقط نحو الخارج الذي كان يأمل في وقت ما في التغلب على الإيماءات السحرية كما يفعل الطفل ، بل إنه يتجه نحو العالم الداخلي. في حين يعيش الرجل الناضج بين عالم داخلي وعلم خارجي على حد سواء.

ولكن هناك ثمة شيء مأساوي حيال هذه العملية الشاقة ، والمتمثلة في الوعي بواقع داخلي وخارجي منفصلين.

ففي مرحلة النضج ، يوقظ الإنسان حلماً بدائياً حلواً ، والذي كان جزءاً من كل فرد فيه ، وهو جزء من عالم متلازم من الارتباط.

في حين يستمر الشعور بالوحدة المفقودة مع الكون ، وفي لحظات التوتر الكبير ، أو في أوقات الأزمات ، وبحيث يصل إلى تلك التجربة القديمة من النعيم غير الشخصي وغير المسؤول.

وبالإضافة إلى ذلك ، فإن السلبية المطلقة ، أو التدمير الذاتي ، أو النشوة الاصطناعية ، والتي يتم الحصول عليها عن طريق المخدرات ، أو الرغبة في الانتحار للنوم الأبدي ، كلها أجهزة يأمل الإنسان من خلالها تحقيق ذلك التوق الدائم.

كما أنه ، وفي أي مرحلة من المراحل التي تتعلق بتجربة هذه التجارب البشرية ، فهل يمكننا التحدث عن الوهم؟ فعندما يستجمع عضو قبيلة بدائية العالم الغامض ، والعدائي بالصلاة إلى حيوانه المقدس ، وإلى الطوطم المنصوب ،

فإننا لا نطلق على ما يفعله بالوهم.

ولكن إذا كان الرجل الذي وصل إلى مرحلة أكثر تقدماً من التفكير، ينتكس في مثل هذه العادة البدائية في التفكير، فمن الممكن أن نطلق على هذا التراجع بالوهم.

فقدان الواقع الافتراضي

وهكذا، قد نعرِّف الوهم بشكل مبدئي على أنه فقدان واقع مستقل يمكن التحقق منه، مع ما يترتب على ذلك من انتكاسة إلى مرحلة أكثر بدائية من الوعي.

تماما كما بدأت المرأة الشابة التي تحدثنا عنها في وقت سابق في الاعتقاد والمعاناة من صداعها، لذلك فإن الرجل الذي يبيع خياله الخاص لأول مرة باعتباره مجرد شائعة، ومن ثم كحقيقة، فإنه يفقد، تدريجيا، إدراكه بأن تصريحاته الأولية، كانت في الواقع مجرد خداع، ويصبح الوهم نوعاً من التزجيج الدائم لفكره المتمني البدائي والأصلي.

كما أن هناك العديد من العوامل التي تعزز التفكير المخادع. وقد يحدث التراجع، والبديهة، كنتيجة للأمراض الجسدية، ولا سيما أمراض الدماغ، وهذا النوع من الأوهام التي يتعامل بها الأطباء النفسانيون.

في حين إن العديد من أمراض الدماغ تخرج من قشرة المخ، وهي العضو الذي تطور في العملية التطورية، والذي يجعلنا ندرك، ونسيطر على تفكيرنا. ولكن عندما يحدث هذا الاضطراب في الوظيفة، فيجب أن تتولى الأنواع القديمة وراثيا، من وظائف المخ.

بيد أنه، ومع ذلك، فإن معظم أسباب الأوهام ليست عضوية بحتة. ويمكن أن ينتج نفس التأثير من الانحدار عن طريق التنويم المغناطيسي، وكذلك التنويم المغناطيسي الجماعي، والذي، تساهم بوعي التنبيه عن طريق خلع أشكال أعلى

من الوعي ، والحد من هذا الموضوع إلى المرحلة البدائية للمشاركة الجماعية وخبرة التوحد.

أما إذا أصبحت التوعية والمواجهة الواقعية جامدة وتلقائية ، وإذا لم يبحث الإنسان عن التنبيه والتحقق المتكرر لما يجده في العالم ، فقد يتطور إلى ذلك إلى أوهام-أفكار لا تتكيف مع واقع الواقع.

ولذلك ، فإنه يبدو أن الإنسان يتطلب مواجهة مستمرة من أجل التحقق من جوانب مختلفة من الواقع إذا أراد أن يبقى حياً ومنتبها.

فعندما يتم تحيز التجربة إلى العقيدة ، فإن العقيدة نفسها تقف في طريق التحقق الجديد والحقيقة الجديدة. كما إن خداع الأمة التي تصف نفسها بالبلد "المختار" يجعل من الصعب على تلك الدولة التعاون مع الدول الأخرى.

وهكذا ، يمكن أن تظهر التجربة التالية مدى المشاركة في عملية التحكم بالفكر مع التكوين العام للأفكار في وقتنا الحالي.

فبعد الحرب العالمية الأولى ، تعرفت على فيلسوف ألماني مكرّس للفلسفة المثالية لبلده.

فلا شك في أن ألمانيا قد مرت بمرحلة إبداعية ، وحيث ظهرت أفكار جديدة للأخوّة والسلام العالمي.

فألمانيا ، الدولة المهزومة ، ستظهر قوتها الروحية. وخلال عطلنا ، فقد سرنا معا عبر جبال "تيسينو Ticino" المشمسة ، فيما نكرس محادثتنا الفلسفية ، إلى التوق الدائم الأبدي للجنس البشري من أجل الوئام والصداقة. وحيث أصبحنا أصدقاء فيما بعد ، وكتبنا لبعضنا البعض عن عملنا المتبادل ، وحتى جاء ظلم الاستبداد على بلاده.

في البداية كان متشككا ، بل ومنتقدا للنازية. ولذلك تضاءلت مراسلاتنا ، ولكنه ، وعندما أصبح تدريجيا أحد أعضاء الحزب النازي ، فقد تلى ذلك الانهيار العقلي النهائي. ولم أعد أسمع عنه أبداً. هناك الكثير من الفلاسفة ، يسلمون

تفكيرهم النظري ، تحت تأثير مشاعر جماعية قوية. ولكن السبب لا يكمن فقط في القلق والخضوع. إنها عملية عاطفية أعمق بكثير. وحيث يريد الناس أن يتكلموا لغة بلدهم وأرضهم. ولكي يتنفسوا ، عليهم أن يتعرفوا على الكليشيهات الإيديولوجية المحيطة بهم.

أما من الناحية الروحية ، فلا يمكنهم الوقوف وحدهم.

وقد كتب الباحث "ستيفان زويج Stefan Zweig" خلال الحرب العالمية الأولى من أن هذه العملية الداخلية للتحدث حول جانب الأصوات "الشوفينية" من حوله ، كانت تعاني منها كصراع داخلي عميق ، ولسان الحال يقول:

(لم يكن لديّ الإرادة بعد الآن لأكون فقط كالآخرين").

الوهم الشامل

من المثير للاهتمام ملاحظة أن ظاهرة الوهم الجماعي المؤسسي لم يحظ حتى الآن إلا بقليل من العلاج العلمي ، وعلى الرغم من أن هذا المصطلح يندرج حول أينما تمت مناقشة مشاكل الدعاية السياسية. إلا أن العلم كان قد ابتعد عن التدقيق في الانحراف العقلي الجماعي ، والذي نسميه بالوهم الشامل عندما يرتبط بالأمور الحالية.

إنها الأمثلة التاريخية ، مثل السحر وأشكال معينة من الهستيريا الجماعية ، والتي تم فحصها بتفصيل كبير.

وبما أن عصرنا مزدحم بالإيديولوجيات المتحاربة ، فإنه لا بد ، في وقت المعركة ، من أجل العقل البشري ، إعارة هذه المسألة المزيد الانتباه.

فما هو الوهم الشامل؟ وكيف ينشأ؟ وما الذي يمكننا القيام به لمكافحته؟

لقد كنت أشرت إلى ذلك في وقت سابق ، وذلك حين قمت بإجراء تشابه بين الإطار الشمولي للعقل ، وبين مرض الانطواء العقلي المعروف باسم الفصام ، غير أنني أعتبر الأيديولوجية الشمولية الاستبدادية ، والأطر الشمولية الاستبدادية للعقل ، تشويهاً مرضياً ، وقد يحدث لدى أي شخص.

كما أنه ، وعندما نعرّف الوهم بشكل مبدئي على أنه فقدان واقع مستقل يمكن التحقق منه ، ومع ما يترتب على ذلك من انتكاسة في حالة وعي أكثر بدائية ، يمكننا أن نرى كيف يمكن اعتبار ظاهرة الشمولية الاستبدادية نفسها وهمية. ولأنها من الوهم(غير المتكيف مع الواقع) والتفكير في الإنسان كآلة مطيعة.

كما انه من الوهم إنكار طبيعته الديناميكية ، ومحاولة القبض على كل تفكيره ، والتصرف كما في المرحلة الطفولية من الخضوع للسلطة.

ولذلك ، فإنه من الوهم الاعتقاد بأن هناك إجابة واحدة ، وبسيطة على المشاكل الكثيرة التي تواجهها الحياة ، ومن الوهم الاعتقاد بأن الإنسان مجرد كائن جامد للغاية ، وبالتالي لا يتزعزع في بنيته بحيث لا يكون لديه أية تناقضات أو شكوك أو صراعات لا تحرك الحواف بداخله.

وبالتالي ، فقد يتبع الوهم حيث يتم عزل التفكير ، دون تبادل حر مع عقول أخرى ، وبحيث لا يمكن أن يتوسع. كما أنه ، وعندما تتم تجزئة الأفكار ، ووضعها خلف العقل ، وبين الستائر ، فإن عملية استمرار التصادم بين الوقائع والواقع سوف تعيقها. وسيتجمد النظام ، بل ويتحجر ، ويموت من الوهم.

يمكن العثور على أمثلة على ذلك في مجتمعات صغيرة جداً ، ومعزولة عن العالم. وكذلك على سفن الصيد التي كانت تبقى في البحر لفترة طويلة ، ومن المعروف أن الهوس الديني المعدي ، والمقترن بالقتل الطقوسي ، سوف يندلع لدى أقرب فرصة. في حين أنه في المجتمعات القروية الصغيرة ، هناك حالات من الوهم الشمولي ، والذي غالباً ما يكون واقعا تحت تأثير شخص مهووس.

كما ويحدث الأمر ذاته في المجتمعات الشمولية الاستبدادية ، والأكثر عمقا ، والمعزولة عن الاتصال ببقية العالم. أليس هذا ما حدث في "ألمانيا الهتلرية" حين تم حظر التحقق الحر والتصحيح الذاتي؟.

وهكذا ، فإنه يمكننا في الواقع ، أن نُظهر أن هذا هو الحال مع كل حضارة منعزلة تاريخيا. وبأنه إذا لم يكن هناك تبادل مع أشخاص آخرين ، فإن الحضارة

ستتدهور دون شك ، وستصبح ضحية لأوهامها الخاصة ، وستموت.

في حين يمكننا ترجمة مفهوم الوهم بطريقة مختلفة. وعلى أنه شكل أكثر تشوهاً ، وبدائيًة للتفكير الموجود ، سواء في المجموعات أو في الأفراد ، والذي ينظر إليه فقط ، من وجهة نظرهم المحدودة.

إذ لا يعرف التفكير الوهمي مفهوم التفكير الوهمي. ولذلك ، فسيُطلق على الناسك الهندي الدرويش الذي يستلقي على سرير من المسامير بالرجل الخداع إذا ما حاول القيام باستعراضه في الجادة الخامسة مدينة لندن على سبيل المثال ، ولكن استعراضه ذاك بين شعبه ، يعُتبر سلوكه قديساً ، وعقلانياً.

كما لن يرى فرد من أفراد قبيلة بدائية أي شيء غريب في مراسم طرد الأرواح الشريرة ، أوفي اجتماع إحياء مثال الوهم الشمولي.

ولكن الشخص الذي مر بهذه المرحلة من التطور العقلي ، ووصل إلى مستوى من المنظور والوعي الأعظم ، سوف يدرك أن الأفكار الوهمية هي التي تكمن وراء هذه الاحتفالات.

وهكذا ، فسواء أكان لنا القدرة على كشف الوهم ، وذلك عندما يبدو لنا بأنه يعتمد ، وكلياً ، على الظروف ، وعلى حالة الحضارة التي نعيش فيها ، وعلى المجموعات والطبقة الاجتماعية التي ننتمي إليها.

فالوهم والارتداد هما المصطلحان اللذان ينطويان على مستوى خاص من الوعي الاجتماعي والفكري. وهذا هو السبب في أنه من الصعب للغاية ، الكشف عن الأوهام والطقوس البدائية في منطقتنا. كما إن حضارتنا الحالية مليئة بالأوهام الجماعية والشمولية ، والأفكار المسبقة ، والأخطاء الجماعية ، والتي يمكن التعرف عليها بسهولة إذا ما نظرنا إليها من فوق ، ولكن لا يمكن اكتشافها إذا ما شوهدت من الداخل. فعلى الرغم من أن الوهم من السحر قد تم عزله ، ومن ثم نفيه ، ولكننا لم نحرر أنفسنا أبدا من الوهم من الدونية الثقافية والتفوق العرقي ، والتفوق السياسي.

ولـذلك ، فـإن الهـواجس الجماعيـة في العصـور الوسـطى مثـل الـروائيين ، وراقصـي القـديس "فيتوس" لما تعُرف حتـى الآن بـين الـدول الغربيـة. في مكانهم لدينا اجتماعات جماعية مع الحشود الصاخبة معربا عن النشوة الخادعة انتمائهم إلى بعض الوهم السياسي. بدلا من غضب الرقص ، لـدينا الهـذيان للمحـرك ، أو العدوى السلبية المبهمة من شاشة التلفزيون.

وكمـا رأينا في الفصـل السـابق حول"الاسـتبداد Totalitaria" فقـد يلعـب الـدور الرئيسـي في حـدوث الـوهم الشـامل. إن الأمـر ببسـاطة ، هـو مسـألة تنظيم ، وتلاعب بالمشاعر الجماعية ، بالطريقة الصحيحة.

فإذا أمكن للمرء أن يعزل الكتلة ، ولا يسمح لها بأن تمارس أي تفكـير حـر ، ولا تبـادل حـر ، ولا تصـحيح خـارجي ، ويمكـن أن يـنغمس في المجموعـة يوميـا بالضوضاء ، ومع الصحافة والإذاعة والتلفزيون ، ومع الخوف والحماسة الزائفة ، أي غرس ما يمكن غرسه في تلك المجموعة. فسيبدأ الناس في قبول الأعمال الأكثر بدائية ، وغير المناسبة ، وعلى حد سواء.

عادة ما تكون الأحداث الخارجية هي المشغلات التي تطلق العنان للمركبات المخفية والهستيرية المخفية لدى البشر. فالجنون الجماعي يبرر الجنون الشخصي المكبوت في كل فرد. وهذا هو السبب في أنه من السهل جداً أن نرفع شعارات الناس إلى هستيريا الحرب الجماعية.

كما أن العدو الخارجي الذي يتعرض للهجوم من قبل شعارات تقويمية ، هو مجـرد كـبش فـداء ، ويحـل بـديلاً عـن كـل الغضـب والقلـق الـذي يعـيش داخـل الأشخاص الذين يتعرضون للتحرش.

وفي حين يصعب تصحيح الأوهام ، والمزروعة بعناية. فإن التفكير لم يعد لـه قيمة ؛ بالنسبة للأقل ، وحيث يصبح نوع التفكير الحيواني أكثر صمًما لأية فكـرة علـى مسـتوى أعلـى. فـإذا كـان هنـاك أحـد الأسـباب مـع الاسـتبداديين الـذين تم تشريبهم بالكليشيهات الرسمية ، فسوف ينسحب عاجلاً أم آجلاً إلى حصنه من

التفكير الاستبدادي الجماعي الشامل.

أما الوهم الجماهيري الذي يعطيه مشاعره بالانتماء ، والعظمة ، والقدرة الكلية ، فهو أعز عليه من إدراكه الشخصي وفهمه.

كما إن السجين الوحيد في معسكر الاعتقال يكون أكثر سهولة في الاستسلام ، وبالتدريج ، للتفكير الجماعي الشامل ولأوصيائه ، وذلك عندما يكون جزء من تفكيره الطفولي مشروطاً بالاستسلام لقوة إيحائية قوية.

وحين يكون عليه أن يتواصل مع أولياء الأمور لئلا يتم استسلامه إلى أوهامه الخاصة. وحيث بقي عدد قليل فقط من ذواتهم الحقيقية في تلك المعركة البطولية.

ولذلك فإن وضع أسرى حربنا في كوريا ، والذين عاشوا هناك لأشهر ، وسنوات ، لا يمكن دراسته دون مراعاة جو الوهم الجماعي الشامل. وفي مجال مليء بالشائعات ، ومن دون فرصة للتحقق من الوقائع ، يكون العقل في حالة تأهب ، ولكن ملاحظاته تظل مشوهة.

كما وقد جعلت عملية غسيل الدماغ الشامل ، مع الدعاية المستمرة ، من الصعب للغاية على الفرد أن يراقب رفاقه بموضوعية.

في حين أنه ، وفي مثل هذه البيئة المحيطة ، فسيكون من السهل صنع كبش فداء بريء لكل معاناة للمجموعة—كما ويمكن بسهولة أن تهدأ الحقائق في جو من العدوى الجماعية.

وهكذا ، فقد كان عليّ في أحد معسكرات السجن ، أن أقدم تقريراً عن رجل تم طرده من قبل الآخرين ، والذي هوجم من قبل آخرين أيضا ، وذلك بسبب سلوكه الشاذ جنسيا.

في حين أنه ، وخلال التحقيق ، لا يمكن الإبلاغ عن أية حقيقة ، ولا عن الضحية. فقد كانت هناك شائعات كثيرة ، تعبّر عن الكراهية تجاه كائن وحيد ، ساخر ، وغير عقلاني ، والذي كان قد أثار مشاعر الشذوذ الجنسي الكامنة لدى

المعسكرين الآخرين ، وبالتالي هاجم رجولتهم.

ولكن لم يحدث أن اتهم أحد من أسرى معسكرات الاعتقال بالتعاون مع العدو ، والذي كان سيدان من دون دراسة ، والتي ستساهم في انتشار ، وتفشّي الشائعات في معسكر الاعتقال.

أما في المحيط الاستبدادي ، فلا يكاد أي شخص يبقي تفكيره خالياً من العدوى ، ولذلك ، فسيصبح الجميع تقريباً ، ولو مؤقتاً ، ضحايا للوهم.

خطر الاحتواء العقلي

في الواقع ، هناك خطر مستمر من العدوى العقلية. فالناس يظلون في حالة تبادل نفسي ثابت مع بعضهم البعض. وكدولة ، علينا أن نسأل ما هو التلوث العقلي الخطير الذي قد يأتي إلينا من الجانب الآخر من الحدود.

ولذلك ، اسمحوا لي هنا أن أوضح بأنني لا أزال غير حساس لخطر التخريب الاستبدادي ، والعدوان الذي نواجه الآن.

وقد جعلت تجربتي الخاصة مع النازيين من الواضح ، وبشكل مؤلم بالنسبة لي ، من أنه لا يجب التقليل من هذه المخاطر.

وكطبيب نفساني ، فأنا أيضاً أدرك تماماً ، الطبيعة العدائية للدعاية الاستبدادية ، وحقيقة أن المواطنين الأحرار في بلد حر يجب أن يكونوا على حذر شديد لحماية أنفسهم.

ولكن يجب أن نتعلم كيف نحارب هذه الأخطار بطرق ديمقراطية. ولكنني أخشى من أنه ، في كثير من الأحيان ، في كفاحنا ضدهم ، قد نأخذ ورقة من الكتاب الشمولي. واسمحوا لي أن أذكر مثالا واحدا على ذلك.

يستند قانون"فاينبيرغ Feinberg" في ولاية نيويورك ، والذي تم سنه لحماية الأطفال من نشر الدعاية السياسية الخطيرة ، جزئيا إلى مفهوم العدوى العقلية هذا. كما ويهدف إلى حماية المدارس من التسلل الدقيق للأفكار التخريبية. وحيث يبدو للوهلة الأولى وكأنه حل بسيط: عليك أن تتوقف عن التخريب قبل

أن تؤثر ذلك على عقول أطفالنا القابلة للتأثر.

ولكن الحقيقة تبقى هي الأصح ، لأنها تعرض جميع أنواع الصعوبات النفسية. كما أننا ، ومن خلال خوفنا من التعرض للتلوث ، فإننا نخلق القواعد والمخططات التي نقيس بها مدى قبول الأفكار غير التقليدية ، وننسى سواء كان وجود أفكار الأقلية ، مقبولا أم لا ، وهي إحدى الطرق التي نحمي بها أنفسنا ضد النمو الزاحف من تفكير الأغلبية المطابقة فينا. ولكن قاضي المحكمة العليا في الولايات المتحدة"هوغو بلاك" كان ينظر من زاوية مخالفة لقانون "فاينبرغ" ولذلك صاغ هذه الفكرة والتي تنص على أنه:

"....وهذا تشريع آخر من تلك التشريعات التشريعية المضاعفة بسرعة ، والتي تجعل من الخطورة بمكان التفكير أو قول أي شيء باستثناء ما تصادق عليه أغلبية عابرة في الوقت الحالي."

في حين ترتكز هذه القوانين أساسا ، على الاعتقاد بأن الحكومة يجب أن تشرف ، وتحد من تدفق الأفكار في أذهان الناس. كما أن اتجاه هذه السياسة الحكومية يهدف إلى تحويل الناس إلى نمط فكري مشترك. في حين ترتكز السياسة الحكومية المختلفة على الاعتقاد بأنه على الحكومة أن تترك عقول وروح الإنسان حرة تماماً. كما وتشجع مثل هذه السياسة الحكومية ذات وجهات النظر الفكرية المتنوعة ، اعتقادا جديدا وهو أن أفضل وجهات النظر هي التي سوف تسود.

وهكذا ، فإن سياسة الحرية هذه هي في رأيي السياسة المتجسدة في التعديل الأول ، والتي تنطبق على الولايات بحلول الرابع عشر.

كما أنه ، وبسبب هذه السياسة ، لا يمكن للمسؤولين الحكوميين أن تكون لهم صلاحيات دستورية لاختيار الأفكار التي يمكن أن يفكر فيها الناس ، أو فرض الرقابة على وجهات النظر العامة التي يمكنهم التعبير عنها ، أو اختيار الأشخاص أو الجماعات التي يمكن أن يرتبط بها الأشخاص.

في حين أن الموظفين العموميين ، والذين يتمتعون بهذه الصلاحيات ، ليسوا

موظفين حكوميين ؛ هم سادة العامة.

ولذلك ، لا يمكننا منع العدوى العقلية من خلال فرض أخرى. بيد أن الطريقة الوحيدة التي يمكن من خلالها أن نمنح بها الإنسان قوة تحمل العدوى العقلية ، تكمن من خلال منحه الحرية القصوى في تبادل الأفكار.

ولذلك ، فعلى الناس أن يتعلموا طرح الأسئلة ، ولكن دون أن يطلبوا الإجابة عليها على الفور.

كما أن الرجل الحر هو الرجل الذي يتعلم العيش مع المشاكل ، ولكن على أمل أن يتم حلها في وقت ما ، إما في جيله أو في الجيل التالي.

وحيث يجب تحفيز فضول الإنسان. وعلينا أن نكافح خوف الإنسان المتزايد من التفكير لنفسه ، وأن نكون أصلاء ، ومستعدون للقتال من أجل ما نؤمن به.

ومن ناحية أخرى ، علينا أيضا أن نتعلم مقاومة الأفكار. فقد يتم الإطاحة بالحكومات ليس فقط من خلال العنف الجسدي ، ولكن أيضاً بالعنف العقلي ، ومن خلال الاختراق الإيحائي والمذهبي للعقول الشابة ، عن طريق التكييف الصارم ، والتقييد ، ومنع المعارضة. [صحيفة نيويورك تايمز ، عدد الرابع من شهر آذار/مارس ، عام١٩٥٢.]

وهم التفسير

ثمة واحد من أكثر الأوهام القسرية تأثيرا ، وهو الوهم في التفسير ، والحاجة إلى شرح وتفسير كل شيء لأن الإنسان يحمل أيديولوجية بسيطة في جيبه. وإن كان ذلك عن غير قصد إلا أنه قد يصبح ضحية هذا الوهم ، ويلتف بتلك العباءة السحرية من العلم الكلي حول نفسه ، مما يثير الرعب والخضوع لدى هؤلاء الرجال الذين لديهم حاجة قوية إلى تفسير عقلاني للظواهر التي لا يفهمونها.

فالدجّال ، على سبيل المثال ، وبلفتاته المنافقة حول ادعائه بالعلم الكلي ، فإنه يدفع ضحيته إلى نوع من العدم ، بحيث يشعر نفسه أصغر وأصغر فيما يتعلق بأسرار العالم العظيمة.

وهكذا ، فإن هذه الحاجة القهرية هي أن تكون الرجل الحكيم والساحر الذي يعرف كل الإجابات التي نجدها في كثير من الأحيان في العالم الشمولي الاستبدادي ، ولا أحد ، بما في ذلك مؤلف الكتاب الذي تقرأ الآن ، خال تماما من الاستيلاء على هذه الإجابات السابقة لأوانها. كما انه ، ومن بين المفكرين ، وخاصة بين أولئك الذين يحبون اللعب بالأفكار والمفاهيم ، ومن دون المشاركة حقاً في المساعي الثقافية لعصرهم ، فإننا نجد ، في كثير من الأحيان ، بريق ذلك الإلحاح اللامع لشرح كل شيء وفهم أي شيء.

كما أن إن ارتدادهم إلى فلسفة العزلة الفكرية ، والعبور العاجي ، هو مصدر الكثير من العداء والشك من جانب أولئك الذين يتلقون أحجار الفكر ، بدلاً من خبز التفاهم. في حين أن للمثقفين دور خاص في عالمنا الديمقراطي كمعلمين للأفكار ، ولكن كل تدريس لذلك ، يبقى مجرد علاقة عاطفية ، وهي مسألة أن تحب طلابك. ولذلك ، فهو يتحرك فيما بينهم ، ويشاركهم في شكوكهم من أجل المشاركة معا في مغامرة الاستكشاف المشترك للمجهول. ومن المفارقات ، قد نقول إننا نحتاج إلى تجربة مع الشموليين الاستبداديين ، وحتى لو كنا فقط نكتشف انعكاساً لصلابتهم في نظامنا الديمقراطي.

التحرر من التفكير السحري

لقد ازداد نمو وسائل الإعلام الجماهيرية في حضارتنا ، وبشكل أكبر من تأثير الضغط الجماعي الشامل على كل من أفكارنا المسبقة ، وعلى تفكيرنا غير المتحيز أيضا. فنحن نعيش في عالم من الضوضاء المستمرة التي تجذب عقولنا ، وحتى عندما لا ندرك ذلك. كما أننا لدينا بالفعل ، في مجتمعنا ، مشكلة الأصوات الوحيدة ، وغير المسموعة. ولذلك فأنا مقتنع بأن هناك عدداً من الحكماء بيننا ، والذين ستساعدنا أصواتهم فيما لو سمعناها ، على تعلمّ ، وتصحيح ذلك الجزء من تفكيرنا الذي يدعى الوهم.

ولكن كلماتهم الحكيمة تصرخ بفعل ضجيج زائد من مكان آخر. ففي مجتمعنا ، لا يمكن للرجل ببساطة أن ينقل حكمته وفهمه. ومن أجل أن يوصل صوته ليكون مسموعا ، فلا بد له من الإعلان عن صوته ، وتحصينه بشتى صنوف الدوى والدوائر المؤثرة الضخمة والعلامات الرسمية.

كما يجب أن يقف النظام وراءه ، والذي يجب أن يتأكد من أنه سيتم توقيته بشكل صحيح ، ومن أجل أن يكون هناك مستمعون لاستلام رسالته.

كما يجب أن يكون لديه علامة معترف بها ، وشهادة رسمية ؛ وإلا فقد صوته. وهكذا ، فإن تصحيح الوهم الجماعي الشامل هو من أصعب مهام الديمقراطية. فالديمقراطية تدافع عن حرية الفكر ، وهذا يعني أنها تتطلب حق جميع الناس في اختبار جميع أشكال العاطفة الجماعية والتفكير الجماعي الشامل. ولكن هذا الاختبار ممكن فقط إذا تم تشجيع النقد الذاتي الشخصي ، والجماعي ، وبشكل مستمر.

كما يجب أن تواجه الديمقراطية هذه المهمة من خلال الحفاظ على حركة الفكر ، ومن أجل تحرير نفسها من المخاوف العمياء ، ومن السحر على حد سواء. في حين إن الصدام والتأثير المتبادل لمجموعة متنوعة من الآراء ، والتي تميز الديمقراطية ، قد لا ينتجان الحقيقة مباشرة ، ولكنهما يمهدان الطريق لذلك.

وفي هذه اللحظة بالذات يرقص العالم كله حول الوهم ، وحول الفكرة السحرية القائلة بأن القوة المادية والعسكرية وراء الحجة التي ستقربنا من الحقيقة ، وتقترب من السلامة.

بيد أنه ، ومع ذلك ، فإن الضغط على زر نووي واحد ، فإن القذائف الذرية ستكون كفيلة بأن تؤدي بنا جميعا إلى حالة الانتحار المتبادل.

في عالم مليء بالأفكار والأوهام المتضاربة والمتناقضة ، يكمن الحل في ترسيم الحدود ، والوعي بالحدود المتبادلة. وهذا الاتفاق على ما نحن لا نتفق عليه هو الخطوة الأولى للفهم.

الفصل الثاني عشر

التكنولوجيا تغزو عقولنا

من الصعب جدا وصف الهجوم على أذهاننا بسبب اقتحام التفكير التقني. وذلك لأن التكنولوجيا لديها مثل هذه التأثيرات المتناقضة.

كما يمكن أن يكون ذلك التأثير نعمة ، مما يجعلنا أكثر استقلالاً عن قوى الطبيعة المهددة. ولكن في الوقت نفسه ، يمكن للأدوات ، والآلة أن تهيمن علينا. ولذلك ، فإن هذا التناقض الداخلي للتضخيم الذي يجب علينا إتقانه-لن يتم جرّنا إلى الأسفل في حالة الغليان

وهكذا ، فإنه ، ومن التطور التقني المتزايد باستمرار ، وصولا إلى الكارثة الذرية النهائية! تكمن مفارقة التكنولوجيا الفريدة في ذلك: فالتدريج لرفاهية الآلة (السيارات ، المصانع) حيث يفترض أن توفر أهمية وقيمة أكبر لرفاه الإنسان والبشرية على حد سواء.

كما إن نمو التكنولوجيا ، وتطور الأدوات الميكانيكية المتعددة في خدمات تخيلاتنا ، قد أعاد البشرية إلى حلم طفولي من قوة غير محدودة. وحيث يجلس هناك ، ذلك الرجل الصغير ، في غرفته ، ومع مختلف الأدوات من حوله. ومجرد الضغط على زر صغير تافه ، فهو قد يغير العالم بالنسبة له.

ولكن ما حجم هذه القدّ! وما هو شكل السلطة التي يتخيله الانسان! وما هو الخطر العقلي الذي قد يرافق ذلك.

وبالتالي ، يمكن القول بأن نمو التكنولوجيا ، قد يخلط بين الطموح ، وبين نضال الإنسان من أجل الوصول إلى مرحلة النضج العقلي.

كان التطبيق العملي للعلم والأدوات في الأصل ، يهدف إلى إعطاء الإنسان مزيداً من الأمان ضد القوى البدنية الخارجية. وحماية العالم الداخلي له. ولأن تحرر الوقت والطاقة للتأمل والتركيز ، واللعب والتفكير الإبداعي. ولذلك ، فقد استولى الانسان تدريجياً ، على العقل التكنولوجي الذي صنعه حول نفسه ، والذي أرغمه على العودة إلى العبودية ، بدلاً من التحرر.

وهكذا ، أصبح الرجل مخمورا بالمهارة التقنية. بل وأصبح مدمنا على التكنولوجيا. تستدعي التكنولوجيا من الناس ، ومن دون التعريف الذاتي عنها ، إلى موقف طفولي ، ذليل. ولذلك ، لقد أصبحنا جميعاً عبيداً لسياراتنا على سبيل المثال.

كما وقد يؤدي الأمن التقني إلى زيادة الجبن. في حين لا يكاد يوجد تحد لمواجهة قوى الطبيعة خارجنا ، أو قوى الغريزة في دواخلنا.

ولأن العالم التقني أصبح بالنسبة لنا يُمثل هذا التحدي السحري الذي توفره الطبيعة في الأصل. إنه الخضوع التام للتكنولوجيا ، والتي تشكل هجوماً مباشرا على التفكير. في حين أن الطفل الذي يواجه الشباب في سن مبكرة مع جميع الأجهزة الحديثة والأدوات التكنولوجية-الإذاعة ، المحرك ، جهاز التلفزيون ، الفيلم - هو مكيف ، وعن غير قصد بملايين المجموعات ، والأصوات ، الصور ، والحركات ، والتي لا يشارك بالضرورة فيها. كما ليس لديه حاجة للتفكير بها.

في حين أنها ترتبط ارتباطاً مباشراً جداً بحواسه. وبالتالي ، فإن التكنولوجيا الحديثة ، تعلّم الإنسان كيف يكون من المسلم به أمام العالم الذي ينظر إليه ؛ أن لا يأخذ أي وقت للتراجع والتأمل. فالتكنولوجيا تغريه لكي يسقطه أمام عجلاتها. وحيث لا راحة ، ولا تأمّل ، ولا انعكاس ، ولا محادثة ، فالحواس مليئة بالمحفزات ، وباستمرار. كما لا يتعلم الطفل سؤال عالمه بعد الآن. حيث تقدم له الشاشة كل الإجابات الجاهزة. وحتى أن كتبه لا تعرض له المواجهة الإنسانية ، ولا يقرأها أحد ؛ وفي المقابل فإن الشاشة تعرض على الناس الملايين من القصص

ذات المواضيع المختلفة. كما أن المعرفة التقنية المفروضة عليه بهذه الطريقة ، لا تطلب منه التفكير في ما يراه ويسمعه. فقد أصبحت المحادثة فناً ضائعاً. في حين يندفع نحو نوع الآلة ، وقدراتها التكنولوجية ، ولا يترك أي وقت للقراءة الهادئة ولا للالتقاء بأي من الفنون الإبداعية.

ولكننا نرى تياراً معاكساً في حركة"افعل ذلك بنفسك". وهنا لربما نرى عودة الروح الإبداعية ـ وإن ببطء شديد ، وتحدياً للمهندس الذي يصمم الروبوت.

وفي عالم تقني أكثر ، لم يعد الجسد والعقل موجودان. حيث تصبح الحياة جزءاً فقط ، من عملية التفكير الفكري والكيميائي. فالمعادلات الرياضية تتدخل في العلاقات الإنسانية. نتعلم ، على سبيل المثال ، من خلال عقيدة الشعور بالذنب بالارتباط ، المعادلة البسيطة ، والتي يجب أن يكون أعداء أعدائنا من أصدقائنا وأن أصدقاء أعدائنا يجب أن يكونوا أعداءنا-كما لو أن مجرد إضافة بسيطة وإيجابية ، توجد علامات يتم من خلالها تقييم البشر.

القهر الزاحف بواسطة التكنولوجيا

تلتقط الإذاعة والتلفزيون الذهن والعقل مباشرة ، فلا يترك الأطفال أي وقت للهدوء ، ولا لمحادثة جدلية ، أو ديالكتيكية مع كتبهم.

كما لا يسمح العرض الذي تبثه الشاشات بتبادل الاتصالات ، والمناقشة بحرية. فعلى الرغم من أن المحادثة هي الفن المفقود. فإن هذه الاختراعات تزيد من الطين بلّة ، وتسرق الوقت ، وتسرق معه الوعي الذاتي. كما أن ما تقدمه التكنولوجيا بيد—كسهولة وبساطة التعامل معها ، والأمان المادي—فإنها تأخذك باليد الأخرى.

في حين أنها قد استحوذت على العلاقات العاطفية ، والحنونة بين الناس. فلم تعد ترسل بطاقة عيد الميلاد الممهورة بالتوقيع وعبارات المحبة ، حيث تم استبدالها بعبارات مطبوعة مسبقة الصنع وباردة العواطف ، وكذلك الحروف النموذجية ، وآلة الطباعة نفسها ، والتي تم الاستعاضة عنها بأولئك الوكلاء

الميكانيكيين. وبالإضافة إلى ذلك ، فقد أصبح ذلك التطفل التقني والتكنولوجي ، يستغل معظم العلاقات الإنسانية ، وكما لو أن الناس لم يعد عليهم أن يعيروا اهتماما آخر ، ويحبوا أكثر.

في حين حلّت زجاجة الرضاعة محل ثدي الأم ، وحل النيّكل الموجود في الأوتومات ، محل إعداد الأم للسندويشات. وحيث يستبدل الجهاز اللا شخصي مبادرات الإنسان ، ومقاييسه التبادلية. ولذلك ، فإن الأطفال الذين يتم تعليمهم بهذه الطريقة ، يفضلون أن يكونوا بمفردهم ، مع الأوهام ، والهروب إلى الأدوات التكنولوجية ، للعب معها. فالميكانيكي يدفعهم إلى الانسحاب العقلي.

كما وتقترح التكنولوجيا وتولد الشعور بالقدرة المطلقة للإنسان من جهة ، ولكن من ناحية أخرى ، صغر حجم الإنسان وضعفه ونقصه مقارنة مع قوة الآلات. ففي حين أن قوة العقل الإبداعي لدى الإنسان تتخفى خلف أحلام الآلات الاجتماعية وميكانيكا العالم. فإن الميكانيكا في المناورات السياسية مبالغ فيها ، وتذهب إلى ما هو أبعد من العقل.

كما أننا نستخدم الذكاء والردع المضاد ، والحيل والآلات السياسية ، وننسى "الأسباب العاطفية" التي تكمن وراء الذكاء والغباء البشري.

هناك علاقة بين الاعتقاد الساذج في التكنولوجيا فقط ، وبين الاعتقاد الساذج في الذكاء البشري ، والمنطق والبراءة التي كانت جزءاً من الشعور الليبرالي المتفائل السائد في القرن التاسع عشر.

ولكننا نرى في كلا المعتقدين ، إنكار الأعماق اللاعقلانية للعقل.

ولكن ما هي النتيجة النهائية للتقدم التقني؟.

وهل يدفع الناس أكثر وأكثر إلى الخوف واليأس الناجم عن العالم بضغطة زر خالية من الحب؟

وهل يخلق السعادة مصاب بجنون العظمة فاز عن طريق التحكم عن بعد من أشخاص آخرين؟.

وهل يوصل الناس إلى الفراغ غير المرضي لساعات الفراغ المملوءة بالملل؟.

وهل النتيجة النهائية هي العيش بالوكالة ، وهي تجربة العالم فقط من الفيلم أو شاشة التلفزيون ، بدلاً من العيش والعمل وتكوين الذات الخاصة؟

أما فيما يتعلق بحالات الإدمان التلفزيوني ، فقد لاحظت النقاط التالية:

-سحر التلفزيون هو إدمان حقيقي. وهذا يعني أن التلفاز يمكن أن يتحول إلى عادة ، ولا يمكن وقف تأثيره دون تدخل علاجي فعال.

-إنها تثير اضطراباً جنسياً وعاطفياً مبكراً ، وتغوي الأطفال لفتنة النظر مراراً وتكراراً ، على الرغم من أنهم في نفس الوقت مرتبكون بشأن ما يرونه.

-وهي توفر باستمرار الرضا عن الأوهام العدوانية(المشاهد الغربية ، مشاهد الجريمة) مع الشعور بالذنب اللاحق-لأن الطفل يميل إلى التعرف عليه بشكل غير واعي مع المجرم ، وعلى الرغم من كل المنتقمين الأبطال.

-كما انها سارقة للوقت.

وهكذا ، فإن الانشغال الدائم بمشاهدة بالتلفزيون ، سيمنع الإبداع الداخلي النشط ، فالأطفال والكبار يجلسون فقط ويراقبون العالم الزائف على الشاشة ، وذلك بدلاً من مواجهة صعوباتهم الخاصة.

كما أنه ، إذا كان هناك تعارض مع الوالدين الذين ليس لديهم وقت لصغارهم ، فإن الأطفال سيستسلمون ، وبشكل أكثر طواعية ، لسحر الشاشة وقوة جاذبيتها. كما ستصبح الشاشة هي الراعي ، هي المتحدث معهم ، وهي التي تلعب معهم ، وتأخذهم إلى عالم من الأوهام السحرية.

أما بالنسبة لهم ، فإن التلفاز سيأخذ مكاناً كبيراً ، وهو صبور إلى الأبد ، ولا يتذمر من شيء. وهو ما يترجمه هذا الطفل كحالة حب. وكما هو الحال في جميع وسائل الإعلام ، علينا أن نكون مدركين للعمل المغرض ، والمغري ، لأي شكل من أشكال الاتصال المتداخل. وحيث يصبح الناس مفتونون ، وحتى عندما لا يرغبون في النظر.

كما يجب أن نضع في اعتبارنا أن كل خطوة في النمو الشخصي ، تحتاج إلى عزل ، وتحتاج إلى محادثة داخلية ومداولات ومراجعة مع الذات.

كما ، ويعيق التلفاز هذه العملية ، ويهيئ العقل بسهولة أكبر من أجل التفكير الجماعي والتفكير المقولب. وحيث إنه يقنع المتفرجين ، بالتفكير من خلال القيم الجماعية. ولكنه في حقيقة الأمر ، يتطفل في الحياة الأسرية ، ويقطع الاتصال الداخلي ، وبشكل خفي ، بين أفراد الأسرة الواحدة.

ولذلك ، فسيشهد عالم الغد معركة هائلة بين التكنولوجيا وعلم النفس. كما وستكون هناك معركة شرسة بين التكنولوجيا ، وبين الطبيعة ، وبين التكييف المنهجي في مواجهة العفوية الإبداعية. في حين يشير تبجيل الآلة ، إلى تحويل المعرفة الميكانيكية إلى طاقة ، و إلى قوة الضغط على الزر.

وقد ترجمت الأدوات الميكانيكية للتدمير مثل القنبلة الهيدروجينية ، الرغبة البشرية البدائية لتدميرها ضمن عمليات القتل العلمي الواسع النطاق.

أما الآن ، فقد تصبح هذه الإمكانات المدمرة أداة سهلة في يد أي مجنون محتمل للقوة. ومدفوعاً بالتكنولوجيا ، فقد أصبح عالمنا أكثر ترابطاً ، ومن خلال اعتمادنا على المعرفة التقنية والأجهزة ، فنحن أنفسنا معرضون لخطر إيصال شعبنا إلى الشموليين الاستبداديين الأكثر وحشية.

وفي الواقع ، فإن هذه هي المعضلة الفعلية لحضارتنا. فقد أصبحت الآلة أداة للتنظيم البشري ، وجعلت من الممكن غزو الطبيعة ، والتي قد تحمل توقيع الديكتاتور. كما أجبر الناس على الاستجابات التلقائية ، وإلى أنماط جامدة ، وعادات مدمرة. لقد أثارت الآلة توقفاً متزايداً للسرعة ، ولتحقيق الإنجازات المحمومة. كما توجد علاقة نفسية بين السرعة(السرعة المسعورة) وبين القسوة.

فوراء عجلة القيادة في سيارة سريعة ، يصبح السائق ثملا مع السلطة. وهنا ، مرة أخرى ، نرى إنكار مفهوم النمو الطبيعي والثابت.

كما وستحتاج الأفكار والأساليب إلى وقت طويل لكي تنضج. ولكن ذلك

ينتج عن الماكينة ، على شكل نتائج قبل الأوان: حيث يتحول التطور إلى ثورة العجلات. ويصبح الجهاز أداة إنكار بأن التقدم يجب أن ينمو داخلنا قبل أن يمكن إدراكه خارج أنفسنا.

وستحل المكننة مكان الإيمان في الكفاح العقلي ، والاعتقاد بأن حل المشكلة ، إنما يحتاج إلى وقت ، وإلى محاولات متكررة. ومن أنه ، وبدون مثل هذه المعتقدات ، فإن التفاهة ستحل ، وستكون الخلاصة مشوشة ، والمذكرة متعجلة. حيث يؤمن العالم الميكانيكي فقط ، بتكثيف المشاكل ، وليس في صراع جدلي مستمر بين الإنسان ، وبين الأسئلة التي يفسرها.

كما وتكمث إحدى كبرى المغالطات التقنية الحديثة في اتجاهها نحو كفاءة أكبر. ومع طاقة أقل ، وحيث يجب إنتاج المزيد.

كما قد يكون هذا المبدأ مناسباً للآلة ، ولكنه ليس صحيحاً أبدا بالنسبة للكائن البشري.

ولكن لكي يصبح الإنسان قوياً ، ويظل قوياً ، عليه أن يتعلم كيفية التغلب على المقاومة ، ومواجهة التحديات ، واختبار نفسه مراراً وتكراراً. لأن الغرور ومشاعر الفخر ستتسبب في ضمور عقلي وجسدي على حد سواء .

كما وإن انخفاض قيمة دماغ الإنسان الفردي ، واستبداله بأجهزة الكمبيوتر الميكانيكية ، سيسهل اختراق النظام الاستبدادي ايضا ، و الذي يضطر مواطنيه إلى أن يصبحوا–أكثر وأكثر– مجرد أدوات وسلع.

في حين يصبح"النظام" اللاإنساني هو الهدف ، وهو نظام نتاج تكنوقراطي ، وتجريد من حقوق الإنسان ، وقد يؤدي إلى وحشية منظمة ، وإلى سحق أي أخلاق شخصية.

كما أنه في مجتمع الميكانيكي ، يتم طبع مجموعة من القيم على العقل اللاواعي ، وبالقوة ، وبالطريقة التي يميز بها العالم "بافلوف" بين كلابه في المختبر. وحيث لم تعد أدمغتنا بحاجة لخدماتنا ، أو حتى لتطوير عملية التفكير ؛

فالآلات سوف تفعل هذا بالنسبة لنا. أما في التكنوقراطية ، فسوف يتم التركيز على السلوك الخالي من العواطف والإبداع.

ونتحدث هنا عن"أدمغة كهربائية" متكاملة ، و متناسين ، في الوقت عينه ، من أن العقول المبدعة ، هي التي تقف وراء صنع تلك العقول ، وضيقها.

أما بالنسبة إلى بعض المهندسين ، فلم تعد العقول أكثر من مصابيح كهربائية في مختبر شمولي. في حين أنه قد تم ، بين الرجل ورفاقه ، إرفاق قوة هائلة ، وباردة ، وبيروقراطية من القواعد والأدوات. ولذلك ، فقد أصبحت المكننة بكونها "القواد" الغامض في العلاقات الإنسانية ، والرجل بين البيروقراطية الميكانيكية ، وهو قوي ، ولكن غير شخصي. كما وأنه قد أصبح مصدرا جديدا للخوف السحري. أما في العالم التكنوقراطي ، فيتم قمع كل مشكلة أخلاقية ، ويتم تهجيرها ، من خلال تقييم فني أو إحصائي. فمشاكل الرياضيات سليمة ، وسريعة ، وتخدم الإطاحة بالأخلاق.

وعلى سبيل المثال ، إذا كان المرء يحقق في الحياة الداخلية لحراس معسكرات الاعتقال ومشاكلهم الداخلية ومحناتهم ، فسيدرك المرء لماذا أعطى هؤلاء السجانون الكثير من التفكير للمشكلة الفنية المتعلقة بكيفية نقل الجثث المقتولة لضحاياهم إلى خارج المنطقة.

كما أن غرف الغاز قد اكتسبت الكلمتان المعبرتان على أنها"نظيفة" و"عملية" و"نقية" وبالنسبة لهما بُعداً مختلفاً عن بُعدنا المعتاد.

فقد فكروا في المصطلحات الكيميائية والإحصائية –وتمسكوا بها– وحتى لا يكونوا مدركين لأدائهم الأخلاقي الأعمق.

وهكذا ، فإن العقل الذي يعتبر جهاز حوسبة ، هو نتيجة للترشيد القهري ، والتعميم للعالم. وقد كان هذا منذ زمن المفكرين اليونانيين الأوائل.

كما أنه المفهوم الذي ينطوي على الإنكار أو التقليل من الحياة العاطفية وقيمة التجارب الهامشية.

في حين أنه في مثل هذه الفلسفة ، لا تُفهم العفوية أبداً ، ولا الإبداع ولا المصادفة التاريخية ، ولا معجزات التواصل البشري كما يتضح من التخاطر.

كما أن التكنولوجيا التي تعتمد على هذا المفهوم ، تكون باردة ، وبدون معايير معيشية و أخلاقية ، ومن دون إيمان و"شعور بالعمق الداخلي" في عالمنا الخاص.

وحيث أنها تحفز ، وباستمرار على حالة عدم الرضا الجديد ، وإنتاج الرفاهية الجديدة ، ولكن دون معرفة السبب.

كما أنه يحفز على الطمع والكسل ، ودون التأكيد على ضبط النفس ، أو فن العيش.

وبالفعل ، فإن التكنولوجيا كهدف بدلاً من وسيلة ، تعطينا خيال المساواة البسيطة ، بدلاً من السعي المستمر للحرية والتنوع والكرامة الإنسانية.

كما وتتجاهل التكنولوجيا حقيقة أن نظرتنا العلمية للعالم ليست سوى تصحيح تدريجي لوجهة نظرنا الأسطورية والبيئية.

فالتكنولوجيا ، والتي كانت في الماضي نتاجاً لخيال ورؤية شجاعين ، تهدد بقتل تلك الرؤية نفسها ، والتي بدونها لا يمكن إحراز تقدم بشري.

كما أن المعبود ، التكنولوجيا ، يجب أن يعود إلى الموقع الطبيعي ليصبح أداة مرة أخرى ، وليس ذاك الساحر القدير في حد ذاته ، والذي يسحبنا إلى الهاوية سواء علمنا أم لم نعلم.

وبالتالي ، فإن خلق التطور الصناعي في ثقافتنا الغربية يعتبر مشكلة جديدة ، وهي جعل الإنسان أكثر بعدا عن إيقاع الطبيعة.

وحيث تم ربط الرجل الصناعي الأول بالمصنع والمحرك ، ومن ثم زاد التقدم التكنولوجي وقت الفراغ ، مما جلب سؤالاً جديداً: قضاء وقت الفراغ على ماذا؟.

وهكذا ، فإن النمو المتزايد للوقت ، والمساحة الزمنية ، وأحجام المدن ، وتخفيض المسافات من خلال وسائل النقل المتزايدة ، قد أثرت ، وبعمق على

جذور مشاعرنا المتعلقة بالانتماء والأمن.

ولذلك ، فغالباً ما تتعطل أنظمة الأسرة ، وهي ذرة المجتمع ، وتتدهور أحياناً.

وقد استبدلت الهيجان الهائل من سيارة العائلة يوم الأحد ، بالهدوء الجماعي ، ومع مجموعات عائلية في التبادل المتبادل للمودة والحكمة.

وفقط عندما يتعلم الإنسان كيف يكون مستقلاً ذهنياً عن التكنولوجيا- وهذا يعني أنه عندما يتعلم الاستغناء عنه - فإنه سيتعلم أيضاً أن لا يغمره ، ويبتعد عنه.

وهنا لا بد من أن يصبح الناس وحيداً مثل "روبنسون كروسوز Robinson Crusoes" التائه على الجزيرة أولاً ، وقبل أن يتمكنوا حقاً من استخدام وتقدير مزايا التكنولوجيا. كما ويجب أن يتعلم كيف يمكنه أن يقدم التحديات والحاجات البسيطة ، والطبيعية للطفل ، وذلك من أجل تحصينه.

رهاب التكنولوجيا

من المفارقات اللافتة أن الأمن التقني قد يزيد من حالة الجُبن. فقد حل العالم التقني الذي أنشأناه نحن بأنفسنا محل التحدي الحقيقي جدا ، والذي منحته الطبيعة في الأصل لخيال الإنسان ، ولذلك لم يعد الإنسان مجبرا على مواجهة قوى الطبيعة الخارجة عن نفسه ، وقوى الغريزة في داخله.

كما أن عاداتنا الفاخرة والحضارة المعقدة ، لديها ميل إلى النداء أكثر لسلبيتنا النفسية مقابل اليقظة الروحية.

فالناس السلبيون عقلياً ، دون الأخلاق الأساسية والفلسفة ، يتم إغواؤهم ، وبسهولة في مغامرات سياسية تتعارض مع أخلاقيات مجتمع حر ديمقراطي.

كما أن خط التجميع ينفر الإنسان عن عمله ، من نتاج عمله. لذا ، لم يعد الإنسان ينتج الأشياء التي يحتاجها الإنسان ؛ فالأجهزة يمكنها أن تنتجها له.

كما يخبرنا المهندسون والعلماء ، أن التشغيل الآلي في المستقبل القريب- كتشغيل المصانع بدون مساعدة بشرية- سيصبح حقيقة واقعة ، وسيصبح العمل

البشري ، والإنسان نفسه غير ضروريين على الإطلاق.

إذن ، كيف يمكن للإنسان أن يحظى بتقدير الذات عندما يصبح الجزء الأكثر استهلاكا في عالمه؟.

تستند القيم الأخلاقية والمعنوية التي تشكل أساس المجتمع الديمقراطي إلى الرأي القائل بأن الحياة البشرية والرفاهية الإنسانية هما خير الأشياء في العالم.

ولكن في مجتمع تتسلم فيه الآلة بالكامل ، يمكن تدمير جميع قيمنا التقليدية.

كما أنه ، وفي تبجيل الآلة ، فإننا سننكر أنفسنا ، وقد نرفضها.

وحيث أننا سنبدأ في الاعتقاد بأن ذلك قد يكون صحيحاً ، وأن الإنسان ليس له قيمة جوهرية ، وبأن الحياة في حد ذاتها ليست سوى جزء من عملية تفكير كيميائية وفنية أكبر.

ولكن ما هو جلي للعيان ، هو أنه يتضح بأن الانسان ينسحب ، وإن بشكل تدريجي ، نحو عالم الآلية ، والضغط على زر التشغيل والتحكم من خلال حبه للسيارات ، والآلات الأخرى.

وفي اللحظة التي يستطيع فيها أن يتراجع إلى مقعد سيارته ، ويوجه العالم عن طريق التحكم عن بعد ، وهو مسترخ في مقعده الفاخر ، ويحلم بحلم قديم ، طويل النسيان في مرحلة الطفولة ، ويتمتع بقدر كبير من القدرة المطلقة.

وهكذا ، يأخذ خنوع الإنسان إلى سيارته والآلات الأخرى شيئاً بعيداً عن شخصيته. ولذلك ، فنحن شبه منومين من فكرة التحكم عن بعد.

وحيث تعطينا العجلات ، وأزرار التحكم الآلي ، إحساساً خاطئاً بالحرية. بيد أنه ومع ذلك ، فإن الانسان-في الوقت نفسه- يقاوم الجزء الخلاق من الإنسان نحو الآلة الباردة والميكانيكية ، وذلك من أجل في حريتهم الداخلية.

فعندما أقود السيارة ، وفي كل مرة أجتاز فيها شيئاً جميلاً على طول الطريق ، سواء كان ذلك مشهداً مبهجاً ، أو متحفاً ، أو نهراً ، أو شجرة طويلة ،

فإن ذلك ، في هذه اللحظة بالذات ، يثير مشاعري ، ويجعلني أدخل مع نفسي في حالة من الصراع المتوتر.

هل أوقف السيارة ، وأستمتع في الجمال من حولي ، أم أعطيها مزيدا من السرعة وأواصل السباق؟

أما بالنسبة لعلم النفس وعلم الأحياء ، فإن هذا السلوك يثير أسئلة مهمة.

كيف ستنتهي؟.

وهل سيصبح ميل الإنسان أكثر فأكثر جنيناً ، وتكنولوجياً متحركاً أفضل منه ومن حضارته؟.

لقد وصف عالم التشريح الهولندي"بولك"-وهو أحد أساتذتي-منذ فترة طويلة ، التخلف التنازلي في خصائص النمو لدى البشر ، مقارنة بالتطور السريع للكائنات الرئيسيات الأعلى.

وكنتيجة للتخدير ، والتخلف التشريحي للإنسان ، فقد اكتسب وضعه المنتصب ، واستخدم قبضته ، والتحقق من يديه ، وإمكانية الكلام.

فهذا الشاب الطويل ، أتاح له أن يتعلم ، وأن يبني عالم الفكر الخاص به.

كما أنه ومنذ عصر النهضة ، وظهور العلم الحديث ، اضطر العالم نفسه إلى التراجع أكثر فأكثر إلى رحمه التكنولوجي- مختبره ، ودراسته ، وكرسيه.

وقد فعل هذا من أجل تركيز فكري أكبر ، ولكن ، ونتيجة لذلك ، أصبح أكثر عزلة تدريجياً عن الأشخاص الأحياء-وبشكل غير ملحوظ.

بيد انه وفي العقود الأخيرة فقط ، بدأ العالم في الاتصال بالمشاكل الاجتماعية أكثر فأكثر ، وأجبره هذا جزئياً على القيام بذلك ، من خلال نمو العلوم الاجتماعية. وهكذا- فإنه ، ومن ركنه السحري ، تعلم العلماء كيفية السيطرة على العالم باختراعاتهم وإملاءاتهم العقلية.

ومن ثم ، وعلى نحو متزايد ، تم إغراء السكان بفكرة التحكم عن بعد. كما إن ترسانة أزرار التحكم ، والأدوات ، تقودنا إلى عالم الأحلام السحري المتمثل

في القوة المطلقة. في حين أن حضارتنا التقنية تمنحنا المزيد من السهولة ، ولكن التحدي ، والقلق هو ما يميز الشخصية والقوة على حد سواء.

وهكذا ، فإن المخرج المتكرر في العمل ، والذي لا نتسامح مع من خلاله مع اعتداءاتنا فحسب ، بل يتعدى أيضاً إلى صقل أهدافنا الغريزية ، ويعيد ترميمها ، ويتعرض للخطر بشكل فاضح ، بسبب الأتمتة التقنية.

كما أن هناك علاقة حميمة بين إيقاع العمل ، وإيقاع الخلق. ففي عالم مليء بالمتعة وعدم الانضباط في العمل ، ستفلت لغرائزنا العنان مرة أخرى.

إنه الإيقاع المتناوب للعمل ووقت الفراغ الذي يحسّن استمتاعنا بالراحة.

لقد تم إخبار المؤتمر الذي عقد في مدينة "نيو هافن" برعاية جمعية الأنثروبولوجيا التطبيقية عن تأثيرات الأتمتة على العمال ، بأن الشكوى الرئيسية للعمال كانت تتمحور حول أن زيادة التوتر الذهني ، تحل محل التعب العضلي [جريدة نيويورك تايمز عدد٢٩ كانون اول/ديسمبر من عام١٩٥٥] وذلك بعد سلسلة مشاهدة لآلات التحكم ، والتي تجعل الإنسان يقفز ، ويتطور تدريجيا ، الشعور بأن الآلة تسيطر عليه بدلا سيطرته عليها.

وقد كان العديد من مرضاي ، ينظرون إلى الآلات على أنها شيء حي ، وحيوي بشكل خطير ، لأن الآلات لم يكن لديها حب أو مشاعر أخرى يمكن للإنسان أن يستخدمها. ولكن المفارقة الخطيرة في تعزيز مستويات المعيشة ، هي أنه ، وفي تعزيز السهولة ، فإنه يعزز الكسل ، والاسترخاء. وهكذا ، فإذا لم يكن العقل مهيأ لملء وقت الفراغ بتحديات جديدة ومساعي جديدة ومبادرة جديدة وأنشطة جديدة ، فإن العقل ينام ، ويصبح إنسانياً.

وكما أن ألوهية الإله تلتهم أطفالها. يمكن أن يجعل ذلك من الأوليات عالية التخصص فينا. وكما أننا نستبدل العمل البشري بالتدريج ، بواسطة الآلات ، فإننا نقوم تدريجيا باستبدال دماغ الإنسان بواسطة الحواسيب الميكانيكية ، وبالتالي زيادة إحساس الإنسان بعدم الجدارة.

وهنا سنبدأ بتصوير العقل نفسه كآلة حوسبة ، وكمجموعة من الدوافع والإجراءات الكهروكيميائية. فالدماغ هو عضو في الجسم. ولذلك يمكن هيكلة الآلة ، ويمكن دراسة عملها ، وفحصها.

ولكن العقل شيء مختلف للغاية. إنه ليس مجرد مجموع العمليات الفيزيولوجية التي تجري في الدماغ. فهو الجانب الفريد والإبداعي للشخصية البشرية.

وما لم نشاهد بأنفسنا ، فإنه ، وإذا أصبحنا أكثر وعيا بالمشاكل الخطيرة التي جلبتها لنا التكنولوجيا ، فإن مجتمعنا بأكمله ، قد يتحول إلى نوع من الدولة الخارقة. كما إن أي انهيار للوعي الأخلاقي ، وإحساس الفرد بقيمة نفسه ، يجعلنا أكثر عرضة للإكراه العقلي.

وقد قدمت لنا ألمانيا النازية مثالاً مخيفاً للانهيار الكامل ، ولجميع التقييمات الأخلاقية.

ففي مجتمع فرق الموت الهتلريةS.S . ، أصبح الاضطهاد العنصري ، والقتل ، والإعدامات ، نوعاً من القواعد الأخلاقية. ولذلك ، فإن كل هذا قد يبدو متطرفاً.

ولكن الحقيقة تبقى في أن أي تأثير-علني أو مخفي ، جيد أو سيئ النية- قد يقلل من اليقظة لدينا ، ومن قدرتنا على مواجهة الواقع ، ورغبتنا في العيش كأفراد نشطين ، يتصرفون ، لتحمل المسؤولية ومواجهة الخطر ، وسيأخذ منا جزءاً من إنسانيتنا الأساسية ، والجودة فينا ، والتي تسعى إلى الحرية والنضج الديمقراطي. كما إن التدخل العقلي الإجباري ، والذي تمارسه الأنظمة الاستبدادية ، هو تدخل مستنير ومُستلهم من الناحية السياسية ، ولكن التدخل الذهني ، يشكل خطراً جسيماً ، وحتى عندما يكون غرضه غير سياسي.

في حين أن أي تأثير يميل إلى سرقة الانسان من عقله الحر ، يمكن أن يقلل من انسانيته ، وأن يتحول إلى روبوت آلي. كما يمكن لأي تأثير من هذا القبيل ، أن يدمر الفرد ، ومن ثم تدمير المجتمع برمته.

الفصل الثالث عشر

تداخل العقل الاداري

منذ أن أصبحت الحياة الاجتماعية أكثر تعقيداً ، تطورت مجموعة جديدة من الوسطاء بين الإنسان وأهدافه. كما لم يعد الكاهن القديم ، والذي يتوسط بين الإنسان وآلهته ، وبين الإنسان والسلطات ، يقف وراءه ، ولكن مجموعة من الإداريين ، وفي جزء منه ، تولي مهمة التدخل بين الانسان ، وحكومته.

وهناك اليوم وسطاء بين الإنسان ورؤسائه ، وبين الفنانين والجمهور ، وبين المزارعين والسوق ، والوسطاء بين كل شيء.

كما يولد العقل الإداري ، وغالبا ما يسيطر على السلوك الاجتماعي للإنسان ، واتصالات الانسان المتعددة ، مما يؤدي به إلى تصرفات معقدة وقهرية ، وأبعد من السلوك التلقائي.

ولذلك ، فإن كل هذه الروابط ، البيروقراطية الصارمة والأخرى الإدارية المفيدة ، لها تأثيرها على السلوك البشري ، والتي غالبا ما يكون لها تأثير تفكير الإنسان الحر. وفي هذا السياق ، لدي سبب خاص لتطوير هذا الموضوع في كتاب عن اغتصاب العقل ، لأن مشكلة الوساطة بين الإنسان وأفعاله ، وأفكاره ، موجودة في شكل ديمقراطيتنا ، وكذلك في الدول الاستبدادية.

كما ويتصارع كل من نصفي العالم مع المشكلة المتعلقة بكيفية إدارة أنفسهم. وهكذا ، فإن مجرد أسلوب حكم أنفسنا ، وعالمنا ، يمكن أن يصبح تهديداً للتنمية البشرية الحرة–وقد يكون هذا مستقلاً عن الأيديولوجية التي تلتزم بها الإدارة.

ولذا ، فليس لدينا نفس الحرية في اختيار الأشخاص الرسميين الذين يحكموننا ، وبحيث يتعين علينا اختيار متجرنا المفضل ، أو طبيبنا الأكثر خبرة.

ولذلك ، فطالما أن الانسان الرسمي هو المسؤول ، فلا شك في أننا سندور في فلك قوته البيروقراطية.

العقل الاداري

لا يمكن للمسؤولين اليوم من التعامل مع وظائفهم بشكل كافٍ في حدود المعرفة البسيطة للأشخاص ، والأمم ، والذين خدموا الحكومات في السنوات السابقة. وعليه ، فإذا لم يستطع قادتنا أن يأخذوا بعين الاعتبار ، القوى غير العقلانية في أنفسهم وفي رجال ، وأمم أخرى ، فقد ينجرفون ، وبسهولة ، إلى جحيم المشاعر الجماهيرية.

وإذا لم يتمكنوا من معرفة الاعتراف بأن سلوكهم الخاص ، أو الرسمي ، يعكس في كثير من الأحيان ، تحيزهم أو عدم وعيهم ، فلن يكونوا قادرين على التعامل مع التحيزات غير المتوقعة في كثير من الأحيان ، من الآخرين.

وإذا كانوا ، على سبيل المثال ، غير حساسين للاستراتيجية المتناقضة ، والخفية وراء لغة"إيسوبوية" شيطانية المضللة ، فلن يكونوا قادرين على مواجهة الحرب الباردة. سيما وأن المعرفة النفسية قد اصبحت ضرورة في عصرنا من العلاقات الإنسانية المرتبكة.

فهل يفهم أهلنا في الحكم ، على سبيل المثال ، تماماً الاستبدادية الاستفزازية والافتراءات الوحشية ، وهل هم قادرون على التعامل معها بشكل ملائم؟.

وهل يدركون أن مجرد الإنكار الرسمي ، لم يكن له نداء ، وتأثير قويين ، مثل الاتهام الأولي ، وفي الواقع ، يتناسب عادة مع استراتيجية المدعي؟.

من الواضح أنهم لا يفعلون ذلك ، ولأن الكثيرين مازالوا يستخدمون الإنكار الرسمي البسيط ، كدفاع ضد الاستراتيجية الشمولية الاستبدادية للاتهام ، في

حين أن التعرض المتكرر ، والسخرية فقط ، من أصل هذه التقنية يمكن أن يهزمها. وهل يدركون الآثار المترتبة على استراتيجية إثارة المشاكل الزائفة ؟. والتي غالبا ما يستخدمها الدكتاتوريون والديماغوجيون وإن بطريقة مُربكة.

وهكذا ، فإنه ، ومن خلال إطلاق الاستفسارات والتحقيقات العاطفية ، وطلب الاهتمام بمشاكل شبيهة ، فإنهم يسعون إلى تحويل الانتباه عن أهدافهم الحقيقية. ولكن هل يفهمون ، على سبيل المثال ، ما الذي يكمن وراء أسلوب استغلال الفروسية ، والكرم ، للجمهور وابتزاز شفقة العالم؟.

إن استراتيجية الشكوى ، والدعوة إلى العدالة ، هي دفاع عقلي معروف ، ويستخدمه الأفراد العصابيون لإثارة الشعور بالذنب في الآخرين والتغطية على عدوهم الخفي.

كما أن استغلال الشفقة ، والإعلان الصريح لنقاوة المرء ، وبراءته الصادقة ، هو خدعة مألوفة عند استخدامه من قبل الأفراد ، ولكننا نبقى أقل احتمالا للاعتراف بها عندما تستخدم في السياسة الدولية.

وهل يدرك المسؤولون لدينا بأنه ، وحتى المثل الرومانسية للحب الأخوي والسلام العالمي ، يمكن أن تستخدم للتغطية على التصاميم العدوانية؟.

كنا ، بعد الحرب العالمية الأولى ، قد سمعنا العديد من الكلمات المثالية ، والملهمة من دول أوروبا الوسطى المهزومة. وقد وصفت صحافتهم ، وقادتهم بتفصيل كبير ، ولكي يعرفه العالم كله من خلال "التطهير الداخلي من خلال معاناة" الشعوب المهزومة.

وهكذا ، فقد ناشدت هذه الدول ضمير العالم كله ، وتعاطفه. ولكنه كان تحويلا مشكوكا فيه. وذلك لأن كل معالج يعرف أن أولئك الذين يتحدثون كثيراً عن التغيير الداخلي ، والانتعاش ، لم يتغيروا على الإطلاق.

بل وغالباً ما كانت تتناقض العبارات الرقيقة مع الأفعال.

كما يجب أن يدرك السياسيون أن هذا يمكن أن يكون صحيحاً بالنسبة

للدول كما هو الحال بالنسبة للأفراد.

وفي هذا السياق ، دعونا لا ننسى أن الأمم لا تتحدث. بل تتكون الكلمات الرسمية من أفواه ممثلين لديهم دوافع داخلية ، وغير رسمية ، وغير معروفة في الغالب.

يشكل المدراء والدبلوماسيون والساسة المراكز العصبية ، ومسارات التواصل بين الشعوب والدول. كما تمثل التوترات في المناطق الدبلوماسية التوترات السياسية في العالم.

ولكنهم يمثلون أشياء أخرى أيضاً. فالمهنة السياسية تخضع لأنواع خاصة من التوتر العصبي.

وفي اللحظة التي يصل فيها المدير إلى المستوى الأعلى ، فقد يحدث تغيير داخلي.

ومن الآن فصاعدا ، يمكنه أن يتعرف ، ومع أولئك الذين قادوه في السابق.

وهكذا ، فإن حقيقة وجوده في المنصب الرفيع ، وكونه قائداً ، فقد يغير ذلك عقل الانسان ، وبطرق عديدة.

وغالباً ما يزيل نفسه أكثر فأكثر عن المشاكل الإنسانية ، وعن الأشخاص الذين يمثلهم ، والذين يفكرون فقط من حيث الاستراتيجية القومية ، والإيديولوجية الرسمية ، وأهداف سياسة القوة. أو من خلال طموحات الطفولة ، والإحباط لفترة طويلة ، والتي أثيرت كلها دفعة واحدة.

كما وقد يصبح ضحية طموحاته الشخصية المتضخمة ، ومفهومه الفردي عن المسؤولية ، ونتيجة لذلك ، يفقد السيطرة على شخصيته.

ولذلك ، يجب أن يصبح كبار رجال الدولة ، والمثقلين بالمسؤوليات ، أكثر حذراً. في الواقع ، كما ويجب عليهم التعبير عن أنفسهم بلغة غير ملتزمة.

إلا أنه ، ومع ذلك ، فهم لا يدركون أن مثل هذه اللغة قد تعمل تدريجيا ، على إصلاح طريقة تفكيرهم.

وأخيراً ، قد يظنون بأنهم يملكون أولوية الكلام المزدوج.

هناك صعوبة أخرى تتعلق بالخوف العام من النجاح. وبمجرد الوصول إلى طموح عال ، قد يكون هناك خوف طويل ، والذي استيقظ من فترة الطفولة ، وظل مستيقظاً ، وهو الخوف المتعلق بالمنافسة المبكرة مع الأب ، ومع الأشقاء.

ومن هذا الوقت ، فقد يبدأ الحسد والعداء لأولئك الذين تم تجاوزهم في إيذاء حياة رجل الدولة.

كما إن خطر تولي أي قيادة -حتى في أي شكل من أشكال تأكيد الذات- هو أنها تثير المقاومة والعداء والانتقام والعقاب. فالمسؤول يعرف نفسه ، ويعرف كيف يبدو في نظر الجمهور. بل ويشعر بأنه معرض للنقد والهجوم السياسي.

فإذا لم يكن لديه من قبل ، ومن الآن فصاعدا ، دفاعاته الخاصة ، فعليه تطوير واجهة دفاعية من أجل محاكمة الجمهور والناخبين على حد سواء.

كما قد تكون النتيجة أن الديموقراطي الوديع السابق ، والمؤمن في الحكومة من قبل الناس ، يأخذ فجأة مكانة شخصية سلطوية. وحيث يسترشد بخياله الطفولي المحبط للقيادة. بيد أنه ، ومع ذلك ، فإن "الإداريين العقليين" ومع كل مشاكلهم الداخلية ، يصنعون لنا التاريخ.

في حين تتأثر عقولنا ، وبشدة من عقولهم. وفي الوقت نفسه ، فإننا -الجمهور الكبير- نفرض عليهم ذلك ، ولذت ، فقد توجههم دوافعنا المتحضرة إلى إيجاد الطريق الجيدة ، وتماماً كما قد تدفعهم دوافعنا وتأثيراتنا البدائية إلى دفعنا جميعاً نحو الكارثة. وحيث يصبح تدخل العقل الإداري أكثر خطورة ، عندما تتبع السلطات ضمن السلطة الواحدة ، وبأنماط الإجراءات غير الخاضعة لسيطرة المحكمة والقانون.

كما أنه ، وفي مثل هذه الحالات ، يمكن أن يتطور التحيز والتعسف بسهولة ، وكما شهدنا في العديد من أنظمتنا الأمنية.

في حين أن السرية الرسمية تبقى رمزا للقوة السحرية. ولذلك ، فكلما

ازدادت الهشاشة في العالم ، كلما كانت السيطرة أقل ديمقراطية ، وكلما زاد الخوف من الغدر.

كما يجب أن يكون ، من الناحية الفنية ، بسيطا للغاية ، لإدارة أي مجموعة أو أمة-أو حتى العالم كله. فالبشرية بالتأكيد ، تعرف ما يكفي للقيام بهذا العمل.

ونحن نعرف الكثير عن التاريخ ، وعلم الاجتماع ، وعلم العلاقات الإنسانية ، والحكومة ، على الأقل بما يكفي ، لعدم تكرار أخطاء التاريخ.

كما أننا نعيش في عالم من الوفرة الفنية ، والاقتصادية. ولكننا لم نتعلم بعد ، تطبيق ما نعرفه ، أو تنظيم موارد العالم.

وبالتالي ، فإنه ، وفي مكان ما ، قد حدث شيء ما خطأ ، وقد خرجت الأمور عن السيطرة. كما يبدو أن إرادة الأمم والشعوب لفهم بعضها البعض قد أصيب بشيء من الشلل ، والخوف المتبادل ، والشك من قبل التخيلات ، ومن الأيديولوجيات الأسطورية التي تحارب ضد بعضها البعض. والتي قد لا يبقى منها في المستقبل سوى ذكريات شحيحة للغاية.

كما أنه ، وخلال الحرب العالمية الثانية ، كان قد تم إرسالي كممثل رسمي لحكومة هولندا إلى اجتماع دولي حول الرعاية الاجتماعية وإغاثة الحرب.

وهنا أصبحت أكثر وعياً ، بمدى قدرة العواطف الخاصة على تشكيل الطريقة التي نتعامل بها مع المشاكل العامة. فقد كان لدى كل من حضر ذلك المؤتمر وجوها باردة ، وعديمة التعابير ، والتي كانت تحتوي على تفكير حاد ، وغير متحيز ، ولكن عقولنا اللاواعية قد تأثرت بمشاكل أخرى.

وغالباً ما يكون الرفاه موضوع الكراهية أكثر من الحب والتعاطف. كما ويمكن للفخر ، والمكانة ، أن تلعب دوراً أكبر بكثير من الشفقة على الضحية الفقيرة.

في حين يدرك المشردون ، وشعوب البلدان المنكوبة ، والمتخلفة هذه الحقيقة. ولذلك ، فهم لا يحبون الدور الذي ألقي بهم إلى القدر ؛ وعليهم أن يلعبوا الدور المزدوج للضحية الأبدية ، والتي ليست فقط ضحية للسياسة والحرب ، ولكن

أيضا لمقدم الرعاية الخيرية المتعجرف.

وفي واقع الأمر، فقد استاء الممثل في الطرف المتلقي للصفقة، من أي عرض قدم لبلده. في حين كان الجميع يريد أن يكون نفسه "العم" السخي من أمريكا.

الأمراض المزمنة لدى مدراء المكاتب العامة

في المستقبل، ومع نمو فهمنا النفسي، سيتعين على السياسيين البارزين أن يكونوا أكثر تعليما في مبادئ علم النفس الحديث.

ومثلما يجب أن يعرف الجندي كيفية التعامل مع أسلحته المادية، يجب على السياسي أن يعرف كيف يواجه الاستراتيجية العقلية للعلاقات الإنسانية، والدبلوماسية، ويعالجها.

كما وسيتعين عليه أن يكون مدركاً للعوائق في كل التواصل البشري، وضيق الذهن. كما ويمكن أن يكون للأمراض الجسدية والتطور العصابي كل أنواع الآثار على أولئك الموجودين في المكتب.

أومن هم تحت تأثيرهم، حيث ينجذب بعض الأشخاص إلى حياة من الاستياء المستمر، كما لو، في أنشطتهم السياسية والرسمية، كانوا يقاتلون نضالهم الطفولي ضد الشياطين، والقلق، والذنب الداخلي.

في حين تنقىّ الآخرون من معاناتهم، وأصبحوا أكثر حكمة، وأكثر إنسانية مما كاوا عليه. وهكذا، يوضح العلم الحديث للطب النفسي، من أن استمرار القلق المستمر، والمنافسة المستمرة، والقمع المكبوت، والإرادة للسيطرة على الآخرين وحكمهم، والخوف من المسؤولية، وعبء مهنة الشخص المختار، هي من بين العديد من العوامل التي تؤثر على الجسد والعقل معا. كما أن تشكيل نمط من ردود الفعل الجسدية قد تعيق هذه التفاعلات، ولكنها في واقع الحال، تفقدنا قدرتنا على حل مشاكلنا عن طريق عجزنا الجسدي.

كما إن التحول إلى رجل دولة مختار في عصرنا من التنافس البشري

المتزايد ، وزيادة الاعتماد على جموع الناخبين ، يتراكم في صفات أصحاب المناصب التي هي تقريبا سيكوباتية ، والتي يمكن أن تشل الجسد أو العقل أو كليهما في وقت نحتاج فيه إلى قادة أكثر صحة ، وأكثر قدرة على الصمود..

كما لا يمكن التأكيد على الدور الذي يلعبه الذهان الكامن أو اضطراب الشخصية في العديد من الشخصيات البارزة.

قد كنت تعاملت منذ وقت ليس ببعيد ، مع زعيم رابطة إنسانية ضخمة ، وقد حظيت بتقدير كبير من جانب مواطنيه ، ولكن من كان طاغية مريضاً نفسياً في دائرة عائلته.

كان أطفاله يرتجفون من مجرد النظر إليه ولذلك فقد طوروا ، بالطبع ، موقفاً ساخراً من كل المثالية والإنسانية.

وأظن أن العديد من المرات يتأثر من خلالها هذا المرض بالطريقة التي نختار بها قادتنا. فغالباً ما يتم توجيه التفضيل العام نحو صفات شخصية قوية ودفاعية وفائقة التعويض ، والتي تظهر بشكل جيد في الوظائف العامة.

فالواجهة الخارجية أكبر من اللازم ؛ ونحن غير قادرين على الحكم على اللب الداخلي.

في عام١٩٤٩ كتب "بيرنيت هيرشي Burnett Hershey" مقالا يطرح من خلاله السؤال التالي:

"هل سيصبح مصيرنا في أيدي رجال مرضى"؟.

وقد كتب المقال بعد وفاة "جيمس فورستال James Forrestal" وزير الدفاع الأمريكي ، والذي انتحر تحت تأثير اليأس ، وأوهام الاضطهاد. ويصف بشيء من التفصيل ، المصاعب النفسية ، والجسدية لمختلف رجال الدولة. كما ويقتبس "هيرشي" كلمات الجنرال "جورج.س.مارشالGeorge C.Marshall" إلى نادي الصحافة في الخارج:

"... إن قرحات المعدة لها تأثير غريب على تاريخ عصرنا.

وفي واشنطن كان علي أن أتعامل ومن بين أمور أخرى ، مع قرحات"بادل سميث Bedell Smith" في موسكو. وكذلك قرحات"بوب لوفيت Bob Lovett" و" دين آتشيسون Dean Acheson"في واشنطن". كما ويشير المؤلف إلى أن "ستالينStalin " ، والسير"ستافورد كريبس Stafford Cripps" و"وارين أوستن Warren Austin " و"فيشنسكيVishinsky" قد عانوا جميعا من أمراض نفسية جسدية ، وكذلك "كليمنت أتلي Clement Attlee".

وقد سمعنا جميعاً عن نوبات الإغماء المتكررة لرئيس الوزراء الإيراني السابق "مصدقMossadegh" الرجل الذي قد غير ميزان القوة في الشرق الأوسط ، وفي موجة من اللاوعي.

كما أن السيناتور الأمريكي"ماكارثي McCarthy" والذي كان قد أصبح موضع جدل كبير ، هو مثال آخر على ذلك.

وفي ذروة نضاله على العناوين الرئيسية ، فقد كان يعاني من حالة معدة تتطلب عملية استكشافية ، والتهاب كيسي ، وصداع متكرر بسبب الجيوب الأنفية ، وعوامل الاستنفاد ، وكلها تعرف باسم الإرهاق النفسي الجسدي الناتج عن التوتر الشديد. [صحيفة نيوزويك ، عدد١٢ نيسان/أبريل سنة١٩٥٤.]

كما ولدينا أيضاً العديد من الأمثلة المبهجة عن كيفية نمو الإعاقات الجسدية والتطور العصابي وتقوية الشخصية. ولعل ألمع مثال على العلاقة بين الجسد والمهنة هو الراحل"فرانكلين دي روزفلت" والذي كانت حياته السياسية غير واضحة إلى أن أصيب بشلل الأطفال.

وقد أصبحت سنوات معاناته البدنية سنوات نضج عقلية. وكان غزو الآلام الجسدية ، والأمراض ، قد تغير موقفه تجاه مشاكله الخاصة ، وكذلك تجاه مشاكل العالم. كما ازداد نموه في التعاطف والتواضع ، وزيادته في الحدس الاستراتيجي ، ومعرفته العليا بتوازن القوى في بلاده ، والذي يجب أن يعزى جزئياً ، إلى نموه العقلي الداخلي أثناء مرضه.

وهكذا ، فسوف يكون "روزفلت Roosevelt" دائماً مثالاً حكيماً للكيفية التي يستطيع بها العقل التغلب على القيود الجسمية للجسم ، وكيف ينمو الذهن خارجها عندما يكون الإنسان راغباً في النظر إلى الداخل ويقاتل الصراعات داخل نفسه.

مؤتمرات العقول غير الواعية

دعوني أعود للحظة إلى مؤتمر وقت الحرب ، والذي ذكرته سابقاً ، لأخبركم بشيء أكثر عن ذلك.

لم يكن رئيس المؤتمر على ما يرام. بل وكان يشعر بأن كل قرار مؤلم بالنسبة له ، كما لو كان كقرحة في معدته. ولذلك ، فقد طوّق ، وعرّض ، ورفض أن يتحمّل مسؤولية المنصب الذي وضع فيه.

كما كان ممثل إحدى دول أوروبا الشرقية امرأة جذابة ، ولكنها كمواقف الرجال ، كانت بمثابة الرجل الخاطئ. فقد كانت كل كلمة تتفوه بها ، مدعاة للشك والريبة ، وعندما حاول ممثل إحدى الدول اللاتينية مغازلة بسيطة معها ، أبدت ارتباكها من خلال المجادلة ، وبشراسة ، بل ووقفت ضد أي من مقترحاته البّناءة. كما كان لدينا أيضا رجل متردد ، وسياسي قديم ، وسياسي محترف في وسطنا.

وعلى الرغم من أنه كان قد ألقى خطاباً منمقا ، وبكلمات لطيفة مهذبة ، ومنتقاة ، إلا أنه تناول في حديثه فقط ، كل ما من شأنه تدمير كل اقتراح لم يبدعه فصيله.

وعندما كان عليه أن يستمع-وهذا ما لم يكن يرغب في القيام به على الإطلاق-كان يشغل نفسه ، وبشكل دائم ، بربطة عنقه ، تلميع عدسات نظارته ، أو بمسح عرق جبينه الذي كان يتصّبب ، بمنديل الجيب وفي زاوية مزدحمة ، جلس شاب متحمس يتوق لفعل شيء مهم. وقد أراد أن يتصرف ، وأراد أن يقدم شيئاً ما كان قد أنجزه ، ولكن لم يعره الحضور ايما إثارة للاهتمام ، بل

اكتفوا في النظر اليه بازدراء متطور. وذلك لأنه لم يكن يعرف بعد قواعد اللعب في المؤتمرات.

كانت الجلسات مملة للغاية. حيث تحدث المندوبون بلا نهاية ، ولكن دون جدوى.

بيد أنه في يوم من الأيام ، عمّ جو المؤتمر بأكمله نوع من الغضب الذي لا يمكن السيطرة عليه. فقد حاول كل مندوب تدمير جميع زملائه.

فقد كان شخص ما ، قد نطق ، وبشكل غير متوقع ، كلمة"خائن" وذلك لتحديد مجموعة معينة من العصابات التي تقاتل في أوروبا ، وهكذا ، سرعان ما تحولت المناقشة السلسة فجأة ، إلى تصادم بين مشاعر المتمردين ، والتي كانت ملتهبة منذ فترة طويلة ، رغم أنها كانت خلف أقنعة رقيقة من النفاق المتبادل.

وهنا يكمن التساؤل ، فما الذي ألهب تلك الإثارة! و الغضب ، وما الذي جعل الجميع يغرقون في جو من الغضب المشحون ! على الرغم من أنه كان غضبا مؤقتا فقط.

لقد ماتت روح مؤتمرنا المتطورة ، وأعادت تأكيد نفسها ، ولذلك فقد استقر قرار الجميع على عدم القيام بأي عمل. في حين أدلى رئيس المؤتمر بخطاب تلخيص مهذبة ، ومن ثم أمر بحل المؤتمر.

ولا يزال العمل الخيري ، والذي خططنا له بعناية شديدة ، غير قابل للتراجع ، على الرغم من مرور سنوات عديدة.

ولكن ، وبتفاؤل المتفائلين ، مازال القادة السياسيون يعقدون مؤتمراتهم لبناء سلام جديد للعالم. ولا زلنا نعلم بأن الكثير منهم ، سيعانون من قرحة المعدة ، ولكن ما الذي نعرفه عن رغباتهم ، واستيائهم المخفية؟.

على الرغم من أنني أخشى أن الوقت لا يزال بعيدا لكي يقتنع ممثلونا ، والإداريين الرسميين بضرورة الخضوع للتثقيف النفسي ، والانتقاء ، وبأنهم يجب أن يكونوا أكثر وعيا حول العديد من العوامل اللاواعية التي تؤثر عليهم وعلينا.

فهل سيحاول القادة السياسيون فهم بعضهم البعض ، والمجموعات التي يمثلونها ، أم أنهم يقيسون ذلك فقط من خلال قوة آلاتهم السياسية التي يتبعون لها ، ومن خلال كلماتهم وأصواتهم؟.

وهل يسترشدون بالاستياء والطموحات الخاصة ، أم برغبة صادقة في خدمة المجتمع ومثله العليا؟

وهل إداراتنا مهيأة ، وبشكل عقلي ، للقيام بمهامها؟.

وإذا لم يكن الأمر كذلك ، فكيف تستطيع البصيرة النفسية تحسين أدواتهم تدريجياً؟.

وكم منهم على درجة من الوعي بمدى إحباطاتهم الخاصة؟.

وهل تبرر دوافعهم المدمرة تحت ستار الولاء السياسي؟.

وكيف يصطدم المرض بالمرض ، والتعصب أثناء مداولاتهم؟.

لاحظوا كيف أنه ، وفي أي نقاش ، تنقطع الخطابات المهذبة ، وتتحول إلى كيل الاتهامات الغاضبة ، والخطابات المفاجئة.

وإلى أي درجة تؤثر تربية الطفولة ، أو الأفكار الثابتة ، أو الطموحات المرضية على الإداريين ، وعلى مصير مدينة أو دولة؟.

نحن ندرك بأن الملاحظات التافهة-والتي تعتبر مثالية- قد تغطي مقترحات غير كافية ، ونحن نميل إلى قبول ذلك وعلى أنه من أصول قواعد اللعب الجيد للاستراتيجية السياسية ، والدبلوماسية.

ولكن ما هو أسوأ بكثير من سياسة التهرب العلنية هذه ، هي المؤتمرات السياسية الخفية ، والنقاش بين العقول اللاشعورية ، وبين عواطف السياسيين.

فكم من السياسيين ، وأتباعهم ، يدركون هذا التيار الكامن ، والذي غالباً ما يستخدم نفوذاً أقوى من الفعل الصريح؟ وكيف يعرقل العنصر الشخصي بين مديرينا من حريتنا العقلية الخاصة ، وما هو دور العنصر"السيكوباتي" في بعض قادتنا؟

وبالتالي ، فإنه من المهم بالنسبة لنا ، أن نطرح هذه الأسئلة. فقد علمتنا تنمية العلوم ، أنه ، وحتى عندما يكون من المستحيل إيجاد حلول مرضية فورية ، فإن طرح السؤال الصحيح ، يساعد على توضيح الوضوح أكثر من أجل المستقبل. بل ويعدّ الطريق لوضع الحلول.

العقل البيروقراطي

في دولة يتم فيها استخدام الإرهاب لإبقاء الناس في الطابور ، قد تصبح الآلة الإدارية ، هي الملكية والأداة الحصرية للديكتاتور.

غير أن تطوير نوع من الاستبداد البيروقراطي ، لا يقتصر على الدول الاستبدادية فقط. فهناك شكل معتدل من الاستبدادية المهنية ، وهو واضح في كل بلد ، وفي طبقة الوساطة لموظفي الخدمة المدنية ، والذين يسدون الفجوة بين الإنسان وحكّامه.

كما ويمكن استخدام مثل هذه البيروقراطية ، إما لتقديم العون ، والمساعدة ، أو لإلحاق الضرر بالناس ، والذين يجب عليهم أن يخدموهم.

كما أنه من المهم لنا أن ندرك بأن هناك شكلاً صريحاً من الصراع الذي يدور في جميع دول العالم -تحت كل شكل من أشكال الحكومة- ومعركة بين الرجل العادي ، وبين الجهاز الحكومي الذي أنشأه بنفسه.

ففي العديد من الأماكن ، يمكننا أن نرى أن أداة الحكم هذه ، والتي كانت تهدف في الأصل ، إلى خدمة الإنسان ومساعدته ، قد حصلت تدريجيا على القوة والنفوذ ، وبشكل أكبر مما كان يُقصد بها.

فهل كان القديس "بيروقراطيوس Bureaucratus " مجرد شيطان يستحوذ على عقل الانسان بمجرد أن يتولى مسؤولية حكومية؟.

وهل يكون المسؤولون مصابون برغبة في إنشاء أساليب الخداع ، من أجل التلاعب بالآخرين ، وهم قابعون وراء مكاتبهم المصنوعة من الخشب الفاخر ، أو

من الفولاذ الأخضر؟.

قد لا تختلف التقنيات الحكومية عن أية استراتيجية نفسية أخرى ؛ حيث يمكن للحمل المتخلف للنظام الانتخابي أن يأخذ الحيازة العقلية للذين يكرسون له ، إذا لم يكونوا في حالة تأهب.

وهذا هو الخطر الجوهري للوكالات والمؤسسات المختلفة ، والتي تتوسط بين الانسان وبين حكومته. إنه جانب مأساوي للحياة ، وحيث يجب على الانسان أن يضع انسانا آخر ، ومعصوم ، بينه وبين تحقيق مُثُله العليا.

ولكن ما هي أوجه القصور البشرية التي ستظهر بشكل أكثر سهولة في الجهاز الإداري؟

إنها شهوة السلطة ، والتلقائية ، والصلابة العقلية-كل هذه تولد الريبة والمكائد. ولكون المسؤول موظفاً حكومياً عالياً ، فإنه سرعان ما يبدأ بمعاينة الإنسان بداخله ، والذي سرعان ما يسكته حين تتدفق الإغراءات الخطيرة ، لأنه ، وببساطة ، يصبح جزءا من الجهاز الحاكم. وقد يجد نفسه عالقا في مجمع الاستراتيجية التي تدير شؤون البلاد والعباد على حد سواء.

كما إن السحر في أن تصبح مسؤولاً تنفيذياً واستراتيجياً ، سيثير مشاعر استنكاف طويلة من المشاعر القدرية

فالخبير استراتيجي ، سيشعر وكأنه قد أصبح كلاعب الشطرنج.

ولذلك ، فهو يريد التلاعب بالعالم عن طريق التحكم عن بعد. فهو الآن ، يستطيع أن يبقي الآخرين ينتظرون ، ولأنه اضطر بدوره ، إلى الانتظار في أيام صحته ، وبالتالي يمكن أن يشعر بأنه متفوق.

كما ويمكنه أن يرسخ نفسه خلف لوائحه ، وقراراته ، ومسؤولياته الرسمية.

وفي الوقت نفسه ، يجب عليه أن يقنع الآخرين ، وباستمرار ، من أنه لا غنى عنه ، ولأنه يكره إخلاء مقعده لغيره. وكدفاع ضد عدم أهميته النسبية ، فعليه أن يوسع فريقه ، مما يزيد من جهازه البيروقراطي.

ولكي يصبح الشخص الأهم في الجهاز ، فسوف يحتاج المرء إلى مكتب كبير. ولأن يطلب من كل موظف جديد أن يكون أمينا له ، وأن يجهز فريقه بكل الأدوات اللازمة لذلك.

وهنا يبدأ كل شيء في الخروج عن السيطرة ، على الرغم من أنه يعتقد بأنه قد أحكم قبضته على كل شيء ، وبأن كل شيء قد أصبح تحت السيطرة.

كما يجب عليه تثبيت ملفات جديدة ، وفتح ملفات اخرى ، وبشكل أفضل ، وعقد مؤتمرات جديدة ، وإنشاء لجان جديدة. وأن لا ينسى التقرب من العامة ، وإجراء محادثات التفاعل بين الموظفين ، ولأيام.

كما سيتم إنشاء المشرفين الجدد للإشراف على المشرفين القدامى ، والحفاظ على المجموعة بأكملها في حالة من العبودية الطفولية.

ولأن ما تم عمله من قبل رجل واحد ، سيصبح الآن يتم من قبل فريق عمل كامل. وأخيراً ، يصبح التوتر البيروقراطي عاليا ، بل وأكثر من اللازم ، فالحاجة الاستبدادية الإدارية تبحث عن الراحة من الانهيار العصبي.

وهكذا ، فإن هذه الشمولية الاستبدادية الزاحفة للمكتب الكبير ، ستدور في كل مكان تقريبا في العالم.

ونتيجة لذلك ، فلن يعود الموظفون الحكوميون يتكلمون بطريقة إنسانية وتعليمية ، لأنهم سيكتبون كل شيء باللونين الأسود والأبيض فقط ، وسيحافظون على الدقائق الطويلة في الملفات المليئة بالفيضانات ، فقد بدأت المعركة من أجل السلطة الإدارية.

كما ويصبح النظام القهري والروتين ، والتنظيم ، أكثر أهمية من الحرية والعدالة ، وفي الوقت نفسه ، ستتزايد الشكوك بين الإدارة العليا ، وبين الموظفين ، حول شتى الموضوعات. وبالإضافة إلى ذلك ، فقد أصبحت الوثائق ، والتقارير المكتوبة ، والمطبوعة ، أشياء خطرة في العالم.

لأنه وبعد محادثة ما ، وحتى عندما تكون هناك كلمات قاسية ، فإنه سرعان

ما سيتم نسيانها فور انتهاء الجدل. ولكن إن كتبت هذه الكلمات على الورق، فستتحول الى وثيقة ثابتة، ودائمة، ويمكن أن تصبح جزءا من نظام من الشكوك المتزايدة، ويمكن أن تتحول الى دليل إدانة.

وهكذا، فإن الكثير من الناس يصبحون مسؤولين في الشؤون العامة، وذلك انطلاقا من مشاعر مثالية للخدمة والمرح.

في حين يحاول آخرون الهروب من مغامرة الحياة، بأن يصبحوا جزءاً من فيلق الخدمة المدنية. في حين أن هذه الخدمة تضمن لهم دخلا ثابتا، وترقية منتظمة، بالإضافة إلى الشعور بالأمان الوظيفي.

وستصبح فيما بعد مغرية جدا بالنسبة لهم، وهذا سيمنحهم المزيد من الشعور بالأمن والأمان.

ولذلك، فإن الأوتوماتيكية السلسة، والصلابة المصقولة في عالم الشريط الأحمر للحكومة، تعتبر جذابة للغاية ولكن لأنواع معينة من الناس، ولكنها قد تنمي مشاعر المنافسة لدى الآخرين، وعلى الأخص، أولئك الذين ما زالوا يؤمنون بالتحدي والعفوية.

أما السؤال النفسي الملتهب، فهو:

ماذا لو كان الإنسان هو الذي سيتحكم، في نهاية المطاف، بمؤسساته، ولكي تخدمه، وليست حكومته؟.

في البلدان الاستبدادية، لا يُسمح للمرء بمشاهدة المرح في جوانب القصور الخاصة به. حيث يصبح النظام، والروتين، والملفات المتعددة، أكثر أهمية من أن يراه الفقراء خلف كرسيه الضخم، وخلف مكتبه الفخم، فقد يبدو ذلك أكثر أهمية بالنسبة لما يمكن لعقله أن يتحمل.

ولذلك، فإن فن كونك مسؤولاً قيادياً، وكونك ممثلاً حقيقياً للشعب، هو أمر صعب للغاية، بل يتطلب تعدداً في التعاطف، والتآلف مع الآخرين، ودوافعهم.

وفي المقابل ، لا يزال الدبلوماسيون ، والسياسيون ، يؤمنون بالإقناع الكلامي والتكتيك الجدلي.

على الرغم من أنها قد أصبحت لعبة قديمة جدا ، وإن كانت لا تزال مغرية ، وكذلك هذه الاستراتيجية للمناورة السياسية مع الشعارات الرسمية ، والكلمات الرئيسية—والتي وبدهاء ، تتجاوز الحقيقة في خدمة الحزبية ، وبتوجيه التركيز الخاطئ ، ومهارة الرقص حول الحجج المختارة للوصول إلى أهداف دعائية أو حتى شخصية. أو حول أهداف الحزب.

ولكن عاجلاً أم آجلاً ، سيصاب جميع السياسيين تقريباً بالعدوى. وتحت عبء مسؤولياتهم ، فإنهم سيستسلمون للرغبة في لعب لعبة الدبلوماسية. كما أنهم سيبدؤون في التوصل إلى حل وسط في تفكيرهم ، وفي الانحناء إلى الوراء ، ولكي يكونوا حذرين ، حتى لا تنتقد ملاحظاتهم من قبل المستويات العليا.

أو أنهم سيتراجعون إلى مشاعر طفولية من القدرة المطلقة السحرية. فهم يريدون أن يكون لديهم أصابعهم في كل فطيرة—سواء كانت من تيار اليسار أو اليمين.

ولكن في الحقيقة ، فإن كل هذه الخطوط النفسية تعتبر خطرة لكل إنسان ، والتي يمكن أن تتطور بسهولة أكبر ، لدى السياسيين والإداريين ، بسبب التأثير المتزايد للتقنيات الحكومية الحديثة ، وتهديدها لحرية التعبير.

وهكذا ،فعندما يتورط رجل ما في حديث استراتيجي ، وسياسي ، فسيتغير شيء فيما يتعلق بموقفه. كما انه لم يعد صريحا ، بل وقد يصبح مصدر قلق كبير للقادة في المستويات الأعلى في منظومة الجهاز.

وعلى الرغم من أنه قد لا يقصد حرفية ما يقوله ، إلا أن ذلك لا يلغي كونه قد أصبح مصدرا للقلق الذي يجب أن يؤخذ في الحسبان.

وكذلك حول ما يفكر فيه الآخرون عنه ، ومن وراء واجهاتهم المعلنة.

كما وسيصبح حذرا للغاية ، ومن ثم سيبدأ في بناء جميع أنواع الدفاعات

الفكرية ، والمبررات حول نفسه.

وباختصار ، سيتعلم كيف يتحمل الموقف الاستراتيجي. ولذلك ، فإنه سينسى كل ما قاله عن العفوية ،كما وسيغور نبع الحماس في نفسه ، وفي مواقفه ايضا.

ومن ثم يبدأ بمخاطبة نفسه وتحذيرها:

"عليك ، كإنسان مسؤول ، أن لا تطلب الصدق الداخلي لنفسك ، أو للآخرين ، وأن لا تكشف نفسك أبداً ، ولا تعرض نفسك للمسائلة أبداً ، ولا تثق بأي كان ، بل عليك أن تلعب بشكل استراتيجي. وكن حذرا ممن هم حولك ، ولا تنسى أن تكثر من كلمات التسويف العائمة والكلمات الضبابية ، وأيضا من الكلمات التي تبعث على الملل ، ولا تنسى استخدام المزيد من كلمات "على أية حال" و"ولكن..." و لا تلتزم نفسك بأية كلمة قد يُفهم منها على أنها وعد قطعته على نفسك.

وفي هذا السياق ، فأنا أتذكر هنا أحد زعماء المعارضة الذي أصبح مرتبكاً تماماً ، وكاد ينهار ، عندما فاز حزبه ، لأنه ، وبعد فترة طويلة في منصبه ، وفي الانتخابات ، فقد كان عليه أن يتحمل المسؤولية الحكومية. ولذلك ، فقد تحول إلى ناقد عدواني ، وصريح ، وأصبح عصبيا مترددا ، ويتقن اللعب الاستراتيجي وبشكل بارع ، على الرغم من أنه لم تكن لديه أية مبادرات حقيقية.

كما أن بعض السياسيين يكونون مجرد دُمى ، كالمتحدثين باسم رؤسائهم. في حين يكون البعض الأخر كالمشعوذون المتعجرفون ، وهم يتلاعبون بالكلمات ، والذين يحولون القهر ، والاعتداءات البشرية إلى شعارات. وهناك أيضا ما يسمى ببوق القيامة ، والذي يرعب الأخرين ، وهو الذي يلجأ إلى أساليب الذعر.

وهكذا ، يتم تنفيذ السياسة الحديثة عن طريق قواعد متقادمة من المحادثة والاتصال والمناقشة.

ولذلك ، فهناك عدد قليل جدا من السياسيين ممن هم على دراية بالمزالق

اللاهوتية ، والدينية ، وبالاضطرابات العاطفية في الكلمات التي تحول إلى أدوات يجب عليهم استخدامها لإقناع الآخرين.

بيد أنه ومع ذلك ، يمكن أن يصبح الفهم المتبادل أساساً للاستراتيجية السياسية. إنها ليست سياسة القوة مع الخداع اللفظي ، وكلمات السر التي تعتبر ضرورية ، ولكن من خلال البحث العقلي لإيجاد طرق مناسبة قد تقلل من الاقتراحات ، ومن المقترحات ، ولمقاومة أولئك الذين لديهم آراء ، ودوافع مختلفة.

وكثيراً ما ينسى السياسيون أن كفاحهم من أجل السلطة الإدارية قد يصبح شكلاً من أشكال الحرب النفسية ضد نزاهة عقول أولئك الذين يجبرون على الاستماع. كما إن التكرار المتبادل ، والمتكرر ، والذي غالباً ما يستخدم أثناء الانتخابات ، يقوض النظام الديمقراطي تدريجياً ويؤدي إلى الحث على السيطرة الاستبدادية.

فالإشاعات والشكوك الاستراتيجية التي يزرعها الساسة ، هي هجوم على سلامة الإنسان.

عندما لم يعد المواطنون يثقون في قادتهم ، فإنهم سيبحثون عن الرجل صاحب القوة الغاشمة ، ليكون قائداً لهم.

ولكن أين هو السياسي الذي يرغب في الاعتراف بأن منافسه قادر على الأقل ، بأن ينافسه ، والذي ربما كان أكثر قدرة منه في الامساك بزمام المبادرة والقيادة؟.

وهكذا ، فإن القبول الحر للمساواة في القدرة ، والقبول باستراتيجية التنافس النزيه للخصوم ، ستكمن من فرصة السياسيين للتعاون. وحيث لا يمكن أن يتحقق أي تعاون حقيقي إلا من خلال التعاطف ، والتعاطف المتبادل ، وفهم الأخطاء البشرية ، والسعي معا ، وجنبا الى جنب لحلها.

في شهر نيسان/أبريل من عام١٩٥١ ، كان هناك مجموعة من علماء النفس ، وعلماء الاجتماع ، وعلماء النفس الاجتماعي من التابعين للأمم المتحدة ،

والاتحاد العالمي للصحة العقلية ، واليونسكو ، ومنظمة الصحة العالمية ، ضيوفا على مؤسسة"يوشيا ميسي جونيور" في مدينة"نيويورك" في الولايات المتحدة الامريكية. وكان هذا اجتماعاً تم خلاله الحديث ومناقشة مشاكل الحكومة هذه ، وتأثير الأنظمة الحكومية ، ومن ثم نشرها في وقت لاحق ، في تقرير.

وقد كان واضحا تماما بأن هؤلاء الخبراء قد أصبحوا أكثر وعياً ، وإدراكا بالحاجة إلى التعليم ، والتثقيف النفسي ، وحسن اختيار المسؤولين الحكوميين.

فهل يجب أن يتم تحليل حسابات مديرينا؟.

على الرغم من أن هذا السؤال الطوباوي تقريبا ، لا ينبئ بالاندفاع الفوري للتدريبات النفسية للسياسيين والإداريين ، ولكنه يشير إلى فترة مقبلة ، عندما يقوم الذكاء العملي ، والمعرفة النفسية السليمة بتوجيه الإنسان في مختلف جوانب حياته. كما وسيكون التعليم أكثر تعمقا مع المعرفة النفسية ، وبحيث يمكن الاعتماد عليها.

وعلى الرغم من أن علم النفس ، والتحليل النفسي لا يزالان من العلوم الشابة ، ولكن الكثير من سياسيينا الحاليين يمكن أن يستفيدوا منها بالفعل.

ولأنهم ، ومن خلال اكتساب المعرفة الذاتية ، سيصبحون أكثر أمنا في استراتيجية التوجيه العالمي. وسوف يتحملون المزيد من المسؤولية-ليس فقط من أجل نجاحاتهم ، ولكن أيضاً بسبب إخفاقاتهم. وسوف يتحملون المزيد من المسؤولية ، ومع قدر أقل من التشويش الداخلي ، ومن أجل الخير والرفاهية للجميع. وفي هذه الفكرة بالذات ، قد يؤدي فشلنا في حل مشكلات عدم الكفاءة الحكومية ، والتدخل البيروقراطي في الأعمال الإنسانية ، إلى إعاقة عقل المواطن في خطى تطوره. كما إن حاجة الانسان للتوافق في معركة مستمرة مع حاجة الانسان إلى الخروج بمفرده. ولذلك يجب دراسة العلاقة المتبادلة بين السحر الفطري العفوي ، وبين العقل الإداري غير المغامر ، ومع المشكلة التي يقدمها ، والتي تحلها سيكولوجية المستقبل.

الفصل الرابع عشر

التردد الموجود فينا

التأثير السلس لمشكلة الخيانة والولاء

بمجرد ذكر كلمة "الخيانة" ، فسيتحرك شيء ما في روح الإنسان. شيء يثير الغضب والازدراء ، والشك والقلق ، ولذلك فإن الغالبية الأعظم من الناس ، يرغبون في تجنب هذا الموضوع.

كما إن رد الفعل الاجتماعي تجاه"الخائن"- وحتى قبل أن نكون متأكدين من أن التهمة مستحقة- أمر مثير للغاية.

ففي حين يتهم أصدقاء سابقون لرجل ما بأنه"خائن" فإنهم سينسحبون من حوله ، وسيبتعدون عن شر هذا الشرير. ولذلك ، فلدى كل محاكمة "خونة" نشعر داخليا ، وشخصيا ، بأننا متهمون نحن أيضا ، ومذنبون.

وهذا هو أحد الأسباب التي تجعل محاكمات الخيانة هذه ذات انطباعات عميقة ، وتثير المناقشات الأكثر إرباكاً.

كما يمكن للديكتاتوريين استخدام مثل هذه المحاكمات لإلقاء موجة من التهم والشعور بالذنب على الجمهور.

وفي كتاب عن"الإكراه العقلي واغتصاب العقل" فهناك حاجة ماسة إلى إجراء تحقيق حول مشكلة الخيانة والولاء.

الخائن الإرادي والطوعي

"... إن الخيانة الذاتية تنبع من جميع المسام البشرية".

"سيغموند فرويد"

في مسقط رأسي في هولندا كان هناك صالون حلاقة صغير بالقرب من المباني الحكومية. وكان مملوكا لرجل صغير، ذو لحية فرنسية رمادية.

وعلى مر السنين كان قد خدم العديد من الرجال الأكثر أهمية في البلاد. دبلوماسيون، ووزراء في الحكومة، وجنرالات فخورين، وزعماء معارضون، وعدوانيون -كانوا جميعا يقصدون صالون ذلك الحلاق الصغير.

وكان ذلك الحلاق الصغير لطيفا وبشوشا، ومقبولا، بل ومتلهف لإرضاء زبائنه. وكان يمارس نوعا من الحركات الراقصة، وهو يدور، ويلتف حول كرسي الحلاقة الأنيق، وهو يقوم بالإيماءات البدائية والفنية، حولهم أثناء تشذيب شعر فروات رؤوسهم، أو تشذيب شعر شواربهم. وكان عندما يعمل، يسأل زبائنه المتميزين أسئلة مهذبة:

"ما الذي سيقوله صاحب السعادة عن مشروع القانون هذا؟".

"وكيف يشعر وزير الدولة بذلك؟".

وقد كان حذرا للغاية أن يطرح سؤاله بنية لا تدل على تعاطيه للسياسة على الإطلاق، ولكنه كان على يقين من أن زبائنه كانوا يشعرون بالاطمئنان لمثل هذه الأسئلة.

ولكن في أحد الأيام، دخل جنرال ألماني منتفخ، ومغرور، ومن ثم جلس على كرسي الحلاقة، وذلك بعد أيام من غزو"هولندا" واحتلالها من قبل جحافل النازيين.

وبالطبع، كان حلاقنا هذا يعرف ذلك، وكان، بالتأكيد يكّن مشاعر البغض والكراهية للغزاة الجدد، ولكنه كان يحاول أن لا يظهر ذلك على تقاسيم وجهه الصغير، كي لا يتسبب في أزمة، قد تؤدي إلى عواقب وخيمة.

ولذلك فقد استمر في تقديم خدماته على الشكل المعتاد ، ولذلك ، وحين دخل الجنرال الألماني ذي الوجه البارد والخالي من المشاعر ، إلى صالون الحلاقة ، فقد استقبله الحلاق ببشاشة واضحة ، وبلباقة ، ومن ثم شرع يشذب له شعر فروة رأسه على النمط النازي الهتلري المعروف ، وكان حريصا على أن لا تسقط ، ولوشعرة واحدة ، على زيه العسكري ، أو على أحد من النياشين المعلقة على صدره وكتفيه.

وفي الأيام التالية ، ظهر آخرون من هؤلاء الرجال الذين يرتدون الزي العسكري الألماني في صالون الحلاقة ، وكان الحلاق الصغير يخدمهم بشكل جيد.

وهكذا تبع الضباط العسكريون ذوي القمصان البنية ، ومن ثم العسكريين من ذوي القمصان الخضراء والتابعين جميعا لجهاز"الجستابو" الألماني لكي يشذبوا شعورهم ، وشعر شواربهم.

كان جلد كرسي الحلاق قد مُزّق من قبل الأحذية السوداء الضخمة. ولكن الحلاق الصغير لم يشتك ، ولم يتذمر ، وهكذا ، سرعان ما اعتبره المحتلون بأن الحلاق الأمهر ، وبل والأكثر أناقة ، وأفضل حلاق يمكن العثور عليه في المدينة بأكملها.

لم يكن حلاقنا مدركاً لأهميته الرسمية ، والمتزايدة. فقد كان مستمرا في حركاته الراقصة المسلية حول كرسي الحلاقة ، وهو يطقطق بالمقص الذي كان يصدر نغمات منتظمة ، تشبه لحنا موسيقيا ، مما كان يبعث على شعور محبب لدى الزبائن.

وهكذا ، فقد تزايد عدد الزبائن يوما بعد يوم ، وبحيث أصبح يتوجب على زبائنه الجدد انتظار دورهم ، ولوقت وبقي هو محافظا على لباقة كلماته ، ومجاملاته اللطيفة مع الجميع ، ومن دون استثناء.

ولكن في المقابل ، اختفى زبائنه القدامى من الدبلوماسيين وأبناء البلد.

وقد أعرب عن أسفه لأن معارفه القدامى قد اختفوا تدريجيا. على الرغم من

عمله ، في الماضي ، كان موسمياً. وكان صالونه يبقى فارغا ، ولفترات طويلة ، حين لا يكون هناك دورات منعقدة في مبنى البرلمان القريب من صالون الحلاقة.

أما الآن ، فقد ازدهرت أعماله طوال الوقت ، وأصبح صالون الحلاقة مزدحما بالزبائن.

وهكذا ، أحب الألمان ، والمتعاونون صالون الحلاق الصغير ، والعطور ، ومهارة الحلاق.

وفي الواقع ، فقد كان صديقنا اللطيف محبوباً ، وحتى من قبل أولئك الظالمين الذين يرتدون الزي الرسمي.

والذين كانوا ، بعد كل شيء ، غير مستغلين بشكل شامل ، لذلك الحلاق الودود ؛ كان سلوك الحلاق تغييرا غير مرحب به لدى معظم الشعب الهولندي- وهؤلاء المقاومين الحمقى والاغبياء- بل وكان بالنسبة لهم محط احتقار.

وفي أحد الأيام دعي الحلاق لشراء بطاقة عضوية في منظمة خيرية متعاونة حديثا ، والتي تضم بعضا من المتعاونين. فاستجاب صديقنا لهذا الطلب لأنه لا بد من تقديم أي معونة للجمعيات الخيرية. ولكن لم يعجبه ما كان يعطيه للجمعية ، وبأنه أولى أن يتنعم بالرفاهية كمكافأة خاصة على ما يقوم به ، ولذلك استقال من عضويته في الجمعية كرد فعل تافه وغير ضروري. وقد حذره بعض معارفه القدامى من العواقب. وبأنه سيُتهم بالتواطؤ والخيانة. لكنه كان يُسكتهم بقوله:

"أنا مجرد حلاق بسبط ، وأعيش كأي حلاق آخر. وليس لدي أي اهتمام على الإطلاق بالسياسة. أنا فقط أريد أن أخدم زبائني".

وهكذا ، وبعد انقضاء السنين المريرة من النضال ، والقمع ، جاء التحرر ، وأصبح صديقنا معروفاً رسمياً بأنه"خائنا" ومتعاونا.

وعندما تم إلقاء القبض على المعارضين القدماء ، من الذين يرتدون الملابس السوداء ، تم سجن أصدقائهم المتعاونين ، وكان الحلاق من بينهم.

وبعد أن قضى جزءاً من عقوبته ، أرسل قاضٍ حكيم ، وغافر حلاقنا إلى صالون حلاقته الصغير.

وبعد أن مرت فترة الإثارة الأولى التي تلي التحرير ، فقد أصبح الناس أكثر رغبة في تقديم المغفرة لأولئك الذين كانوا متعاونين ، ولأنهم كانوا ضعفاء القلب.

وهكذا ، فقصتنا هذه ، وبأي حال من الأحوال ، قد انتهت. وعاد الحلاق من السجن ، ولكنه عاد كرجل مهان.

فقد أمضى في السجن مدة ثلاثة أشهر. ولكنه لا يزال لا يستطيع فهم ما حدث له.

بل وكان يشعر بأنه قد ظُلم ، واتُهم بتهمة باطلة ولا ذنب له فيها ، ولا يستحق تلك المعاملة المشينة التي تلقاها أثناء الأيام الصعبة التي أمضاها في السجن ، وعلى ذنب لم يرتكبه.

ولذلك ، فقد كان الظلم قد فعل فعله في سلوكه ، وحياته.

وعلى الرغم من أنه كان يخدم الجميع بنفس الروح الوديعة والمرحة ، وكان يعامل الجميع ، وبغض النظر عن مراتبهم ، بكل حفاوة ، ومتعة ، وحسن تصرف ، إلا أنه اصبح يُعامل الآن كمجرم.

ولذلك فقد أصبح يشعر بالمهانة ، والإساءة ، والتجاهل ، وسوء المعاملة ، وسوء الفهم. وهذا ما جعله يصبح انطوائيا ، وحزينا ، فهو ، وبعد كل شيء ، لا يريد سوى أن يكون الناس معه لطفاء ومتعاونين كما كان يفعل مع الجميع. فقد كان حلاقاً ، ولا شيء أكثر من ذلك. وهكذا ، لم يستطع الحلاق التخلص من مرارته واستيائه. ولم يعد يأت أي من أصدقائه السابقين لمواساته ، أو ليتعاطفوا معه. كما لم يعود زبائنه القدامى. فازداد الحزن والاكتئاب يوميا ، وفي غضون بضعة أشهر ، أنتحر الحلاق. وهكذا انتهت مغامرات الحلاق الصغير ، والذي لم يكن على دراية كاملة بتعاونه وخيانته المزعومة.

لقد كنت أعرف هذا الرجل. ولكني لم احتقره على الإطلاق.

وأنا متأكد من أن هناك العديد حالات هؤلاء المتعاونين ، والتي يرثى لها.

نعم ، يرثى لها.

وأتساءل هنا ، على الرغم من ذلك ، لماذا كان الحلاق الصغير غير مدرك لما يقوم به. هل كان ذلك مجرد غباء؟. فلو أن لطفه الظاهر كان قد غطى ، وعلى الدوام ، اليقظة ضد إخوانه الرجال؟ فهل كانت بوصلته ستظل موجهة خفية ، عن ن الاقتراح الأقوى من قدرته العقلية على المقاومة؟.

ذلك ما لن نعرفه ابدا.

لقد حفزتني هذه المأساة ، على أنه ربما كان ماأصاب الحلاق هو عدم الوعي ، وربما بسبب عدم القدرة على الاختيار بين الولاءات المتضاربة ، ولكن هل يطلق عليه صفة"الخائن"؟.

لقد أتيحت لي الفرصة الكافية لدراسة هذا السؤال ، سواء من خلال تجربتي مع المقاومة السرية الهولندية أثناء الاحتلال النازي ، وعندما كنت مسجوناً في معتقل"فيشي".

فقد أجري أول تحليل رسمي لي في عام١٩٤٣ وذلك عندما طلبت مني الحكومة الهولندية إعداد تقرير نفسي حول الجنود الهولنديين ، والمواطنين الهولنديين ، والذين كانوا من المحتجزين في جزيرة"مانMan ".

وصلت إلى السجن بعد رحلة خطرة ، وعاصفة في طائرة صغيرة. وقد كان السجناء بوضع مؤسف حقا.

ولذلك ، فقد كنت أتوقع منهم أن يكونوا عدائيين ، ولكنني لم أتوقع أن أجد الكثير من الضعفاء ، والتي استهلكتهم المرارة والغضب.

كان البعض منهم نموذجاً للشخصية السلبية ، والأنانية السيكولوجية ، والتي يبدو شعارها:

"ليذهب العالم إلى الجحيم!" فيما بدا أن آخرين كانوا ضحايا صراع داخلي لا يمكن تحمله—صراع بين رغبتهم في الانتماء إلى المجموعة الأقوى ، وبين

مقاومتهم لهذه الرغبة ، وهي مقاومة زادت فقط من مرارتهم وعدائيتهم.

كانت هذه الحالة قد أثبتت لي ، مرة أخرى ، أن هناك أوقات معينة ، لا يكون فيها المنطق ، والمناقشة عوناً على الإطلاق.

ولذلك ، فقد حاولنا مرارا وتكرارا إقناع المتعاونين شبه الدائمين ، بأن عليهم أن ينضموا إلينا في القتال ضد النازيين ، ولكنهم تراجعوا فقط ، وراء ضغائنهم الخاصة. وحتى أنهم رفضوا السجائر التي قدمتها لهم.

كانت مجريات التحقيق سيئة ، كما كانت الرحلة إلى ذلك السجن.

وكانت العودة أسوأ من ذلك. فقد تم حرف الطائرة الصغيرة بعيدا عن مسارها بسبب الرياح القوية.

وقد شعرت بالاكتئاب والاشمئزاز من تجربتي تلك. ولكننا ، وعندما وصلنا أخيرا إلى إنجلترا ، كان كل من الطيار وأنا ، قد أصبحنا مرضى.

كان لدي الكثير من الفرص ، بعد ذلك ، لدراسة الجواسيس والخونة والمخربين.

وقد قادتني آخر تحقيقاتي الرسمية في زمن الحرب ، إلى معسكر اعتقال في "سورينام Surinam" في"غينياGuinea" الهولندية ، حيث قدمت تقريراً جماعياً عن جميع معتقلي المعسكر السجن.

وهكذا ، ومن خلال دراسة الكثير من هذه الحالات ، فقد تمكنت من تمييز الصفات العصبية وحتى الذهانية.

ولكنني وجدت أن أفضل فهم لمشكلة"الخيانة" قد توصلت إليه من خلال عملي النفسي مع مرضى عصابيين يواجهون صراعا يوميا مع"خيانة" الحياة اليومية ، ومع"خيانة" الذات الخاصة بهم ، ومعهم مشاعر متناقضة تجاه أولئك الذين يجب أن يحبونهم.

مفهوم الخيانة

قبل النظر في الموضوع بشكل أكبر ، دعونا نجري تحقيقاً في معنى كلمة "الخيانة". فهو ، بعد كل شيء ، يستخدم في مجموعة متنوعة من الحواس.

وهكذا فلكلمة "الخيانة" العديد من الانعكاسات الاجتماعية والسياسية ، والعادات ، والأعراف ، وتقاليد المجموعة التي تستخدم فيها بحيث تتأثر بها ، وتؤثر في معانيها.

تعتبر كلمة"الخيانة treason" مشتقة من الكلمة اللاتينية" tradere " أو "transdare" وهي التقدم بشكل خاطئ ، وخيانة شيء ما ، ولإعطاء شيء عبر كذا ، ولتقديم الولاء وإفشاء الأسرار لغير أصحابها ، وهكذا.. ولكن من خلال هذا الجذر اللغوي لكلمة"الخيانة" فقد اكتسبت الكلمة مجموعة متنوعة من المعاني. ففي المقام الأول ، أصبح لها معنى فردي عاطفي بحت ، ويتعلق بمشاعر الحرمان والظلم.

فغالباً ما يعاني الرضيع من كل ما يجبره على الخروج من حالة النعيم ، والاعتماد عليه-وهو ما يعني فعل النضوج- كخيانة ، كما ويرى الخيانة في ما يعتبره الرفض الذي مورس عليه من قبل والديه.

فالشخص الذي يحتفظ بهذه المشاعر الطفولية في حياته البالغة ، قد يستجيب لكل شعور مهما كان طفيفأن أو قد يتحول إلى رفض مخيف لحدث الخيانة.

كما أن عدم التضامن مع العائلة أو العشيرة-مع الجماعة-التي لا تتوافق مع طقوسها ومحرماتها ، غالباً ما يتم تفسيرها من قبل الجماعة على أنها خيانة ، ومن خلال المعارضة.

وبهذا المعنى ، تعني الكلمة تقييماً أخلاقياً بدائياً ؛ والذي يرتبط بالاشمئزاز والاحتقار.

كما تشير الخيانة إلى شيء عاطفي شديد ، أو شيء من المحرمات ، أو شيء مختلف أو غريب ، مثل الولاء لأيديولوجيا غريبة ، أو خرق للتقاليد ، أو لحقيقة

بسيطة كونها أجنبية.

ولذلك ، فغالباً ما يعتبر رفض قواعد المجتمع وقواعده ، كونه القاضي الخاص بالآداب والأخلاق ، أمراً خادعاً. كما أن الرفض المطلق لتقاليد الوطن ، يعتبر تطرّفاً.

وفي كثير من الأحيان قد يعتبر عدم المطابقة البسيط ، خيانة أيضاً.

وفي الواقع ، فإنه في عدم التوحد بين الاستبداد ، والمعارضة ، فإن ذلك يعتبر من الجرائم الأكثر خطورة ضد النظام ، فالعقول الاستبدادية ، لديها ميل واضح للنظر ، حتى إلى الأخطاء ، أو الخلافات الصادقة في الرأي ، على أنها خيانة متعمدة لها.

وهكذا ، وبسبب محتواها العاطفي العميق ، يمكن استخدام الكلمة ذاتها كأداة سياسية للتلاعب بالناس.

ففي الأنظمة الاستبدادية ، تصبح كلمة"الخيانة" مجرد علامة من علامات العالم"بافلوف" مما أثار ردود الفعل من عدم الثقة والكراهية.

فبعد هزيمة عسكرية أو خيبة أمل دبلوماسية ، أو عندما تكون مشاعر الإذلال ، وعدم الكفاءة عالية بين الناس ، فإنها تعد استراتيجية مفيدة لجعلهم يعبرون عن شعورهم بالدونية تجاه الآخرين.

كما إن"الخائن" في مثل هذه الحالة ، يكون كبش فداء سهل ، ويلبي الحاجة الجماعية لإلقاء اللوم ، والتهم ، وتخفيف القلق اللاواعي. في مجتمع استبدادي ، وحيث يكون كل مواطن مجبر على أن يصبح خائنا ، وفقا لشعورنا بالآداب الغربية ، ولأنه من واجبه ، خيانة النظام كل تعبير ، عن الشقاق أو التمرد.

كما ويجب على الطفل الإبلاغ عن والده ، والأب عن ابنه. وحتى أنهم يطلقون عليهم كلمة"الخونة" بالمعنى الشمولي ، في حال فشلهم في الإبلاغ.

كما أنه ، وفي التفسير السياسي المشترك ، يُنظر إلى"الخيانة" على أنها أي عمل تمرد ، أو فتنة ، أو انشقاق ، أو هرطقة ، أو مؤامرة أو تخريب.

أما معناها التقني-القانوني والمعروف للجميع-فهو أن"الخيانة" هي التمسك بالأعداء ، وتقديم المعونة والراحة لهم ؛ وهو أيضا ، بالمعنى المعدل ، والأكثر حداثة ، يعني المشاركة في مؤامرة أيديولوجية دولية ضد الوطن.

أما بالنسبة لي ، وبصفتي طبيب نفسي ، فإن علاقة"الخيانة" بالمشكلة العامة ، والمتمثلة في خيانة الذات ، هي المفتاح لفهم المعنى الحقيقي لكلمة "الخيانة" ومفهومها.

تنشأ جرثومة"الخيانة" أولاً في تنازلات الفرد عن مبادئه ومعتقداته. وبعد أن تم التوصل إلى هذه التسويات الأولية ، فقد أصبح من الأسهل الاستمرار في العمل ، وتقديم تنازلات أكثر فأكثر ، وحتى ينتهي الأمر إلى أن يصبح الرجل المخلوق ، هو الرجل الذي يرغب في بيع نفسه ، وخدماته لأعلى مزايد.

وقد راينا ذلك من خلال الاحتلال النازي ، وكيف تم اغراء أولئك الأشخاص"الخونة" لتقديم خدمات قليلة للعدو.

وقد أدت الخطوة الأولى إلى التعاون البسيط ، ومن ثم تطورت لتصل إلى حالة التطور النهائي.

وذلك لأننا جميعاً نشك في أنفسنا من حين لآخر ، ولأننا غير متأكدين مما سنفعله إذا ما تم اختبارنا ، ولأننا قد نرى في أنفسنا خائناً محتملاً ، وذلك لأن كلمة"خيانة" تعبر عن نداء عاطفي للغاية.

ولكن الشكوك الذاتية ، تبقى بعيدة ، كل البعد عن الخيانة الفعلية ، والخائن الحقيقي ، بالمعنى المهووس للكلمة ، ليس مجرد مُضاد ذاتي. إنه رجل لا يؤمن إلا بحقوقه الشخصية العليا ، بل ويزدهر بحقوق ورغبات المجتمع.

إنه خائن حتى لجماعته الخاصة.

وعلى سبيل المثال ، فقد كان"هتلر" خائناً ، ليس فقط لأفكاره الخاصة ، والتعامل معها كأدوات متغيرة لمساعدته على اكتساب القوة والحفاظ عليها ، فقد كان"خائناً" مرارا وتكرارا ، لأصدقائه المقربين ، والمتعاونين معه ، والذين تعرض

كثير منهم للخيانة ، والقتل في عام١٩٣٤ وخلال ما يسمى بليلة السكاكين الطويلة.

فالخائن الحقيقي هو شخص لديه أوهام أنانية وقناعة واعية بأنه هو وحده الذي على الحق. وهو نوع مختلف جدا من الخائن غير الطاهر ، والمثير للشفقة ، وغير المدرك ، مثل حلاقنا الصغير.

الخائن الذي يتخذ الخيانة سبيلا وبإرادته

في دراستي حول الخونة السياسيين ، والمتعاونين ، فقد وجدت أن معظمهم يتقاسمون صفتين مشتركتين فيما بينهم: فقد تأثرت بسهولة بالذهن أقوى من أذهانهما ، ولم يعترف أي منهم بخيانته ، أو كعمل من أعمال الخيانة.

كما كان الخونة الذين قابلتهم دائماً ، يتطوعون لتقديم تبريرات لا تُحصى لسلوكهم ، وبل ويحيطون خيانتهم دوما ، بشبكة معقدة من السفسطائيات ، والمثاليات ، والتبريرات.

وفي الواقع ، فهم لا يمكنهم تحمل صورة موضوعية لأفعالهم. ولأنهم إن فعلوا ذلك ، فإنهم يدينون أنفسهم من أفواههم.

ودونما وعي ، فقد أدرك معظمهم طبيعة جرائمهم ، ولذلك تعذبهم مشاعر الذنب. كما كانت مشاعر الذنب تلك هذه لا تُطاق إذا اعترفوا ، وحتى حيال أنفسهم ، وضخامة أعمالهم.

وقد رأيت خلال الاحتلال النازي للبلدان المنخفضة ، هذه الصفات تظهر ، مرارا وتكرارا. فقد كان العديد من الخونة الأصليين لدينا أشخاصاً ضعفاء للغاية ، بل ومستعدين لقبول أية فكرة جديدة ، أو نظرية متقنة.

كما كانت قابليتها أكبر مسؤولية بالنسبة لهم. في حين أن معظم هؤلاء النازيين المحتملين ، لم يمتلكوا أبدا ، شخصيات قوية ، وخاصة بهم. ولذلك ، فقد فشلوا في تحقيق طموحاتهم ، وكانوا محبطين في الحياة ، ولذلك ، فقد قاموا بنقل شوقهم الشخصي المحبط إلى إرادة سياسية حقيقية.

وبعد الغزو والاحتلال الألمانيين ، واجه هؤلاء الأشخاص أبناء وطنهم المهزومين بانتصارهم الأول المنتظر. ولذلك ، فقد أصبحوا يفاخرون ، ويفخر من حكمتهم في المراهنة على الحصان الصحيح.

وقد اكتسبوا شعوراً هائلاً بأهمية الذات ، وقد جعلهم ضمانهم الذاتي المكتسب حديثاً ، والمدعوم من القوة المسلحة للعدو ، من الصعب عليهم ازدراء مواطنيهم.

وفي محاولة لتبرير سلوكهم والجشع الذي أصابهم في السلطة ، فقد حاولوا تحويل الآخرين إلى طريقة حياتهم الجديدة. وكانوا يملكونهم عن طريق الإكراه ، وليصبحوا دعاة للغزو. ودون بذل أية محاولة للتراجع ، بل وكانوا يمارسون تهدئة ضمائرهم السيئة ، عن طريق إقناع الآخرين بمشاركتهم لجريمتهم.

بالطبع ، كان لديهم بعض الشكاوى الحقيقية. فالجميع يفعل. ولكن هؤلاء الخونة ، كانوا أقل تأثيرا بعذاب الضمير من المظالم المخيفة.

ولذلك ، ومن خلال أعمال الخيانة ، فقد انتقموا من أنفسهم في المجتمع ، وبسبب الأخطاء الخاصة التي عانوا منها بسبب إخفاقاتهم الشخصية. ولذلك يمكن الشعور بنفورهم في كل ما قالوه.

كان الاستراتيجيون النازيون خبراء في استغلال هذا الإحساس بعدم الرضا. وقد بدا أنهم يعرفون ، وبشكل حدسي ، ما إذا كان من الممكن إخضاع فرد ما من قبل الدعاية النازية.

وقد كانت إحدى حالات الخيانة ، والتي كنت أعرفها في هولندا ، مديرا سابقا ، والذي تم فصله من منصبه لأسباب أخلاقية.

وهكذا ، وفي وقت مبكر من الاحتلال ، تلقى هذا الرجل دعوة للانضمام إلى صفوف النازيين ، وفي وقت قصير ، بشكل مفاجئ ، أصبح قائدا لرجال أعمال نازيين رئيسيين. وقد أعطاه النازيون الشعور بأنه قد تمت تبرئته.

كما وكان من بين المجندين المرتدين في قوات الشرطة النازية في الأراضي

المحتلة ، خونة من جميع الأنواع وحتى من نزلاء المصحات العقلية ومن المجرمين.

كما كان الحقد المرضي المتغلغل في نفوس هؤلاء الناس ، الذين يعارضون المجتمع ، هو الورقة التي استطاع من خلالها النازيون من تحويلهم إلى خونة.

فقد جعل الألمان أولئك الرجال يحتقرون أنفسهم ، ولكنهم كانوا مدركين ، وبما فيه الكفاية ، كيفية وضعهم في أفضل استخدام ممكن.

كما لعب النازيون لعبة غريبة مع بعض المؤلفين والفنانين ، والذين لم يحصلوا على تقدير كاف.

فقد قام العدو بإطراء هؤلاء الرجال ، وذلك من خلال شراء أعمالهم ، والإشادة بها. وقد قيل لأول مرة للفنانين ، من أنهم يستطيعون الكتابة والإبداع كما يحلو لهم ، ودون خوف من التدخل.

وتدريجياً ، بدأ يطُلب منهم القليل من الخدمات السياسية ، وهي تنازلات ضئيلة جداً ، مثل تقرير موات عن اجتماع أو إشارة إيجابية ، إلى فلسفة لم يوافقوا عليها.

إنه تأثير هذا التنازل الصغير الأولي ، والذي يبدأ الانهيار الداخلي ، من التبرير الذاتي الذي يؤدي في النهاية إلى خيانة الذات.

وبعد التسوية الأولى ، وتبرير الذات ، يأتي المطلب الثاني. ويقابل هذا تبرئة كاملة للذات ، وبشكل ذكي.

وبعد كل شيء ، فهناك محلل لديه خبرة في الترشيد الآن.

ولذلك ، فإن التنازلات المتكررة ، تتحول إلى الخضوع والتعاون الطوعي.

وكما قلت من قبل ، عندما يتم إغراء الرجل في امتياز إيديولوجي صغير ، فإنه من الصعب جداً عليه أن يتوقف بعد ذلك.

ولأنه من الآن فصاعداً ، سيقدم خياله تبريرات كافية ، تساعده على الحفاظ على احترامه لذاته.

كما أن الخائن دائما ما يشعر بأنه غير آمن داخلياً ، وبالرغبة في التعرّف على العدو-الغازي المعادي.

ولأنه لم"ينتم" أبداً ، ولم يكن لديه أبداً شعورا بالتمييز بين أقرانه ، وبين مجتمعه الخاص ، ولم يشعر قط بالمكافآت كالتي يحصل عليها ، كما أنه لم يفز يوما بحبه ، وتعاطفه ، واحترام زملائه.

ولذلك فهو يريد الانضمام إلى"الآخرين". وقد يذهب إلى حد الاتصال بأصدقائه السابقين الخونة.

كان اللورد "هاو-هاو(وليام جويس) الخائن البريطاني الذي أعدمته حكومته ، يعتبر نفسه من العرق"الآري" الحقيقي ، وبهذه الطريقة ، فقد برر كفاحه ضد إنجلترا ، ولصالح ألمانيا.

كما أنه ، وفي الأيام المحمومة التي أعقبت الغزو النازي لهولندا ، شعرت أنا شخصياً بإغراء داخلي من حين لآخر بالذهاب إلى العدو ، إلى الطرف الأقوى ، بمنظماته القوية ، والذين كانوا كلهم على استعداد لتقديم الدعم لأي كان. فقد كان لدي حلم يراودني حول زيارة"هتلر" وإقناعه بطريقة"صبيانية" وودية للنظر في قضيتنا. وعلى الرغم من أنني لم أستسلم لإغراء الحلم هذا ، إلا أنه كان هناك عدد قليل من الذين سقطوا في مثل هذه التصورات الطفولية ، ولم يتمكنوا من تحمل حاجتهم إلى الخضوع. والحاجة إلى الامتثال ، لتكون مقبولا ، ولتكون آمنا ، ومحترما ، وهو الجزء الذي لا يتجزأ من كينونة الانسان.

وفي تحليلنا للقوى الداخلية التي تقود الرجال إلى التنازل عن سلامتهم العقلية تحت ضغط السجن ، وحياة معسكرات الاعتقال ، فقد رأينا مدى أهمية الدور الذي تلعبه هذه الآلية. كما إن العيش في بلد يشغله العدو ، ليس مرعباً بأي حال من الأحوال ، كالعيش في معسكرات الاعتقال ، ولكنها مع ذلك ، يبقى العيش في ظل الاحتلال مخيفا.

لأنه ، وفي هذا الموقف المرعب ، قد تظهر الحاجة للتوافق نفسها ، وفي

الاستسلام لإيديولوجية العدو. كما أن أولئك الذين قاوموا هذه الحاجة، وعلى الرغم من أنهم شعروا بها، فعادة ما يصبحون أكثر معاداة للنازية، وبشدة، وذلك نتيجة لمشاعرهم بالذنب من هذا الاندفاع إلى الخيانة.

كما علمتنا تجربة الحرب هذه حقيقة أخرى وهي أنه:

يمكن أن يتم فعل الخيانة عن طريق الاقتراحات الجماعية الساحقة. ففي الفوضى الغامضة من الأيديولوجيات الصاخبة والقيم المتغيرة، يصبح العقل متجهماً وعنيفاً، وحيث أنه يكون في حالة من عدم النضج، وعدم السيطرة الداخلية، وقد يصبح مرتبكاً في ولاءاته، ومن ثم يستسلم، وببساطة، إلى المجموعة الأقوى.

وقد حاول النازيون، بطرقهم السياسية المنحرفة، أن يقدموا للضعفاء، والطموحين، والساخطين، والمحبطين مجموعة جاهزة من المثل الزائفة لتبرير الاستسلام إلى جانبهم.

وفي كتاب "كفاحي" يذكر "هتلر" بأنه، وعندما يتم الإحساس بخيبة الأمل، فإنهم سوف يبتلعون كل اقتراح وبأقصى درجات السلاسة.

فقد كان يعلم أن الضعف البشري -بل اللطف- يمكن استخدامه كنقطة انطلاق، لعملية تحويل منظمة، وبشكل منظم.

ولذلك، فقد كان "هتلر" يعلم أيضاً أن الإرهاب السياسي غير المحدود، يمكن أن يجعل من أي شخص تقريباً مشروع "خائن". وكذلك يفعل نشر الخوف، والإرهاب، والجوع، وإلحاق الألم، وأخيراً، ونتيجة للإكراه العقلي والارتباك المتزايد، فإن الكثيرين سوف يستسلمون ويخونون عائلاتهم.

كما أنه، وفي العديد من معسكرات الاعتقال، كان الضحايا أنفسهم، هم المسؤولين عن أعمال القتل، في غرف الغاز، وقد حافظوا على وظائفهم الرهيبة، حتى جاء دورهم. فالخوف والرعب جعلا الانسان يتحول إلى مجرد عبد.

كما ولا تزال هناك سمة إنسانية أخرى يمكن أن تؤدي إلى الخيانة. فهناك

بعض الناس من الذين لا يعرفون ، ببساطة ، أين تنتمي ولاءاتهم.

ومن الجدير بالذكر هنا ذكر حالة"كلاوس فوكس Klaus Fuchs" الرجل الذي خان بلده ، وقدم الوثائق الذرية إلى روسيا ، والتي تعتبر مثالا دراماتيكي على ذلك.

فقد كان"كلاوس" شخصاً ذكياً للغاية ، وهو خبير في المشكلات النظرية الأكثر صعوبة ، إلا أن ذلك أغرقه في بحر من الولاءات المتضاربة.

وبسبب الاضطهاد النازي لعائلته"كويكر" فقد تبنىّ وطنا جديدا له ، وكان ذلك في اختياره لإنجلترا.

وقد كان في تلك الأثناء ، يحلم بعالم عالمي باطني ، وكان يعتقد بأنه وجده في الأيديولوجية الشمولية.

ولكنه في خضم ارتباكه حول مشاكل العالم ، لم يكن يعرف ، وببساطة ، إلى أين يجب أن يكون ولاءه.

لم تكن هذه حالة انفصام أو حالة"جايكل وهايد Jekyll-and-Hyde" كما ذكرت الصحف ، ولكنها كانت حالة ارتباك للولاءات في عقل فكري.

ولذلك ، فلم يكن"فوكس" يعرف عاطفيا ، إلى أين يجب أن ينتمي.

وفي حالات أخرى ، تم دفع الأشخاص إلى الخيانة والتعاون لأنهم ، لم يثق بهم أحد في بيئتهم التي كانوا يعيشون فيها. وقد حدث هذا ، على سبيل المثال ، في مدينة "فلاندرز Flanders" مع المتعاونين في الحرب العالمية الأولى. وحيث اضطر العديد منهم إلى أن يصبحوا متعاونين مرة أخرى.

وهكذا ، فإن هذا التحليل للعوامل التي تقود الرجال إلى الخيانة ، بالتأكيد لا تعني ضمناً ، بأن كل إنسان يجب أن يظل مخلصاً للجماعة التي تلقى منها أخلاقياته ومبادئه. فقد تبصر الرؤية الأفضل ، والأخلاقيات الأعلى ولاء طفولتنا. كما إن مصير واحتياجات البشر ، تتجاوز مدرسيهم ومصيرهم ، وإن أمكن ، القواعد التقليدية لمدارسهم أيضا.

وفي ذات السياق ، فقد اتُّهم الفيلسوف الكبير "سقراط Socrates" بأنه "خائن" أيضا ، وذلك لأنه "أفسد عقول شباب "أثينا". ومع ذلك ، فنحن نعلم اليوم أن "سقراط" كان أبعد ما يكون عن كونه مفسداً.

العقل الخائن

ربما يكون السبب الأكثر مأساوية في حدوث الخيانة ، وخيانة الذات هو جمود العقل البشري.

ولأننا غالباً ما نتعرض للخيانة من قبل عقولنا. وننسى تماما ما نريد أن ننساه. وننكر وجود مشاكل حقيقية من أجل التراجع إلى التفكير بالتمني.

وبمجرد أن لا نفهم ونشعر بآثار مشكلة ما أو حجة ، فإننا نميل إلى تقديم الجانب السلبي على الجانب الأقوى ، وتماماً كما كان الحال مع الحلاق.

وحيث لا تزال السهولة التي يمكن أن نفسد بها نحن البشر إحدى مشكلاتنا النفسية ، والأخلاقية الأكثر خطورة. كما وأن التشويش الداخلي يمكن أن يجعلنا خاضعين لأي اقتراح قوي من الخارج ، ومهما كان أحمقا ، أو مزيفا.

فشكوكنا خونة ، بل وقد تجعلنا نفقد الصالح الذي قد نفوز به ، وذلك خوفا من المحاولة.

كما أن هناك حيلا أخرى ، وأكثر تعقيدا للفكر ، والتي قد تؤدي إلى خيانة الذات. فالشعور بالنقص ، غالباً ما يثير في الجاهلين رغبة كبيرة في فهم الأفكار الصعبة للغاية. في حين أن مثل هؤلاء الناس ، يفضلون التعريف بأنفسهم بنظام فكري شبه عميق.

ولذلك ، فقد جعل الدكتاتور "هتلر" في كتاباته الغامضة أسماء زائفة ، وسائحة ، ومؤقتة ، ومن أغلبية الشعب الألماني.

ومن هذا المنطلق ، يمكن القول بأن كل الديكتاتوريين-بشكل عام-يشترون خدمات العلماء ، والذين يمكن أن يؤلفوا ، ويفبركوا مثل هذه المجموعة من المبررات الزائفة الفلسفية.

وللأسف ، فإن بعض الباحثين ، أصبح من السهل شراءهم.

ففي هولندا وحدها ، على سبيل المثال ، كان يعيش فيلسوفا-ليس ذكياً أكثر من اللازم-ولكنه تحول إلى النازية بعد أن أظهر قوته المفرطة.

وبعد ذلك ، أصبح يشعر بالحرية التامة في الكتابة ، وحول أكثر المواضيع الفلسفية فهماً ، ولتبسيط النظريات الأكثر تعقيداً ، وقد كان كل ذلك من أجل تمجيد أصدقائه الأقوياء في حكومة"الرايخ" الثالث ، وأحلامهم في غزو العالم بأسره.

ولكنه في نفس الوقت ، بنى نظاماً من الكلمات الغامضة حول مشاعره العميقة بالذنب. ومن ثم عزل نفسه عن العالم وبشكل أكبر ، وذلك بسبب عدم وجود كلمات مقنعة بما فيه الكفاية ، لتبرير خيانته لنفسه.

وفي النهاية ، فقد كل اتصال مع الواقع. ثم ، وبالطبع ، لم يعد للنازيين أي حاجة في استخدامه أيضاً.

خيانة الذات

وهكذا ، وكما رأينا ، فهناك العديد من الدوافع الداخلية التي قد تؤدي إلى جريمة الخيانة أو الخيانة. في بعض الأحيان تعمل هذه الدوافع بمهارة ، بطرق مجهولة لهذا الموضوع ؛ وفي بعض الأحيان ، فإن الخيانة هي مجرد بيع للخدمات الخام لأولئك الذين يدفعون أفضل ما يمكن.

وفي هذا السياق ، دعونا نحاول ترتيب وتصنيف بعض هذه الدوافع ، بدءاً من تلك الدوافع اللا واعية ، إلى تلك الخيانة المتعمدة.

في المقام الأول ، قد يبدأ فعل خيانة الذات كدفاع ضد الشعور بالضياع والرفض. ومن أجل كسب القبول في المجموعة ، وقد يخفي الفرد ذلك ، ولا يدافع عن معتقداته ومبادئه الخاصة عند مهاجمته.

وفي علم النفس ، يمكن أن يسمى هذا-إذا أصبح هذا السلوك السلبي عادة غير واعٍ-بالخضوع السلبي ، والتعرف على الشخص الأقوى. وعلى مبدأ:

"إذا لم تستطع التغلب على العدو ، انضم إليه"!(أ.فرويد).

وعلى الرغم من ذلك ، فإن مفهوم الخائن الداخلي في أنفسنا ليس من السهل قبوله ، ولكن ، ومن خلال دراسة محركات الدوافع الداخلية المتناقضة التي تقود الإنسان ، يصبح المرء أكثر اقتناعاً بهذا الاحتمال.

كما ويعتمد المفهوم السريري لظاهرة التناقض الداخلي للإنسان على العديد من التجارب النفسية.

ففي دراسة الدوافع الأعمق للعديد من الخونة ، فإننا غالباً ما نرى أن فعله الغادر ذاك ، قد حدث بعد أن هدد اضطراب داخلي ما بهدمه ، وليجعل منه حطاماً غير متحكم فيه.

كما و يبدو الأمر كما لو أن المريض العقلي في المستقبل ، قد فضّل الاستسلام إلى عدو خارجي ، وليس إلى أعداء المرض الداخلي والانهيار العصبي.

كان الجنرال والمستشار الخاص"هيس" على وشك الانهيار الفصامي عندما كسر قواعد الدكتاتور"هتلر" وسافر إلى إنجلترا.

ومن هذا المنطلق ، دعونا ننظر جواسيس المكتب الأجنبي البريطاني "دونالد ماكلين Donald Maclean" و"غاي بورغيس Guy Burgess".

فقد أظهر كلاهما عدة أعراض انهيار عقلية وشيك.

وقد يكون من المعروف للقارئ بأن كلاهما قد غادرا إنجلترا في شهر ايار/مايو من عام١٩٥١ ومن أجل المرور عبر فرنسا إلى روسيا. كما أنه كلا منهما قد تعمد الفرار من البلاد.

وحيث كانت لديهما بعض الميول الشيوعية خلال أيام دراستهما في جامعة "كامبريدج" ولكنهما تخليا-في وقت لاحق-عن انتماءهما كمراهقين.

كما أظهر كلاهما أعراض غير طبيعية أثناء خدمتهما. فقد كان ماكلاين Maclean قد تعرض لانهيار عصبي في شهر ايار/مايو من عام١٩٥٠ وذلك بسبب العمل المفرط ، وشرب الكحول المفرط.

كما تم توبيخ"بيرجس" لقيادته المتهورة أثناء الخدمة ، وإهماله لعمله.

من خلال قراءة التقارير ، يتبين بأن أحدها كان يبعث على الدهشة ، حول مقدار عدم الاستقرار العقلي الذي تم التسامح معه في مثل هذه النقطة الحساسة للحكومة.

فقد كان لكل من الرجين ميولا مثلية ، وشاذة جنسيا ، في حين يمكن أن تكون تلك الميول ذات صلة بقمع أمهاتهم(البلد الأم).

[نص"تقرير التحقيق البريطاني" ، صحيفة نيويورك تايمز عدد٢٤ أيلول/ سبتمبر من عام١٩٥٥ ؛ ومجلة التايمز/عدد تشرين أول/أكتوبر من عام١٩٥٥.]

تعني الخيانة ، في بعض الأحيان ، نداء ما من جانب واحد للعدالة. وهذا موجود في الانسان الذي يطالب بنوع من العدالة الوقائية الخاصة ، ويرفض الاعتراف بالعلاقة الدقيقة بين الحقوق والواجبات. ودائما ما يشعر هؤلاء الأشخاص بالحرمان والخيانة باستمرار. فهم ، وفق ما يسميه العالم "بيرغلر Bergler" بأنهم "جامعي الظلم".

كما أنه ، وفي أعمال الخيانة التي يسعون إليها ، فغنهم يلعبون دور قضاتهم الخاصين. في حين أن العديد من الأشخاص المتشككين ، وحتى الذين يعانون من جنون العظمة ، يكون لديهم هذا النوع من بنية الشخصيات.

ثم هناك المثليين الزائفين ، والمحبطين الذين يتحولون تدريجياً إلى متهكمين ، ويغطون فراغهم بواسطة العديد من التبريرات الذاتية ، والإغراءات. وهؤلاء الناس يخونون بسبب خيبات أملهم الفكرية. وقد تؤدي الصراعات بين الوالدين إلى زيادة الطفل إلى الحاجة إلى خيانة أحد الوالدين أو كليهما ، وقد يتم نقل هذه الحاجة في وقت لاحق ، إلى الحاجة إلى خيانة الوطن.

وقد وجدت في كثير من الأحيان أن العلاقات غير المحببة من الكراهية والمحبة تجاه الوالدين ، تلعب دورا هاما في تشكيل شخصية"الخائن".

وكما رأينا ، تكمن هذه المشكلة ، في كثير من الأحيان ، في جذر بنية

الشخصية الشمولية(الاستبدادية).

كما أنه ، وعلى الرغم من أن الفكر الاستبدادي ليس خائناً صريحاً ، فإن بعض هؤلاء الأشخاص يمكن أن يصبحوا خونة للمثل الحرة والديمقراطية ، وذلك إما بسبب من الولاء القهري لأيديولوجية أجنبية ، أو من خلال عدم الامتثال المتكرر.

وفي وصف الخصائص المميزة لمجموعة سياسية ما ، يجب على المرء أن يضع في اعتباره أن التناقضات الداخلية الأساسية ، متأصلة في كل الناس.

كما أن التفسير"الماركسي" شبه العقلاني للعالم ، والذي يفي بالحاجة إلى التوضيح المنطقي والتنظيم المعقول للحياة الاجتماعية ، يغطي القلق الناجم عن القوى الداخلية غير العقلانية ، والتي يمكن كشفها بسهولة في الفكر الاستبدادي. ولذلك ، فغالباً ما تعمل عبادة"الجماهير" كدفاع ضد الوحدة. كما وقد يولد الإيمان بالتقدم من خلال اليأس وعدم الأمان الغامضين.

فالخوف من الانحراف ، هو الخوف من كسر وحدة المجموعة. في حين أن الشكوك والنقد الذاتي يعملان على الحفاظ على المجموعة في المقام الأول.

وبالتالي ، فهناك عدة أشكال للغرور الداخلي ، والتي يمكنها تحويل الإنسان إلى خائن. والفيلسوف الهولندي-والذي كنت قد تحدثت عنه في وقت سابق-هو مثال صارخ على ذلك ، كما هو الحال مع أي من المدافعين الإيديولوجيين المطلقين عن الشمولية الاستبدادية.

كما أن انعدام الثقة أو عدم الإيمان بالتقاليد والأهداف الإرشادية لمجتمع الفرد ، يمكن أن يؤدي إلى العداء ، ومن ثم إلى الخيانة.

وبدون مثل هذه المعتقدات التقليدية ، تزداد قابلية الإيحاء وقبولها للأيديولوجيات المتنافسة. فقضية"كلاوس فوكس" ، والتي تم ذكرها في وقت سابق ، هي مثال على ذلك.

كما وقد تؤدي الحاجة الشخصية إلى أن تكون رائداً أو شهيداً ، وغالباً ما

تغرسها الحاجة اللاشعورية للمعاناة ، إلى الوهم الخاص "المسيائي" وتسبب هجوماً على القيم التقليدية للمجموعة. في حين تعتبر العديد من الجماعات مثل هذا التطرف ، ومثل هذا السلوك الغادر.

وقد يكون هناك سبب آخر من أشكال خيانة الذات ،وهو عدم القدرة على فهم تعقيدات العالم الحقيقي.

فقد تم اغراء الكثير من الناس في سلوك غير مستقر ، بل وحتى عدم الولاء من خلال عدم فهم هذه التعقيدات ، ومن خلال الحاجة الى ايجاد حل واحد شامل ، وسهل الاستجابة لمشاكل الحياة البشرية.

فمن يعطيهم الأسطورة البسيطة التي يؤمنون بها؟.

فقد أغوى النازيون كل ألمانيا تقريبا ، وحولوها إلى شكل من أشكال الخيانة الإيديولوجية بهذه الطريقة!

كما وقد تكون الخيانة أيضاً ناجمة عن ردة فعل متناقضة مع الشعور العصبي العميق بالذنب.

وغالباً ما تكون الاستراتيجية العصبية المتمثلة في تراكم المزيد من الشعور بالذنب ، مقترنة بتطور الحاجة الداخلية للعقاب ، وهي الأسباب الأساسية للإجراءات الجنائية. في حين يتم تنفيذ الفعل الغادر ، وعلى وجه التحديد ، من أجل إثارة العقوبة.

وهكذا ، فقد تكون الخيانة مغامرة مدفوعة الأجر ، وكما نجدها في عمليات التجسس الدولي.

ولذلك فإن هذا النوع من الحياة ، يفتن العقل غير الناضج ، والذي يعيش في عالم القصص الغامضة والحكايات الخرافية.

كما أن الرشاوى التي تمارس على النساء واغداقهن بالمال ، تجعل هذه الخيانة أكثر جاذبية. فالعدو يرضي الاحتياجات الاقتصادية والجنسية ، والخائن مستعد لبيع سلطته إلى أعلى مزايد.

كما ويمكن أن يؤدي الخوف والهلع الشديدين إلى الخيانة. في حين يستند علم النفس كله من المقابلة الاستبدادية والاستجواب على هذا المبدأ. وحيث يمكن أن يكون الناس خائفين ، وقد تم غسيل أدمغتهم في الخيانة.

تنمية الولاء

وهكذا ، فإنه ، ومن كل ما سبق ، يمكننا أن نرى أن ما نطلق عليه اسم "الخيانة" يحدث ، وبشكل أكبر في الشق العاطفي من المجال الفكري للأداء.

ففي سياق النمو البشري ، يمر كل شخص بفترات الصراع الداخلي ، والتي يجب أن يحول فيها محبته وولائه من شخص إلى آخر-من الأم إلى الأب ، ومن الوالدين إلى الأسرة بأكملها ، ومن الأسرة إلى الدولة ، ومن الدولة للبشرية.

كما تم العثور على جوهر مشكلة الخيانة والخيانة الذاتية ، في الصعوبات التي تنشأ في قمع الولاءات السابقة ، حيث يتم استبدال كل ولاء بدوره في اليوم التالي. ولذلك ، فإننا نرى أن كثيرا من الناس يعانون من الارتباك العميق في مرحلة المراهقة ، حيث يجب عليهم ، للمرة الأولى ، ترك الحماية العاطفية الآمنة لمنازلهم ، وخلق ولاءات جديدة ، ومعايير أخلاقية جديدة لأنفسهم.

وفي هذه الفترة ، يتم تطوير الولاءات الحرجة.

ففي التشكيك في الحقائق التقليدية ، والتي انتقلت من قبل والديه ، يمكن أن يسمى كل مراهق خائنا.

ولكنه في الواقع ، يصح ذلك على الذات التي يقوم بتشكيلها.

كما أنه ، وخلال أزمة المراهقة ، ومع ازدياد مشاعر التوق إلى بعض السعادة غير المعروفة ، ينزع العديد من الشباب إلى "خيانة" منازل أبويهم ، ومعايير آبائهم.

في الوقت نفسه ، فإنهم لا يريدون التخلي عن الحماية التي يقدمها المنزل.

أما من الناحية النفسية ، فنحن نعلم أن عدم الولاء المؤقت ، هو جزء من النمو العقلي الطبيعي.

ففي عملية التنمية البشرية الفردية ، هناك مراحل من التقدم الذي يؤدي من تقديم الأولي إلى فتح التمرد ، وعدم المطابقة.

كما أن كل خطوة نحو النضج العقلي والاستقلالية ، تنطوي على تنامي العلاقات مع الماضي.

ويمكن أن يتم هذا النمو بطرق مختلفة ، مع عدائية أكثر أو أقل ، ومع تخلّص من الماضي ، ومع خيانة الذات والتقديم السلبي ، ومع تجدد الخضوع لسداد الشعور بالذنب ، ومع المحافظة المتعصبة ، أو التمرد المفتوح.

كما أنه في هذه المرحلة من المراهقة ، يكون الانسان عرضة ، وبشكل خاص ، للدعاية الاستبدادية.

كما قد يحتفظ الشباب من صراع النمو الداخلي ، بالشعور بالوحدة ، والشعور بالذنب على حد سواء.

وهكذا ، فإذا ما تم وضعه في الاستخدام الإنتاجي ، فقد يصبح ما يمكن أن نسميه"ثورياً مبدعاً".

كما أن سترة الطريق ، والتي تدفعه بقوة داخلية إلى الخروج عن التقاليد ، فإنه سيعتقد بأنه قد اصبح رجلا يُعتمد عليه.

ولكن في الواقع ، فإن العديد من القادة الأخلاقيين ، والروحيين العظماء من البشر ، كانوا من هذا النوع.

كما وقد كانوا قادة على وجه التحديد ، لأنهم كسروا إما ما تبقى من ذكريات الماضي ، أو بواسطة العناصر المتحجرة ، أو غير الأخلاقية للحاضر.

وفي تجربتي الخاصة ، فقد عرفت رجلاً من هذا القبيل ، وهو طبيب نفسي ألماني ، والذي جعل من مثاليته ومعناه الأخلاقي ، من المستحيل عليه مواكبة التدنيس النازي للقيم الإنسانية ، والذي تم شنقه-في نهاية المطاف- باعتباره "خائنا"لدوره في الثورة الألمانية الفاشلة. وقد حدث ذلك أثناء التمرد ضد"هتلر" في عام١٩٤٤.

تمجيد الانشقاق

ما الذي يمكن فعله بشكل عام لمكافحة الخيانة ، وخيانة الذات؟.

في المقام الأول ، يجب مراقبة الموقف الدفاعي الطبيعي للطفل تجاه السلطة ، وحاجته إلى الانفصال عنه ، من خلال اليقظة المواتية في جميع الأوقات من جانب الآباء والمعلمين.

ولذلك فمن السهل جداً أن نجبر الطفل على إنكار الذات ، ولمرات عديدة. ولكنه ، وفي وقت لاحق ، يصبح عدم الولاء كرد فعل على معالجة خاطئة لمشاكل الطفولة.

ولكن هكذا تكون حال معظم الخونة ، وليس الأولاد فقط.

بيد أنه ، ولسوء الحظ ، فغالباً ما يتم نسيان هذه الحقيقة من قبل المعلمين الذين قد يقومون ، نتيجة لعدوانهم المحبط ، بتحطيم شعورهم بالولاء الكبير تجاه فئاتهم العمرية ، والتي نجدها أكثر بين الشباب.

فهل من الممكن أن تقرير ما إذا كان الشخص يمكن الاعتماد عليه أم لا؟.

يمكن ذلك فقط ، عندما يكون لدينا بعض البصيرة في دوافعه الخفية ومحركاته ، وفي أعمال فاقدي الوعي. وللحصول على إحصاءات كاملة ، فإن التحليل النفسي ضروري ، ولكن الطريقة التي يعبر بها اللاشعور عن نفسه في سمات الشخصية ودفاعات الشخصيات ، يمكن أن تعطينا بعض المؤشرات المهمة جداً.

فالشخص الذي لديه احتياجات التبعية المفرطة ، أو"الأنا" الضعيفة الضائعة ، و الشخص الذي يمكن بسهولة الإيحاء به ، يمكن عادة أن يتم إغراؤه وجره إلى مستنقع الخيانة. وحتى أنه يمكن للرجل"الخائن" التفاخر بما فعل ، وذلك لأنه غير منسجم مع ذاته ، ويعاني عقدة النقص ، والفخر ، والغرور.

كما وتؤدي الأنانية المادية ، والرغبة في السلطة ، والعداء المستمر ، إلى إنكار القيم الأخلاقية ، ومن بينها الولاء.

وكما هو الأمر في الغالب في علم النفس ، فمن الأسهل أن نحدد ما هي الصفات الشخصية للشخص الذي يمكن الاعتماد عليه ، وليس من الضروري إعطاء صورة إيجابية عما ينبغي أن يكون عليه.

وبشكل عام ، يمكننا القول بأن الشخص الذي يكون صادقاً مع نفسه ، عندما يُظهر الحد الأدنى من خداع الذات ، فالرجل الذي يُظهر بنية ثابتة للشخصية ، والشخص الذي يتمتع بنضج حقيقي ، هو الأكثر صواباً مع نفسه ، ونتيجة لذلك ، فهو الأكثر ولاء للآخرين. ومع ذلك ، فإن بذور الخيانة تكمن في كل منا ، وقد تكون معززة بالتأثيرات البيئية. ففي العالم الاستبدادي ، على سبيل المثال ، يتم تعليم الجميع في إنكار الذات وخيانة الذات ؛ وعندما يصبح الشخص غير ملتزم ، فسيتم إرفاقه بصفة"خائن".

كما أنه ، وفي عالم خنقته العقيدة والتقاليد ، يمكن أن يسمى كل شكل من أشكال التفكير الأصلي ، بالفتنة والخيانة. وفي مثل هذه الحالات ، تحدد العوامل البيئية والاجتماعية والسياسية ، وليس العمليات الداخلية المربكة ، ما هي الخيانة.

ومع ذلك ، فقد ركزت في هذا الفصل على العوامل الشخصية في إنتاج الخيانة-وتأثير التحيزات الأسرية والمجموعات ، وعدم الاستقرار الداخلي الناتج عن التعقيدات في البيئة المباشرة. كما أن هناك الكثير من التخيلات الدقيقة من خيانة الذات والعدوان السري في كل شخص ، وهناك الكثير من الرغبة في الانتقام من الاستياء السري ، أي أن أية حكومة ، قد تستغل هذه المشاعر العصبية غير الصحية لإثارة البلاد.

نذر الولاء

كان الأمريكيون في الآونة الأخيرة ، ينظرون بشكل أكثر نقداً إلى مفاهيم الولاء والتخريب. ومع إدراكنا العميق للطبيعة اللاشعورية والقسوة للهجوم الاستبدادي من خلال التخريب ، فقد بدأنا ندع خوفنا من التخريب من الداخل يشل حرياتنا الديمقراطية.

كما اننا قد أصبحنا نشعر بالقلق إزاء شبح طابور خامس"خائن" فوق أرضنا التي نمت بها ، وعلى حد سواء ، أكثر من الحيرة والشك[1].

ولذلك ، فإننا بحاجة إلى طمأنة ثابتة بأن نوايا جيراننا ومواطنينا مقبولة و مخلصة.

يبدو أن الخطر في هذا البحث المحموم عن الأمن ، يعمل على المستويين السياسي والنفسي.

فعلى الصعيد السياسي ، وفي محاولتنا لإقامة حواجز منيعة ضد انتشار الأفكار الشمولية الاستبدادية ، قد نجد بأننا تخلينا عن تلك الصفات التي تميز الديمقراطية عن الشمولية: الحرية والتنوع.

أما من الناحية النفسية ، فقد نجد أنفسنا ضحايا الشكوك المرضية(والتي يمكن وصفها جنسيا"جنون الاضطهاد paranoia " أو جنون الارتياب ، أو جنون العظمة) وقد يدفعنا هذا الشك إلى رفض الصفات الأكثر قيمة ، والتي يمكن أن نحصل عليها كبشر: ألا وهي التسامح والاحترام لإخواننا من البشر.

وهكذا ، فإن المخاطر السياسية في هذه الحالة ، كانت قد أُشير إليها مرارا وتكرارا من قبل القادة المسؤولين في المجتمع الأمريكي.

وكطبيب نفسي ، أود أن أوجّه انتباهي إلى الجانب النفسي لهذه المشكلة ، وإلى الأخطار التي تهدد العقل الحر ، والمتأصلة في الوضع الحالي.

وذلك لأننا ، وكما رأينا بالفعل ، فإن كل السلوك السياسي هو في الأساس ، امتداد للسلوك الفردي ، بل ويتجذر في نفسية الأفراد الذين يشكلون المجموعة السياسية.

كما ويمكن أن يعزى الكثير من شكوكنا الجماعية إلى تضاعف هائل من

---

١ - في دراسته الموثقة جيداً عن العمود الخامس الألماني، يمكن للمؤرخ الهولندي الدكتور "لويس دي جونغ " ان يثبت ان شبكة الدكتاتور النازي "هتلر" المخيفة من الخيانة والغدر كانت في الغالب جزءاً من غول خيالي خلقه الذعر والخوف لدى الناس.

المشاعر الشخصية لعدم الأمان.

ففي أوقات الخوف والنكبة ، تنشأ أسطورة معتوه غادر ، وأسطورة الشمولية الاستبدادية ، والذين يعرف جيدا كيف تُستغل ، وشخصية الدكتاتور النازي "هتلر" أعظم مثال على ذلك.

ولذلك ، فإن انعدام الأمن الداخلي الخاص بنا ، سيتم تهجيره ، ومن ثم عرضه على جيراننا وبيئتنا.

وهكذا ، فإنا سنبدأ بفقدان الثقة بالجميع ، في حين سيتغلغل الشك والريبة إلى نفوسنا المضطربة.

وسنبدأ بكيل التهم جزافا على الأخرين ، لأننا خائفين من كل شيء ، وحتى من أنفسنا. كما ونشعر بالضعف الدائم ، ونتأسف لحالنا ، فيما نحاول أن نغطي ضعفنا من خلال تنامي الشكوك ، وبأننا نبحث باستمرار ، عن الخونة ، وعن المعارضين المحتملين.

وكما رأينا في وقت سابق ، فإن مسألة الولاء برمتها ، مسألة معقدة.

كما أنه و في حماستنا لخلق ضمانات جديدة بالثقة ، فإننا نميل إلى تبسيط المشكلة ، وبالتالي ، فقد نتخطى الهدف ونصبح مثل مناهضاتنا "الاستبدادية" والتي يعتبر التبسيط المفرط بالنسبة لها ، مجرد تجارة.

كما وأن مطالبة الناس بقسم الولاء–ومطالبتهم بأداء هذه الطقوس السحرية ، والتي من خلالها ينبذون كل الخطيئة السياسية الماضية والمستقبلية–قد يكون لها تأثير متناقض.

وبالتالي ، فإن مجرد أداء قسم اليمين ، لا يجعل الرجل مخلصاً ، على الرغم من أنه قد يُمكّن لاحقاً القاضي من مقاضاته بتهمة حلفان الزور.

ولذلك ، فإن إصرارنا على التعبير الرسمي عن الولاء ، يسيء في الواقع ، ويقلل من الحس الشخصي الأساسي للاعتراف الطوعي ، والاختيار الذاتي مع المجتمع الذي هو جوهر الولاء.

وعلى الرغم من أنه ، وبالتأكيد لا يخلق أو يؤمن الولاء. بل وقد يتحول قسم الولاء بسهولة ، إلى صيغة فارغة ، وقد ينسى الشخص الذي يحلف اليمين تماماً ، المعنى الذي يفترض أن يكون عليه القسم.

ولأنه قد أصبح الأمر بالنسبة للكثيرين ، مجرد وشاح أحمر ، وهو شكل آخر من هذه الأشكال التي لا نهاية لها ، والتي يجب ملؤها.

كما يمكن أن ينمو إكراه اليمين بسهولة وليتحول إلى استراتيجية سحرية وطفولية ، وإلى شكل من أشكال الابتزاز العقلي.

فهناك بعض الأديان الشرقية التي يتم فيها أداء الولاءات من خلال استخدام عجلة الصلاة. وعندما يتم ضبط عجلة القيادة من ناحية الوجه ، فإن المصلي يقوم بعمله. ولا يحتاج أن يقرأ أية صلوات. بل ولا يحتاج إلى التفكير في أي أفكار تدين.

ولذلك ، فلن يعود لدى ممارسي هذه الديانات أي وعي بمضمون صلواتهم. ولأنهم قد أصبحوا مجرد مشتركين عميانا ، وتابعين لما تمليه على عقولهم طقوس الدين الذي يتبعون. ومنذ فترة طويلة ، ومنسية. كما ويمكن أن يصبح حلفان قسم الولاء كبادرة فارغة ، وكدوران عجلة الصلاة. فالولاء الحقيقي ليس شيئاً ساكناً. وكما رأينا بالفعل ، فإنه ينمو ويتطور مع الشخصية. ولذلك يجب إعادة اكتشافه وإعادة تجربته كل يوم ، ولأنه ، في الأساس ، يكون نتيجة لمعركة داخلية للقيم المتضاربة ، وحيث يجد الإنسان قيمه وولاءاته الخاصة به.

فعندما يُجبر رجل ما على أن يحلف قسم اليمين على ولائه ، وعلى الرغم من أنه يشعر بذلك ، وبعمق في داخله ، فإن الإكراه من الخارج يعني أنه يجب عليه أن ينحي جانبا حقه الشخصي في تقييم القيم والاستعانة بمبادئه النزيهة. ولا يهم ما إذا كان اليمين تعبيرا عن مشاعره الحقيقية أم لا ، فإن عنصر الإنفاذ الذي يكمن وراءه ، له تأثير ضعيف نفسيا على الرجل الذي يأخذه.

كما أنه قد يبدو هذا غريبا للوهلة الأولى ، ولكن القياس البسيط سيوضحها.

فالرجل الذي يحب زوجته حقاً ، على سبيل المثال ، لا يحتاج لأن يقسم لها مراراً وتكراراً على محبته.

بل تصبح أفعاله هي الدليل الملموس على حبه لها.

ولكن إذا أصرّت على أن يحلف لها اليمين على حبه ، فإن إصرارها الشديد ، والذي يعني أنها تشكك فيه ، قد يجلب الأسئلة إلى عقل زوجها ، ومن ثم يبدأ في التشويش على ما يعتقد بأنه حب حقاً.

ولذلك ، يبدأ كلاهما بطلب حلف اليمين والقيام به ، وبالتالي فإننا ندين الوهم السخي ، والذي يمكن منع الأعداء من خلال نظام عجلة الصلاة هذه.

الحقيقة هي أن الخونة المتعمدين والمخربين ، هم الذين لا يخشون إخفاء دوافعهم ، أو إخفاء نواياهم وراء الصيغ المحددة.

ولا يخافون من تهمة الحنث باليمين. ولا يشعرون بأي تردد في أداء قسم اليمين إذا كان من المناسب لهم القيام بذلك. فبالنسبة لهم ، فإن الكلمات والأقوال ، ليست سوى أدوات غير ذات قيمة أخلاقية مُلزمة. بل وأكثر أهمية من الطلب على الولاء ، بحيث يجب أن يكون الطلب على النزاهة ، وثبات الشخصية ، واستحقاق الأهداف والدوافع.

كما يحتاج الإنسان الحر إلى الولاء إلى الذات أولاً وقبل كل شيء ، وهذا يعني الحق في أن يكون هو نفسه.

وبالتالي ، فإن الرجل الذي يشعر بأنه لا شيء ، والذي يشعر أن الجميع يتجاهلون وجوده ، ويشمل نفسه بذلك ، يشك في أنه ، وهو ضعيف داخلياً ، قد يصبح فريسة سهلة لكل أنواع التأثيرات السياسية الاستبدادية.

وقد تثير صقور الولاء وقوانين الولاء عدم الولاء لسلامة الفرد الشخصية وللحرية الشخصية ، وحيث إنها تخلق الشكوك في أنفسنا وفي الآخرين.

كما ويتم الاحتفاظ بالحرية من خلال وجود المعارضة نفسها—حتى على الرغم من خطر عدم التوافق والتخريب المتناثرة في كل جوانب الحياة.

وهكذا ، يأتي الولاء نتيجة الثقة المتبادلة. إذ لا يمكن إنشاؤه من خلال الإكراه. في حين أن أي إكراه هو ، بطبيعته ، إكراه من جانب واحد.

لذا ، يجب أن يكون الولاء مستحقاً ، وفائزاً يومياً ، وذلك من خلال التفاعل المتبادل ، ومن خلال الاتصال بين القادة والمواطنين.

ولأنه يقوم على الثقة ، يتم تقديم الولاء بشكل عفوي وبإرادة حرة.

وحيث أنه لا يمكن شراء الولاء الحقيقي أو المطالبة به.

عند التحقيق في حالة الجنود الأمريكيين الشباب في كوريا ، والذين تم غسل أدمغتهم ، ونسيانها بسهولة ، وحيث يكمن ولائهم ، نجد عادة في خلفياتهم كيف أن واحداً من والديهم تصرفوا تجاههم.

كما أنه ، وفي كل ما يسمى بالقضايا المؤيدة للشيوعية تقريبا ، فإننا نجد شباباً مضطرباً. ولذلك ، فإنه من المهم بمكان ، أن يحقق المجتمع في ولائه الأول تجاه هؤلاء الشباب.

وفي دولة ديمقراطية ، يجب أن نكون مستعدين لتقديم حقائق مقنعة لدعم أسلوب حياتنا أو لتطوير أساليب جديدة تكشف نقاط الضعف في أي نظام تخريبي.

وهكذا ، فإن المقاضاة على الأفكار المعارضة ، والإصرار على الولاء وفقا لبعض المعادلات الموصوفة-هذه تجعل من المستحيل بالنسبة لنا القيام بذلك ، وربما تكون بداية عدم الرغبة في الجدال والإقناع.

بل وقد تؤدي إلى شكل جديد من"الخيانة" ، ومن"الخيانة الخفية" للانفصال الفكري ، وعدم الرغبة في تحمل المسؤولية ، وخيانة التشكيك بالنسبة التي تؤدي إلى التقاعس.

كما وقد تتحول إلى شكل خطير من الكسل الذهني الذي يمكن أن يتحول بسهولة إلى حياة بلا التزامات ، أو إلى تقديم الاستبدادية.

في حين أن المقاربات على الحقيقة تكون متعددة المتغيرات ، وفقط عندما

يكون هناك صراع للرأي ، يمكن اكتشاف هذه الطرق ، والعثور على الطريق الصحيح إلى الحقيقة.

فالخطر في إجبار الولاء هو ، إذن ، يكمن في أننا قد نخفي اللامبالاة العقلية وراء صيغة صارمة ، وبالتالي يغيب عن بالنا الحاجة المستمرة إلى اليقظة النفسية ، والمعنى الحقيقي للولاء والطريقة الحرة للحياة.

كما وقد تكون الصيغة الميكانيكية لقسم الولاء ، لكونها تتحقق من اليقظة الأخلاقية والبحث عن توضيح أخلاقي ، وهي بداية التحكم بالفكر الذي نخشاه جميعاً. فالولاء الحقيقي هو نوع حي ، وديناميكي.

في حين أنه في الاختيار الدقيق بين الولاء للناس والولاء للمبادئ(والذي عادة ما يكون شعورا غامضا) يجب على المشرّع أن يترك الفرد حراً قدر الإمكان ، لأن النوع الأخير من الولاء يعتمد على الأول.

فبدون ولاء شخصي لا يوجد ولاء وطني ، والعكس بالعكس!.

كما لا يزال هناك جانب آخر لهذه المشكلة. وهو أنه يجب أن نتعلم التمييز بين عدم الولاء في الأعمال ، والولاء في المشاعر والفكر.

في حين أن تخريب الرأي لا يعد جريمة. والحق في المعارضة هو حجر الزاوية في الديمقراطية. وفي حالة حرة يجب أن نكون على استعداد لتصحيح التخريب من خلال حججنا الأفضل.

كما أن اضطهاد الأفكار المُعارضة هو شكل من أشكال الكسل العقلي. ومن الناحية النفسية ، لا يمكن للحكومة أن تهتم بدوافعها الواعية(والدوافع اللاواعية التي لا يمكن فصلها عنهم) عن الناس لأن الكل داخلياً ، لديه دوافع متناقضة.

ويتضح المأزق الذي يمكن أن تقدمه مثل هذه الحكومة نفسها من خلال الاقتباس التالي من جلسة استماع"أوبنهايمر" من قبل مجلس"غراي" والذي نشر في عام١٩٥٤.

ولذلك ، فنحن نعتقد بأنه قد تم إثبات أن الحكومة يمكن أن تبحث في

روحها في نفس الفرد الذي تكون علاقته بحكومته محل شك ، ولكن مع الحماية الكاملة لحقوق ومصالح كليهما. كما و نؤمن بأن الولاء والأمن يمكن دراستهما في إطار المبادئ التقليدية وغير القابلة لانتهاك العدالة فينا.

ولكن في هذه العبارات الجميلة ، تختفي كل البدايات المشؤومة للتحكم الشمولي في الفكر. ويمكن للحكومة التي تبحث في روح أي فرد مفكر ، أن تجد دائماً قضية ضده ، لأن الشك والتناقض والتلمّس يتسمان بسمات مشتركة بين جميع الرجال.

ولذلك ، فلا يمكننا قياس اعتمادية أي شخص على أساس أفكاره ومشاعره كما تبدو لنا:

ففي المقام الأول ، لا يمكننا أن نعرف أبداً ما الذي يكمن وراء واجهة تبدو وكأنها موالاة.

وفي المقام الثاني ، فإن الإنسان ، وأثناء بحثه عن الحقيقة ، فإن ذلك سيقوده إلى استكشاف العديد من وجهات النظر الهرطقية ، والتي يمكن أن تكون الأكثر ولاءً في تصرفاته.

وقد يقوده استكشافه إلى الحكم المدروس والذي يكمن وراء الولاء الحقيقي. ولكن ما يهم في أي إنسان كان هو اتساق وأسلوب سلوكه ، وشجاعته في اتخاذ موقف ، وليس مطابقته للعقيدة الرسمية.

ولذلك ، يمكنني القول في هذا السياق ، بأن الحكومة تستطيع البحث عن روحها الخاصة ، ولها أن لا تقول شيئا على الإطلاق.

فالحكومة ، بعد كل شيء ، مجرد مجموعة من الأفراد.

كما أنه ، وتحت ضغط إجبار الولاء ، من خلال الشكوك المتزايدة ، فإن هؤلاء الأفراد أنفسهم ، قد لا يبحثون عن أرواحهم بأمانة كما يفعلون في أوقات أقل من المحمومة ، أو إذا كانوا يتصرفون كأفراد خاصين بدلا من كممثلين رسميين للحكومة.

فالرجل الذي تم ضبطه في القواعد الأمنية الرسمية هو أسير القلق وانعدام الأمن المتفشي في أولئك الذين يريدون إثبات وهم اليقين والأمن-وهو انتهاك للقيم!

في حين أنه ، وبمجرد أن تبدأ الحكومة في البحث عن أرواح مواطنيها ، فإنها تبدأ في التطفل على حقوقهم ومصالحهم. وحيث إنها ستهاجم الديمقراطية من الداخل ، كما وستضعف موقفها في الخارج.

ولذلك ، لا يمكننا أن نجد الطريق إلى السلام والزمالة مع بقية العالم إذا تبنينا مواقف متعصبة ، ومتصلبة ،ومحاولة فرض عقيدتنا على الآخرين.

وفي الوقائع ، فإن السمة المميزة للشمولية الاستبدادية هي إصرارها على أنه الطريق الصحيح ، والوحيد.

فإذا أردنا الحفاظ على موقعنا كزعيم للعالم الحر ، يجب علينا دائماً أن نبقي عقولنا مفتوحة.

وبهذه الطريقة فقط سنجد طرقاً جديدا للسلام.

كما وقد رأينا الآن أن مشكلة الغدر يجب أن تتعامل مع الفشل في فهم عملياتنا العقلية الداخلية. ولذلك ، فإن كل خيانة هي في المقام الأول خيانة للذات ، وخيانة تجاه المعايير الخاصة بها.

وكذلك ، فعندما يُسكت الناس ضمائرهم ، ويتنازلوا من أجل الراحة ، فإنه ، وفي تلك اللحظة سيبدؤون بتصرفات عدم ولائهم لأنفسهم.

كما ان السلبية-والتي يفترض أن يضطر ضمائرنا إلى القيام بها-هي أكثر أشكال"خيانة الذات" شيوعاً. وداخليا قد يكون رجل ما غاضبا بسبب أن البعض قد ظل ظالماً ، ولكنه ظاهرياً ، قد لا يفعل شيئاً حيال ذلك ، وبالتالي فإن هذا السلوك الذي يشعر به داخلياً هو"خيانة الذات" وغالباً ما يجعله ذلك شديد الحساسية تجاه عيوب الآخرين.

كما انه ، وعندما يتكرر نمط السلبية ، يكرس الفرد ، وباستمرار ، المزيد من

مشاعر الظلم ، وينمو أكثر وأكثر استياء ضد المجتمع.

فالتهرب والمراوغة الماهرة للقضايا المبدئية-هذه هي من بين أخطر أشكال خيانة الذات في عصرنا. فهي خطيرة لأنها تؤدي ، وعن غير قصد ، إلى النفاق الذي يضع القوة إلى ما وراء القيمة الأخلاقية.

وهكذا ، فإنه ، ومن الخطورة بمكان أن ندع الضغائن الشخصية والسخط ، يتوطد في استياء دائم ضد المجتمع بأسره.

كما ويمكن للوالدين والمعلمين أن يحبطوا مثل هذه الصعوبات من خلال البصيرة النفسية ، وذلك من خلال السماح لكل فرد بحرية انتقاد ومهاجمة-بطريقة حضارية وغير تدميرية-المجتمع الذي ينتمي إليه.

وكذلك من خلال المساعدة في تنمية الطفل ، حيث يشعر بأنه مسؤول عن وجهات نظره الخاصة ، والتي قد تكون مدمرة ، على الرغم من أنها قد تظهر بشكل مؤقت ، فإن الآباء يوفرون له فرصة للتغلب على مشاعره بالوحدة والتناقض ورغبته في القيام بأعمال عنف تجاه من يؤثرون عليه.

ومرة أخرى ، فإن الولاء هي عبارة عن علاقة-في حين يجب أن يستحق الولاء للعائلة ، أو الأصدقاء ، أو البلد. ولكن يمكن الوفاء بالولاء فقد إذا سمح العدوان العقلي المتبادل بالتغاضي عنه في حدود القانون. وبالتالي فإن هذا النوع من الاعتداءات اللفظية ، المتساهلة ، والمتحضرة ، يفترض بها ، مسبقا ، النزاهة والروح الرياضية الجيدة. والابتعاد عن توليفة وغزو التمرد والتخريب.

ومع ذلك ، فقد يبدو الأمر متناقضاً ، فالديمقراطية تقوم على الولاء المتبادل للمجموعات المعارضة سياسياً!.

ولذلك ، لا يمكن الشك في الدوافع والنوايا الحسنة لخصمك ، ودون تفويض أساس التعاون والحكومة الناجحة.

ولذلك ، فإنه لأمر غير ديمقراطي أكثر ، أن نعلن عدم الولاء لحزب المعارضة.

ولذلك ، وكما يبين التاريخ ، فإنه فقط عندما تكون هناك فرصة لمواجهة

ودمج الأفكار المعارضة ، يمكن للإنسان القضاء على هذا الشكل من عدم التوازن النفسي ، والذي يتحول تدريجياً ، إلى خيانة للذات ، وللمجتمع ككل.

كما أن الخوف من التخريب والمعارضة ، غالباً ما يكون خوفاً من الأفكار ، والخوف من أن يتم التعرف عليه مع بعض الأفكار غير المقبولة ، والخوف من خيانة الجزء الخفي من النفس.

وذلك لأن الخوف من الخيانة ، موجود دائما ، وطالما يُنظر إلى المعارضة الموالية على أساس أنها جريمة.

كما أن الديمقراطية تقوم على عدم التوافق ؛ فهي الولاء المتبادل ، وحتى عندما نضطر إلى مهاجمة أفكار بعضنا البعض ، وذلك لأنه طالما أن الأفكار تكون دائماً بشرية ، فإنه غالبا ما تكون غير مكتملة.

الجزء الرابع

في البحث عن الدفاعات

في اللحظة التي نصبح من خلالها على دراية ، بأن الظواهر السياسية الخاصة تشكل تهديداً لوجودنا ، فإننا نهبّ لنضع دفاعاتنا الداخلية بشكل تلقائي.

ولذلك ، فقد نشعر بتأكيد وترسيخ الأمان عندما نكتشف طرقا جديدة لمواجهة المشاكل.

ولذلك ، سوف تناقش الفصول المقابلة في هذا الكتاب تأكيد الأمان أولاً ، ومع بعض المواقف الرسمية ، ومع الشفرة التي تم اتخاذها لمواجهة الصدامات الناجمة عن غسيل الأدمغة "التجفيف" وهو خطر قد ظهر مؤخراً في التاريخ. في حين أن الفصل الأخير سيبحث ، وبشكل عملي أكثر ، عن القيم الملهمة ، والتي تحدد الحرية والديموقراطية. فالسؤال حول كيفية البناء العسكري ، والمدني على حد سواء ، يصبح أكثر تعقيداً بسبب الضغوط النفسية الزاحفة والتي تفرضها الحضارة الحديثة على الإنسان.

الفصل الخامس عشر

التدريب ضد التعذيب العقلي

الكود الأمريكي لمقاومة غسيل الأدمغة

بموجب الأمر التنفيذي الذي أصدره الرئيس الأمريكي "أيزنهاور Eisenhower" في السابع عشر من شهر آب/أغسطس من عام ١٩٥٥ فقد تم تشكيل قانون جديد من الأوامر الفروسية ، والتي تحكم سلوك رجال القتال الأمريكيين ، في القتال والأسر. وحيث صدرت ستة مبادئ لسلوك المقاتلين وهي:

١-أنا رجل قتال أمريكي.

٢-أنا أخدم في القوات التي تحرس بلدي ، وطريقتنا في الحياة.

٣-أنا على استعداد لأهب حياتي في الدفاع عن بلدي.

٤-أنا لن استسلم أبداً بإرادتي الحرة.

٥-أنا ، وإذا كنت في مركز القيادة ، لن أسلم أبداً رجالنا بينما لا يزال لديهم الوسائل للمقاومة. وإذا تم القبض علي ، فسوف أستمر في المقاومة ، وبكل الوسائل المتاحة. وسأبذل كل جهد للهروب ومساعدة الآخرين على الفرار.

٦-أنا لن أرضى بأي إفراج مشروط ، ولا خصومات خاصة من العدو. وإذا أصبحت أسير حرب ، فسأظل على ثقة متبادلة مع زملائي السجناء. ولن أقدم أية معلومات ، أو شارك في أي عمل قد يكون ضاراً لرفاقي. وإذا كنت ضابطا كبيراً ، فسوف أتولى القيادة. وإذا لم يكن الأمر كذلك ، فسأطيع الأوامر القانونية لأولئك الذين يعينونني ، وسأؤيدهم بكل الطرق. وعندما يتم سؤالي ، حين أقع في

الأسر ، وأصبح أسير حرب ، بأنا ملزم بإعطاء الاسم والرتبة ، ورقم الخدمة ، وتاريخ الميلاد فقط. وسوف أتهرب من الإجابة على أية أسئلة إضافية ، وإلى أقصى حد ممكن. ولن أدلي بأية بيانات سواء كانت شفهية أو كتابية ، ولن أخون بلدي وحلفائها ، أو أن أسبب الضرر لقضياهم. ولن أنسى أبداً أنني رجل قتالي أمريكي ، ومسؤول عن أفعالي ، وأن أكرس كافة المبادئ التي جعلت بلدي حرا ، ومستقلا. وسأثق في ربي ، وفي الولايات المتحدة الأمريكية.

[التقرير الكامل منشور في صحيفة نيويورك تايمز ، عدد الثامن عشر من شهر آب/أغسطس لعام١٩٥٥.]

وفي التقرير الإضافي عن توصيات وزير الدفاع ، فمن المسلّم به ، أن الحرب الحديثة قد جلبت التحدي إلى عتبة كل مواطن أمريكي ، وأن الجبهة الأخيرة لخط الحرب الباردة قد عششت في ذهن كل مواطن. وفي الوقت نفسه ، تم توزيع منشورات مدونة ، ومحددة بوضوح ، لأسرى الحرب الأمريكيين المحتملين ، حول كيفية التصرف بعد القبض عليهم.

وعلى الرغم من عدم وجود مثل هذه المدونة في السابق ،إلا أن التقرير يذكر أن:

"لقد أثبتت القوات الأمريكية من خلال جميع الحروب ، من أنها لا تستسلم بسهولة ، ولم تستسلم أبداً إذا ما استطاعت ذلك ، ولو تكومت جثث الشهداء فوق بعضها البعض. وهكذا ، فقد أدت القوات الأمريكية ، بمختلف قواتها ، بشكل عام ، استبسالا واضحا ، وأداء مثيراً للإعجاب فيما يتعلق بقضايا بلادها ، وبأسرى الحرب على حد سواء". فبعد وصف الاعتداءات الجسدية على السجناء-ومسيرات الموت ، والجوع ، والبؤس ، والتعذيب ، والمرض ، والتدهور الكلي-يعطي التقرير اهتماماً موسعاً لجميع أشكال الإكراه العقلي ، والذي يهدف إلى انتزاع اعترافات كاذبة ، أو معلومات عسكرية من الجنود ، وإلى الذين خضعوا للتحقيقات التي تتسم بالتفكير الاستبدادي.

فأولاً ، كان العدو يهدف إلى انهيار الزعماء ، وإلى إرباك الضباط الذين

يؤثرون بسهولة على جنودهم. ثم كان الجميع ، تدريجيأن يقادون إلى الخضوع لهذه المحنة عن طريق التلقين.

وكان قد بدأ وابل الدعاية الخاص بالعدو ، وبأقصى سرعة. وقد وصل هذا الهجوم الإيحائي بالعقول غير المستخدمة للمناقشة المتخصصة للغاية ،الى حدود بعيدة ، حيث أن تلك العقول لم تكن على دراية بما سيجري ، وكانت مربكة إلى حد ما ، حول الشيوعية وتكتيكاتها.

وهكذا ، فإن التناقضات الداخلية في تفكير الانسان يمكن أن تتعرض بسهولة للهجوم ، الأمر الذي سيقلل من قدرته على الانصياع.

كما ويدافع التقرير عن المزيد من التدريب الماهر ، والمفيد للجندي(والمواطن) في معتقداتنا ومسؤولياتنا الأساسية ، والتعبئة العقلية للصدام المستقبلي بما يتعلق من ناحية "الأفكار" و"الوصايا" سواء بسواء.

بيد أنه كان هناك تضارب كبير في الرأي حول الاستشارات الناجمة عن التقرير ككل. فلجنة وزارة الدفاع التي صاغت المدونة الخاصة بأسرى الحرب ، كانت تتسم بالنظرة المتقدة ، والصارمة ، ووجهات النظر المتساهلة. كما وأكدت المجموعة الأولى أن على كل جندي أن يقاوم حتى النهاية ؛ يعتقد الأخير بأنه في النهاية ، يمكن إحضار أي شخص كان إلى حالة الخضوع.

ولكن ، ومع ذلك ، يجب تدريب جميع الجنود ، ولا سيما على المقاومة إلى أقصى حد ممكن ، وعدم الإخلال بأمن بلدهم ، وخدماتهم ، ورفاقهم.

وقد كان هذا هو السبب الرئيسي لماذا تم إعداد هذا الكود النهائي(الشيفرة) للمعايير العالية ، وعلى الرغم من أنه من المعترف به ، أن الإكراه العقلي ، وكذلك الجسدي ، قد يكون ممكنا ، وإلى أبعد من القدرة على المقاومة.

ولكن ، ومع ذلك يضيف علم النفس هنا السؤال الإضافي وهو:

من الذي سيحكم على ما هو أبعد من القدرة على مقاومة الجندي حين يقع في الأسر؟

وينتهي التقرير بالتأكيد على أن الحرب الشاملة على عقول الرجال، مستمرة، ولن تنتهي، أن تقف عند حد معين. لأنها ستكون في حالة استمرار. فالجبهة الداخلية هي مجرد امتداد لجبهة القتال!

كما أن من النقاط المهمة التي حددتها المدونة، هي أنها تطالب بالتركيز على جبهة معارك، وبشكل أكثر شمولية بكثير.

ومن خلال جعل أن الأساليب القسرية للشيوعيين، معروفة، ومفهومة جيداً من قبلنا، ولذلك فإن تأثير واستراتيجية حربهم الباردة ضدنا، قد أخذ جزءاً من فحوى المدونة.

وأخيراً، لا أحد في العالم الخارجي يصدقها، على الرغم من أن أساليبهم الشمولية، قد تكون مفيدة لهم، ولكن في الدعاية الداخلية في بلدانهم فقط.

ومع ذلك، لا يمكننا محاربة التلقين بمجرد التلقين المعادي.

كما إن السماح للجنود بالتوقيع على إعلان بأنهم لن يذعنوا أبدا لغسيل المخ، لها ميزة -على الأقل- في إعلامهم وبما يمكن توقعه.

ولكن هذه المعرفة قد لا تحميهم من التكييف الخفيف من قبل محقق لئيم، وخبير، ويعرف كيف يتحايل على العقبات العقلية.

كما أن الوقت والاختراق الإيحائي الدقيق، يمكن أن يكسر مقاومة الرجال في يقعون فريسة أقفاص ومعسكرات الأسر.

ومن الناحية النفسية، لا يعني إجبار قسم الولاء، أو حتى الإعلان الموقّع، أي شيء في حد ذاته.

ولذلك، فإن التعليم العميق فقط، حول الحرية العقلية والوعي الديمقراطي، يمكن أن يساعد كإجراء مضاد.

في الوقت الذي تطالب فيه السلطات إقرارات موقّعة على الولاء، فإن ذلك لا تكفي لإدراك مدى استمرار الدعاية والإقناع المقنع، وغير ذلك من أشكال الإغواء الذهني في مجتمعنا.

فهم يفرضون المسؤولية الاجتماعية والوطنية عن الفرد. في حين يبقى الجو الأخلاقي والسياسي ، هو ما يقف في مساندة الإنسان في المناطق الداخلية التي تزوده بالقدرة العقلية.

فالأمة مسؤولة عن العمود الفقري العقلي الذي تدربه ، ومن ثم تنقله إلى جنودها في الحرب الباردة!.

ولذلك ، فقد شعر العديد من السجناء الأسرى في معسكرات الاعتقال ، وغرف التحقيق ، بنوع من التضليل الذي مارسته عليهم حكومتهم.

فقد كانوا على اطلاع شديد بالعدو ، وبعبارات بسيطة للغاية ، ولكنها كانت إما ذات اللون الأسود ، أو الأبيض فقط. ومن خلال إظهار الجانب الجيد ، يمكن أن يثير الخاطف الشك ، وبسهولة ، حول نزاهة قادة السجين.

ولكن ، ومن وجهة نظر الطب النفسي ، فلا بد من القول ، مرة أخرى ، فإنه يمكن إحضار الجميع إلى نقطة الانهيار وبغض النظر عن مدى معرفته ، ومقاومته ، أو بما قد يتوقعه من أساليب التحقيق لدى العدو.

فعندما يريد العدو أن يستمر في أساليبه المعنوية ، فلن يعجز الوسيلة في تحقيق ذلك.

وللأسف ، لم يبرز التقرير ما يكفي من معضلة الجدلية الصعبة التي قد يتعرض لها العديد من الجنود البسطاء.

والذين كانوا قد تدربوا ، ولسنوات ، في مجتمع ، أو مجموعة عسكرية محدودة ، حيث طبعت في أذهانهم طاعة القانون ، والتوافق مع عادات المجتمع.

وهنا ، وحين يقع ذلك النوع من الجنود في جحيم الأسر ، فسيجد نفسه فجأة ، أمام واقع جديد ومختلف ، وبأن عليه أن يخضع لاختيار تلو اختبار ، حول شخصيته الخاصة ، وحول الدفاعات النقدية التي يمكن له أن يظهرها أثناء التحقيق معه في غرف الاستجواب ، وخاصة حين تكون تلك الغرف مجهزة بوسائل تعذيب مختلفة ، والتي قد تدبّ الذعر في قلبه ، وعقله في آن واحد.

ولذلك ، فإن الحرب الباردة تتطلب مستوى عال من الوعي السياسي.

وهذا يعيد المشكلة ، مرة أخرى ، إلى مشكلة ضعف الأشخاص العقلي الفردي ، والمشكلة العامة للمعنويات.

فالشجاعة العقلية لا يمكن زراعتها عن طريق التدريب البدني فقط. كما أن التدريب على القدرة على التحمل الذهني ، قد يتطلب فهم المعتقدات الأساسية ، وحتى في التفكير غير المطلق.

وبالتالي ، علينا أن نؤمن ، وبعمق ، بالسبب الذي نقاتل من أجله ، ومن أجل الصمود في المقاومة أما وجهة نظر العدو ، وأساليب التحقيق في غرف التعذيب. إنها قوة الإقناع ، والاقتناع ، والتي تمنح القوة الأخلاقية!

التلقين ضد التلقين

يوجد مفهوم تعليمي مؤداه أن تكييف التعذيب الجسدي سيساعد الجنود على أن يكونوا أكثر حصانة من غسيل الدماغ. ففي إحدى قواعد القوات الجوية ، كان على طيارين المرور عبر"مدرسة للتعذيب" ، وكان يطلق عليها اسم "مدرسة البقاء" حيث شيع بأنه كانت قد بدأت بعض الطرق وأساليب التعذيب الشيوعية الهمجية والقاسية ، في التعامل مع السجناء ، وذلك من أجل تشديد نظرة الرجال ضد المستقبل. وكانت تلك الأساليب وحشية.

[مجلة التايمز عدد التاسع عشر من شهر أيلول/سبتمبر من عام١٩٥٥.] وحيث كان على المتدربين التدرب على قدرة التحمل لمواجهة أساليب تحقيق ذلك الغول الشيوعي. وقد أبلى الجنود الخاضعين للتدريب بلاء حسنا إلى حد ما.

بيد أنه ، ومع ذلك ، فإن مثل هذا التدريب يمكن أن يشرح للرجال كيفية مواجهة ، ودون قصد ، أساليب الشمولية الاستبدادية.

وقد يعطي ذلك الضوء الأخضر ، شبه الرسمي ، لتكتيكات العدو ، ومن خلال الإشارة إلى أنه يمكننا فعل الشيء نفسه.

وعلاوة على ذلك ، فإن مثل هذه الأساليب قد تحفز الميول السادية المخفية لدى كل من المدرب والمتدرب على حد سواء.

فتحت قناع الحاجة التدريبية الجادة ، قد يتم تعليم الشباب الأمريكي ، نفس الرؤية السادية التي يمارسها أعداءهم. كما إن التأثير النفسي الهام لكل شكل من أشكال التدريب القهري والتلقين القاسي ، هو أنه لا بد له من أن يتناسب مع النمط الشمولي الاستبدادي.

وبالإضافة إلى ذلك ، لا يحتاج المحققون الاستبداديون إلى استخدام التعذيب الجسدي من أجل كشف أسرار عقل الإنسان ، على الرغم من أنهم قد يستخدمون هذه الأساليب لمتعهم الخاصة.

وعلى العكس من ذلك ، فقد استعد العدو بنفس القدر ، ولذلك فقد أعدّ الإيماءات الودية ، والامتيازات الخاصة ، والملائمة لإغواء الجوع ، وضعف أحوال السجناء الأسرى في معسكرات الاعتقال ، وغرف التعذيب ، لانتزاع الاعتراف ، وبأقل قدر من الجهد المبذول.

وفي المقابل ، فإن ما يطلبه المحققون بشكل خاص ، لكي ينجحوا في انتزاع الاعترافات المنشودة ، هو أن يكون للعدو شخصية ضعيفة ، وأن يكون هشا على الصعيد النفسي ، والاستغناء عن حاجة الجندي إلى الالتزام العسكري و الوطني ، ولأنه يعاني من القلق ، ويفتقر إلى الصبر.

فالمحقق المتخصص بغسيل المخ ، لا يحتاج لتعذيب سجنائه.

كما إن التعذيب الجسدي غالباً ما يقوي المقاومة ضد المحقق ، بينما تكفي العزلة وحدها للمحقق لتحقيق أهدافه.

ولذلك ، يمكن للمدرسة التي تعلّم فقط أساليب التعذيب النفسي ، والتهرب من أن تثير القلق الكامن ، وبالتالي ، فإنه من المفارقات ، أن ذلك يسهل على الجندي-الذي أضعفته توقعاته الرائعة-الاستسلام لغسيل المخ.

كما يمكن أن يصبح البطل في مدرسة التدريب على مقاومة التعذيب في

الأسر ، ضعيفاً ، وهشا ، وبمجرد أن يواجه التحدي الحقيقي.

ليس من المهم جداً ما ينجزه المتدرب خلال تدريبه البدني ، ولكن ما يقف في وجهه عقلياً وروحياً. هل لديه العمود الفقري العقلية؟ هذا وحده سيضعه في وضع جيد خلال تحدي السجناء.

تقرير نفسي حول غسيل الأدمغة وتشويه العقول

في كل تقرير عن غسل أدمغة أسرى الحرب ، يجب أخذ العديد من العوامل ، والتي قد تؤدي إلى اتهام"التعاون مع العدو" وفي الاعتبار لتحديد المسؤولية النفسية للمتهم.

فهل استسلم ، على سبيل المثال ، ذهنيا تحت نوع من التنويم المغناطيسي؟.

وهل يمكن أن يكون مسؤولا ، على الإطلاق ، عما تعرض له ، وعما انتزع منه من معلومات؟.

وهل كان هناك تعاون واعي ، وطوعي ، والذي حوّل الجندي السجين إلى خائن؟.

وهل كان هناك جبُن ، أم ضعف روحي فقط؟

ولذلك ، ونظراً لأن هذه الأسئلة تعتبر جديدة جداً في تاريخنا ، وغالباً ما تكون خفية جداً في ما يتعلق بالظروف ، فإنه من الجيد أن نعدد المجالات التي يجب تحليلها:

الاتهام: إذ يجب على الطبيب النفسي أن يدرس حقائق التجريم. والدوافع الجرمية ، ولأنه كثيرا ما نرى ، على سبيل المثال ، في صياغة اعترافات موقعة ، بعض الأدلة على أن التوقيع كان مفروضا فرضا ، وبشكل قسري. كما ويمكن النظر إلى بعض العبارات المبتذلة للعدو ، وعلى أنها متدرجة تدريجياً ، في رأس الضحية.

فبالنسبة لأحد المحاكم ، فقد تمكنت من إجراء تحليل للاعتراف الكتابي ،

والذي كان يتألف من عناصر غير متجانسة يمكن من خلالها تمييز عملية المصارعة العقلية ، والإعطاء التدريجي للسجناء في الصحف.

الشائعات وعلم النفس الجماعي: إذ ليست كل الاتهامات تكون ضد أسير الحرب من قبل زملائه السجناء-حتى عندما تتكرر الأغلبية باستمرار-بل ويمكن أخذها في ظاهرها.

فتحت تأثير الإرهاب والخوف ، يتم التواصل ، وبسهولة ، مع الشائعات حول الأشخاص ذوي الخصوصية.

كما أن هناك شخصيات ، وعلى أساس هيكلها الخاص ، تصبح ، وبسهولة ، النقطة المحورية للشائعات.

فالمثقف المسلوب ، على سبيل المثال ، غالباً ما يُتهم بالتواطؤ مع العدو. وعندما يتحدث بلغة العدو ، ويمكنه التواصل معهم ، يمكن أن تصبح الاتهامات ضده شبيهة بهلوسات ضخمة.

وبالتالي ، يتعين على الباحث ، إجراء مسح لعلاقات المجموعة ضمن معسكرا الأسر ، ومعتقلات التحقيق العسكري.

ولذلك ، فإن العدو الذي يمارس غسيل الأدمغة ، سيبدأ أولا بمهاجمة أدمغة القادة ، وذلك من أجل مهاجمة الروح المعنوية لبقية أفراد أسرى معسكر المعتقلات. ومن ثم يحاول اختيار الشخصيات الضعيفة ، وبشكل خاص لتنفيذ استراتيجيته فيما يتعلق بالضغط النفسي ، والتحوّل الأيديولوجي.

هيكل شخصية المتهم: بعض الأشخاص ، وعلى أساس من ضعف "الأنا" الذاتية في شخصياتهم ، أو قلقهم العصبي الكامن ، مقدرون سلفا ، لأن يكونوا مطواعين أكثر من غيرهم ، لأنهم ، وفي وقت سابق ، قد كانوا عرضة إلى الضغوط النفسية.

وبالتالي ، ومن أجل الحصول على تقدير عادل للفرد ، يجب تقديم اختبارات الذكاء ، واختبار الخلفية العائلية والدينية والإيديولوجية. ولذلك يجب دراسة

أسس التكوين النفسي ، والاجتماعي لكل شخص.

ولكن هل تم تدريب الدماغ بشكل جيد للعلاج؟.

وما نوع المعلومات التي أعطيت لأسير الحرب أثناء تدريبه؟.

وهل كان يعرف ما يكفي عن الحرب الأيديولوجية ، وعن تأثير الكلمة التي قد يتعرض لها؟.

وهل كان مستعداً فقط للانضباط والتقديم ، أو أيضاً للحرية ومناقشات الخلاف ، وعدم التوافق؟.

وهل تم تدريبه جسدياً ، أو عقلياً فقط؟

حقائق التعذيب: كم من الوقت استغرق قبل أن يستسلم السجين الأسير؟.

وهل تم تعريضه لحقن المخدرات كي يعترف؟. وكم أمضى في السجن الانفرادي؟ وكم كانت مدة العزلة؟.

كم ساعة خضع فيها للاستجواب؟.

وهل كانت هناك أعراض الألم ، والمرض الجسدي؟.

وهل يمكن التحقق من هذه الحقائق؟.

إن ما ذكرته هنا ، ليس سوى مسح قصير من وجهات النظر التي يتعين مراعاتها. فهي تعمل على إظهار أنه مع ظاهرة غسل الأدمغة المنهجية ومراقبة الفكر ، يتم تقديم شيء ما أمام المحكمة الجديدة قضائياً.

ولذلك ، فلا يمكن تطبيق المواقف التقليدية تجاه الكفاءة الشخصية والمسؤولية والمساءلة.

وهكذا ، فإن الدولة(النظام الشمولي الاستبدادي للعدو) وفي حالة أتمت غسيل دماغ ناجح ، فستكون قد سيطرت ، بل وامتلكت ، كل المسؤولية النفسية عن أفعال الأشخاص المطيعة.

ولذلك ، سيتعين على محاكمنا الجنائية ومحاكمنا العسكرية إيجاد قواعد جديدة للحكم على أولئك الذين يقعون في قبضة نظام التجريم هذا.

الفصل السادس عشر

التربية من أجل الانضباط
أو المعنويات العليا

دور التعليم

تخضع سنوات تكوين الطفل لإشراف أولياء الأمور، ومن ثم المعلمين؛ والذين معا، يؤثرون على سلوكه في المستقبل.

وهكذا، فإنه يمكن للنظام التعليمي إما أن يعزز، أو أن يصحح الأخطاء والمواقف الأبوية، وإما تعزيز رغبة الطفل في النمو نحو الحرية، والنضج، أو خنق حاجته لتطويرها، وتحويلها إلى ضرورة الاستسلام، ومن ثم إلى البقاء ضمن حالة الطفولة الدائمة، والاعتماد على الآخرين.

وفي هذا السياق، فإنه، وفمنذ عصر النهضة، حقق المثل الأعلى للتدريب العالمي على مكاسب ثابتة.

ولكننا اليوم، نميل، وعن غير قصد، إلى قولبة العقول ضمن نمط مسبق الصنع، وإعطاء طلابنا وهم أنهم يعرفون، أو على علم بكل الإجابات.

ولذلك، فإن مغالطة هذا التعليم النصفي، هو أن ما يسمى "الأبجدية"- على النقيض من أولئك الذين لا يستطيعون القراءة-قد يصبحون أتباعاً أفضل، ومفكرين أسوأ.

فالشموليون، على سبيل المثال، ليسوا ضد المدارس. بل على العكس من ذلك، فكلما زاد إثقال الذهن بالحقائق، كلما أصبح أكثر سلبية.

كما إن المعرفة الفكرية والتعلم الكتابي وحده ، لا تخلق شخصيات قوية ، كم أنه في شغفنا بالتعليم الواقعي ، ونوع الاختبار هناك ، يكمن نوع من الضغط النفسي.

فالرهبة التي نعتبرها تراكم الحقائق المدرسية ، قد تمنع العقل ، حتى كي لا يفكر في نفسه.

ولذلك ، يجب أن نكون أكثر وعياً بالضغوط غير الطوعية ، والتي يمكن أن يفرضها نظام التعليم علينا ، وآثارها الخطيرة المحتملة على مستقبل مجتمعنا الديمقراطي.

كما أن الاستراتيجية الفعلية لإبقاء الناس كطلاب دراسة دائمين ، وتحت إشراف طويل ، هي مساعدة على التلقين الشمولي الاستبدادي.

فعلى سبيل المثال ، في مكان ما ، وعلى طول الخط ، في بعض العقول الإدارية ، فقد نشأت فكرة أن الفحوصات المتكررة ، والمتماثلة ، ستزيد من جودة فيلق الإداريين. ولكنه ، وبدلا من ذلك ، فقد تطورت المخاوف الطفولية والمتعلقة بالخوف من هذه الأداة الطفلية للقياس والتقييم: ألا وهي الفحص.

إذ لا يوجد الآن أي مسؤول يتجرأ على النظر إلى الواقع ، باعتباره أفضل اختبار للقدرات البشرية والتحمل البشري.

في حين إن شكل التعليم ، هو الذي يضع قسطاً من الاعتماد على التبعية ، والذي يفرط في السيطرة على الطفل ، الأمر الذي يجعل النداء الأخلاقي يكون من خلال العقاب ، بل ويثير شعوراً بالذنب ، والذي يفوق المهارات الميكانيكية والتعلم التلقائي ، وهذا الشكل من التعليم ، يعجن الدماغ في نمط من المطابقة ، والتي يمكن ، وبسهولة ، أن تتحول إلى قنوات شمولية استبدادية.

كما أن هذا هو الحال أكثر ، فيما يتعلق بالتدريب التأديبي للجنود. ولأن مثل هذا التعليم الجامد ، إنما يمجّد السلوك الجيد أكثر من اللازم. وحيث تتم الموافقة على التقليد والتوافق ، على حساب الإبداع التلقائي والتفكير في الذات والتعبير

الحر ، ومناقشة الأفكار المعارضة.

وبالإضافة إلى ذلك ، يُجبر هوس الفحص لدينا الطلاب على الوصول إلى المسارات الذهنية للتفكير التلقائي.

كما يفسر تعليمنا الفكري ، ما يسمى بالتربية العقلانية والدراية التقنية ، في ظل الوهم بأن هذا سيبقي الأخطاء العاطفية تحت السيطرة.

ولكن ما يفعله ، بالطبع ، هو تدريب الأطفال على الأنماط التلقائية للتفكير ، والتمثيل ، والتي هي أقرب إلى نمط المنعكسات المشروطة ، وحيث يكون طلاب تجارب العالم "بافلوف" مغرمين بها ، أكثر من نمطهم الحر الاستكشافي والإبداعي ، نحو التعليم الديمقراطي الذي يجب أن يكون موجهاً.

تدرك الشمولية تماماً ، أن لدى الشباب فترة حساسة ، والتي يمكن من خلالها تأسيس تكييف نظريات "بافلوف" ودون صعوبة.

وبالتالي ، تشكل التعاليم المبكرة أنماطاً لا يمكن تدميرها تقريباً في ذهن الطفل ، والتي تحل في نهاية المطاف ، محل الدقة الغريزية الفطرية.

كما أن هذا الأوتوماتيكية المبكرة للحياة في تجارب العالم"بافلوف" قد تطوِّر بحد ذاتها قوة غريزة فطرية.

وفي الواقع ، فإن هذا هو بالضبط ما يحدث في الانظمة الاستبدادية ، وحيث ينظم الدكتاتوريون ، وبشكل خاص ، الشباب ، بل ويضغطون عليهم للانضمام إلى حركات الشباب التأديبية.

كما إن مفارقة محو الأمية الشاملة ، هي أنها قد تخلق سباقاً من الرجال والنساء ، والذين أصبحوا(فقط بسبب هذا النهج الفكري الجديد في الحياة) أكثر تقبلاً لتلقين معلميهم ، أو قادتهم.

فهل نحتاج إلى اتباع التكييف المشروط ، أو إلى طلاب فكريين؟.

وعلاوة على ذلك ، فقد اكتسبت وسائلنا التقنية وسائط للتواصل من أجل محو الأمية لدينا.

فحيث تقع العين ، وتكتشف أمرا ما ، فإنها ستكون قادرة على قراءتها على الفور ، وذلك عن طريق الإعلان ، والدعاية.

نعم. هذه هي المعضلة الهائلة لعصرنا. ففي العديد من مدارسنا الابتدائية ، يتم تعليم الطلاب في جو من الانضباط القهري ، ويتم طبعهم بشعور من التبعية ، ورهبة السلطة ، والتي ستدوم طوال حياتهم.

إنهم لا يتعلمون أبداً التفكير في أنفسهم. فالمصانع المدرسية ، والمدارس ، تجعل الكثير من التلاميذ مشغولين في التفكير ؛ يمكنهم بدلا من ذلك تثقيفهم حول عدم النضج التدريجي.

وطالما يمكن للناس الاقتباس من بعضهم البعض ، والرأي"الخبير" المتوفر ، فهم يعتبرون مطلعين ومثقفين.

كما وتؤكد العديد من المدارس ما يمكن أن نسميه بهوس الاقتباس ، مما يجعل القدرة على ذكر مثال لكل حكمة.

ومع ذلك ، فإن أي شخص الذي لديه منطق ، لا يمكن تحمله على ما يبدو ، في حين أن أي شخص يمكنه دعم موقفه من خلال بيانات وعروض اقتباس موثوقة ، بل ويمكن أن يكون له تأثير قوي على مثل هذا العقل ، لأنه يمكن ضبطه وتهيئته بسهولة.

كما أن التيارات الفكرية الزائفة والعاطفية ، تعتبر جذابة عاطفيا. وفي واقع الأمر ، ففي عملية غسل دماغ السجين ، فإن المحقق يستغل الإحساس بالارتباك الذي يحدث مع ضحيته عندما يظهر أن وقائعه لا تلائم ، وأن هناك بعض العيوب في مفاهيمه. ولذلك ، فإن الرجل الذي لا يعرف خدع الحجة ، سوف ينكسر ، وعاجلاً. وفي هذا السياق ، فأنا أحب التمييز بين المتعلمين ، وبين المثقفين ، وبين المثاقفين.

حيث يهدف الأول إلى الحصول على كمية من المعرفة ، وسهولة المعلومات لأي نوع من التكييف الجديد.

أما بالنسبة إلى المفكرين ، من ناحية أخرى ، فإن الذكاء هو نوع من السلامة الشخصية. إذ لا يتم استهلاك الحقائق بشكل سلبي ، ولكن يتم موازنتها والتحقق منها. وهذا النوع من المفكرين ، لديهم إمكانات مستقلة عن التعليم المدرسي ، وفي كثير من الأحيان يمكن أن تفسد المدرسة ذلك.

وقد كانت إحدى تلك الحالات مذهلة ، وبشكل لا يكاد يصدق. ولم يسبق لي أن تعاملت ، وأي وقت مضى ، مع حالة شبيهة بتلك الحالة للمفكر النموذجي ، والذي كان طبيب علم النفس ، في منظمة الصحة العالمية ، والذي كان قد أنهى للتو تعليمه الجامعي ، ومع أطروحة تخرج حول موضوع "تقنية العقل".

وقد كان جاء لي شاكيا من أنه كان يعاني فشلا ذريعا في جميع علاقاته مع الفتيات. وقال بأنه يريد أن يجد علاجا طبيا لهذا"العجز الجنسي" وقد رفض ، في البداية ، أي نوع من أنواع العلاج النفسي لأنه "يعرف الكثير حول كل تلك الاشياء." وفي سياق حديثنا ، فقد أصبح واضحا لي أن تعليمه الدراسي بأكمله قد تجاوزه. وبأن كان ما قد حصل عليه ، كان مدرسيا ، وضمن ما في المدرسة ، ولكن جوهر ما درسه ، قد استعصى عليه.

كما كان يدرك ذلك حرفيا ، ومع شيء عن علم النفس.

فقد كان يحفظ كل شيء ، ولكنه لم يكن يفهم شيئا. بل يمكنه أن يقتبس من كل صفحة من الكتاب ، ولكن لا يفسرها.

وفي كل مرة كان عليه أن يقوم بإجراء اختبار ، أو تقديم المشورة العملية ، كان يصاب بحالة من الذعر. ولذلك ، فقد استغرق الأمر سنوات من العلاج لاختراق العادات الجامدة ، والقهرية ، ولكي تجلبه إلى نقطة ، حيث يكو ن قادرا على التفكير ، وليشعر بأنه إنسان بدلا من كونه مجرد آلة.

وهكذا ، وعند الوصول إلى نهاية برنامج علاجه ، فقد بدأ يتعلم من جديد ، ويقرأ بنهم ، وبكثير من الحماس ما كان يعتقد من قبل بأنها كانت مجرد حقائق فارغة.

ولكنه لم يكن جامع الحقائق الوحيد الذي قابلته. فقد كان أحد مرضاي الآخر ، شاباً مهووساً بالرغبة في جمع كل الدرجات العلمية ، والتي حصلت عليها جامعته.

وفي ذلك الوقت الذي كنت قد التقيت به ، كان عضوا في التنظيم النازي (وهنا مثال على حقيقة أن العديد من المتحذلقين يكون لديهم تقارب مع النظام السياسي الاستبدادي) وحتى في هذه المجموعة ، فإنه يستثار في العداء ، بسبب بحثه عن الحقائق ، والمزيد من الحقائق والوقائع ، وفقط من أجل الحقائق.

ولذلك ، فقد أصبحت قسوته أكثر من اللازم ، وحتى بين زملائه الشموليين من نفس التنظيم.

كما كانت لديه أوهام من العظمة ، وليس لديه أي علاقات عاطفية على الإطلاق. وهكذا ، فقد كلاهما يشير إلى أن ثمة عملية ذهانية كانت مستمرة في العمل.

ولكن قدرته الفكرية كانت سليمة. فقد كان ابن أحد العلماء ، والذي عاش في منافسة مستمرة مع والده في فترة الشباب ، وفي وقت مبكر ، وقد بدأ بقراءة الموسوعات ، ومن ثم في وقت لاحق ، التحق بالمدارس الابتدائية والاعدادية ، والثانوية ، وكان فخورا لأنه كان يعتبر نفسه من أصحاب"المعرفة".

وفي الواقع ، فقد كان يعرف الكثير من الحقائق ، وعنها لكنه لم يكن يعرف أي شيء آخر. ولم يكن يعرف حتى كيف يتعامل مع نفسه ، ولا مع أي شخص آخر.

كانت هاتان الحالتان تُظهران ، وبوضوح ، كيف يمكن لنظام التعليم أن يكون مجرد عملية ميكانيكية ، والتي قد تؤدي إلى الفشل في كشف حتى الحاجة الملحة للعلاقات العاطفية والشعور بالانتماء ، ووضع التركيز على التعلم بدلا من العيش ، والتي يمكن أن ينتج عن ذلك عواقب وخيمة: ومن هم غير مجهزين تماما لمواجهة مشاكل الحياة ، أو الذين هم فقط على قيد الحياة ، وغير قادرين تماما

على مواجهة تحديات الواقع.

ولذلك ، فإن هؤلاء الرجال والنساء ، لا يصنعون مواطنين ديمقراطيين جيدين.

وهكذا ، يعتبر إعداد الطفل ، من خلال تعليمه رؤية الأساسيات ، وتعليمه التفكير لنفسه ، وبنفسه ، واحدة من أهم مهام التعليم من أجل الحرية العقلية.

كما أن هناك العديد من مجالات الاهتمام ، والتي يمكن من خلالها تطوير القدرة على التفكير في الذات-على سبيل المثال ، مجال الاتصال وعلم التجريد.

فالوعي والطفل يتناغمان ضمن لغة خاصة ، وبالكلمات التي يستخدمها الطفل نفسه ، كأداة تعبيرية وليس كمجموعة من القواعد النحوية التي يمكن أن يؤدي إليه هذا الفضول حول لغات أخرى وطرق أخرى من التفكير.

كما وسيؤدي به ذلك حين ينمو أكثر ، إلى القدرة على التفكير ، وبشكل مجرد ، وفهم العلاقات.

إن أعظم حساسية الطفل للغات الأجنبية ، هو عندما يكون في سن أصغر من عشر سنوات من العمر ، والذي عادة ما نعلمه خلالها اللغات الأجنبية.

كما أنه ، وفي هذا العمر أيضاً ، يبدأ الطفل في أن يكون له اهتمام شخصي نشط بالكلمات والتعبير عن الذات. ولذلك ، يمكن استخدام هذا الاهتمام ، لجعل اللغة استكشافاً مثيرا ، وللمغامرة بدلاً من عملية الحفظ وغسل الدماغ.

كما ويجب أن تحفز مدارسنا على الابتكار والنشاط الذاتي ، وذلك من خلال موضوعات ، ومهن مختلفة مثل النجارة والتصميم ، وغيرها.

كما أن اللعب الإبداعي بالقطع الخرسانية ، سيطور قدرة الطفل على التجريد والتعميم ، وعلى الابتكار ، مما سيسهل عليه استيعاب الأفكار التجريدية ، والتي تكمن وراء كل الرياضيات.

أما إذا ، وبدلا من رمي الطفل في بحر من التجريدات ، والحفر الحسابي اليومي ، فإننا سنجعل من عقله عقلا قابلا على الفهم التجريدي ، وعملية التجريد ، والخطوات المدرجة بعناية ، وبحيث انه لن يستطيع امتصاص واستيعاب

ما تعلمه ، وليس مجرد ترديد ما قيل. نميل ، على سبيل المثال ، إلى تعليم التجريدات الرياضية في سن مبكرة ، تماماً كما ننتظر وقتاً طويلاً لتعليم اللغة والتعبير اللفظي.

كما أن التاريخ هو موضوع لا يتم تعلمه من خلال حفظ الحقائق والتواريخ ، والوقائع ، ولكن من خلال المناقشة المتبادلة. وحيث يجب أن يبدأ بمفهوم الحياة الشخصية ، والتاريخ الشخصي.

ولذلك من الأفضل أن تعطي الطفل تقريرا مطبوعا عن تاريخ الأمس ، وطلب تعليقاته والآراء حول ذلك ، أو أفضل فكرة لتعزيز الفكر الفردي عن طريق السماح له بالبحث عن معلومات أساسية في مكتبة أو متحف ، من أن يطلب منه حفظ الحقائق. وبهذه الطريقة ، يمكن أن يصبح تعلم التاريخ مغامرة.

كما يمكننا أيضا إعادة النظر في النظام الذي يخاطر بسهولة في تربية الأشخاص المتوسطين ، والذين يندرجون في نمط من الرداءة. إذ يجب تدريب وتعليم الأطفال المختلفين بشكل مختلف. ولكل منها جدول زمني خاص به ؛ وكل سيكون له تعديلات حياته الخاصة.

إذن لماذا يجب علينا أن نفعل ، وبشكل إرادي ، لأبنائنا ما لا نفعله أبداً مع الزهور في حديقتنا؟

إذ يُسمح لكل نبات بالوصول إلى حجمه الطبيعي الخاص.

وبالتالي ، فإن ممارستنا الدراسية الحالية ، قد تحفز الطموح لدى عدد قليل من الأطفال ، ولكنها قد تخنقها في الآخرين. وبدلاً من تشجيع الغش من خلال قواعد الفحص الصارمة ، فلماذا لا نسمح للأطفال بمساعدة بعضهم البعض في حل المشكلات الشائعة؟.

يمكن للأطفال ، في كثير من الأحيان تعليم بعضهم البعض ، ما لا يستطيع المعلم القيام به.

ولنفكر لحظة في ذلك الطفل الحساس بشكل خاص ، تجاه ملل بعض

مدارسنا المعاصرة. وكيف سيكون حاله. فقد يكون مجتهدا مثالياً ، وعلاماته جيدة ، ولكن من دون أفكار أصيلة ، أو أن يميل إلى التمرن في عيادة إرشاد الأطفال اليوم والذي سيميل إلى الحالة الاستبدادية عندما يصبح رجلا.

المعنويات والانضباط

في حين أن الأخلاق الحميدة تنطوي على قوة داخلية وانضباط ذاتي ، فقد لا ينطوي ذلك بالضرورة على انضباط مجموعة محددة من الناحية السياسية أو العسكرية. كانت الروح المعنوية الشخصية والانضباط الجيد ، من المؤهلات اللازمة ، للمشاركة الناجحة في العمل السري خلال الحرب الأخيرة.

كما إن الحزبيين ، والذين يعملون سراً-الآن هنا ، يعتمدون الآن في معركتهم الوحيدة ، على مبادرتهم الفردية ومعنوياتهم ، بقدر ما ، إن لم يكن أكثر من ، على القيادة والانضباط البعيدين.

وهذا هو عكس نوع من المعنويات الاحتياطية التي يرميها الخوف الأعمى والمحافظة عليها من مسافة بعيدة ، من النوع الذي يتم الحصول عليه في السجون أو معسكرات الاعتقال ، أو في القبيلة مع التركيز الشديد على المشاركة العامة.

ففي المجموعات الأولى ، كانت هناك معنويات بدون انضباط.

أما في المجموعات الثانية ، فقد كان هناك الانضباط ، ولكن من دون معنويات.

وبنفس الطريقة ، هناك بعض الضباط الذين لا يستطيعون تطوير الانضباط إلا من دون المعنويات.

ومع ذلك ، فهناك عادة علاقة داخلية بين الانضباط والأخلاق. وفقط عندما يتم إعطاء قدر معين من التدريب التأديبي الأولي للشباب أو الجنود ، فإنهم يكونون متكيفين بشكل جيد مع القوة الداخلية الشخصية ، والتي تعتمد على الثقة بالنفس والثقة في المجموعة ككل ، مع الثقة في السلطات.

كما ويتم اللجوء إلى الانضباط في حالات الطوارئ خلال أوقات التوتر ، وذلك عندما يكون هناك عادة ضيق الوقت ، مما يؤدي إلى عدم وجود فترة كافية للتحكم في النفس والتكيف مع المجموعة.

ولذلك ، فإن الانضباط الذاتي فقط هو الذي يتم تطويره تدريجياً ، ويمكن أن يضع الأساس للحرية الداخلية والأخلاق.

لقد تم نسيان هذه القاعدة من قبل العديد من المعلمين. ومن أن هذا الأساس من الأنماط الأولية والمشروطة هو الذي يعطينا الثقة لنقف بمفردنا.

فكلنا نبدأ من خلال الأخذ والعطاء حول معنوياتنا مع الآخرين-كالآباء والمعلمين.

كما أن أساس معنوياتنا الشخصية هو ما استوعبنا منها.

في حين تبدأ العلاقة المتبادلة الخفية ، بين الانضباط والحرية ، في المهد ، وتحت رعاية الوالدين المحبين ، والمهتمين والثابتين. فالآباء هم أول من يبني الأخلاق. ولذلك ، فعادة ما ينشأ الصراع بين الانضباط ، وبين الروح المعنوية في المجموعة ، وذلك عندما يتم احتجاز الأعضاء بالإكراه أو بالضرورة.

فهنا سيكون التماسك الداخلي مختلفاً تماماً عن الوضع الذي يوجد فيه ولاء تلقائي للمجموعة.

كما أن الهدف من جميع أنواع الانضباط ، هو من أجل تطوير وتعديل أفضل للمجموعة.

وفي المقابل ، يولد النجاح في تحديد الهوية مع المجموعة نفساً أقوى. ومن هذه النقطة ، تبدأ الحرية.

كما أنه من المهم بمكان البحث عن مزيد من الفهم لمبادئ بناء المعنويات هذه ، والتي تعتبر مهمة لتقييم القوة الداخلية ، أو ضعف المجموعات الثقافية المختلفة. ولذلك ، يمكننا أن نتوقع ، وفقا لتجاربنا في العلاج النفسي ، حيث يسود الانضباط ، أو حتى العبودية ، بأن التماسك الداخلي للمجموعة سوف يكون

مختلفاً تماماً عن مجموعة المجموعة التي تحترم وتحمل الفرد في تقدير عال.

ومع ذلك ، فقد وجدنا ذلك حتى في جنود جيوش الأنظمة الاستبدادية ، والتي تجسد المعنويات العالية.

وفي هذا السياق ، فإنني ألفت النظر إلى هؤلاء الجنود اليابانيين الذين كانوا -ودون أي تعامل مع بلدهم الأم- متمسكين بمراكزهم الوحيدة ، وحتى لسنوات ما بعد انتهاء الحرب ، وكأن الإمبراطور وجنرالاته ما زالوا ينظرون إليهم.

وهذا يخبرنا بشيء عن الحب المستمر ، والأمن ، والتفاني ، والذي كانوا تلقوه في السنوات الست الأولى من الحياة.

الانضباط وغسل الأدمغة

عندما نريد تدريب جندي ما لمقاومة غسيل الدماغ ، فيجب أن نمنحه مضادات للسماحة ضد اقتراح الولاء الجماعي. وعلينا أن نعلمه كيف يبني إجاباته ، ونقد معلميه. كما ويجب علينا تدريبه حول الإيحاء السلبي ، والتأكيد على الشجاعة لرفض التفكير المنطق عاطفيا ، وعندما لا يبدو صحيحا.

ولكن قبل كل شيء ، علينا أن نكرر هذه الدروس عدة مرات لنجعل منه فرداً واثقاً ذاتياً من كونه مجرد مجند. وكذلك ضد الاقتراحات اليومي والولاءات المهزوزة ، وعلينا أن نثير نقداً فردياً.

كل هذا يجب القيام به ، وبالإضافة إلى جعل الجندي على دراية بمفهوم ونتائج غسيل الأدمغة. لأنه ، وعند القيام بذلك ، فإن الجندي سيتعلم ، وحتى دون وعي ، ما هي الدعاية ، أو ما هو غير ذلك-كما نفعل جميعنا جزئياً عند الاستماع للإعلان عبر الراديو.

كما وتخبرنا التجربة النفسية أن جزءا من الاقتراحات الدعائية يمكن أن يتسرب من خلال الدفاعات الذهنية ، وحتى التنبيه ، وتخترق آراءنا.

كما يجب أن يتم تدريب مكافحة غسيل الدماغ بشكل شامل ومتكرر. وقد

يبدو أنه يتعارض مع الانضباط الصارم. فعندما يعرف المعلم والضابط ، ما يكفي حول الموضوع ، فإن احترام الذات لدى الطالب يتم تعزيزه من خلال تحديد الهوية مع الضابط القائد.

صحيح أننا نرى هنا تغييراً في العلاقات التأديبية ، لكنه يقدم اختباراً حقيقياً للانضباط في مجتمع ديمقراطي حر.

كما إن الرجل الذي تم تعليمه احترام الذات والمعرفة ، سوف يقاوم ، وحتى النهاية ، عندما تأتي ساعة التحدي. ولذلك ، فسيتطلب ذلك تغيير حرب الأسلحة ، إلى حرب باردة عقلية ، وتغييرا في الانضباط.

فعلى الجندي أن يعرف ليس بندقيته ، فحسب ، بل أكثر إحساساً بمهمته وهراء العدو.

نوعية المجموعة وتأثير القائد

في كل حالة جماعية ، تشير المعنويات إلى درجة القوة المتماسكة للأعضاء ، وإلى مقدار الولاء تجاه المجموعة وأهدافها.

وقد تنطوي الروح المعنوية ، أو لا ، على فهم للأهداف. في الثقافة الغربية مع إيجابياتها وسلبياتها الخفية ، فإن الحاجة الأكثر عمقاً إلى الوعي ، والفهم ، والنظر في الأهداف متضمنة أكثر مما يسمى في الدولة الشمولية.

كما أنه في الدولة الشمولية ، ومع التبجيل لزعيمها القوي ، فإن فقدانه تهدد التماسك ، وعندما يفشل ، لن يكون لدى الديكتاتور أو المجموعة الرائدة الكثير مما يمكن التفكير فيه سوى القضاء على هذا الفشل.

ولكن في المجتمع الديمقراطي ، فإن أعضاؤه عادة ما يكونوا قد وصلوا إلى درجة أعلى من تقرير المصير والمهارة الحكومية. فالديمقراطية تجد دوماً قادة جدد مستعدين لتحمل المسؤولية. تتضمن المعنويات أيضا سؤالاً حول عدد الأشخاص الذين يستطيعون البقاء جسدياً وعقلياً ، وإلى متى.

وتحت أي أنواع مختلفة من الانضباط ، سيكون الحد من القدرة على التحمل مختلفاً.

فالأخلاقية الوقائية ، والقائمة على الخوف كما في السجون ، قد تتفكك على الأقل ، وستعمل على إضعاف القائد أو الحارس ، أو عندما لا يكون الأفراد قد تأقلموا بعد ، وبشكل كاف مع جو الاعتقال.

لقد تم تعليم الطيارين الانتحاريين اليابانيين"الكاميكازي" على حبا الانتحار افتداء للوطن ، كما تم تعليمهم ، وبشكل كامل ، حول أيديولوجية الاكتفاء الذاتي. ولذلك ، فقد كانت معنوياتهم ، كما هو موضح في الحرب مع اليابان ، عالية بالمعنى الشرقي.

وهنا- فقد أصبح الانضباط والولاء آليين لدرجة أن الحياة لم تعد ذات أهمية بالنسبة للفرد أو للمجموعة. فقد كان الفكر الوحيد هو الاستمرار في ضرب العدو.

وبالتالي ، فإن هذا النوع من الروح المعنوية-إنما يعتمد في الغالب على الحصول على يأس مسعور-نوع من الغضب الجماعي الانتحاري في السعي لتحقيق هدف وطني.

وهكذا ، فقد أصبحنا أكثر وعياً بمدى أهمية القيادة في تعزيز الروح المعنوية. فالقائد هو تجسيد للعلاقات الإنسانية القيّمة التي نرغب في تقديم طاقتنا لها ، وحتى عند الضرورة ، حياتنا.

ومن خلال تحديد الهوية معه نحن اقتراض ثباته. ولكن لا يكون الزعيم الرسمي ، هو المسؤول دائما عن رفع الروح المعنوية. ففي بعض الأحيان قد يتولى رقيب ، أو جندي ، هذه المهمة.

كما قد يكون الزعيم الرسمي نفسه ، في موقف أكثر صعوبة. لذا ، يجب أن يكون على اطلاع بالعديد من الأشياء ، التي قد يبدو أنها تتعارض مع بعضها البعض.

كما يجب عليه أن يمثل السلطة الأبوية ، وكذلك نفسنا ، وضميرنا ، ومثلنا العليا.

ويجب أن يعفينا من إحساسنا بالذنب والقلق ، ويجب أن يكون قادراً على استيعاب احتياجاتنا من القوة والحنان والالتزام-كما هو موضح في المصطلحات النفسية.

كما ويجب أن يكون قادراً على خلق العمل الجماعي ، والتحفيز ، وفي نفس الوقت لأن يزيد من تقدير الفرد لذاته. قد تصبح شكوكه شكوكنا. وفقدانه للثقة يجعلنا نفقد ثقتنا بأنفسنا.

وفي بعض الأحيان قد نرغب في أن يكون طاغية حتى نتمكن من إعفاءنا من استياءنا ومسؤولياتنا الشخصية.

وأحياناً نرغب في التنافس معه ، أثناء تنافسنا مع آبائنا.

وفي أوقات أخرى ، نريد المودة منه.

كما ويجب على الزعيم أن يكون كبش فداء عملاق. وسوف تنمو قوتنا الداخلية ، اعتمادا على شخصية الزعيم الملهمة والموجهة. في حين أننا قد لا نحبه تماماً ، وقد نستخدمه في النمو أو التراجع في أخلاقنا.

بيد أنه ، ومع ذلك ، فإن الفرد لا يستمد قوته من الجماعة وقائدها فحسب ، بل يجلب معها روحه الخاصة. وحتى عندما يستخدم ككبش فداء للإفراج عن العداء الجماعي ، فإن الفرد-عندما يستحوذ على الفكاهة والفلسفة- قد يعزز عن غير قصد ، الروح المعنوية للمجموعة. وأن يتواصل ، كما كان ، في تسامحه الشخصي مع الآخرين. وغالباً ما يتم قبول الخراف السوداء في الطبق كبطل رياضي مفضل. وبالطريقة نفسها ، تنقل المجموعة كل أنواع المشاعر للفرد. إنها عملية العدوى المعنوية المستمرة ، وباستمرار. ولكن تعتمد جودتها على القبول المتبادل ، والصداقات ، ومقدار الخوف في المجموعة ، ونوعية العمليات الشخصية ، والصفات التي تحفز المقاومة في القلة ، وهكذا دواليك....

ودعونا لا ننسى أن أفضل المعنويات المعززة لأنفسنا ، تكمن في المساعدة على رفع معنويات الآخرين.

وذلك عندما لا يسمح الاتصال بين البشر ، وتكون المعاناة قريبة.

وعلى سبيل المثال ، فقد سمعنا من عدة أشخاص من الذين نجوا من وراء الستار الحديدي ، بأن شكواهم الأبرز حول النظام الشمولي الاستبدادي كانت في الشعور بالعزلة العقلية. وحيث أن الفرد يشعر وكأنه لوحده في هذا الكون ، ولذلك فعليه أن يبقى في حالة مستمرة من التأهب. وحيث لا يوجد شيء سوى الشك المتبادل.

وقد لاقى "إنجيل العهد الجديد" في نفوس هؤلاء الهاربين ، قبولاً إنسانياً جاهزاً ، واتصالاً عايشوه في مجموعة ديمقراطية ، ولأنه كان هناك حماس تلقائي ، وقبول متبادل ، وحتى عندما كان ينشب خلاف حول أمر ما.

تعداد لبعض عوامل تأثير المعنويات على المجموعة:

وهي العوامل التالية الناتجة ، أساسا ، عن الخبرة العسكرية ، والتي قد تعرض روح المعنويات للخطر:

- التوقع الخاطئ حول الخطر: بسبب الشائعات ، والأساطير عن العدو.
- ضغوط شديدة: بسبب تعب المعركة.
- الصحة الجسدية والعقلية السيئة: بسبب مرض الأنفلونزا.
- النقص في الغذاء ، وقلة النوم: بسبب البرد والأوساخ.
- القيادة السيئة.
- التدريب الضعيف: بسبب نقص المهارات ، أو الإفراط.
- ضعف التواصل وسوء المعلومات.
- تدمير القيم الأساسية ، وعدم الإيمان.
- ارتباك الأنشطة والنزاعات في السياسة والاختيار الخاطئ للحكومة.
- السلوك السلطوي وغير الديمقراطي: بسبب الإذلال.

-الاستبداد. الانضباط الحازم جدا ، وكذلك عدم الانضباط

-الحنين إلى الوطن ومشاعر القطيعة.

-الأعمال العدائية الداخلية ، التحيزات ، اضطهاد الأقليات.

-التحكم بالفكر والقتل: حيث لا يحق له أن يكون فرداً ، أو يشعر بالعدالة ، أو حتى في الاستئناف.

-لا وظيفة في الإطار الاجتماعي ، لا توجد واجبات.

-الكحول والمهدئات.

العوامل التالية قد تعزز المعنويات:

- قيادة ديمقراطية سليمة.
- تنظيم جيد التخطيط مع حرية الارتجال ؛ الحد الأدنى من الروتين.
- الانضباط الذاتي الديمقراطي. هل لدينا إيمان بمؤسساتنا؟.
- المعلومات والاتصالات دون أية عوائق.
- حرية الدين ، والنزاهة الأخلاقية.
- الولاء المتبادل ، والمسؤولية الناضجة ؛ روح الفريق.
- اليقظة العقلية. علم النفس المهم ، والوعي لمشاكل عصرنا الخاص.
- الشعور بالانتماء والقبول.
- الشعور بالعدالة والحرية والخصوصية.
- الثقة بأن الخبراء على استعداد لتقديم الإسعافات الأولية(خبراء الصحة النفسية ، رجال الدين ، الصليب الأحمر ، الدفاع المدني ، الإسعافات الأولية الطبية).

نقطة الانهيار وقدرتنا على الإحباط

تُرى ما هي القشة التي تكسر ظهر البعير؟.

هذا سؤال رئيسي في مشكلة المعنويات الشخصية. فخلال الحرب العالمية الثانية ، كنت قد عملت على علاج طيار مقاتل ، والذي ، وعلى الرغم من أنه

لم يكن خائفاً من عمله الخطير ، إلا نه كان يشعر بعدم السكينة تجاه علاقاته الشخصية. وفجأة ، وخلال دوي صفارة إنذار تومئ بوقوع غارة جوية وشيكة على مدينة لندن ، فقد كان الطيار يقضي إجازة قصيرة ، ولكنه ، ما إن سمع صوت صفارة الإنذار ، حتى ضربه ذعر مطلق.

كان في الحياة الطبيعية شاباً خجولاً ، وخلوقا ، وانطوائيا إلى حد ما. ولكنه ، وبشكل غير متوقع ، وجد نفسه في الملجأ ، ومع مجموعة من الخائفين أمثاله ، فقد أصبح ملوثا بالخوف من الآخرين. ولكن الوضع الغريب ، كان بأنه قد فقد كل السيطرة على نفسه ، ودفعة واحدة ، فانهار. وأذكر هذه النقطة هنا لإظهار ، مرة أخرى ، مدى قوة الجو المعدي في معسكرات اعتقال الأسرى ، وغرف التحقيق ، وكيف سكون عليه الحال في تلك المعسكرات.

ولذلك ، فلا أحد يستطيع حقا أن يتكهّن كيف سيتصرف في أوقات الخطر الكبير ، وحتى حين يأتي لمواجهة الاختبار.

بيد أنه يتم حل الاختبار الحقيقي للواقع بطرق مختلفة. وحيث يقبل الكثيرون مواجهة التحدي. في حين أن بعض الأفراد القهريين ، والأكثر دفاعية ، يرحبون بالخطر.

وبالتالي ، فلا يزال الآخرون-الذين كانوا بالفعل غير مستقرين-يعملون على إساءة استخدام الوضع الجديد كذريعة لكسر ، وترك عواطفهم تغور بعيدا.

يدعو الباحث "سيغال Segal "المجموعة الأخيرة" بالمقامرين الكبار ، وبالمغفلين ، وبالأطفال ، وبالخائفين المغرورون" والمتعطشين للثناء بسبب الغرور ، وذلك لأنهم جميعا ، لديهم تلك "الأنا" المغرورة والتي يمكن أن تقع ، وبسهولة ، في يد محقق مخادع ، ويعرف من أين تؤكل الكتف.

وفي علم النفس ، فإننا ندرك حقيقة أن هناك مجموعتين من العوامل التي تجلب على الانهيار العقلي:

المجموعة الأولى: والتي تتكون من اعتبارات طويلة الأجل ، وتتسبب في انهيار

تدريجي للدفاعات الداخلية ، والمجموعة الثانية: والتي تتكون من العوامل على المدى القصير ، ومن مشغلات العواطف ، أو عوامل استفزازية تسبب الانهيار المفاجئ للاندماج العقلي والجسدي.

أما فيما يتعلق بالمجموعة الأولى من العوامل ، فيمكن أن تتأتى بسبب مرض مزمن ، أو إلى العديد من أسباب التهيج المزمن للحياة.

في حين أن المجموعة الثانية قد تتأتى عن طريق تأثير رمزي مفاجئ على الحساسيات الخفية.

فالفأر يثير الذعر لدى رؤيته من قبل الفتيات ، على الرغم من أنه لا يثير الذعر بسبب خطره البنيوي أو الموضوعي.

كما درس علم النفس المرضي الحديث حالات التحسس المتعددة ، والتي حدثت في الحياة المبكرة ، والتي تجعل الناس عرضة لتفاعلات الضغط على الزناد ، مجهولة الأسباب.

بيد أنه ومع ذلك ، يتم التأكيد على الصدمة والإحباط أكثر من إضعاف الشخصية أثناء نموها. ولكن في الواقع ، فإن العكس هو الصحيح. وحيث أن التحدي والمقاومة للتأثيرات غير المواتية ، هي التي تصنع الشخصية.

كما أنه ، ومن أجل تطوير قوة داخلية أكبر و دفاعات أفضل للأنا ، فعلى الفرد أن يعرض نفسه بنفسه ، وأن يواجه متطلبات الحياة بنفسه.

وما تعدى ذلك ، فهو مجرد رياضة "عادلة" أو منافسة "عادلة" ولكن التدريب المتكرر يكون في الأخلاق؟.

كما أن التدريب البدني ليس من الضروري أن يكون"لينا".

وهكذا ، فإن الصدمات الذاتية تأتي عن طريق التجربة والخطأن وهذا ما علينا أن ندرب أنفسنا عليه ، وأن نكشف ما عما يعيق ذلك في أنفسنا ، ودون وعي.

كما أن اللقاءات خلال ممارسات الرياضة ، يكون جزءا من جهد عفوي نحو الانضباط الذاتي.

فعندما لا يجد الشخص قوة داخل نفسه ، يجب عليه اقتراضها من جاره ، أو زميله ، والبحث عن القوة بالوكالة.

ولأن هذا التركيز الكبير على الاعتماد ، أو القيادة ، سيزيد من هذه الآلية بالوكالة.

وبالإضافة إلى ذلك ، فإن القيادة ليست سر الأخلاق.

كما يمكن أن يؤدي تحديد الهوية مع الزعيم ، في بعض الأحيان ، إلى تقوية قوة الشخص الداخلية ، ولكنه قد يؤدي أيضاً إلى إحباط قدرته على التعامل مع مشكلاته الخاصة.

ففي حين يمكن لزعيم محبط ، أن يقلل من قدرتنا على تحمل الإحباط. فسيكون من المحتمل أن يصبح العيش في ظروف ميسرة للغاية ، عاملاً ضعيفاً.

وقد أثبت منشور حديث الباحث "ريختر Richter "عن بعض التجارب مع الجنود الذين تعرضوا لضغط القتال ، وبعد ذلك مع الجرذان في المختبر ، من أن الفخامة بشكل عام ، تؤثر على قدرة الإنسان السلبية على تحملها.

وهكذا/فإن المعنويات الجيدة ، وفي مكان ما على طول الخط ، تعني عدم الخوف من الموت. وهذا بدوره يعني حل هذا القلق الأسطوري عن الموت ، كونه شيء مظلم وغامض.

كما أن هذا يعني الرغبة في قبول المصير. على الرغم من أن قبول المصير ، والواجب والمسؤولية ، يعيشان بطريقة مختلفة: فقبول القدر والمصير يعني أن تعيش بشجاعة معنوية ، ومسلحا بالمبادئ الأخلاقية التي جمعتها في حياتك ، والتي من دونها لا تستحق الحياة.

كما ويمكن توقع حدوث الحوادث السيئة ، والتي يكون لها تأثير الشلل.

فإذا كان المرء يتوقع أن ينهار الناس ، فيمكنهم إما أن يقدموا بسهولة أكبر ، إلى هؤلاء الأنبياء الكذبة ، أو يشعرون ، بعد العداء ، بأنهم معززون في معنوياتهم.

كما يجب أن تكون الصحافة والإذاعة والتليفزيون على وعي بمسؤوليتهم

الدقيقة ، عن الإعلام المؤثر على الروح المعنوية.

وبالتالي ، فمن المهم أن ندرك أن الأنبياء العقليين يتوقعون المزيد من الهلع في الآخرين عندما يشعرون بأنهم يشعرون بعدم الارتياح والانزعاج.

وفي الحرب الأخيرة ، كانت هناك العديد من التنبؤات المثيرة للذعر ، والتي لم تكن متناغمة على نحو كافٍ ، ولم تتحقق.

فالإنسان غالبا ما يكون عقليا أقوى مما نتوقعه. كما أنه ، ومن بين جميع الحيوانات ، يمكنه أن يعاني أكثر من غيره ويتحمل الخطر على أفضل وجه ، إذا لم يضعفه إيمانه بقصص إرهابية خارقة للطبيعة ، ولا يصاب بالحروب كما هو الحال في الحرب الباردة.

الفصل السابع عشر

الشجاعة بين القديم والحديث

من يقاوم لفترة أطول ولماذا؟

ما الذي يمكن أن يمنح الإنسان القوة لمقاومة اعتداء مادي؟.

وما الذي مكّن هذا العدد الكبير من الآلاف من البقاء عقلياً وجسدياً، خلال التعرض إلى أهوال معسكرات الاعتقال النازية، وسجون الأسرى الشيوعية. و مخيمات التعذيب؟

الجواب بسيط للغاية. فالرجال يولدون في المقام الأول، لأنهم في مرحلة ما كانوا غارقين في نزاعاتهم اللاواعية. وهذه الصراعات، تحت السيطرة في الظروف العادية، تطفو إلى السطح تحت الضغط المبيضي الشديد.

فكلما كانت الصراعات الداخلية أقوى، وكلما ازداد الضغط، كلما زاد الميل إلى الخضوع.

ولذلك، يتحمل الرجال الضغط عندما لا يمكن إثارة هذه الصراعات بسهولة، أو أن يكون قد تم التغلب عليها داخليا.

كما وتحتوي هذه الإجابة البسيطة على مفارقة سريرية. وهي إنها إحدى الخصائص من عصاب حاد، وبعض حالات هيكل الطابع المرضي، غير أن صراعات اللاوعي، تكون شديدة بحيث يتم قمعها إما وفق مدى عمق هذا المتألم، والذي قد لا يكون حتى علم بوجودها، أو يتم تحويلها إلى مجموعة من المواقف في كثير من الأحيان، والتي تكون أكثر قبولا للفرد، وبالتالي أسهل في التعامل معها.

فإذا ما سمح العصابي الشديد لنفسه أن يشعر بصراعاته الحقيقية ، فسوف يسيطر على حياته بالكامل.

وبالتالي فإنه سيمارس قوة هائلة لاستيعاب هذه المادة المتفجرة.

كما أن الرجل الذي يكون معارضا على الدوام ، ومتمردا ، فإنه لن يستطيع أن ينتقل إلى مرحلة النضج الصحي ، وقد حولت بعض الصراعات الأساسية والعميقة ، شخصيته الخاصة إلى شخصية مقاومة ، وبشكل مزمن ، ضد أي نوع من الأوامر الاجتماعية.

وقد أظهر الفحص النفسي للسجناء الأسرى/والمعتقلين في معسكرات الاعتقال ، وغرف التعذيب ، والذين عادوا من كوريا ، بأن العديد من الرجال: الذين قاوموا دعاية العدو ، كانوا أكثر قوة من أولئك الذين لديهم تاريخ من التمرد مدى الحياة ضد كل سلطة الآباء-من خلال المعلمين ، وهنا من خلال قادتهم في الجيش. بل والذين كانوا من مثيري الشغب أينما كانوا ، بين أصدقائهم وكذلك بين أعدائهم.

وهكذا ، فإن هذا الجانب السلبي للعملة هو جزء فقط من الصورة. فالإنسان لديه معرفة عميقة بالذات ، ومدرك لصراعاته الداخلية ، بل ويدرك أيضا ما يحاول العدو القيام به له ، ولذلك ، فهو مستعد للقاء ، ومقاومة الهجوم.

وقد سنحت لي الفرصة لاستجواب العديد من الأشخاص الذين مروا بأعجوبة السجن النازي ، ومعسكرات الاعتقال والذين نجوا بأعجوبة أيضا.

فقد كان البعض قوماً عادياً ، ومن دون انتماءات سياسية ، وبعضهم الآخر كانوا أعضاء في المقاومة ، في حين كان عدد قليل منهم من علماء النفس ، والمحللين النفسيين.

أما أولئك الذين فهموا أنفسهم ، والذين كانوا مستعدين لقبول الخطر والتحدي ، والذين أدركوا ، حتى ولو كان إدراكهم ضعيفا ، كيف يمكن أن يكون الرجل البائس ، فقد كانوا-على الرغم من كل ما تعرضوا له في معسكرات

التعذيب والاعتقال-قادرين على تحمل تجربة معسكرات الاعتقال المروعة. ولم يهزموا بسبب حيرتهم البريئة، وعدم فهمهم لذواتهم وغيرهم، ولكنهم كانوا محميين بمعرفتهم، وباليقظة الفضولية.

كما أن هناك عوامل أخرى تلعب دوراً مهماً جداً أيضاً.

فقد جعلت دراساتي من الواضح تماما بالنسبة لي، بأن أولئك الذين يمكن أن يقاوموا، فإنه يمكنهم الحفاظ على قوتهم في ظل الظروف الهامشية، وحيث لا يشعرون بأنهم وحدهم.

وطالما انهم يمكن ان يخطروا أحبائهم في المنزل، وطالما أنهم يمكن أن نتطلع إلى رؤيتهم مرة أخرى، وطالما أنه يعرفون بأن أسرهم ينتظرون بأمانة، بالنسبة لهم، فإنه بإمكانهم المحافظة على قوتهم والإبقاء على المحرك اللاواعي لكي يتدخل ويضع حدا من الاستيلاء على حياتهم.

كما ان الحب والمودة التي نحصل عليها، وتتجمع في قلوبنا، تعتبر من أعظم عوامل التحفيز على التحمل. وليس فقط أنها لا توفر الهدف نحو ما نستطيع أن نوجه حياتنأن بل وتعطينا أيضا تأكيدا الداخلي، وكذلك الإحساس بالقيمة التي تجعل من الممكن بالنسبة لنا أن نصبح قادرين أثناء اختيار الصراعات المدمرة للنفس.

لا تقتصر هذه المعرفة حول المحبة والتعاطف، على حب العائلة أو الأصدقاء. فالناس الذين تنغرس فيهم العقيدة الدينية أو القناعة السياسية، تكون عميقة الجذور، وشيء حي، ولديها نفس هذا الشعور بالانتماء، ومن أن هناك حاجة، لأن تُحب، كما الحاجة لآن تمون محبوبا.

كما أن ولاءهم يكون لمجموعة كاملة، أو إلى مجموعة من المثل العليا وليس للأفراد.

أما بالنسبة للناس، تعتبر المعتقدات حقيقية وملموسة، وحقيقية، ومحددة كأشخاص أو أشياء.

كما أنها توفر الحصن الحصين ضد الوحدة ، والإرهاب ، والأوهام التي استُحضرت من اللاوعي ، وإطلاق العنان للصراعات عميقة الجذور ، وهذا هو الحصن القوي ، وكذكريات الحب.

ومع ذلك ، فإن مثل أولئك الأشخاص الأقوياء عقليا ، يشكلون أقلية في مجتمعنا الذي يمزقه الصراع.

وقد أثبتت التجربة بأن الرياضيين الأقوياء لا يستطيعون الصمود في معسكر الاعتقال ، أو سجون الأسرى.

كما أنهم كانوا أقل قوة في تجارب المعسكر من إخوانهم الأضعف جسدياً.

ولذلك ، ليس الذكاء وحده هو الذي يقدم أية مساعدة حقيقية في صد الاعتداءات اليومية حول الإرادة.

وعلى العكس من ذلك ، يمكن أن يوفر ترشيداً مفيداً للاستسلام. فأساس العقلية والشجاعة الأخلاقية أعمق من العقل. كما ان الثبات ليس بجودة فيزيائية أو فكرية. إنه شيء نحصل عليه منذ مرحلة المهد ، والطفولة المبكرة ، ومن اتساق سلوك آبائنا ، ومن معتقداتهم وإيمانهم. ولكن ذلك أصبح من النادر ، وعلى نحو متزايد في عالم من القيم المتغيرة وقلة الإيمان.

أسطورة الشجاعة

هناك شيء في أسطورة القوة والشجاعة ، والتي تربكنا جميعا. فغالبا ما يتم الخلط بين القوة البدنية والقوة الروحية. وبالتالي ، فإن الشجاعة والبطولة هي ، في الواقع ، الصفات المطلوبة في المعركة.

ومع ذلك ، فإن تحليل الجنود في القتال ، يظهر أن كل واحد منهم يجب أن يخوض معركة مستمرة ضد مخاوفه. فالشجعان هم أولئك الذين يستطيعون التحقق من مخاوفهم ، والذين يستطيعون التعامل مع الأوهام الشائكة التي يخلقها الخوف ، والذين يستطيعون السيطرة على الرغبة في التراجع إلى الهروب الطفولي.

كما لا يمكن إجبار الرجل على أن يصبح بطلا ، ولذلك ، فمن السخف أن نعاقبه إذا لم يكن كذلك.

كما أنها لا معنى لها ، مثل معاقبته حول النزيف أو الإغماء.

فالبطل ، هو الرجل الذي يسعى بنفسه إلى الموت من أجل الآخرين ، وقد وجد ذلك أكثر في الأساطير منه في الواقع.

وقد أظهر علم النفس والأنثروبولوجيا ، أن أسطورة البطل مرتبطة بصور الأحلام الأبدية. وحيث يرمز البطل إلى الجيل الجديد المتمرد ، وحيث يصبح الابن القوي أقوى من الأب. كما أنه إنه يرمز أيضاً لرغبتنا في أن نكون ناضجين ، وأن نتحمل المسؤولية بأنفسنا.

نحن بحاجة إلى الأسطورة من أجل الإلهام الذي تقدمه لنا. فنحن نحتفل بذكرى تمجيد الأعمال البطولية للقلة القلائل الذين قدموا أنفسهم ، عبر التاريخ ، كقرابين لرفاقهم ، أو للمجتمع.

ولكن ماذا نعرف عن دوافعهم الحقيقية؟.

خلال الحرب العالمية الثانية ، قدمت العلاج النفسي للعديد من الجنود. وبينما كنت أتحدث وأعمل معهم ، أصبحت أكثر وعياً بمدى خطورة التمسك بالبطل"البطل" أو "الجبان" لأي رجل كان.

فقد كان أحد مرضاي ، على سبيل المثال ، صبياً حصل على ميدالية عسكرية عالية لأنه كان عالقاً في مكان وحيد مع مدفعه الرشاش ، ولذلك ، فقد بدأ بإطلاق النار تلقائياً ، حتى اضطر العدو إلى الانسحاب.

وفي أثناء علاجه ، والتعامل معه ، فقد اعترف الصبي بأن بطولته الظاهرة كانت في الواقع نتيجة لخوف مشلول ، مما جعل من المستحيل عليه اتباع أمر قائده بالتراجع.

كما لا يستطيع أحد أن يقول حقاً كيف سيتصرف في أوقات الخطر. حيث سيتصرف كل شخص الاختبار المخيف الذي يواجهه في الواقع على طريقته

الخاصة. وسوف يقبل العديد من التحدي والوقوف في وجهه. وقد قد يرحب بعض الأفراد الأكثر دفاعاً ، بهذا العبء كاختبار لقوتهم.

في حين لا يزال آخرون-والذين لا جدوى من عدم الاستقرار لديهم بسبب الجذور العميقة في الماضي-سوف يستفيدون من الأوضاع المحفوفة بالمخاطر ، بحيث يصابون بالانهيار ، ويسمحوا لدموعهم ، وعواطفهم لأن تفيض.

وقد وجه عالم النفس "فرويد" انتباهنا إلى التفاعل الخاص بين الأخطار الخارجية والداخلية ، وبين الواقع المخيم والخيال المرعب على حد سواء.

كما أنه وغالباً ما تُحفّز الأخطار المُعتَقَدَة على تحفيز العقل على اليقظة وتشجيعها على إقامة دفاعاته الداخلية.

ولكن هناك بعض الأمور المبتذلة ، والتي تكون أدنى من الإحباط ، والشعور بالذنب ، وأوهام الرعب الطفولية-وهذه يمكن أن تكون في كثير من الأحيان مجرد ترويع ، وفي آثارها التي تسبب انهيار جميع دفاعاتنا الثقافية.

كما يمكن أن ينهار العديد من الأشخاص الذين يواجهون اختبار الواقع بشجاعة ثابتة ، وذلك من خلال التوافه الظاهرة التي تلمسهم بطريقة ما ، في مكان ضعيف. كان مريضا آخر من مرضاي وقت الحرب المذكورة سابقا ، قد أظهر مثل هذا النمط. وكان طيارا مقاتلا شابا ، والذي كان قد قام بأربعين مهمة قتالية ، ودون أية علامة من علامات الخوف أو الذعر ، ولكنه انهار فجأة ، وبشكل تام في أحد الملاجئ أثناء غارة جوية في لندن العاصمة.

وفي هذا السياق ، فقد أصبح من الواضح أن هذا الشاب كان غير سعيد ، بل وكان يعاني من مرارة علاقاته الشخصية. كما لم يكن ينسجم مع ضابطه القائد ؛ وكان على شجار خطير مع صديقته في الليلة السابقة لانهياره.

وعلى الرغم من أنه كان إنسانا خجولا ، وانطوائيا ، ولذلك ، وعندما وجد نفسه فجأة في الملجأ ، ومع مجموعة خائفة مثله ، أصبح ملوثا بالخوف المنتشر في جو الملجأ.

وهكذا ، وبعد أن أضعفته التعاسة الأخيرة ، وجد نفسه عاجزا تماما عن وضع دفاعات داخلية تستطيع أن تخدمه وبشكل جيد ، في ظل التجارب المخيفة للحرب النشطة.

فهل لنا أن نقول بأنه كان أقل بطولة من ذلك الشاب الخائف وقائد المدفع الرشاش الذي حصل على الميدالية لشجاعته البطولية جداً؟

إذن ما زال هناك في دواخلنا كلنا ، ذلك الإعجاب بالتبجح ، والإعجاب بالعرض المسرحي للشجاعة ، ولدعوة رعاية الشيطان للدمار.

كما بدأنا ندرك الآن ، بأن الشجاعة الحقيقية أمر مختلف تماما. إنها ذلك التعبير الذي يحدث في نفس الوقت ، وفي نفس الظروف ، عن الإيمان في الحياة والتفاؤل ، والاستقالة حتى الموت. الشجاعة ليست شيئا يمكن أن يجبر على رجل من الخارج. يجب أن يأتي من داخله.

وفي واقع الحرب الحديثة ، يمكن أن يختزل رجل"مولوتش" غير الشخصي بسهولة إلى الشعور بالعجز والاعتمادية.

كما يمكن للشجاعة الشخصية أن تحول مد المعركة إلى مواجهة مباشرة ، ولكن الشجاعة الشخصية ليست دفاعاً ضد القنابل والمدافع الرشاشة.

ولذلك ، فإن الشجاعة المتهورة اليوم ، كما تجدنا ، تعتبر أقل أهمية من الأخلاق الشخصية ، والإيمان ، والأخلاقيات ، والمعرفة ، والإعداد المناسب.

فحين يتم وضع صبي يبلغ من العمر سبعة عشر عاماً في الجيش. والذي أمضى حياته كلها في بلدة صغيرة في ولاية تكساس. ويتلقى التدريب في روتين الحياة العسكرية واستخدام السلاح.

وبعد ذلك بفترة وجيزة ، يتم إرساله إلى كوريا ، وعلى الفور تقريباً يتم أسره.

والآن يجب على هذا الطفل أن يدافع عن نفسه ضد وابل الدعاية الذي يقف عليه اليوم منظّرو الشيوعية المدربون جيداً. في حين أن تعليمه محدود ، وخلفيته ضيقة ، وتدريبه السياسي غير ملائم.

وحتى أنه كان يحاول الهروب من معسكره المعتقل ، ولكنه كان يُقبض عليه في كل مرة.

ونتيجة لذلك ، فإن الإمساك العقلي للعدو ، سيزيد. في حين أن خيبة أمله الكبيرة تجعله يشعر بأنه محاصر.

أخيرا ، يستسلم ويتعاون.

إذن ، كيف يمكن لمحكمة عسكرية أن تجعله مسؤولاً ، حتى يعاقب على ذلك ، هل لأنه استسلم أخيرا لدعاية العدو؟

هذا جزء من قصة العريف"كلود باتشيلور" والذي حكم عليه مؤخراً بالسجن لمدة عشرين عاماً بتهمة التعاون مع العدو.

وفي هذا السياق ، فإنني أجرؤ على تخمين أنه كان من الممكن أن تكون قصة أي فتى أمريكي من نفس الخلفية.

فبعد الحرب العالمية الثانية ، اضطرت عدة بلدان أوروبية إلى مواجهة المشكلة الصعبة ، والمتمثلة في معاملة أولئك الذين كانوا تحت الأرض ، والذين ، بعد تعذيب النازيين ، اعترفوا بخيالهم ، وخانوهم.

وفي هولندا ، فقد أنشئت محكمة شرفية للحكم على هذه الحالات الخاصة. وقد وصلت هذه المحكمة إلى الاستنتاجات التالية :

- لا يمكن لأي رجل أن يضمن أنه لن يعترف ، تحت أي ظرف من الظروف ، وأنه لن"يتعاون" أو"يخون" بلاده.
- لا يوجد أي رجل لم يخض بنفسه في الجحيم الذي كان الشيوعيون والنازيون قادرين على تنظيمه له ، والحق في الحكم على سلوك رجل فعل ذلك.
- التعذيب النفسي أكثر فعالية في حالات كثيرة من التعذيب الجسدي. وهذا يصح أكثر لدى الضحية الذي لديه خلفية فكرية عادية. ويبدو أن الذكاء يجعل التعذيب الجسدي أكثر سهولة في التحمل ، ولكن في الوقت نفسه

يكشف عن تأثير التعذيب العقلي. كما أن أي شخص "يقدم" في ظل هذه الظروف إلى العدو بعد تقديم أدلة على ولائه ووطنيته ، وشجاعته ، سوف يعاني بشكل رهيب لأن إدانته لنفسه ستكون دائماً أشد قسوة من أي قاضٍ.

ومع ذلك ، فليس هناك أدنى سبب للعار ، أو اعتبار هذا الشخص غير قادر على إعطاء القيادة.

بل على العكس من ذلك ، فإن أكثر من الغرباء سيعرفون ما هي القوة الخارقة المطلوبة لمقاومة أساليب التعذيب العقلية ، وأكثر من الغرباء ، ويمكن أن يكون مفيدا للآخرين لإعداد أنفسهم للطاعون بقدر ما هو ممكن على الإطلاق.

[من خطاب كتبه المفوض السامي لشؤون اللاجئين ، ورئيس محكمة الشرف الهولندية Van Heuven Goedhart والذي نشر في صحيفة نيويورك تايمز /عدد الخامس عشر من شهر آذار/ مارس من عام١٩٥٤.]

فكرة التعزيز المرن ورفع الروح المعنوية

عندما ننظر إلى أنماط السلوك البشري في ظل الظروف القاسية والملحة ، فنحن نرى مدى السهولة في أن يكون الإنسان مهزوما.

ولكننا ، في الوقت نفسه ، نرى أن لبعض العوامل تأثير إيجابي على الأخلاق التي يحملها الانسان ، والتي تحفظه له من اليأس والانهيار.

ولذلك ، فعندما تكون هذه العوامل فعالة ، يتم إحياء الروح وتمكين الناس من العيش بنزاهة على الرغم من الظروف الخطيرة.

كما أن هناك العديد من مثل معنويات المعنوية-الإيمان الديني أو الأيديولوجية السياسية. ولعل أكثرها فعالية هو الإحساس بوجود بعض المهام والأهداف الداخلية.

وبالتالي ، يمكن أن يكون هذا المثال المثالي الذي يحدده الشخص هو حب الأرض الأصلية ، أو حب الحرية أو العدالة ، أو حتى فكرة الكراهية والانتقام.

ولكن ، ومهما كانت تلك الأمثلة ، لحظة النكبة ، فإن الفكرة الموجهة تحتاج فقط إلى مجرد القوة الجسدية والتحمل. كما أنه ، في كل حالة علمت الفرد على تحمل هذا الخطر والحفاظ على ما لا يقل عن بعض ظروف روح العمل الجماعي تحت العادي من الحرمان ، والوحشية ، أو يمكن أن تكون من العوامل الضرورية لتعزيز الحاضر.

ولا أعتقد بأن البحث الداخلي عن فكرة التجديد المعنويات يعزز الوظيفة الواعية للعقل.

ولذلك ، فإن مثل هذا التجديد النفسي يمكن مقارنته مع عمليات التجدد البدني التي نراها في الجسم. وذلك لأن الجسم يكاد يتخلى عن قدراته التجدد.

وحتى عندما يموت الانسان بسبب مرض السرطان ، على سبيل المثال ، فإن جراحه التي سببتها العمليات الجراحية لا تزال تلتئم ، حيث لا تزال قوات التجديد المحلية هناك ، وتعمل.

كما يبدو أن الشيء نفسه يعمل على المستوى العقلي. ففي أوقات الارتباك والضغط والإرهاق ، لا تزال قوى الشفاء النفسية لدى الإنسان والقوى المتجددة تعمل. وهذا ينطبق ، بنفس القدر ، على مجموعات كبيرة من الناس كما هو الحال بالنسبة للفرد ، وعلى الرغم مما سبق ، فإن تلك الطاقات تقيد البقاء في العمل المعقد ، وذلك بسبب العلاقات الشخصية.

وقد أظهرت تجاربي مع الناس الذين يعيشون والظروف الخطيرة القصوى ، وهذا بعد وقت قصير جدا من الحيرة الأولية ، بأن الأفراد يطورون حاجة داخلية لما يمكن أن نسميه الميزانية العقلية.

وحيث تظهر جميعها أعراضا سريرية ملحوظة ، وتدل على أن هذه العملية لاستعادة مقاومتها الذاتية الحازمة مستمرة.

فعندما يتم جلب السجين الأسير أولا إلى معسكرات الاعتقال ، على سبيل المثال ، فهو يظهر سلبية كاملة ، واستعدادا للاستسلام ، وتبدد الشخصية ، ولكن

سرعان ما تبدأ فكرة التوجه ، للتخلص من الحاجة لفهم المصير ، وحاجته لخلق واق ما ، وفق الظرف الذي وجد نفسه فيه ، والتمسك ببعض الإيمان المشترك ، ولبناء شيء ما من أجل الذات.

وفي هذا السياق ، يمكننا الكشف عن هذا التغيير والمزاج المواتية بالمناسبة لكل سجين ينظر إلأى ظروفه من زاوية خاصة ، ومن مكان آمن ، وحتى عندما تكون المحاكمة ، وجلسات التحقيق ليست سوى كلام خشبي فارغ ، وبلغة قذرة.

وهكذا ، فسوف يبدأ في إعادة ترتيب الأشياء القليلة التي لديه. يبني عشه الخاص ، ومنه يبدأ في النظر في عالمه الهامشي البائس.

وعندما يجد سجين السجن- في مخيم الاعتقال أصدقاء له ، ويشبهونه في الإيمان وقوة الشخصية ، فستصبح حياته أكثر قدرة على التحمل.

ومن خلال التواصل مع الآخرين ، يمكنه مواجهة الرعب بشكل أفضل. وكذلك فإن الحب المتبادل والكراهية الشائعة ، قد يكونان كلاهما محفزين بالمثل.

في حين أن الاتصال البشري المتجدد يغير من وتيرة خوفه المتأصل ، وينقله إلى حالة من الثقة في شخص آخر على الأقل. كما أنه ، وعندما ينمو ذلك في هوية معينة مع فريق عمل نشط ، فيستم فقدان الخسارة المؤقتة للقوة الداخلية.

وعندما لا يجد مثل هذه المجموعة أو الشخصية التي يجب أن يتعرف عليها ، فقد يتولى حارس السجن وأيديولوجيته الأجنبية السيطرة.

ومن هذا المنطلق ، فيجب أن يقال إن فكرة تعزيز المعنويات هي دائماً فكرة أخلاقية ، وتقييم أخلاقي-إيماني بالخير والعدالة والحرية والسلام والوئام المستقبلي.

وحتى أكثر الديكتاتور سخرية ، يحتاج إلى مساعدة تلك الأفكار الأخلاقية لرفع معنويات أولئك الخاضعين لنظامه. فإذا لم يتمكن من منحهم أقل قدر من وهم السلام والحرية ، وبالإضافة إلى آفاق الثراء في المستقبل ، فهو يقلل من شأنهم ، ويقزّم وضعهم إلى مجرد أتباع غير مبالين.

ولذلك ، فقد كان عند مدخل معسكرات الاعتقال النازية علامات ،

وإشارات كبيرة تحمل الشعار الساخر:

"العمل يجعل الانسان حرا Arbeit macht frei ".

قد لا ينخدع السجناء بهذا الشعار ، ولكنه كلن قد أعطى الألمان خارج مخيمات ، ومعسكرات الاعتقال ، وسيلة لتبرير سلوكهم غير الإنساني.

كما إن الحاجة إلى التبرير الأخلاقي ، الذي يشعر به حتى أكثر الطغاة قسوة ، تثبت مدى عمق هذه الأفكار الأخلاقية في الإنسان. وكلما كان الرجل يعيش في هامشية وحالات تعذيب ، كلما زادت حاجته لدعم القيم الأخلاقية وحركاتها المحفزة.

وهكذا ، فإنه ، وبشكل عام ، يمكننا أن نقول أن هناك ثلاثة تأثيرات يمكن من خلالها تحمل القدرة على تحملها.

ومرة أخرى ، وفي المقام الأول ، يجب على المرء أن يكون لديه إيمان ؛ يمكن أن يكون هذا اعتقاداً بسيطاً بالقيم الدينية أو الأخلاقية ، أو الإيمان بالإنسانية ، أو الإيمان باستقرار المجتمع الخاص ، أو الإيمان بأهداف المرء.

وفي المقام الثاني ، يجب على الضحية أن يشعر بأنه ، على الرغم من الكارثة التي تجاوزته وجعلته منبوذاً ، فهو مطلوب ، ويحتاج إلى مكان ما على هذه الأرض. وفي المقام الثالث ، يجب أن يكون هناك فهم ، وليس معرفة كتابية متطورة ، بل فهم بسيط ، بل حدسي ، ونفساني لدوافع العدو ومحركاته الخادعة.

فأولئك الذين لا يستطيعون الفهم ، ويصبحون منهكين للغاية ، ولذلك ، فسيكونون سريعي العطب أولا.

كما يجب أن يتم تدريب مكافحة غسيل الدماغ بشكل شامل للغاية.

صحيح أنه يمكن بناء الدفاعات الداخلية ضد السيطرة على الفكر ، وضد الاقتراحات اليومية للولاءات. ولكن وبمساعدة تعليم جيد ومتكرر ، يمكن أن يكون الناس على دراية بالمفاهيم. ومن ثم يتم بناء الدفاعات الإدراكية.

كما ونتعلم الكشف عن الدعاية الكاذبة ، وأن نتجنبها ، ولا نستمع إليها.

فعلى الرغم من أن جزءا من الدعاية يشجع على تسرب الاقتراحات من خلال دفاعات الإدراك الحسي ، وزحف الآراء بشكل مخفي لدينا(ويستند جميع أشكال الإعلان عن هذا التسرب) في أنه لا يمكن التأكيد بما فيه الكفاية أن المعرفة الكاملة من أساليب العدو سيعطي لنا القدرة في الحصول على قوة للمقاومة.

وقد أخبرني العديد من علماء النفس كيف أنهم ، وتحت ظروف الحياة المخيفة في معسكرات الاعتقال النازية ، شعروا بأنهم مستديمون في علومهم. فقد أعطوهم وجهة نظر ، وجعلوا من الممكن لهم رؤية معاناتهم الخاصة من مسافة أكبر.

كما كان الموقف الفلسفي للعقل الفضولي هو الذي حسّن من قوتهم الداخلية. ومع ذلك ، فلا توجد سوى قصص قليلة عن أولئك الذين لا يمكن تفكيكهم من خلال عملية غسيل الدماغ الشيوعي. كما أن مثل هذا الثوري المسلّح ، مثل الإسباني"الكامبيسينوEl Campesino" والذي ، على سبيل المثال ، استطاع الصمود.

فقد كان يعلم حيل الشموليين الاستبداديين ، ومن المحتمل أيضاً أنهم لربما لم يعتقدوا بأنه مهم بما يكفي لإهدار الكثير من الوقت والجهد من أجله.

ولكن ، وبعد كل شيء ، يمكن دائما أن يرسل إلى معسكر اعتقال ما ، وليضيع أثره هناك.

كما يجب تكرار أن أي نوع من تشكيل المجموعات غير القانونية في المخيمات–ومهما كان خطيراً– فقد أعطى الفرد إحساساً بالحماية على الفور.

في حين أن معظم الذين قاوموا التعاون وعضوية المجموعة ، وعملوا على أنفسهم ، قد خضعوا لليأس والهزيمة. كما أن أولئك الذين خانوا رفاقهم ، فإنهم عادة ما فعلوا ذلك بعد أن مروا بفترة طويلة من العزلة ، والتي لم يكن يتم تنفيذها بالضرورة ، ولكن في كثير من الأحيان ، بسبب هيكل شخصيتهم الخاصة.

ولذلك ، فهناك حاجة للاتصال البشري مع مصدر موثوق ، وأكثر من الخبز ، للحفاظ على روح الحرية والانتماء لأن تبقى على قيد الحياة.

فخلال الحرب العالمية الثانية ، عاشت معاداة النازية تحت الأرض ، وفي الأخبار الإذاعية اليومية التي كانت تُبثّ من إذاعة صوت إنجلترا الحرة.

وحتى الآن ، هناك أشخاص ممن عاشوا فترة الاستعباد والضيق ، يعيشون مع الاتصالات القليلة ، والتي يمكننا نقلها إليهم.

كما تتمتع إذاعة صوت أمريكا ، وإذاعة أوروبا الحرة ، بوظيفة هائلة لتعزيز المعنويات في البلدان التي يقود فيها الاستبداد الجوي إلى حالة اليأس.

وفي معركتنا الحالية ضد غسيل الأدمغة ، فإن الإعداد الذكي لما يتوقعه السجين ، والفهم البسيط لتكتيكات العدو كذلك ، هما أكبر المساعدات.

ففي المرتبة الأولى ، فإن هذا سيقوض الاستراتيجية السياسية للعدو. حيث لا أحد يصدق اتهاماته المخادعة.

وفي المرتبة الثانية ، لم يعد ضحايا غسيل المخ يعانون من حيرة الشلل لدى أولئك الذين وقعوا فجأة في حالة غير مألوفة.

وربما ، أيضا ، يجب علينا أن ننصح جنودنا تحت الإكراه بالاعتراف أكثر من اللازم ، وأن يخلطوا الأمر على المحققين ، وأن يسيطروا على استراتيجية العدو من الارتباك والكذب والخداع لجعله يشعر بالإحباط.

وقد قدم هذا الاقتراح أيضاً الأدميرال"دي.ف. غاليري"من البحرية الأمريكية.

[صحيفة بريد السبت المسائية/عدد الثاني والعشرين من كانون الثاني/يناير من عام١٩٥٥] في الحالات التي يكون فيها ضحايا القتل العمد قد فعلت ذلك ، وحيث توسل المحققين في كثير من الأحيان ، ضحاياهم ليصبحوا عنصريين مرة أخرى. فقد كان الجلاد نفسه مضطرباً ومزعجاً ، بسبب جنون ضحيته المرعب.

وكان من الأهمية القصوى لدى ضحية الوعي ، بأن الناس الآخرين يعرفون ويفهمون ما يحدث ، وأن هناك جبهة داخلية على دراية بنضاله ، والتعذيب.

فإذا استسلم ، فعليه أن يعلم أن الآخرين يدركون بأنه لا يمكن أن يتحمل المسؤولية الكاملة عن سلوكه وحده.

وقد أراد دماغه أن يقاوم ، أراد عقله أن يقول لا ، ولكن في النهاية ، خانه جسده—إثر الألم والتعذيب الشديدين—وتصرف حسب قدراته وطاقات تحمله ، وبالطبع كان تصرف جسده ضد إرادته ، وضد ما يرغب ، ويريد.

إنه إدراك غريب ، بحقيقة أنه في ظل إرادة المرء ، يفقد المرء حرية العمل العقلي. إنها تجربة يمكن أن تجعل الضغط الكافي يصل حد الانفجار لدى معظم الرجال.

فهل آثار غسيل المخ مؤقتة فقط؟.

هناك فرق بين الشباب الذين لا يزال من المحتمل أن تتحول أفكارهم إلى أنماط دائمة للتفكير ، وبين البالغين الذين تتشكل أنماطهم بالفعل ، من خلال التعليم المجاني. ففي الأشخاص الناضجين ، فإن غسل الأدمغة هو كابوس مصطنع ، وحيث يمكنهم في كثير من الأحيان ، التخلص من اللحظة التي يعودون فيها إلى منطقة الحرية.

ولكن في بعض الحالات ، يمكن أن تترك آثاراً طويلة الأمد من الاكتئاب والإذلال ، ولكنها تتلاشى تدريجياً في جو تسود فيه الحرية.

كما انه ، وخلال وبعد فترة الحرب العالمية الثانية ، فإن هؤلاء الأعضاء من المقاومة ، ومنظمة الصحة العالمية قد فقدوا الاتجاه في ظل تأثير الإرهاب النازي ، والذي يعتبر ضروريا للأطباء النفسيين لمواجهة مشكلة جديدة ، وهذا من أجل شخصية تغيرت مؤقتا.

كما أنه من الواضح أن معسكرات الإرهاب والسجون ، والاعتقال لم يحقق سوى عدد قليل جدا من المتعاونين ، ولكن كانت محنتهم كبيرة ، ونفوسهم ضائعة ، ومع الشعور القاسي بالذنب والندم ، ولكنه لم يكونوا قادرين على مواجهة أنفسهم لصالح المواطن والوطن.

وحتى الإعفاء الرسمي المشروط للمسؤولية الممنوحة لهم من قبل محكمة خاصة ، لم يكن دائماً قادراً على إصلاح احترامهم لذاتهم.

وذلك لأنه ، وقبل قبول أنفسهم كان عليهم أن يمروا بعملية نفسية بطيئة ، وصعبة للتخلص من الارتباك الذهني المروّع الذي كان قد ألقي على كاهلهم.

كما أنه ، وخلال العلاج النفسي ، كان على العديد منهم أن يتذكروأن ويختبروا مرة أخرى ، ذكريات ذلك الرعب الذي عانوا منه: كنضالهم الأولي لمقاومة الطعام ، والأذى النفسي الذي كان يمارسه المحققين ، والشلل التدريجي للإرادة ، واستسلامهم النهائي.

كانت معركة الداخلية خفية بين مشاعرهم بالذنب ، وبين الرغبة في إعادة تأكيد الثقة بأنفسهم.

كما وقد أعقبت تلك التفجيرات العاطفية إكاء الأفكار بالانتحار ، وكهروب أخير من خزيهم الذي يلاحقهم.

ولكنهم ، وبعد أن غامروا بمشاعرهم المكبوتة ، تمكن المعالج من إقناعهم بأن كل شخص لديه حدوده الجسدية والنفسية ، وفي القدرة على التحمل.

ومن هذه النقطة ، يمكنهم التعبير عن أنفسهم بحرية ككائنات بشرية مستقلة ، ومع مزيج من الصفات السلبية والإيجابية.

ففي إحدى الحالات لشاب أمضى سنوات في معسكر اعتقال ، وبعد غسل دماغي شامل ، من قبل النازيين ، فقد استغرقت عملية إعادة التأهيل قرابة عامين. ومن ثم خرج الضحية مما كان فيه ، وتعافى دون ندوب عقلية ، بل وقد استطاع من تحويل تجربته المريرة ، إلى حوافز تعزيز غيرت حياته إيجابيا فيما بعد.

ولذلك ، فأنا مقتنع بأن قضية الأسرى: والذين كانوا ، ولسنوات ، رهائن السجن الشمولي ، وبالتالي تم تكييفهم سياسيأن ولكنهم تعافوا ، من خلال نهج العلاج النفسي الذي ساعدهم على البحث عن تلك الأنفس الداخلية القديمة مرة أخرى.

ولذلك ، لن تكون التهديدات والمناقشات العدوانية إلا أستمراراً لنفس عملية غسيل الدماغ القسرية ، والتي استخدمها حراسها.

وبالتالي ، فإن أفضل علاج لهم هو الاتصال اليومي ، والتبادل مع العالم الحر الديمقراطي ، كما رأينا في العديد من حالات السجناء السابقين من الجهاز الاستبدادي.

فالهواء الحر هو أفضل علاج!.

كما أنه ، وبالنسبة لملايين الأطفال المنتمين إلى المهد ، والذي يتم الضغط عليهم في إطار الأتمتة العقلية ، فلا يوجد خيار للحرية. وذلك لأنه ، بالنسبة لهم ، لا يوجد عالم آخر ، ولا توجد معتقدات أخرى. ولا يوجد سوى "مولاتش Moloch" الشمولي الذي يستهلك كل شيء ، والذي يتم تبرير خدمته بكل وسيلة وكل فعل.

ولذلك ، فلا بد من القول بأن غاسلي الادمغة هم أناس سُذّج جدا ، حين يفكرون بأن تغيير نمط التفكير سيؤدي إلى هذا الإصلاح القسري للعقل ، وإلى تحول السجناء إلى الدعاية الرأسمالية الشيوعية ، والتي ستكون دائمة.

فخلال الأسابيع القليلة الأولى بعد عودتهم إلى بيئة طبيعية ، وبعد انتهاء فترة السجن السابق ، فهل سيبقى يتكلم لغة الاعتقال؟ أو يتبع تعاليم السجن والسجان؟. وفي هذا السياق ، لا بد من القول بأن السجين ، وبعد ذلك ، غالبا ما يقوم ، وبشكل مفاجئ ، بتذكر ما كان يقاسيه ، وقد يغرق في نوبة صادمة من اليأس ، والحزن ، وربما الصراخ ، ولكنه كان لدى الضحية فرصة للتحقيق في الدعاية والاتهامات الشيوعية ، ولذلك فإن الكابوس الاصطناعي بأكمله سوف يتلاشى. ولهذا السبب ، فإن السجناء حريصون على عدم رفض كل ما لديهم وفي قت واحد.

كما يجب أن يبقى عدد قليل منهم رهائن للتأكد من أن الذين تم الإفراج عنهم لن يعرضوا المؤامرة بأكملها ، وبالتالي يعرضون أصدقاءهم للخطر في السجن.

فأولئك الذين يقولون الحقيقة حول عودتهم إلى الوطن يشعرون بالذنب ،

لأنهم كشفوا ما يمكن أن يعرض الأسرى المتبقين في السجن إلى تعذيب أكبر.

وقد كنت فُتنت بسمة شخصية غريبة ، تجعل من الشجاعة والتحمل أمرا واقعا. وقد اتصلت في دراستي حول مشكلة الوقت بمعنى الاستمرارية ، والوعي بأن لدينا خبرات الآن ، لا تتقيد إلا أن تجاربنا من الماضي ، ولكن أيضا لدينا صورة والخيال من المستقبل.

فنحن نعيش في عالم نقبل فيه الكثير من الحوادث الفعلية ، وحتى من دون أن نسأل لماذا وكيف يحدث كل هذا.

فأولئك الذين يفكرون في التخطيط للمستقبل يطلق عليهم اسم "اليوتوبيا" كما لو أن فكرة"اليوتوبيا" لم تنبثق دائما من التوق البشري.

فأسلافنا قد آمنوا بالمستقبل ، وبمجيء المسيح ، ومجيء الأنبياء ، وبملكوت الله. وكانوا يتوقعون ذلك ، ومن أجل توقعاتهم ، فقد عملوا على هذا الأساس ، على الرغم من أنهم كانوا قلة من الناس ، ولكنهم كانوا يعملون من أجل حقبة أفضل.

وهكذا ، فإن الناس في معسكرات الاعتقال كانوا يعملون مشحوذين بالأمل ، ووفق ما تعتقد منظمة الصحة العالمية من أجل المستقبل ، وحيث تعتقد منظمة الصحة العالمية بأنها تستطيع أن ترى تلك الكارثة الفعلية ، والسلسلة الصغيرة بين فخ الماضي والحاضر ، وبين المستقبل ، وحيث يمكن تحمل المعاناة المؤقت بشكل فضل.

لقد كان لي شرف التعرف على حفنة من الأشخاص الذين ينتمون إلى القلة ممن يمتلكون القوة ، وعنفوان الإرادة ، والذين يمكنهم فعل أكثر من الوجود في الحياة بشكل سلبي ، واقتراض القوة من الآخرين.

فقد كانوا قادرين على العيش بشجاعة ، وتحت الضغط الشديد لمعسكر الاعتقال النازي. وقد تقبلوا تغذيب المعسكر والاضطهاد كتحدي لأفكارهم. وكذلك الألم الجسدي الذي لم يستطع أن يمسّ من قدرة صمودهم وصبرهم.

وكذلك قدرتهم على تحمل الظروف غير الطبيعية ، والتي حفزت أرواحهم. فقد استطاعوا العيش فوق الظروف.

ولذلك ، يمكن اعتبار أن معنويات هؤلاء الناس قد ألهمت الآخرين ؛ والذين عاشوا من خلال تحصين ومساعدة الآخرين.

فقد قبلوا ما كتب لهم ، وانسجموا مع مقولة أن الحب في قبول المصير.

ولذلك ، فهم دليل حي على أن العقل يمكن أن يكون أقوى من الجسم.

الشجاعة الجديدة

لقد جعلتنا الفلسفة وعلم النفس على دراية بالتحديات الجديدة وبالشجاعة الجديدة على حد سواء.

كما وقد اعتبر الفيلسوف"سقراط" ، منذ أكثر من ألفي عام ، بأن الشجاعة هي شجاعة روحية تتجاوز شجاعة المعركة الجسدية.

وبأنه يمكن للجندي أن يكون عدوانياً ، ويزدري الموت ، ودون أن يصاب بأذى. ويمكن أن يكون تهوره تهوراً انتحارياً ، ومستوحى من عضو جماعي.

وقد تكون هذه هي الشجاعة الصاخبة للرضيع البدائي المجهول فينا.

كما أن هناك أيضاً شجاعة روحية ، وشجاعة ذهنية ، تتجاوز الذات.

إنها تخدم الفكرة. ولا تسأل فقط عن سعر الحياة ، ولكن أيضا عن السعر المطلوب. وتسأل عن فرط الوعي في الذات ، ككائن روحاني مفكر.

كما انه لم يتم تقدير الشجاعة الروحية إلا مؤخراً. فقد استغرقت فكرة الفيلسوف "سقراط" وقتاً طويلاً للتعمق في تفكيرنا.

وكان ذلك فقط بعد الاصلاح ، وبأن النضال البطولي للشخصية المتناحرة وحيدا قد اكتسب القيمة.

كما أن للدفاع عن رأيك المخالف بشجاعة ، وحتى في مواجهة ضغوط رأي الأغلبية ، قد يكتسب لوناً بطولياً خاصةً ، حيث كان يُحظر عدم التوافق والبدعة.

ولذلك ، تعتبر حملة "المهاتما غاندي" الهادئة ، والعنيدة للمقاومة السلبية

اليوم ، أكثر شجاعة من شجاعة جندي يرمي نفسه إلى نشوة المعركة.

كما ولا توجد شجاعة روحية بين الطامعين ، أو بين أولئك الذين يروجون للتوحد ، أو بين أولئك الذين يدعون إلى التكيف الاجتماعي السلس.

في حين تتطلب اليقظة العقلية المستمرة والقوة الروحية لمقاومة تيار السحب للتفكير التوجه نحو المطابقة. ولذلك ، يجب أن يكون الإنسان أقوى من مجرد إرادة الحماية الذاتية ، وتأكيد الذات ؛ يجب أن يكون قادراً على تجاوز نفسه في خدمة فكرة ، ويجب أن يكون قادراً على الإقرار ، ويصدق ، أنه كان على خطأ عندما يتم العثور على قيم أعلى.

وفي الواقع ، هناك شجاعة روحية تتجاوز كل العمل المنعكس التلقائي. فالإنسان ليس فقط كتلة ، بل قطعة من العجين القابل للتكيف ؛ وهو أيضا صاحب شخصية.

كما أنه يتجرأ على مواجهة الجماهير البشرية ، وهو يواجه العالم كله كإنسان مفكر.

في حين ، أن الوعي واليقظة هي في حد ذاتها شكلاً من أشكال الشجاعة ، والاستكشاف ، والوحي ، ومعالجة القيم. كما وتجرؤ هذه الشجاعة على اختراق التقاليد القديمة ، والمحظورات ، والتحامل ، وتجرؤ على الشك في العقيدة.

وبالإضافة إلى ذلك ، فلا يعرف أبطال العقل البهجة ، ولا العرض المثير للشفقة ، بل الشجاعة الزائفة للتمجيد والجد.

فهؤلاء الأبطال الشجعان لديهم معركتهم الداخلية ضد صراعهم الداخلي ، وضد الصلابة ، كالجبن ، والرغبة في الاستسلام للقناعة من أجل السهولة.

وهذه الشجاعة هي مثل الصحوة عندما يريد الآخرون تهدئة أنفسهم بالنوم والنسيان.

كما أن الإيديولوجية الشمولية ، قادرة على ابتزاز الرجل عبر جبنه الداخلي. إنها تهدده بالتخلي عن قناعاته الداخلية في مقابل البهجة والقبول ، وعبادة

البطل ، من أجل الشرف والاعتراف.

ومع ذلك ، فإن البطل الحقيقي ينطبق على مُثله.

وفقط عندما يتعلم الناس قبول المسؤولية الفردية ، يمكن مساعدة العالم من خلال الجهود المشتركة للعديد من الأفراد. لا تقلد السيد ، لا تتعرف فقط مع القائد ، ولكن إذا قمت بالامتثال ، فعليك أن تقبل زمام المبادرة مع الاعتراف الكامل بمسؤوليتك الخاصة. ولذلك ، فإن هذه البطولة الروحية ممكنة فقط إذا كنت سيد عواطفك ، وفي السيطرة الكاملة على اعتدادك بنفسك ، وعلى أعدائها أيضا. وهكذا ، لم يتم التعرف على بطل جديد بسبب عضلاته ، أو قوة عدوانية ، ولكن بسبب شخصيته ، وحكمته ، ونسبه العقلي.

فالمعرفة العميقة بالشجاعة ، تقلل من المفاهيم الشائعة حولها كفتنة رائعة. كما وتعزز المعرفة النفسية الأشكال الجديدة للشجاعة ، وتطالب بالعمل المرهق ، وعمل التفكير بدلاً من العمل السهل للتهور.

ولذلك ، لا أستطيع أن أتخذ أي خيار آخر من هذه الشجاعة الدائمة للحياة ، والشجاعة التي لم تعد تجسد الجاذبية السحرية للانتحار والتراجع.

كما يجب أن تكون الشجاعة هي الإيمان القوي بالوعي ، والوعي التحذيري ، والنظر السليم فيه ، وكل ما يحرك الحياة. فهذه الشجاعة تقبل الخوف الكبير ، وراء كل أسرار الحياة ، وتتجرأ على العيش معها.

ولذلك ، كان النازيون يدركون تماماً وجود أبطال لا يمكن إنكارهم بين ضحاياهم ، والذين لا يمكن تغيير وجوههم ، ولا يمكن إجبار عقولهم.

وقد وصفوا هدوئهم وعنادهم بالتمرد الفيزيولوجي ، بل وحاولوا قتل هؤلاء الأبطال بمجرد اكتشافهم. ولحسن الحظ ، كان لدى السجانين العديد من النقاط العمياء ، عندما يتعلق الأمر باكتشاف العظمة الروحية.

وهكذا ، وعندما انتهت الحرب ، اختفى معظم هؤلاء الأبطال ، وبشكل متواضع ، في الحشود بعد إنجاز مهمتهم ، وتاركين القيادة للسياسيين الأكثر تطوراً.

الفصل الثامن عشر

الحرية - عمودنا الفقري العقلي

إن الدولة الشمولية تدفع باستمرار بآراء الإنسان الخاصة ، وإداناته.

فبالنسبة للدولة البوليسية ، فإن التفكير يعمل بالفعل. ولا يتم قبول التحضير الداخلي للعمل كما تم الإعراب عنه في الإجراء التجريبي.

فالتحضير الداخلي ، يتم في رفض الشك ، والتجارب ومحن التكيف الفكرية.

كما أن زواج الفكر التدميري ، هو أحد الطرق لتقويض المجتمع. في حين أن عدم الثقة في حرية الفكر ، وحرية التعبير عن الرأي ، تكون أكثر خطورة.

كما ويتم قمع الرغبات الطبيعية المدمرة إلى ذلك المجال الذي لا يمكن السيطرة عليه للعقل ، والذي يمكن أن ينفجر بسهولة أكبر في العمل.

غير أن التعبير اللفظي عن الفكر المدمر ، غالبا ما ينتصر ، جزئيا ، على هذا الفكر ويجعله أقل قوة.

وهنا تكمن المفارقة الحقيقية! فإدانة الفكر الاجتماعي المعادي ، لم يوضع بعد في العمل ، مما سيثير دائرة قصيرة من العمل المتفجر!

فكل جزء من المنطق قد يكون له تداعياته الخطيرة: القتل الاستقصائي يحدث في خدمة المثل العليا.

وإذا لم نتمكن من المقامرة بالفطرة الطيبة للإنسان ، فالمجتمع الحر المسالم سيكون مستحيل التحقيق ، كما وستصبح الديمقراطية مستحيلة أيضا.

وهكذأن تبدأ الثقافة الأخلاقية وتنتهي مع الفرد. في حين إن عبادة الحرية الفردية ، وحيازة الفرد للحوافز ، والإبداع الفردي ، هي وحدها التي تجعل الانسان راغباً في كبح الرغبات الغريزية وقمع التدمير.

فالإنسان ليس مجرد كائن اجتماعي.

وفي مكان ما بعيد عن الحشود والضوضاء ، يجب عليه أن يمسك نفسه ، ويواجه إلهه وطبيعته.

كما أنه ، ولكي ينمو ، يحتاج إلى احتياطي من الطاقة ، وإلى عزلة وصمت.

وبالإضافة إلى أجهزته الميكانيكية وآلاته ، فهو يحتاج إلى العودة إلى الطبيعة ، ليخرج من مكانه بنفسه.

وفي مكان ما على طول الخط ، يجب أن يكون صانعاً لبعض أدواته الخاصة ، كصانع أحذية ، أو معالج ، أو معلم. ودون أن يقذف بعيدا ، وبمفرده ، ويعرف الوحدة ، يتقزّم الانسان ، فهو ضائع بين موجات النفوذ البشري المهيمن وبين بحر من الاحتمالات القسرية.

العمل الديموغرافي في علم النفس

إن أعمق قناعة في قوة الفهم النفسي جاءت لي في نضالي العقلي ، والذي طال أمده مع رجل امتلك عضوية في منظمة استبدادية. والذي جاء إليّ للحصول على المشورة النفسية خلال الاحتلال النازي لهولندا ، وكنت أعرف أنني يجب أن أحذر من مناقشة السياسة معه. ففي تلك الأيام ، كان يمكن معاقبة التعبير الحر عن الرأي ، وبشدة ، وقد أبلغني مريضي إذا كنت قد قلت أي شيء"مشبوه".

ومع ذلك ، فبعد أن نجح العلاج الذي أصابني بالاستماع السلبي في تحرره من توتراته الشخصية ، أصبح المريض أكثر إنسانية. وقد طور احتراما متزايدا لشخصية الفرد في حد ذاته ، ونما في بعض الأحيان انتقادا حادا للمعالجة القاسية للنازيين للحياة البشرية وكرامة الإنسان.

ومع مرور الوقت ، كان يزعج نفسه أكثر فأكثر من أصدقائه السياسيين

الشموليين. كان هذا شجاعاً حقاً ، لأنه في ذلك الوقت ، عادةً ما يتم تفسير التحول من التعاون إلى عدم التوافقية على أنه خيانة عظمى.

وفي زياراته الأخيرة قبل أن نتفق على أنه شُفي ، تحدثنا عن إيماننا المتبادل بكرامة الفرد ، وثقتنا في قرارات الكبار الراشدين كطريق لمصالحه الخاصة.

فهل يمارس علم النفس تأثيراً ديمقراطياً على الروح الاستبدادية والشمولية؟.

يبدو أن القضية التي أشرت إليها للتو تشير إلى أنها تفعل ذلك.

ولكن من ناحية أخرى ، فنحن نعرف أن آلة الدعاية الخاصة قد طبقت مبادئ نفسية لتنويم الشعب الألماني من أجل الخضوع.

وكما وضع الدكتاتور"هتلر" قناطره المدفعية النفسية لنشر الذعر عبر أوروبا.

ففي ألمانيا النازية ، تم التحكم في جميع العلاجات النفسية من قبل جهاز فريق"الفوهرر" النفسي ، والذي كان الأخ"غورينغ". وبالتأكيد يمكن استخدام علم الاقتراح ، والتنويم المغناطيسي ، ونتائج اختبارات وتدريبات العالم"بافلوف" لتجنيد الأتباع الجبناء ، والخانعين ، لبرنامج الاستبداد.

كما أن هذه الاستخدامات للمعرفة النفسية هي انحرافات لكل من مبادئ وأهداف علم النفس. والجوهرية في النهج النفسي ، وقبل كل شيء في العلاج النفسي والتحليل النفسي ، وهو عنصر هام يشجع على عكس الموقف الاستبدادي. أما الغرض الحقيقي من علم النفس ، وخاصة فرع الصحة العقلية ، فهو تحرير الإنسان من توتراته الداخلية ، وذلك من خلال مساعدته على فهم أسبابها. ولذلك ، يهدف علم النفس إلى تحرير الروح البشرية من اعتماده على التفكير غير الناضج ، وذلك حتى يتمكن كل شخص من تحقيق إمكاناته الخاصة. ويهدف إلى مساعدة الرجل على مواجهة الواقع بمشاكله العديدة ، والاعتراف بالقيود الخاصة به ، وكذلك إمكانياته للنمو.

وهي مكرسة أيضا لتطوير الأفراد الناضجين ، والقادرين على العيش بحرية وتقييد حريتها طواعية ، عندما يشار إليها ، من أجل الصالح العام.

كما إنه يقوم على فرضية مفادها أنه عندما يفهم المرء نفسه ، يمكنه أن يبدأ في أن يكون سيد حياته ، بدلاً من أن يكون مجرد دمية لأفعوانه اللاوعي ، أو لطاغية بشهوة محرّفة للسلطة.

وكما قلنا في وقت سابق ، فإن كل إنسان يمر بمرحلة في تطوره الخاص لقابلية أكبر للشمولية.

ويحدث هذا عادة خلال مرحلة المراهقة ، وعندما يصبح الانسان فيها بالغا ، ومدركاً لشخصيته-السلطة داخل نفسه.

ولكن في عدم قبول هذه المسؤولية ، فقد يبحث المراهق عن قائد قوي خارج المنزل. وفي مرحلة مبكرة من عمر الطفل ، يتم وضع الأنماط اللاواعية للإلزام والطاعة التلقائية. ومع ظهور حسه الذاتي الجديد ، يبدأ الشباب بمعارضة السلطات الراشدة التي كانت توجّه حياته.

وهكذا ، فأن نكون واعين للكيان الذي نسميه النفس أو الذات أو الأنا ، هو عملية عقلية مؤلمة. وليس من قبيل الصدفة أن الشعور بالتوق الذي لا نهاية له ، إنما يرتبط تقليديا بفترة المراهقة.

كما وتنطوي عملية التحول إلى فرد مستقل بذاته ذاتياً على الانفصال عن أمن الأسرة.

في حين أنه ، ولتحقيق الديمقراطية الداخلية ، يجب على المراهق أن يفصل نفسه عن بيئته الحمائية.

كما أنه ، وفي القيام بذلك ، فهو ليس مجرد كائن تطفلي مع إحساسه بالنمو والتحرر ، وهو أيضا مليء بشعور من الخوف والشعور بالوحدة.

إنه يدخل عالماً جديداً يجب عليه الآن أن يتحمل المسؤولية الكاملة عن أفعاله. وفي ذلك الوقت ، قد يصبح فريسة بسيطة للدعاية الاستبدادية. وقد يؤدي به الحال إلى ضغينة شخصية ضد نشأته أو إلى التخلي عن النضال من أجل النضج الشخصي.

وبالتالي ، فإن هذه المشكلة تعتبر من المشاكل الحادة بشكل خاص في المجتمع الغربي ، وليس فقط بسبب المعركة السياسية الأيديولوجية الحقيقية ، والتي يتعين علينا مواجهتها ، ولكن أيضا لأن طرقنا في تربية الأطفال يمكن أن تؤكد هذه المشكلة.

تعمل مجموعة بدائية تفرض قدرا من المسؤولية الاجتماعية على الطفل في وقت مبكر ، والحياة ، ومن ثم تزداد تدريجيأن في حين يكون لدينا ثقافة الطبقة الوسطى ، والتي تفصل له تماما ، في عالم الطفولة ، والحضانة ، والمراهقة ، ومن ثم ليغرق بها في مرحلة البلوغ ، ومن دون أن يعرف السباحة.

ولذلك ، فعند بلوغ نقطة التحول هذه ، يتقلص العديد من الشباب حول مثل هذا الاختبار. فكثيرون منهم لا يريدون حرية تحمل الكثير من الأعباء ، والكثير من الشعور بالوحدة.

كما أنهم على استعداد لإعادة حريتهم مقابل استمرار حماية الأبوة ، أو تسليمها إلى الإيديولوجيات السياسية أو الاقتصادية ، والتي في الواقع أصعب من صور الأهل الذين نزحوا عنهم.

ولكن للأسف ، فإن استسلام الشباب الفرديين ، لا يشكلون ضمانة ضد الخوف ، والشعور بالوحدة. وحيث لا يتغير العالم الخارجي الحقيقي بأي حال من الأحوال من خلال اختياره الداخلي.

وبالتالي فإن الشباب الذين يتنازلون عن حرياتهم هذه ، قد يجابهون تناقضات كبيرة ، ومشاعر متناقضة ، كالشعور المزدوج الغريب من الحب والكراهية ، تجاه كل سلطة ما. والسلاسة والتمرد أيضا ، وكراهية العيش ، جنباً إلى جنب مع حب الحياة.

ولكنه أحيانا ينحني تماما للسلطة أو الطغيان. وفي أوقات أخرى ، فغالباً ما لا يمكن التنبؤ بما قد يقوم به ، وحيث كل شيء فيه ينتفض ضد زعيمه المختار.

ولذلك ، فإن هذه الازدواجية تعتبر واحدة ، ولا نهاية لها من جانب واحد

للطبيعة التي تسعى وباستمرار إلى تجاوز حدود أي منازل أخرى ، فرضت الجانب المنقاد.

في حين أن الرجل الذي يفشل في تحقيق الحرية ، لا يعرف سوى اثنين من التطرف: عدم التقيد بالتمرد ، والتمرد الاندفاعي.

وعلى العكس من ذلك ، فإن الشخص القوي بما يكفي ، لقبول مرحلة البلوغ الناضجة ، يدخل نوعاً جديداً من الحرية.

صحيح أن هذه الحرية هي مفهوم غامض ، لأنها تنطوي على مسؤولية اتخاذ قرارات جديدة ، ومواجهة حالات عدم اليقين الجديدة. إلا أن حدود الحرية هي الفوضى ، والنزوة من جهة ، والإخلال والاختناق من قبل القواعد من ناحية أخرى. وهكذا ، فإنه فقط إذا استطعنا إيجاد صيغة بسيطة للموقف الناضج تجاه الحياة! وحتى لو كنا نسميها بروح ديمقراطية ، فلا يزال بوسعنا أن نشرح بسهولة ما هي الديمقراطية وليس ما هي عليه.

ويمكننا أن نقول بأن ديمقراطيتنا الفردية هي عدو السلطة الأعمى.

فإذا أردنا تفسيرا نفسيا أكثر تفصيلا ، فيجب علينا أن نقارنه مع الشمولية.

كما أن ديمقراطيتنا هي ضد التنظيم الصارم والمساواة بين أفرادها. ولا تطلب التكامل المتجانس والتكيف الاجتماعي السلس.

فالديمقراطية ، بالمقارنة مع هذه الأهداف ، تعني الثقة في التلقائية والنمو الفردي. وهي قادرة على افتراض تقدم وتصحيح الشر. كما أنها تحمي المجتمع ضد الخطأ البشري ، ودون اللجوء إلى التخويف. كم وتقدم الديمقراطية تعويضا عن أخطائها. في حين أن الشمولية تعتبر نفسها معصومة.

وفي الوقت الذي تتحكم فيه الشمولية من خلال نزوة الرأي العام والتلاعب به ، تتعهد الديمقراطية بتنظيم المجتمع بموجب القانون ، واحترام الطبيعة البشرية ، وحماية مواطنيها من استبداد فرد واحد ، من جهة ، والأغلبية المذهلة للسلطة من جهة أخرى.

كما أن الديمقراطية تحارب دائما معركة مزدوجة. فمن ناحية ، يجب أن تحد من ولادة النبضات الداخلية الاجتماعية في الفرد ؛ ومن ناحية أخرى ، يجب أن تحمي الفرد ضد قوى خارجية وأيديولوجيات معادية لطريقة الحياة الديمقراطية.

الحواجز على جبهتين

يجب إعادة تشكيل التناغم الداخلي بين التكيف الاجتماعي وتأكيد الذات في كل بيئة جديدة. يجب على كل فرد أن يقاتل مراراً وتكراراً نفس المعركة الدقيقة التي بدأت خلال مرحلة الطفولة والطفولة. النفس ، النفس ، تشكل نفسها من خلال المواجهة مع الواقع. معارك الامتثال مع الأصالة ، والاعتماد على الاستقلال ، والانضباط الخارجي مع المعنويات الداخلية. لا يمكن لأي ثقافة الهروب من هذه المعركة الإنسانية الداخلية ، على الرغم من وجود اختلاف في التركيز في كل ثقافة ومجتمع وفي كل عائلة.

ولذلك ، فإن الجمع بين الصراع الداخلي والخارجي ، والصراع العقلي على جبهتين ، يجعل المثالية الغربية للديمقراطية الفردية ضعيفة للغاية ، وخاصة عندما لا يكون أتباعها على علم بهذا التناقض المتأصل.

كما وسيكون على الديمقراطية ، بطبيعتها نفسها ، ودائما ، محاربة الدكتاتورية من الخارج ، وبدون تدمير.

فعلى الحرية الديمقراطية أن تحارب الإرادة الداخلية للفرد في السلطة ، وفي حريته على الخضوع لأشخاص آخرين. كما ويتعين عليها أن تحارب الحملة المعادية للقوة المتطفلة من فوق الحدود ، وغالبا ما تدعمها الجيوش.

كما أن الحرية التي تسعى إليها الديمقراطية ، ليست تلك الحرية الرومانسية لأحلام للمراهقين. انها واحدة من مكانة ناضجة. كما وتصر الديمقراطية على التضحيات الضرورية للحفاظ على الحرية. فهي تحاول محاربة المخاوف التي تهاجم الناس عندما يواجهون الحد غير المحدود للحرية على ما يبدو.

ويمكن إساءة استخدام مثل هذا القصور من أجل إرضاء مجرد دوافع غريزية. بيد أنه ، ومع ذلك ، ولأن الديمقراطية لا تستغل الإنسان بالخرافة ، أو بالسحر البدائي ، أوعن طريق التنويم المغناطيسي الجماعي ، أو وسائل الإغواء النفسية الأخرى ، فهي أقل إثارة للفرد غير الناضج من السيطرة الديكتاتورية.

كما أن الديمقراطية ، وعندما لا تكون متورطة في صراع دراماتيكي من أجل البقاء ، قد تبدو باهتة وغير ملهمة. إنها ببساطة تتطلب أن يفكر الناس ، ويحكمون أنفسهم. في حين أن كل فرد سوف يمارس كامل قدرته الواعية في التكيف مع عالم متغير ؛ وأن الرأي العام الحقيقي سيشكل القوانين التي تحكم المجتمع.

وأساسا ، تعني الديمقراطية الحق في تطوير نفسك ، وعدم السماح بتطويرها من قبل الآخرين.

ومع ذلك ، فإن هذا الحق هو مجرد مثال واحد آخر ، والذي يجب أن يكون متوازنا من خلال الواجب.

كما أن الحق في تطوير نفسك سيكون مستحيلا بدون واجب إعطاء طاقتك واهتمامك بتنمية الآخرين.

فالديمقراطية متجذرة ليس فقط في الحقوق الشخصية للإنسان العادي ، ولكن أيضا في المصالح الشخصية ومسؤوليات الانسان العادي.

ولكن ، وعندما يفقد اهتمامه بالسياسة والحكومة ، فإنه يساعد في تمهيد الطريق لسياسة القوة. في حين تتطلب الديمقراطية نشاطاً عقلياً ، وبمستوى عالٍ من الانسان العادي.

وهكذا ، فإن ما يستخلصه الجمهور العام ويستوعبه في ذهنه هو ، في عصرنا الجديد ، من الاتصال الجماهيري ، ولكنه بنفس أهمية إملاءات الخبراء.

ولكن إذا كانت تلك الاملاءات قدرة على صياغة ، وتوصيل الأفكار إلى أبعد من الفهم المشترك ، فسوف يتحدثون إلى فراغ.

ولذا ، يمكنهم السماح لإيديولوجية أكثر بساطة ، وحتى غير حقيقية بالانزلاق نحوها.

ولذلك ، فلا يكفي أن تتم صياغة فكرة وطباعتها فقط ؛ إذ علينا أن نهتم بأن الجمهور ، يمكن أن يشارك في المفهوم الجديد.

وهكذا ، فإن سر الحرية هو وجود ذلك الحب العظيم للحرية! وأولئك الذين تذوقوا ذلك ، لن يترددوا في السعي لتحقيقه. فالإنسان قد يثور ضد الضغوط غير العادلة.

وبينما يتراكم الضغط ، فإنه يثور في صمت ، ولكن في لحظة حرجة ، ينفجر إلى ثورة مفتوحة.

وبالنسبة لأولئك الذين عاشوا مثل هذا الغضب ، فإن الحرية بالنسبة إليهم تعني الحياة نفسها.

وقد تعلمنا هذا بشكل خاص في أيام الاضطهاد والاحتلال ، وفي باطن الأرض ، وفي مخيمات الاعتقال ، وتحت تهديد الديماغوجية.

كما يمكننا حتى اكتشافه في الدول الاستبدادية حيث ، مع ذلك ، يوجد الإرهاب ، وتستمر المقاومة.

تعود جذور الحرية واحترام الفرد إلى العهد القديم ، والذي أقنع الانسان بأن يصنع تاريخه الخاص ، وبأنه مسؤول عن تاريخه.

كما أن مثل هذه الحرية ، تعني ضمناً ، أن الشخص سيبتعد عن جموده ، وبأنه لا يتمسك بالتقاليد بشكل تعسفي ، وبأنه يسعى إلى المعرفة ، ويقبل المسؤولية الأخلاقية.

كما أن الخوف من الحرية هو الخوف من تحمل المسؤولية.

ولكن لا يمكن أبداً ، حماية الحرية تماماً من خلال القواعد والقوانين. لأنها تعتمد ، وبقدر كبير ، على شجاعة ونزاهة ومسؤولية كل واحد منا ، وكما هو على هذه الصفات في أولئك الذين يحكمون.

وهكذا ، فإن كل سمة فينا ، وفي قادتنا ، تشير إلى الخضوع السلبي ، وإلى مجرد القوة التي تخون الحرية والديمقراطية.

كما أنه ، وفي نظامنا الأميركي للحكم الديمقراطي ، هناك ثلاثة فروع قوية مختلفة ، تفحص ، وتختبر بعضها البعض ، وهي السلطة التنفيذية ، والتشريعية ، والقضائية.

ومع ذلك ، فعندما لا تكون هناك إرادة لمنع تعدي سلطة أحد على الآخرين ، فإنه يمكن لنظام الضوابط هذا أن يتدهور.

وليصبح مثلهم في ذلك كمثل المراهقين الذين يحاولون الاختباء وراء مآزر سلطة الوالدين ، وذلك بدلاً من مواجهة مرحلة البلوغ الناضجة ، فقد ينكمش أعضاء فرديون في دولة ديمقراطية عن النشاط العقلي الذي يفرضه.

ولأنهم يتوقون طويلا ليعودوا إلى حالة من الأمن الطائش. ولذلك ، فهم غالباً ما يفضلون الحكومة ، أو بعض التجسيد الفردي للدولة ، في حل مشاكلهم بالنسبة لهم.

وهذه الرغبة بالذات ، هي التي تصنع الشموليين ، والامتثال ، والخضوع.

وكمثل الرضيع ، الذي يمكنه الامتثال إلى النوم بهدوء ، ونقل كل مخاوفه إلى ولاية الأب. وعندما يفقد المثقفون سيطرتهم على أنفسهم ، وشجاعتهم ، ولا يملكون إلا مخاوفهم وعواطفهم ، فإن قوة أولئك الذين يعانون من التحيز والغباء ، سوف تصبح مكتسبة في شخصياتهم.

وبما أن كل واحد منا يكمن في بذور الديمقراطية والشمولية ، فإن الصراع بين الديمقراطية والموقف الشمولي يتكرر مراراً وتكراراً من قبل كل فرد ، وخلال حياته. كما وستحدد وجهة نظره الخاصة عن نفسه ، وعن ورفاقه ، وعن عقيدته السياسية. وبالتالي ، فإن التعايش مع رغبة الإنسان في الحرية والنضج ، هو التدمير ، والكراهية ، والرغبة في السلطة ، ومقاومة الاستقلال ، والرغبة في التراجع إلى طفولة غير مسؤولة.

فالديمقراطية تناشد فقط الشخص البالغ من البشر ؛ في حين تجذبه الفاشية والشمولية نحو رغباته الطفولية ، وغير المسؤولة.

تقوم الشمولية على رؤية ضيقة ، وميكانيكية للبشرية. كما إنها تنكر تعقيدات الفرد ، والنضال بين دوافعه الواعية وغير الواعية. وتنكر الشك والتناقض ، وتناقض المشاعر. ولذلك ، فهي تبسط كينونة الانسان ، مما يجعله في آلة يمكن وضعها للعمل ، من قبل النظام الحكومي.

بيد أنه ، وفي كل علاج تحليلي ، تأتي لحظة يجب على المريض فيها أن يقرر فيها ما إذا كان سيتجاوب للعلاج أم لا.

كما يجب ترجمة المعرفة والبصيرة التي اكتسبها الانسان إلى عمل. وفي هذا الوقت ، فسيعرف المزيد عن نفسه. وقد أصبحت حياته كتاب مفتوح بالنسبة لها.

وعلى الرغم من أنه يفهم نفسه بشكل أفضل ، إلا أنه يجد صعوبة في ترك أرض الأحلام في طفولته ، مع أوهامه ، وعبادة البطل ، ونهاياته السعيدة.

و لكن ، وكما يجب أن يكون مدعما بفهم أعمق لدوافعه الداخلية ، فإنه يتدخل في عالم المسؤولية المختارة ذاتيا والحرية المحدودة. ولأن صورته عن العالم لم تعد مشوهة بأوقات الشوق غير الناضجة ، فهو الآن قادر على العمل بها كبالغ ناضج.

كما أن التعليم المنظم نحو الحرية ممكن. وذلك لأن الحرية تنمو كسيطرة محركات داخلية مدمرة ، ولكنها أصبحت داخلية ولم تعد تعتمد على السيطرة من الخارج ، ولا على السيطرة من قبل الآباء والسلطات.

إنه بسبب بناء شخصيتنا وضميرنا - الأنا والأناقة - وهذا أمر مهم.

ولكن لا يمكن تحقيق هذا التطور بطريقة قسريّة وقهريّة ، و لا مع محاولة الطغاة والديكتاتوريين القيام به.

وبالتالي ، يجب أن نطورها من خلال القبول الحر ، أو رفض القيم الأخلاقية الحالية ، حتى يكون الشخص الأخلاقي فينا قوياً ، ولدرجة أنه يصبح قادرا على

تجاوز القيم القائمة ، ويمكن أن يقف على أساسه الأخلاقي.

في حين إن الخيار المؤيد للحرية ، يكمن بين القيد المختار ذاتيا-التحرر من الفوضى-والحرية الزائفة للخواطر غير الواعية.

في حين أنه ، وبالنسبة لكثير من الناس ، فإن الحرية هي مفهوم عاطفي يتمثل في السماح لأنفسهم بالذهاب قدما ، وهو ما يعني حقاً دكتاتورية من خلال محركات غامضة ، وغير واضحة.

كما أن هناك أيضا مفهوم فكري للحرية ، وهذا يعني وجود قيود على العبودية.

ومن أجل نيل الحرية ، فيجب منع بعض الظروف الخارجية من إعاقة هذا التطور الأخلاقي للسيطرة على النفس. ويجب أن نكون واعين ، وبشكل متزايد للأخطار الداخلية للديمقراطية: التراخي والكسل وعدم الوعي.

كما يجب أن يكون الناس على دراية بميل التكنولوجيا لأتمتة عقولهم. وبالتالي ، فعليهم أن يدركوا حقيقة أن الإعلام الجماهيري والتواصل الحديث ، قادران على طبع جميع أنواع الاقتراحات في أذهاننا.

وعليهم أن يعرفوا أيضا بأن التعليم يمكن أن يحولنا إما إلى مصانع حقيقة ضعيفة ، أو إلى شخصيات قوية.

كما يجب على الديمقراطية الحرة أن تحارب المستوى المتوسط حتى لا يتم خنقها بمجرد عدد الأصوات الانتخابية الأوتوماتيكية.

ولذلك ، تتطلب الحرية الديمقراطية تقييماً وفهماً ذكياً للغاية للنظام الديمقراطي نفسه. وهذه الحقيقة تجعل من الصعب علينا الإعلان أو "الترويج" لها.

وعلاوة على ذلك ، فإن غرس الديمقراطية لا يقل خطورة عن إغراق الشمولية. في حين أن جوهر الديمقراطية هو أنه يجب أن يتم اختيارها بنفسها ، ولا يمكن فرضها.

تناقضات الحرية

الحرية والتخطيط لا يقدمان تناقضات جوهرية. ولذلك ، فمن من أجل السماح للحرية بالنمو ، علينا أن نخطط لسيطرتنا على القوى التي تحد من الحرية. بل وأبعد من هذا ، يجب أن يكون لدينا الشغف والحرية الداخلية لمقاضاة الذين ينتهكون الحرية.

كما ويجب أن يكون لدينا الحيوية اللازمة لمهاجمة أولئك الذين يرتكبون الانتحار العقلي ، والقتل النفسي من خلال إساءة استخدام الحريات ، وجرّاً الآخرين في أعقابها.

في حين أن تقديم الانتحار هو نوع من التخريب من الداخل ؛ إنه استسلام سلبي لعالم ميكانيكي بدون شخصيات.

وهذا هو ما يدعى إنكار الشخصية.

كما ويجب أن يكون لدينا الحماس للوقوف ، ويحزم من أجل حرية الفرد ، والتسامح والكرامة المتبادلة ، ويجب أن نتعلم عدم التسامح مع تدمير هذه القيم.

وبالإضافة إلى ذلك ، فيجب ألا نتسامح مع أولئك الذين يستخدمون الأفكار والقيم القيمة فقط لتدميرهم بمجرد وصولهم إلى السلطة.

ويجب أن نكون غير متسامحين مع هذه الانتهاكات طالما أن المعركة من أجل الحياة العقلية أو الموت ستستمر.

كما ولا يمكن التأكيد بشدة على أن الحرية ممكنة فقط مع مجموعة قوية من المعتقدات والمعايير الأخلاقية.

وهذا يعني أن الانسان يجب أن يلتزم بقواعد ضبط النفس–والقواعد الأخلاقية–من أجل الحفاظ على حريته.

فعندما يكون هناك نقص في مثل هذه الفحوصات الداخلية ، بسبب نقص التعليم ، أو التعليم النمطي ، يصبح الضغط الخارجي ، أو حتى الطغيان ، ضرورياً لفحص محركات العمل غير الاجتماعية. ومن ثم تصبح الحرية ضحية

لعجز الانسان عن العيش بحرية ، وضبط النفس.

كما ويجب ضمان حق الإنسان في عدم سماعه ، وعدم الامتثال له ، والحق في الدفاع ضد الهجوم النفسي ، وضد التدخل في شكل الدعاية الجماهيرية المنحرفة ، والضغط الاستبدادي ، والتعذيب العقلي.

في حين أنه من غير الممكن التوصل إلى حل وسط ، أو إلى مصالحة في التعامل مع مثل هذه المواقف.

لذا ، علينا أن نراقب ، وبعناية ، حتى تصاب أخطائنا في مهاجمة الحرية الشخصية ، بمطاحن الشموليين. وحتى يكون لشجبنا تأثير متناقض.

فالخوف والهستيريا لن يؤديا إلا إلى المزيد من الشمولية والاستبداد.

ولذلك ، فإن ما نحتاجه هو التحليل الدقيق ، وفهم هذه الظواهر.

فالديموقراطية هي حكم كرامة الإنسان ، وحقه في التفكير بنفسه ، ولنفسه ، والحق في أن يكون له رأيه الخاص - وأكثر من ذلك ، الحق في تأكيد رأيه الخاص ، وحماية نفسه ، ضد الغزو الذهني ، وضد سلطة القوة.

عندما وضعت منظمة الأمم المتحدة قواعد تقليص العقلية والتطفل النفسي ، فسيكون لها الحق الشرعي في أن تكون مستقلة ، وفي حق الفرد الحر غير المطابق.

كما أن التسامح من النقد ، والبدع قد أصبح واحدة من شروط الحرية.

وهنا نتطرق إلى نقطة حاسمة أخرى ، تتعلق بتقنية حكم الناس. فهناك علاقة بين الإفراط في المركزية في الحكومة والمشاركة الجماهيرية ، وبين الشمولية الاستبدادية.

فالمشاركة الجماعية والحكومة ، من دون اللامركزية ، وقيم الاختلاف والتفرد ، ودون إمكانية الاختيار السليم للقادة ، سيسهل في إنشاء الزعيم الديكتاتوري. ومن ثم تنقل الجماهير رغبتها في الحصول على السلطة. في حين يشارك العبد بطريقة سحرية في مجد السيد.

كما يتم تحديد الحكم الذاتي الديمقراطي من خلال ضبط النفس والقيود

الذاتية ، ومن خلال الروح الرياضية والإنصاف ، ومن خلال الالتزام الطوعي لقواعد المجتمع والتعاون. في حين أن هذه الصفات تأتي من خلال التدريب.

كما أنه في حكومة ديمقراطية ، فإن أولئك الذين تم انتخابهم لمناصب مسئولة ، يحتاجون إلى ضوابط وقيود ضد أنفسهم ، مع العلم بأن لا أحد بدون خطأ.

فالديمقراطية ليست صراعا من أجل الاستقلال ، بل هي علاقة تكافلية متبادلة التنظيم. كما أن الديمقراطية تعني التحقق من ميل الانسان لجمع سلطة غير محدودة لنفسه. وتعني التحقق من الأخطاء في كل واحد منا. والتقليل من عواقب قيود الانسان أيضا.

العصر المستقبلي لعلم النفس

دعوني أكرر ما قلته في بداية هذا الكتاب. وهو أن التقنيات الحديثة لغسل الأدمغة والتشويه العقلي-تلك الانحرافات في علم النفس-يمكن أن تجلب أي شخص تقريباً إلى الخضوع والاستسلام.

وقد كان العديد من ضحايا ضبط الفكر ، وتشويه العقل ، وغسيل الأدمغة ، والتي تحدثنا عنها ، من الرجال الأقوياء ، والذين تم كسر عقولهم ، وأفكارهم ، وأحلامهم ، وتدهوره أوضاعهم على كافة الأصعدة.

ولكن على الرغم من أن الشموليين قد جدّوا في استخدام معرفتهم حول العقل لأغراض شريرة ، وكانوا في ذلك عديمي الضمير ، فيمكن لمجتمع ديمقراطي أن يستخدم المعرفة لمساعدة الانسان في نمو قدراته ، ولحراسة حريته ، وفهم كنه نفسه ، وكيانه.

كما يمكن للمعرفة النفسية ، والمعالجة النفسية أن تولّد في حد ذاتها موقفاً ديمقراطياً ؛ فعلم النفس هو في الأساس علم الوسط الشرعي ، من الاختيار الحر في إطار القيود الشخصية والاجتماعية للإنسان.

وبالمقارنة مع مليون سنة مرت على وجود الإنسان وتطوره ، فإن الحضارة البشرية لا تزال في مهدها.

ولكن ، وعلى الرغم من الانتكاسات التاريخية ، يستمر الإنسان في النمو ، وسيصبح علم النفس ، مهما كان غير مثالي الآن ، أحد أقوى أدوات الانسان في نضاله ، من أجل الحرية والنضج الانساني.

مسرد المراجع:

"Admissibility of Results of Lie-Detector and Truth Serum Tests" (Oklahoma Court), Journal of American Medical Association, Vol.133, 1951.

Ahrendt, H., The Origin of Totalitarianism. New York, Harper & Brothers, 1950.

Almond, G. A., and others, The Appeals of Communism. Princeton, Princeton University Press, 1954.

Asch, S. E., "Opinions and Social Pressure," Scientific American, Vol. 193, 1955.

Ashby, W. R., Design for a Brain. New York, John Wiley & Sons, Inc., 1952.

Aspaturian, V., "What Do the Communists Mean by 'Peaceful Coexistence'?" The Reporter, 1955.

"Automation Is Here," Democratic Digest, 1955.

Baschwitz, K., Du Und Die Masse. Amsterdam, Elsevier, 1937.

Bauer, R. A., The New Man in Soviet Psychology. Cambridge, Harvard University Press, 1952.

Beck, F., and Godin, W., Russian Purge and the Extraction of Confession. New York, Viking Press, Inc., 1950.

Beer, M., "The Battle for Man's Rights," United Nations World, I95°

Bergler, E., The Battle of the Conscience. Washington, D. C., Washington Institute of Medicine, 1948.

The Superego—Unconscious Conscience. New York, Grune & Stratton, Inc., 1952

Boeree, T. A., The Sinister History of Christiaan Lindemans, Alias King Kong. Unpublished manuscript.

Bonhoeffer, W., and Zutt, G., "Uber den Geisteszustand des Reichstagsbrandstifters Marinus Van Der Lubbe," Monatschrift für Psychiatrie, Vol. 89, 1934.

Burney, C., The Dungeon Democracy. New York, Duell, Sloan and Pearce, 1951.

Byfield, R. S., Logocide, The Fifth Weapon. New York, Privately printed, 1954.

Cantril, H., Gaudet, H., and Herzog, H., The Invasion from Mars. Princeton, Princeton University Press, 1940.

Commager, H. S., "The Real Danger—Fear of Ideas" The New York Times Magazine, June 26, 1949.

The Convention on Genocide. Lake Success, N. Y., United Nations Department of Public Information, 1949.

Dicks, H. V., "Observations on Contemporary Russian Behavior," Human Relations, Vol. 5, 1952.

Dobrogaev, S. M., Speech Reflexes (translated and digested from the Russian). New York, National Committee for a Free Europe, 1953.

"Document on Terror," News from Behind the Iron Curtain,Vol.1, 1952.
Dooren, L., Dr. Johannes Wier. Salten, Holland, De Graafschap, 1940.
Ferenczi, S., "Stages in the Development of the Sense of Reality," in An Outline of Psychoanalysis. New York, Modern Library, 1925
Frazer,J.G.,The Golden Bough.New York,The Macmillan Company, 1947.
Freud, A., The Ego and the Mechanisms of Defense. New York, International Universities Press, Inc., 1946.
Freud, S., Basic Writings. New York, Modern Library, 1946.
Fried, J. H. E., Les Methodes et les procedes du fascisme. [Paris], United Nations Educational, Social and Cultural Organization, 1949.
Fromm,E.,Escape from Freedom. New York,Farrar&Rinehart,Inc.,1941.
Gallery,D.V.,"We Can Baffle the Brainwashers!"Saturday Evening Post, 1955.
Gilbert, G. M., The Psychology of Dictatorship. New York, The Ronald Press Company, 1950.
Gonzales, V., and Gorkin, J., El Campesino: Life and Death in Soviet Russia. New York, G. P. Putnam's Sons, 1952.
Haggerty, J. J., Jr., "Think or Die," Collier s, 1955.
Heiden, K., "Why They Confess," Life Magazine, 1949.
Heller,E.L.,"Thought I'd Never Get Home,"Saturday Evening Post, 1955.
Herling, G., A World Apart. New York, Roy Publishers, 1952.
Heron, W. Time, 1954.
Hershey, B., "The Sick Men Who Rule the World," The Nation, 1949.
Hill, G., "Brain-Washing: Time for a Policy," Atlantic Monthly, 1955.
Hitler, A., Mein Kampf. Boston, Houghton Mifflin Company, 1943.
Hook, S., "Why They Switch Loyalties," The New York Times Magazine, Nov. 26, 1950.
Horsley, Gantt W., "Bolshevik Principles and Russian Physiology," Bulletin of the Atomic Scientists, Vol. VIII, 1952.
Hsu,F.L.K.,"Suppression Versus Repression,"Psychiatry,Vol. XII, 1949.
Hunter, E., Brain-Washing in Red China: The Calculated Destruction of Mens Minds. New York, The Vanguard Press, 1951.
"Government by the Insane," The Freeman, 1953.
Huxley,A., The Devils of Loudun. New York, Harper & Brothers, 1952.
The Doors of Perception. New York, Harper & Brothers, 1954
Jong, L. de, The German Fifth Column in the Second World War. Chicago, The University of Chicago Press, 1956.
Kafka, F., The Trial. New York, Alfred A. Knopf, Inc., 1937.
Kalme,A.,Total Terror. New York,Appleton-Century-Crofts, Inc., 1950.
Karp, D., One. New York, The Vanguard Press, 1953.
Kayman,G., "Forensic Psychiatry," American Journal of Psychotherapy, Vol. VIII, 1954.
Kisker, G. W., World Tension: The Psychopathology of International Relations. New York, Prentice-Hall, Inc., 1950.
Krugman, H. E., "The Role of Hostility in the Appeals of Communism in the United States," Psychiatry, Vol. I, 1953.
Lassio, S., "La Verite sur la condamnation du Cardinal Mindszenty," Le Figaro, 1950.

Lasswell, H. D., "The Strategy of Soviet Propaganda," Proceedings of The Academy of Political Science (Columbia University), Vol. XXIV, 1951.
Lea, C. H., The Inquisition of the Middle Ages. New York, The Citadel Press, 1954.
Lehmann-Haupt, H., Art Under a Dictatorship. New York, Oxford University Press, 1954.
Leites, N.,and Barnart, E.,Ritual of Liquidation. Glencoe,111.,Free Press, 1954.
Little,A.M. G.,"Pavlov and Propaganda,"Problems of Communism, Vol. II, 1953.
London,T.D.,"The Scientific Council on Problems of the Physiological Theory of Academician I.P.Pavlov:A Study in Control,"Science,Vol. 116, 1952.
Luther, R. H., American Demagogues—Twentieth Century. Boston, Beacon Press, 1954.
MacDonald, D., "The Lie-Detector Era," The Reporter, 1954.
MacDonald, J. M., "Narcoanalysis and Criminal Law," American Journal of Psychiatry, Vol. 111, 1954.
Malinowski, B., Magic, Science and Religion, New York, Doubleday & Company, Inc., 1954.
Mayo, C. W., Speech before the Security Council of the United Nations, Oct. 26, 1953.
"Medecine, quatrieme pouvoir?" Esprit, 1950.
Meerloo, J. A. M., "Die Abwehrreaktionen des Angstgefühls," Zeitschrift fur die gesamte Neurologie und Psychiatrie, Vol 133, 1931.
Conversation and Communication, New York, International Universities Press, Inc., 1952.
"The Crime of Menticide,"American Journal of Psychiatry,Vol.107, 1951.
Delusion and Mass-Delusion. New York, Nervous and Mental Disease Monographs, 1949.
"Democracy and Fascism Within Us," in Total War and the Human Mind. New York, International Universities Press, Inc., 1945.
"International Law and Morality," New Europe, 1945.
"Living by Proxy," American Journal of Psychotherapy, Vol. 11, 1953.
'The Monument as a Delusional Token," American Imago, 1954.
"Morale," Military Review, 1954.
"The Psychology of Treason and Loyalty," American Journal of Psychotherapy, Vol. VIII, 1954.
"Television Addiction and Reactive Apathy," Journal of Nervous and Mental Diseases, Vol. 120, 1954.
"Thought Control and Confession Compulsion," in Explorations in Psychoanalysis. New York, Julian Press, Inc., 1953.
"Treason and Traitors," in Aftermath of Peace. New York, International Universities Press, Inc., 1946.
The Two Faces of Man. New York, International Universities Press, Inc., 1954.
Miller,W. L.,"Can Government be Merchandised?" The Reporter, 1953.
Mitscherlich, A., and others, Doctors of Infamy: The Story of the Nazi Medical Crimes. New York, Henry Schuman, Inc., 1949.

Moloney, J. C., "Psychic Self-Abandon and Extortion of Confessions," International Journal of Psychoanalysis, Vol. 36, 1955.

"A Study in Neurotic Conformity: The Japanese," Complex, 1951.

Understanding the Japanese Mind.New York, Philosophical Library, 1954.

Newman, C. L., "Trial by Jury Outmoded," Science News Letter, 1955.

"No Bands Playing: Colonel Arnold's Story," Time, 1955.

Pavlov, I. P., Conditioned Reflexes and Psychiatry. New York, International Publishers Company, 1941.

Peck, D. W., "Do Juries Delay Justice?" The New York Times Magazine, Dec. 25, 1955.

"People v. Leyra," North Eastern Reporter, Second Series, 1951.

Piaget, J., The Language and Thought of the Child. New York, Noonday Press, 1955.

Prychodke, N., One of the Fifteen Million. Boston, Little, Brown and Company, 1952.

Razran, G. Science News Letter, 1954.

Reik, T., Gestandniszwang und Strafbedurfnis. Zurich, International Psychoanalytischer Verlag, 1925.

The Unknown Murderer. New York, International Universities Press, Inc., 1949.

"Report on Vogeler," The New York Times, April 29, 1951.

Richter, C. P., "Civilized Life Affects Combat Stress," Science News Letter, 1954.

Ross, L., "Red China's Dope Peddlers," The New Leader, 1954.

Rostow, W. W., and others, The Dynamics of Soviet Society. New York, New American Library, 1954.

Rousset,D., The Other Kingdom. New York, Reynal & Hitchcock, 1947'

Rud, F., "The Social Psychopathology of Schizophrenic States," Journal of Clinical and Experimental Psychopathology, Vol. 12, 1951.

Samuels, G., "American Traitors," The New York Times Magazine, May 22, 1949.

Santucci, P. S., and Winokur, G., "Brainwashing as a Factor in Psychiatric Illness: An Heuristic Approach," Archives of Neurology and Psychiatry, Vol. 74, 1955.

Schultz,H.H.,Das Autogene Training. Stuttgart,Georg ThiemeVerlag, 1934.

"The Schwable Case," The New York Times, March 10-11, 1954.

"The Schwable Case," The Reporter, 1954.

Segal, H. A., "Initial Psychiatric Findings of Recently Repatriated Prisoners of War," American Journal of Psychiatry, Vol. 111, 1954.

Shipkov,M., Bulletin of the State Department [Washington, D.C.], 1950.

Siegel, V., "College Freedoms Being Stifled by Students' Fear of Red Label," The New York Times, May 10, 1951.

"Soviet Expunging West's Psychiatry,"The New York Times,Oct.16, 1951.

Spence, K. W., and Farber, I. E., "Conditioning and Extinction as a Function of Anxiety," Journal of Experimental Psychology, Vol. 45, 1953.

Sperling, G. E., "The Interpretation of the Trauma as a Command," Psychoanalytic Quarterly, Vol. 19, 1950.

Strassman, H. D., and others, "A Prisoner of War Syndrome: Apathy as

a Reaction to Severe Stress," Paper read at American Psychiatric Association, May 9-13, 1955.
Swift, S. K., The Cardinal's Story. The Macmillan Company, 1949.
Taylor, A.J. P., "The Judgment of the Diplomats," The Saturday Review, 1954.
Taylor, E., The Strategy of Terror. New York, Houghton Mifflin Company, 1942.
Tyler, D. B., "Psychological Changes During Experimental Sleep Deprivation," Diseases of the Nervous System, Vol. 16, 1955.
Universal Declaration of Human Rights. Lake Success, N. Y., United Nations Department of Public Information, 1949.
Vogeler, R. A., I Was Stalin's Prisoner. New York, Harcourt, Brace & Company, Inc., 1952.
Waelder, R., "Authoritarianism and Totalitarianism," in Psychoanalysis and Culture. New York, International Universities Press, Inc., 1951.
Walker, R. L., "Psychological Control" in China Under Communism, New Haven, Yale University Press, 1955.
Weissberg, A., The Accused. New York, Simon & Schuster, Inc., 1951.
West, R., The Meaning of Treason. New York, Viking Press, Inc., 1947.
Weyl, N., Treason. Washington, D. C., The Public Affairs Press, 1950.
Wier,Johannes,De Praestigiis Daemonum. Basel, Per J Oporinum, 1563.
Winokur, G., "Brainwashing, A Social Phenomenon of Our Time," Human Organization, Vol. 13, 1955.
"The Germ Warfare Statements," Journal of Nervous and Mental Diseases, Vol. 122, 1955.
Wortis, J., "Some Recent Developments in Soviet Psychiatry," American Journal of Psychiatry, Vol. 109, 1953.
Yen,M.,The Umbrella Garden. New York,The Macmillan Company, 1954.
Zimmering, P., and others, "Heroin Addiction in Adolescent Boys," Journal of Nervous and Mental Diseases, Vol. 114, 1951.

نبذة عن المترجم

ادهم وهيب مطر

أديب ومترجم من القطر العربي السوري.

- أستاذ محاضر في جامعة دمشق.
- عضو في اتحاد الكتاب العرب.
- عضو الاتحاد اللبناني للترجمة.
- عضو في أكثر من جمعية وهيئة أدبية وإعلامية.
- عضو الاتحاد الدولي للترجمة.
- عضو المجمّع الدولي أدباء بلا حدود.
- كاتب وباحث في مركز الدراسات العربية.
- مستشار إدارة الجودة في الترجمة الاحترافية.

❖ **الأعمال الأدبية والفكرية:**

❖ **في الشعر:**

- صدر له أربع مجموعات شعرية:
- اعترافات ناقصة.
- تراتيل في محراب العشق.
- مراثي النورس الأبيض.
- ترانيم على وتر الهجرة.

مجموعة في ديوان بعنوان "تقاسيم على ناي مكسور"

- ديوان شعر بعنوان "فوق خط الموت تحت خط العشق"

❖ **في القصة:**

- مجموعتان قصصيتان وهما بعنوان:
- الميت الذي عاد(فازت بجائزة الأديب حنا مينا للإبداع الأدبي).
- صحوة ضمير.

❖ **الكتب المترجمة:**

- تاريخ الشرق الأوسط.
- جنس العقل.
- الوعي الكوني.
- التلقين.
- فهم الحرب.
- كيف يكسب الضعفاء الحروب.
- فهم الشخصية البشرية.
- النظام الغذائي وفقاً لنمط الشخصية
- راقص التانغو المنفرد.
- العهد(رواية).
- دماء متناثرة.
- أمواج التغيير العظيمة.
- موسوعة المعرفة الكونية.
- كتاب آلاترا.
- جزيرة العرب مهد الإسلام.
- الإرهاب والتنوير، تاريخ عمره ثلاثة آلاف عام.
- اغتصاب العقل.
- عشرات الكتب التخصصية.

❖ **الدراسات والمقالات:**

- دراسات حول الترجمة والحركة الثقافية والفكرية للفكر المُترَجَم.
- دراسات وأبحاث في العلوم والآداب الإنسانية.
- مقالات منوعة، ومقالات مترجمة في الصحف (المحلية والعربية والدولية).

سيرة المؤلف الذاتية

ولد الدكتور مريلو إبراهام موريتس ميرلوJOOST A.M.MEERLOO، M.D.
"في عام ١٩٠٣ في مدينة لاهاي، هولندا، حيث تلقى تعليمه المبكر.
ثم حصل على درجة الدكتوراه من جامعة"لا يدن" في عام ١٩٢٧ ومن جامعة"اوتريخت" عام١٩٣٢.

وقد خدم بين عامي١٩٢٨ و١٩٣٤ كمدرس وطبيب نفسي في العديد من المستشفيات. وفي العام الأخير، دخل في الممارسة الخاصة في العلاج النفسي والتحليل النفسي في لاهاي، حيث عمل ايضاً مستشاراً نفسياً لدى المحكمة الملكية والوكالات الحكومية.

وتحت الاحتلال النازي لهولندا، استطاع الدكتور ميرلو أن يراقب، وعن كثب أساليب التعذيب النفسي والاستجواب القسري الموصوفة في هذا الكتاب.

ثم، وفي عام١٩٤٢ هدد بالقتل من قبل قوات الاحتلال الألمانية في هولندا، فهرب إلى إنجلترا، حيث شغل منصب جنرال، ورئيس الإدارة النفسية للجيش الهولندي. ولمدة عامين، وذلك قبل سفره إلى الولايات المتحدة في عام١٩٤٦ حيث شغل منصب المفوض السامي لشؤون الرفاهية لحكومة هولندا، وحيث عمل أيضاً كمستشار نفسي لدى عدة مؤسسات وهيئات.

وقد حصل الدكتور ميرلو خلال حياته وخدماته على العددي من الجوائز والميداليات والتكريم، وعلى الصليب الذهبي للخدمة المتميزة في عام١٩٤٣.

ومنذ استقراره في نيويورك، قام بالتدريس في العديد من المدارس، وأجرى الممارسات الخاصة للعلاج النفسي، والتحليل النفسي.

ومن ثم أصبح من مواطني الولايات المتحدة في عام١٩٥٠. بعد حصوله على الجنسية الأمريكية، وهو عضو فخري، وزميل في العديد من الجمعيات المهنية.

وقد بلغت مؤلفاته أكثر من ثلاثة عشر كتاباً، ومن بينها:

- الحرب النهائية الشاملة.
- العقل البشري.
- أنماط الذعر.
- المحادثة والاتصال.
- للإنسان وجهان.
- اغتصاب العقل.
- التوجيه في عصر التكنولوجيا.
- الانتحار، والانتحار الجماعي.
- المناولة المخفية.
- دراسة تحليلية نفسية للثقافة والحرف.
- الإبداع والتأقلم: مقالات عن الغريزة الإبداعية.
- على طول البعد الرابع: إحساس الإنسان بالزمن والتاريخ.
- اتصال غير مزعج. مقالات في علم اللغة النفسي
- أكثر من مائتي مقال في كل من المجلات العلمية والشعبية.

وهو أيضا كاتب متميز، وكمحرر ومراجع كتب مشهور.



د. جوست

اغتص

سيكولوجيا التحكم في

أ

د. جوست إبراهام ماوريتز ميرلو

اغتصاب العقل

ترجمة
أدهم وهيب مطر



شري الحر إلى آلة استجابة
بعض الثورات الثقافية في
دة، وسواء كانت من أجل

في، يُعتبران من بين أقدم

ك عندما اكتشف الإنسان،
سانية، من أجل التعاطف
من البشر.
صاحب الإنجازات البارزة.
حث ودراسة نفسية، ولذلك
جي آثار الحروب النفسية،
ماغ التي تم استكشافها في

طاق أثراً في الكتابات حول
راض العاطفية، والظواهر
والرقص، والتواصل بين
المواضيع الأخرى.
مؤلف تلك الأعمال ظل في

المترجم


ISBN 978-9933-597-86-3
9 789933 597863 >